جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري

إعداد الطالب
أكرم محمد العسوفي

إشراف
الدكتور فايز القيسي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب أكرم محمد العسوفي الموسومة بـــ:

البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اللغة العربية**.

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
د. فايز القيسي		2005/12/26	مشرفاً ورئيسا
أ.د. صلاح جرار		2005/12/26	عضواً
أ.د. أنور أبو سويلم		2005/12/26	عضواً
أ.د. جهاد المجالي		2005/12/26	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. أحمد القطامين

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهــداء

أهدي ثمرة هذا الجهد إلى, والدي العزيز.. بارك الله في عمره, وإلى روح والدتي الغالية, وإلى إخوتي وأخواتي,..راجيا القبول.

أكرم العسوفي

الشكر والتقدير

لا بد من كلمة شكر إلى كل من وقف إلى جانبي في إنجاز هذا العمل, وأخص بالشكر الموصول أستاذي ومشرفي الدكتور فايز القيسي, الذي أفادني بالكثير من علمه الغزير, فما بخل عليّ في علم ولا توجيه ,ولعل ملاحظاته التي تركتها يداه على مسودات البحث أثناء الكتابة بمثابة شاهد على ذلك, أسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة ,الذين تشرفت بمناقشتهم لهذه الرسالة, مع التقدير لملاحظاتهم التي ستكون محط اهتمامي في هذا البحث وفي المستقبل,أثناء دراساتي, وأستميحهم عذراً على عناء قراءة الرسالة.

وأتوجه بالشكر إلى مكتبة جامعة مؤتة, ممثلة بمديرها وجميع العاملين فيها على تعاونهم معي أثناء الدراسة, من حيث توفير المصادر والمراجع التي احتجت إليها.

وفي الختام..أسأل الله أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه تعالى.

أكرم العسوفي

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس المحتويات	ج
الملخص باللغة العربية	و
الملخص باللغة الإنجليزية	ز
الفصل الأول: البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري (المفهوم والدور التاريخي والأدبي)	1
1.1المقدمة	1
2.1 مفهوم البيوتات ووراثة الشعر	3
3.1 البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري "دورها التاريخي والأدبي"	8
1.3.1 البيوتات الحاكمة	8
1.1.3.1 بنو الأفطس	9
2.1.3.1 بنو جهور	13
3.1.3.1 بنو دراج	18
4.1.3.1 بنو صمادح	22
5.1.3.1 بنو عباد	29
2.3.1 البيوتات العامة	37
1.2.3.1 بنو بُرد	37
2.2.3.1 بنو الجَّدّ	40
3.2.3.1 بنو جودي	44
4.2.3.1 بنو حزم	46
5.2.3.1 بنو شرف	49
6.2.3.1 بنو شهيد	54

7.2.3.1 بنو الطبني 60
8.2.3.1 بنو عبد الصمد 63
9.2.3.1 بنو القبطرنة 65
10.2.3.1 بنو النغرلة اليهودي 69
الفصل الثاني: البعد العام في شعر البيوتات الأندلسية 73
1.2 شعر المديح السياسي 73
2.2 الشعر الحربي 85
3.2 الطبيعة 96
4.2 رثاء المدن والممالك والدول 124
5.2 الحكم والمواعظ 129
6.2 الإجازات والتمليط 133
الفصل الثالث: البعد الخاص في شعر البيوتات الأندلسية 142
1.3 الفخر 143
2.3 الرثاء 153
3.3 الهجاء 167
4.3 الغزل 171
5.3 العتاب 194
6.3 مدح الأصدقاء 197
7.3 الخمرة 200
8.3 الشكوى 209
9.3 الغربة والحنين 215
10.3 المراسلات الشعرية الذاتية 219
الفصل الرابع: الملامح الفنية لشعر البيوتات 231
1.4 بناء النص الشعري 231
2.4 الأسلوب 242
1.2.4 الحوار 249

2.2.4 الصورة الفنية 245
3.2.4 المحسنات البديعية 247
4.2.4 أسلوب النداء 250
4-3 توظيف الموروث الثقافي 252
الخاتمة 261
المراجع 264

الملخص

البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري

أكرم محمد العسوفي

جامعة مؤتة, 2005

يتناول هذا البحث دراسة البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري, التي كان الشعر قد انتشر بين عدد من أفرادها, وتوارثوه جيلاً بعد جيل, وبيان دورها في الازدهار الشعري الذي شهدته الأندلس في ذلك القرن.

وقد جاء هذا البحث في أربعة فصول, اشتمل الفصل الأول على المقدمة التي تناولت أهمية الموضوع وأسباب اختياره والأهداف التي تسعى الدراسة إلى تحقيقها, والمنهج العلمي المتبع فيها, كما تناول تحديد مفهوم البيوتات الشعرية وتعيين بعضها وترجمة لأشهر أفرادها من الشعراء, وبيان دورها التاريخي والأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري, كما تضمن الفصل مخططاتٍ توضيحيةً ملحقةً بكل بيت لبيان العلاقة بين أفراده الشعراء.

وتناول الفصل الثاني دراسة موضوعات البعد العام في شعر شعراء البيوتات, التي تتصل بالهمِّ الأندلسي العام, وتعبِّر عن تفاعل الشعر مع قضايا مجتمعه السياسية والاجتماعية والطبيعية والعسكرية وغيرها.

وتضمن الفصل الثالث دراسة موضوعات البعد الخاص في شعر شعراء البيوتات, التي تتصل بذات الشاعر ومشاعره وانفعالاته وعواطفه الخاصة ومواقفه الذاتية تجاه إخوانه وأصدقائه، وذلك في إطار حديث الشاعر عن الفخر والرثاء والهجاء والشكوى والغزل والعتاب وغيرها.

وتناول الفصل الرابع أهم الملامح الفنية في أشعار البيوتات الشعرية, واشتمل على الخاتمة فقد تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

Abstract

The Houses of Poets in Andalucia during the 5th A.H./ 11th Century A.D.

Akram Muhammad al-Ossufi

Mu'tah University, 2005

This work deals with the houses of poets in al- Andalus during the 5th A.H /11th Century A.D.

The work consists of an introduction, four chapters and conclusion. The introduction includes a definition of the research in hand, its aims, the method being used, and the main resources of which the material being obtained.

The first chapter defines the concept of the houses of poets, points out the main houses the flourished in al-Andalus during that era, and discusses its historical and literary role to uphold poetical movement.

The second chapter deals with the general dimension in the houses' poetry which had composed the most significant public issues that the poets used to write about in their verses.

The third chapter discusses personal dimension and presents the main topics that showed how the poets felt in different intuitional situation.

The fourth chapter tackles the main characteristics of the houses' poetry.

In the conclusion the research includes the result of the research work.

الفصل الأول

البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري

(المفهوم والدّور التاريخي والأدبي)

1.1 المقدمة:

ازدهرت الحياة الأدبية في الأندلس في القرن الخامس الهجري ازدهاراً كبيراً، بلغت به أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الأدبي، وكان في مقدمة أسباب هذا الازدهار البيوتات الشعرية التي شاع الشعر بين عدد من أفرادها، مثل بني عباد، وبني صمادح، وبني القبطرنة، وبني شرف، وبني دراج، وغيرهم. واللافت للنظر أنه على الرغم من أهمية هذه الظاهرة الأدبية فإنها لم تحظ باهتمامٍ كبيرٍ لدى دارسي الأدب الأندلسي، ومعظم ما نجده حولها إشارات متناثرة في عدد من الدراسات الأندلسية، لذا ستسعى هذه الدراسة إلى تناول البيوتات الشعرية الأندلسية في هذا القرن، وبيان دورها التاريخي والأدبي، وتحليل شعر أبنائها، من حيث المضمون والبناء الفني، وأهمية ذلك في رفد العطاء الشعري الأندلسي بمظاهر النماء والتطور.

وقد جاءت هذه الدراسة في أربعة فصول؛ أما الفصل الأول فتضمن المقدمة التي تناولت أهمية دراسة موضوع البيوتات الشعرية، وأسبابها وطبيعة المنهج المعتمد في دراسة موضوعات الدراسة، ثم تحديد مفهوم البيوتات الشعرية في ضوء المصادر والدراسات الأدبية والنقدية الأندلسية والمشرقية، والتعريف بالبيوتات الشعرية الأندلسية التي اشتهرت في هذا القرن وترجمة أبنائها الشعراء، وبيان الدور التاريخي والأدبي الذي نهضت به، وقد قسّمت هذه البيوتات إلى قسمين هما البيوتات الشعرية الحاكمة، والبيوتات الشعرية العامة، وأوردت الحديث عنها وفق ترتيب أسمائها الهجائي.

أما الفصل الثاني فقد تناول تحليل مضامين البعد العام في شعر البيوتات، وهي تتمثل في القضايا التي تتصل بالمجتمع الأندلسي والأحداث التي شهدها والشخصيات العامة التي عرفها وغير ذلك مما تفاعل معه الشعراء، وقد دارت هذه

المضامين حول شعر المديح السياسي، والشعر الحربي، والطبيعة، ورثاء المدن والممالك والدول، والحِكمِ والمواعظ إضافة للإجازات والتمليط.

أما الفصل الثالث فقد تناول تحليل مضامين البعد الخاص في شعر البيوتات التي تتصل بذات الشاعر وانفعالاته وعواطفه ومشاعره الخاصة، مثل الفخر والرثاء والهجاء والغزل والعتاب ومدح الأصدقاء والخمرة والشكوى والغربة والحنين وغير ذلك من الإخوانيات والمراسلات الشعرية الذاتية.

وتناول الفصل الرابع دراسة أبرز الملامح الفنية لشعر البيوتات، واشتمل على دراسة بناء النص الشعري وقضايا الأسلوب كالحوار والصورة الفنية واستخدام المحسنات البديعية وتوظيف الموروث الثقافي والديني في بناء النسيج الشعري، وتضمن هذا الفصل أيضاً الخاتمة، وقد أثبت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن تصنيف موضوعات أشعار البيوتات وأغراضها في بعدين كان حسب مضامينها وتقارب أغراضها، على أن وجود هذين البعدين لا يعني الحرفية في الدلالة على مضامين الأشعار، إذ إن وشائج القربى بينها قوية.

وقد سلكت هذه الدراسة في معالجة الموضوعات والقضايا التي اشتملت عليها مسلك المنهج العلمي القائم على البحث والدرس والموازنة والتحليل والتعليل، والمستفيد من معطيات المناهج الأدبية الحديثة؛ مثل المنهج التاريخي والنفسي والفني وغيرها.

وقد أفادت الدراسة من مصادر ومراجع كثيرة، كان في مقدمتها جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس للحميدي، وقلائد العقيان ومحاسن الأعيان للفتح بن خاقان، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، وهي من المصادر الأندلسية المتصلة بالقرن الخامس الهجري اتصالاً وثيقاً.

كما أفادت الدراسة من مراجع ودراسات حديثة كثيرة، ويأتي كتاب الشعر الأندلسي في عصر الطوائف لهنري بيريس، والأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة لأحمد هيكل، والنّوريات في الشعر الأندلسي لمقداد رحيم، في مقدمة تلك

المراجع، حيث أفادت الدراسة منها كثيراً، وتفتّحت من خلالها لهذه الدراسة آفاق كثيرة.

وبعد؛ فلا بدّ من كلمة شكر وتقدير لأستاذي المشرف على هذا البحث الدكتور فايز القيسي، لما قدّمه لي من توجيه وإرشاد أثناء العمل للوصول إلى الغاية المرجوّة، إضافة إلى تعاونه المستمر، فله منّي كلَّ الشكر، وأسالُ الله أن يجزيَه عنّي خيرَ الجزاء، كما أتقدَّم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان للسادة أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور صلاح جرار والأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم والأستاذ الدكتور جهاد المجالي على تكرمهم بقبول مناقشة هذه الرسالة، وتفضلهم بقراءتها وإبداء الملحوظات حولها، وهي لا شك سوف تضيء لي كثيراً من الجوانب التي لم أتنبّه إليها، وتثري قضايا ذات علاقة بها قصّر عنها جهدي، وإني لأرجو أن يصفحوا عمّا في هذه الرسالة من قصور، ويلاحظوه بعين الرضا الكليلة عن كلّ عيب.

وحسبي أنني اجتهدت وحاولت والله أسأل التوفيق والسّداد في الفكر والقول والعمل.

2.1 مفهوم البيوتات ووراثة الشعر:

لقد ازدهرت الحياة الأدبية في الأندلس في القرن الخامس الهجري ازدهاراً كبيراً بلغت به أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الإسلامي، وكان من مظاهر نشاط الحركة نبوغُ بيوتاتٍ[1] أو أسرٍ كاملةٍ في الشعر والنثر، فقد شاع هذان

---

(1) البيوتات في اللغة: جمع بيت، وقد ورد بعدة معانٍ منها؛ بيت الرجل، داره وتعني قصره، وجاءت بمعنى الحانات وحوانيت التجار، وتعني أيضاً الخربات أي أماكن الخلاء وقضاء الحاجة، وتجمع بيت على أبيات وأبابيت، مثل قول وأقاويل، وبيوت وبيوتات. ومن معاني بيت: الشرف، فبيت العرب شرفهم، وتجمع بيوت ثم تجمع بيوتات جمع الجمع، والبيت من بيوت العرب، ما يجمع شرف القبيلة كآل حصن الفزاريين وغيرهم. فلفظة بيت تدل على عدة بيوت، يراد بها الكثرة، ومعنى الشرف هو الأقرب إلى المقصود بالبيوتات الشعرية في بحثنا هذا، لأن هذه البيوت يتشرف أفرادها بقدرتهم على نظم الشعر، الأب والابن والحفيد، وقد يطول امتداد الموهبة الشعرية في الأسرة الواحدة وقد يقصر. (ابن منظور، محمد بن مكرم=

الفنَّان بين عدد من أفراد البيت الواحد كبيت بني عباد وبيت بني صُمادِح وبيت بني الطُبْنِي وبيت بني القُبطُرنَة وغيرهم[1].

وكانت قضية توارث الشعر في عدد من بيوتات العرب في الجاهلية والمخضرمين ومنها، بيت أبي سُلمى وابنه زهير وبيت حسان بن ثابت، وبيت النُعمان بن بشير وبيت جرير وبيت أبي حفصة، وبيت الرقاشيين وبيت اللاحقيين وبيت أمية الكاتب، وبيت رزين وبيت حميد وغيرها، قد حظيت باهتمامٍ كبيرٍ لدى النقاد العرب القدامى[2]، وعدد من آخر من الباحثين في التراث الأدبي والنقدي العربي، وقد انتهى الباحث جهاد المجالي إلى أن النقاد القدامى قد انقسموا في تفسير ظاهرة الاتصال الشعري إلى اتجاهين، يذهب أولهما إلى تحقق الاتصال الشعري من خلال العامل الوراثي، ويذهب ثانيهما إلى أن ذلك يعود إلى التفاعل الثقافي والخِبري الذي كان يتم في هذه البيوتات؛ وذلك لأن الملكة الشعرية موهبة فطرية مركوزة في ذات الشاعر[3].

=بن علي بن أحمد الأنصاري (ت711هـ/1311م)، معجم لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت)، م1، ص392-393، مادة بيت).

[1] انظر: ضيف، شوقي، ابن زيدون، ط11، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص13؛ بالنثيا، آنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955م، ص13؛ القيسي، فايز عبد النبي فلاح، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، 1989م، ص51.

[2] انظر: ابن قتيبة، عبد الله محمد بن مسلم(ت276هـ/ 889م)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط3، دار التراث العربي، القاهرة، 1977م، ج1، ص143؛ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت429هـ/1037م)، لطائف المعارف، تحقيق الأبياري والصيرفي، القاهرة، 1960م، ص70؛ ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت456هـ/1063م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصّله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، 1988م، ج2، ص306-307؛ المجالي، جهاد شاهر، بيوتات الشعر عند العرب " دراسة في أسباب الاتصال الشعري"، مؤتة للبحوث والدراسات، م4، ع1، سنة 1999، ص203-222، ص206-209.

[3] المجالي، بيوتات الشعر عند العرب، ص216-217

ومهما يكن من أمر فقد ذكر ابن رشيق نوعين من الشعراء هما المُعرِقُ وذو البيتِ، وفرّق بينهما بقوله: "إن المُعرِقَ من تكرَّرَ الأمرُ فيه وفي أبيه وفي جدِّهِ فصاعداً، ولا يكون معرقاً حتى يكون الثالث فما فوقه...، أمَّا ذو البيت مَنْ عمّ الأمرُ جميعَ أهلِ بيتِه أو أكثرهم"[1]، فالمقصود أن من ورث الشعر عن أبيه وجده وكان هو الثالث على الأقل فيسمى"معرقاً"، أما من ساد الشعر في أهل بيته في زمنه، كأن يكون هو وإخوته وأبناء عمومته شعراء فيسمَّى "ذا البيت"، ولذلك فإنَّ المُعرِقَ فيه دلالةٌ على أصالةِ البيت الشعريَّةِ، فكأنه ورثه، ولم يظهر طفرةً في بيته في زمن معين، وأشار أيضاً ابن رشيق إلى صنفٍ آخرَ من الشعراء، وهو "الشاعر الثُنَيَّان"، ويقصد به" الشاعرُ ابنُ الشاعرِ"، وهو أكثر الأصناف ظهوراً وانتشاراً.

وقد منح النقاد ومؤرخو الأدب الأندلسيون الوراثة في الشعر أهمية خاصة، باعتبارها عاملاً مهماً من عوامل جودة الإنتاج الأدبي، ووسيلة لإثبات عراقة أدبهم وأصالته[2].

فأبو عامر ابن شهيد يؤكّد عراقة بيته في الشعر في رسالته "التوابع والزوابع"، عندما التقى بفاتك بن صقعب أحد نقَّادِ الجنِّ وقابل عنده جنِّيّاً اسمه "فَرعُون بن الجَوْنِ"، وقد أبرز له أبو عامر مهارته الشعرية، ثم سأله فرعون عن بعض المقطوعات الشعرية فأجابه ابن شهيد: إنَّ قائلَ الأولى أبوه والثانيةِ أخوه والثالثةِ عمُّه والرابعة جدُّهُ والخامسة جدُّ أبيه، ثم سأله فرعون: "من قائل:

وَيْحَ الكِتابَةِ مِنْ شَيْخٍ هَبَنَّقَةٍ يَلقَى العُيُونَ برأسٍ مُخَّهُ رار

ومُنتِنَ الرِّيحِ إنْ ناجيتَهُ أبداً كأنَّـــما مات في خيشُومِهِ فار؟

فقال ابن شهيد :أنا، فردَّ عليه فرعون بن الجون:" والذي نفسُ فرعونَ بيده، لا عرضتُ لك أبداً، إنِّي أراك عريقاً في الكلام"[3].

---

[1] ابن رشيق، العمدة، ج2، ص308.

[2] عليان، مصطفى عبد الرحيم، تيارات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م، ص553.

[3] ابن شهيد الأندلسي، أبو عامر أحمد بن عبد الملك (ت426هـ/1034م)، رسالة التوابع والزوابع، صححها وحقق ما فيها وشرحها بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، 1980،=

فابنُ شهيدٍ يؤكّدُ عراقة بيته في الشعر، فهو ينحدر من بيت أفراده شعراء، كانوا قد توارثوه جيلاً عن جيل.

أما أبو حفص ابن برد الأصغر، فقد انتسب إلى بيت أدبٍ وحاول أن يربط بينه وبين جدّه ابن بردٍ الأكبر بحبلِ هذا الأدب، فأشار إلى براعةِ جدّه في الأدب من نظمٍ ونثرٍ، فقال:" قد اقتعد سنامَها، ورفعَ أعلامَها، وأصبحَ إمامَها، وزيَّنَ أيَّامَها، وركِبَ وسطَ مساقِها، وأحرزَ قَصبَ سباقِها"[1]، وقد برع أيضاً في البلاغة واستطاع أن يخلّص جوهرَ الكلامِ من أخباثِه، دون أن يؤلِّفَ كتاباً في البلاغة، ولكنْ بكلامه وحسن نظمه.

ثم يتحدث عن سبب تأليفه لكتابه (سرِّ الأدبِ وسَبْكِ الذَّهَبِ)، ليُريَ جدَّه كيف سار على نهجه وطريقَتِه في الأدب والتأليف، فيقول: "ومن هذا الباب، تولّجت إلى صَنَعَةِ هذا الكتاب ليَرَى– أيَّدَه اللهُ– كيف نبت كلامي على سقيه ونما ما أودع تربة قبولي من غرسه"[2].

وكان قد أكد من قبل في مقدمة كتابه الذي وصلت إلينا منه مقتطفات أوردها ابن بسام، أن بيته من البيوتِ التي أُشرِبَ أبناؤها حُبَّ الأدبِ والبلاغةِ، فيقول: "أمَّا بعد؛ فإنَّ اللهَ تعالى– وله الحمد– جعلنا أهل بيتٍ أُشرِب حُبَّ صناعة الكلام نفوسَهم، وشَغَلَ بطلبِ البيان والتبيِّينِ قلوبَهم، ..."[3]. فقوله السابق يؤكّدُ لنا معرفة الأندلسيين لمفهوم البيوتات في الأدب ويسعى لتأكيد أصالة بيته الأدبي وعراقته.

أما ابنُ بسامٍ وهو من كبارِ مؤرخي الأدب الأندلسي ونقاده في فترة دراستنا، فيشير إلى أصالة بيوتات بعض من ترجم لهم، وتوارثوا الشعر فيها، ومن هؤلاء

= ص 144–146؛ ابن شهيد، الديوان، جمعه وحقّقه يعقوب زكي، راجعه الدكتور محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)؛ ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني(ت542هـ/1147م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (4ق،8م)، 1979م، ق1م1، ص294–296.

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص488–490.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص491.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص487.

"بنو الجَّد"، حيث يقول عنهم: "إنَّهم كانوا صدور رُتَبٍ وبحور أدبٍ، توارثوه نجيباً عن نجيبٍ..."[1].

فمن أحاديث النقاد السابقة سواء ابن شهيد أم ابن برد أم ابن بسام، نلحظ إدراكهم لقضية وراثة الشعر، فهي تؤكد حضورَ الذِّهنِ وصفاءَ الفِكرِ عند الأندلسيين الذين نقدوا الشعر ودرسوا ظواهره، ولهؤلاء النقَّاد الأندلسيين قناعةٌ بأنَّ الشعر يورَّث كأيِّ شيءٍ يورَّث سواء المال أم الملك.

والدارس للأدب في الأندلس وكتب التراجم يجد إشاراتٍ كثيرةً ومعلوماتٍ تدلل على شيوع ظاهرة وراثة الشعر بين أفراد عدد من البيوتات الأندلسية وافتخارهم بذلك، ولا غروَ في ذلك؛ إذ إنَّ الأندلسيين أهل بلاغة، ولم يتأخروا عن الأدباء المشارقة، فاشتهروا بالبلاغة والشعر، وتوارثوه في بعض البيوتات، فظهرت بيوتاتٌ عريقةٌ في الشعر، أي ظهر فيها شاعِرانِ على الأقلِّ، سواء أكانا متعاصِرَينِ أم غيرَ متعاصرين كالشاعر وأفراد بيته وأبناء عمومته أي تمتد عموديَّاً أو أفقياً، وأخرى شعراؤها ثنيَّان أي يظهر فيها شاعران فقط؛ كأن ينحدر الثاني من الأول كالابن من الأب، وفي القسم الثاني من هذا الفصل سأورد ترجمة لأشهر البيوتات الشعرية وشعرائها في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وقد قسَّمتُها إلى قسمين: الأول؛ البيوتات الحاكمة التي اشتهر أفرادُها بالسياسةِ والشعر كبني صُمَادح وبني عبَّاد وبني الأفطس وغيرها، والثاني؛ البيوتاتُ غيرُ الحاكمةِ التي لم يشتهر أفرادُها بالحكم والسياسة، كبني شرف وبني الطُّبنِي وبني القُبْطُرْنَة.

ولعل من المفيد القول إنَّ الموهبة الشعرية قادرة على أداء دورها الإبداعي بمفردها، بينما لا تستطيع الملكة المكتسبة تقديم أيِّ نشاطٍ إبداعي دون الاتكاء على الملكة الفطرية، لذلك فقد اتفق النقاد على اختلاف اتجاهاتهم على دور الاكتساب الثقافي في صقل الموهبة الشعرية وتهذيبها وتطويرها وتشكيلها على نحوٍ خاص[2].

ويذهب جهاد المجالي إلى أنَّ كثرة الشعراء الذين نطقوا بالشعر في البيت الواحد من بيوتات الشعر قد دفعت النقاد إلى الاعتقاد بدور الوراثة في تحقيق الملكة

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص556.

[2] المجالي، بيوتات الشعر عند العرب، ص216.

الشعرية، كما أنَّ التفاعل الثقافي والخِبري الذي كان يتمُّ بين أفراد هذه البيوتات كان يؤدي أحياناً إلى شيءٍ من التشابه في الأسلوب والمعجم اللغوي وتقاربٍ في الأخيلة وغيرها من عناصر العمل الشعري، مما قد عزز فكرة وراثة الشعر في البيوتات[1].

وعلى الرغم من كثرة أراء النقاد حول ظاهرة الاتصال الشعري فإنه لا يمكن القطع بأثر الوراثة في الشعر، ذلك أن الإبداع الفني أمرٌ ما يزال يثير البحث والتفكير[2].

3.1 البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري"دورها التاريخي والأدبي":

ظهرت في الأندلس بيوتاتٌ اشتهر عددٌ من أفرادِها بالشعر، وقد أشار إليها بعض مؤرِّخي الأدبِ الأندلسي؛ من أمثال الفتحِ بن خاقان في كتابَيهِ قلائدِ العقيَانِ ومطمَحِ الأنفُسِ، وابن بسام الشنتريني في كتابه الذخيرة، وتنقسمُ البيوتاتُ الشعريَّةِ إلى بيوتٍ حاكمةٍ وأخرى عامة، وقد زاد اهتمامَ القدامى في البيوتات الحاكمة، ولعل السبب يعود إلى اشتهار هذه الأسر بالسياسة والرئاسة، فكان لها تأثير في تاريخ الأندلس السياسي، كما أن البيوتات العامة لم تكن بمعزل عن السياسة، فإنْ لم يكن لها نصيب في الحكم، فقد كان لها حظوةٍ في مجالس الحكام الأدباء.

من البيوتات الشعرية التي ظهرت في الأندلس في القرن الخامس الهجري، بنو الأفطس، وبنو جَهْوَر، وبنو عبَّاد، وغيرُها. وسأتناول في هذا الفصل هذه البيوتات ودورها التاريخي والأدبي، إضافة إلى نَسَبِهَا وعلاقَةِ أفرادِها بعضهم ببعض، لإعطاء صورة واضحة عن هذه البيوتات.

1.3.1 البيوتات الحاكمة:

تمتاز هذه البيوتات بأنَّ أفرادها جمعُوا إلى جانب الرياسةِ والسلطانِ الأدبَ والشعر، ومن هذه البيوتات الشعرية الحاكمة:

---

[1] المجالي، بيوتات الشعر عند العرب، ص217.

[2] المجالي، المرجع السابق.

1.1.3.1 بنو الأفطس:

يعود أصلُهم إلى عبدِ الله بن محمدِ بن مسلمةَ[1]، وهو بربريٌّ من مكناسةَ، وأصله من فحص البلوط[2]، وهو مؤسس هذا البيت، ويقال: إنَّ معنى بني الأفطس هو "بنو القِردِ"[3]، وهو اسم اشتهر به عبدُ الله.

وعندما استولى سابورُ العامريُّ[4]_ في عهد الحكم المستنصر_ على بَطَلْيَوس سنة 413هـ/1022م، ناصرَه عبدُ الله هذا، فأُوكِلت بعضُ الأعمال إليه، ولمَّا هلك سابور، ترك ابنين لم يبلغا الحلم، فاستولى عبد الله على الحكم والسلطة، وتلقَّب بالمنصور، ثم أُفضِيَ الأمرُ إلى ابنِهِ محمدٍ[5]. وبذلك صارت بَطَلْيَوس في عهد ملوك

---

(1) هكذا ذكره ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص640؛ ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ/1259م)، الحُلَّةَ السَّيراء، تحقيق د.حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ج2، ص97؛ ابن الخطيب، لسان الدين، أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت776هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة (4ج)، تحقيق عبد الله محمد عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973-1977م، ج4، ص42؛ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب(ج1-ج3)، تحقيق ومراجعة ج. س.كولان و إ.ليفي بروفنسال، (ج4)، تحقيق د.إحسان عباس، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ج3، ص236؛ ابن سعيد الأندلسي أبو الحسن علي بن موسى (ت610هـ/1213م)، المُغرب في حلى المَغرب، حققه وعلَّق عليه د.شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، ج1، ص364، بروايات مختلفة.

(2) فُحْصُ البلُّوطِ: هو موضعٌ يقع على مقرُبةٍ من قرطبة في وادٍ منبسطٍ، تكثر فيه أشجارُ البلوط، وكانت تسكنه بعض طوائف البربر، وذكر الحموي أنَّه بالمغرب من أرض الأندلس مواضعَ عدةٍ تسمى بالفُحصِ ذَكرَ منها الكثيرَ ومن بينها فُحصِ البلُّوط في البلُّوط واكتفى بذلك، (الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي(ت 626هـ/ 1228 م)، معجمُ البلدانِ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979م، م4 ، ص236.

(3) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص117.

(4) هو مولى فارسي الأصل، من عبيد الحكم المستنصر، انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص 641؛ ابن عذاري، البيان، ج3، ص236؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص42.

(5) ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص641؛ ابن الأبار، الحلة، ج2، ص96؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص235-236؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص364؛ ابن الخطيب،=

الطوائف بعد انقراض دولة بني أمية إلى بني الأفطس، وكان أولُهم المنصور عبد الله الأفطس.

وقد عُرِفَ المنصورُ عبدُ الله بأنَّه من أهلِ المعرفةِ والدهاءِ والسياسةِ، واستمرَّ في الحكم إلى حين وفاته سنة (437هـ/1045م)[1]. ومِن أمراء بني الأفطس الذين اشتهروا بالشعر في هذا البيت:

(ابنه) المظفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة:

يُكنَى: أبا بكر، وعُرِف بابن الأفطس، ويلقَّب بالمظفَّر[2]، وقد انتسب المظفَّر إلى تُجيب_ التُجيبي_ وقد مدحَه الشعراء بذلك النسب، إلا أن بعضَ من ترجَمَ له من السابقين قد أنكرَ عليه هذا النسبَ واستغربَه[3]. وتولّى المظفّر أمور الحكم بعد أبيه المنصور، واستولى على ما كان بيده، واستقامَتْ له الأمورُ، وضاهَى مُلْكُه مُلْكَ المعتضدِ بن عباد، والمأمونِ ابن ذي النُّونِ، وكانت له مع المعتضد بن عباد منازعات وخلافات، ومنها الحرب سنة 442هـ/1050م، التي انتهت لصالح المعتضد بن عباد[4]. واستطاع أن يقضيَ على فتنةِ ابنَيْ سابورِ في أشبونة[5].

=المصدر السابق، ج4، ص42-43 ؛ * بَطَلْيَوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربيِّ قرطُبَة ويُنسَبُ إليها خلقٌ كثير (الحموي، معجم البلدان، ج1، ص447).

[1] ابن عذارى، البيان، ج3، ص236؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص117.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص235؛ ابن الأبار، الحلة، ج2، ص97؛ ابن سعيد، المغرب، ج 1، ص364؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص235-236 "وقد خلط بينه وبين أبيه، فأسماه الأفطس"؛ الكتبي، محمد بن شاكر (764هـ/1362م)، فواتُ الوَفيَّات والذَّيلِ عليها، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، ص155.

[3] انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص641؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص 97.

[4] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص364؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص234-235؛ الكتبي، المصدر السابق، ج3، ص155.

[5] ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص237؛ *أُشْبُونه: مدينة بالأندلس ويُقَال لها لشبُونَه، وهي متَّصِلَة بشنتَرين قريبةٌ من البحر المحيط، ويوجد على ساحلها العنبرُ الفائق (الحموي، معجم البلدان، ج1، ص195).

وقد كان المظفر "أديب ملوكِ عصره، غير مُدافعٍ ولا منازِعٍ"[1]، واشتَهر بكتابه(المظفّريّ)، الذي عُرِف أيضاً "بالتَّذكِرَة"، ويقعُ في خمسين مجلداً[2]، وهو كتاب في العلوم والمفاخر والفنون والسِيَرِ وعلوم الأدب، وكان للمظفر في الكتاب نظراتٌ نقدية، فقد كان يُنكِرُ الشعر على قائله في زمانه ولا يقبَلُ إلا رأيَ مَن ارتَسَم في ديوانه وكان يقول:"من لم يكن شعرُهُ مثلَ شعر المتنبي أو شعرِ المعرِّي فليسكُت"[3]. وبقي المظفَّر حاكماً على بَطَلْيَوس، حتى وفاته سنة ستٍ وخمسين وأربعمائة للهجرة (456هـ/1063م)[4].

(ابنه) المتوكِّلُ على الله، أبو محمد عمرُ بن محمد:

هو ابن المظفر بن الأفطس، يُكنَى:أبا محمد، فبعد وفاةِ المظفر سنة(456هـ/1063م) تولى ابنه يحيى الحكم في بطليَوس، وتلقَّب (بالمنصور)، وكان عُمَرُ المتوكِّلُ في (يابرة) وكان يطمع في بطليوس. وحدثت نزاعات مع أخيه يحيى. وبعد موت يحيى سنة 460هـ/1067م، استطاع المتوكِّل السيطرة على بطليوس وبقي فيها، وجعل ابنه عبَّاس على يابرة[5]. تلقَّب من الألقاب السلطانية (بالمتوكِّل

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص640؛ وقد نسب بالنثيا، تاريخ الفكر، ص118 هذا القول إلى المقّري_ وقد أخطأ.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص641؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص364؛ ابن عذارى، البيان، ج3، ص236؛ ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن الحسن (ت633هـ/1235م)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، وآخرين، راجعه د.طه حسين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1997م، ج1، ص21-22؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص43؛ المقّري، أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غُصنِ الأندلس الرطيبِ، حقَّقهُ د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ج1، ص 242؛ بالنثيا، تاريخ الفكر، ص118.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص641.

[4] هكذا أجمعت أغلب المصادر، وذكر ابن الأبار، الحلة، ج2، ص97؛ وابن دحية، المصدر السابق، ج1، ص21-22، أنه توفي سنة ستين وأربعمائة(460هـ/1067م).

[5] هكذا أجمعت أغلب المصادر، أما ابن الأبار، الحلة، ج2، ص97؛ ابن دحية، المطرب،ج1، ص21-22، ذكرا أنه توفي سنة ستين وأربعمائة(460هـ/1067م).

على الله)[1]. كان المتوكل أديباً بارعاً حافظاً للغة جواداً راعياً لحقوق بلده مؤاخياً لأهلها محبَّباً فيهم، مرَّت لهم معه أيام هدنة وتفضُّلٍ إلى حين القبض عليه[2]. وقد كان في حضرة بطليوس كالمعتمد في حضرة "إشبيلية، " فكم أُحيِيَت الآمال بحضرتِهما، وشُدَّت الرِّحَال إلى ساحتهما"[3].

كانت بطلَيوس ضمن المدن الأندلسية التي سعى يوسف بن تاشفين الزعيم اللمتوني إلى السيطرة عليها وخَلْعِ أمرائها وذلك بعد معركة الزلاَّقة التي استنجد فيها الأندلسيون بابن تاشفين سنة 479هـ/1086م، وبعد دخوله الأندلس سنة 484هـ/ 1091م، استطاع الاستيلاء على إشبيلية حاضرة المعتمد بن عباد، وكذلك بطليوس مدينة المتوكِّل بن الأفطس وذلك في عام(487هـ/1094م) إذ حاصر ابنُ تاشفين بطليوس، إلى أن دخلها عنوةً وقبضَ على المتوكل وقيِّد وأُهِينَ بالضَّربِ، وقُتِلَ هو وابناه الفضلُ والعباسُ، على مقرُبَةٍ من بَطَلْيَوس[4].

وقد كان المتوكل شاعراً وأديباً، قال عنه ابن خاقان: "ملكٌ جنّد الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فأتَمرت، وطافَت بكعبَتِهِ الآمالُ

---

[1] ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله (ت529هـ/1135م)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه د.حسين يوسف خريوش، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، 1989م، ق1، ص120؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص42.

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص43.

[3] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص364؛ *إشبيلية:مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس أعظم منها في ذلك الوقت، وتسمى أيضاً حمص (الحموي،معجم البلدان،ج1،ص195).

[4] انظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ق1، ص123؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص100-102؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص364؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص155؛ وهذا يتنافى مع ما ذكره الأصفهاني، العماد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد(597هـ/1200م)، خريدة القصر وجريدة العصر/القسم الرابع- قسم الأندلس، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة-القاهرة، ق4، ج2، ص302 (أنّ المتوكل كان بعد سنة خمسمائة)؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص46-47؛ المقري، النفح، ج1، ص 442.

واعتمرت، إلى لَسنٍ وفصاحة، ورحْبِ جنابٍ للوافد وساحة، ونظمٍ يزري بالدّر النظيمِ، ونثرٍ تسري رقّتُه سُرى النسيمِ،..."[1].

وبذلك تكون دولة بني الأفطس قد استمرت من(413-487هـ/1022-1094م)، وقد بلغت إمارتُهم في عهد المظفر والمتوكل أوجَهَا، ونشير إلى أن آنخِل بالنثيا قد جعل المظفَّر أخاً لمَسلَمَةَ، وبذلك يكون عمَّاً للمنصور عبدِ الله بن مسلمة، وهذا مخالف لما ذكرته أغلبُ المصادرِ التي تدلُّ على أنَّ المظفَّر تولَّى الإمارة بعد أبيه المنصور عبد الله[2]. وفيما يأتي مخطط توضيحي يبين العلاقة بين أفراد البيت.

بنو الأفطس

عبد الله بن محمد بن مسلمة(المنصور)

ابنه محمد (المظفر) ت456هـ/1063م

ابنه يحيى — ابنه عمر (المتوكل) ت487هـ/ 1094م (شاعر)

2.1.3.1 بنو جَهْوَر:

وصفهم المقّري بأنَّهم وزراء للأمويين، فقال: "وبنو جَهوَر المشارُ إليهم قريباً، كانوا وزراءَ للأمويين، ثم إنَّه لما انتثر سلك الخِلافة، استبدَّ بقرطُبَةَ الوزير أبو الحزم ابن جهور، من غير أن يتعدَّى اسم الوزارة "[3].

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق1، ص120؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص646؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص104-107؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص364؛ ابن دحية، المطرب، ص21؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص43؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص155.

[2] بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص118؛ انظر نسبه: ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص 641؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص96؛ ابن عذارى، البيان، ج3، ص235-236؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص364؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص42.

[3] المقري، النفح، ج3، ص493؛ انظر: ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان(ت529هـ/1134م)، مطمح الأنفس ومسرح التأنُّس في مُلَحِ أهلِ الأندلُسِ، دراسة=

وينسب أبناءُ هذا البيتِ إلى جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغَمرِ، وبعد جهورِ بنِ عبيدِ الله يُصبِحُ الاسمُ الغالب على هذا البيت هو "بيتُ بني جَهورَ"[1]، ومن نسلِه أبو الحزم الذي تولَّى أمر قرطبة بعد إلغاء الخلافة الأموية سنة(422هـ/ 1030م)، واستمرَّت دولتُهم إلى سنة (463هـ/1070م) حيث انتهت لصالح بني عباد .

أنجب عبيدُ الله بن محمد بن الغمر(ت296هـ/908م) أبناءً كثيرين، اشتهر منهم محمد وجهور، ومحمد الذي كان أسنَّ من أخيه جهور، وتصرَّفَ بالكُورِ والقيادة، كما أنه نظم الشعرَ. أمَّا أخوه جهور المُكنَى بأبي الحزم فقد تولَّى الوزارة في عهد عبد الرحمن الناصر بعد وفاة والده، وكان مكثراً من الشعر، ثم تولى ابنُه محمد أبو الوليد خِزَانَة النَّاصرِ، وذلك سنة 316هـ/928م، وبقي كذلك حتى وفاته سنة 373هـ/983م، وكان أيضاً ينظمُ الشعر، وله أشعارٌ كثيرة[2].

عندما وقعت الفتنةُ الكبرى في الأندلس مطلع القرن الخامس الهجري، وانتهى حكم بني أمية عاد للجَّهاوِرَةِ مجدُهم من جديد، فظهر أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله. واشتهر أفرادُ هذا البيت بالشعر، وممّن اشتهر منهم في القرن الخامس الهجري:

جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله :

وُلِدَ في محرَّم سنة أربعٍ وستين وثلاثمائة[3] ، وسار على نهجِ والده وجدِّه، فقد تقلّد الوزارةَ في عهد بني عامرٍ، وتولَّى الوزارة في عهد هشام المعتَدِّ، وعندما حدثت الفتنةُ الكُبرى في الأندلس، وانتهى عهدُ خلافةِ بني أميَّة والعلَويِّينَ سنة 422

=وتحقيق محمد علي شوابكه، ط1، دار عمَّار ومؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ص181؛ ابن عذارى، المصدر السابق،ج3، ص233؛ * قُرْطُبَة: مدينةٌ عظيمةٌ بالأندلس وسط بلادها، وبها كانت ملوك بني أمية، وبينها وبين البحر خمسةُ أيام (الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 324).

[1] ابن الابار، الحلة، ج1، ص246.

[2] ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص252.

[3] ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص250.

هـ/1030م وخُلِع هشامُ بن محمد المعتد بالله، فصار أمرُ قرطبةَ إلى أبي الحزم، فأجمع عليه أهل قرطبة وبايعوه، لعهدهم به، ومعرفتهم بصفاته التي يتمتَّع بها، لكنَّه قبِل الإمارةَ على أن يشارِكَهُ الشيخُ محمد بن عباس، وعبدُ العزيز بن حسن، ابنا عمِّه، فأجاد أمورَ السياسة، فلم يكُنْ يقطَعُ أمراً إلا بعد مشورة الوزراء، ويُذكَرُ أنَّه لم يكن يقبَلُ كتاباً إذا لم يُخَاطَبْ فيه باسم الوزراء، فانتشر في عهده الأمن، وضبطت أموال الناس، وأُعطيت الحقوق إلى أهلها، ورخَت الأسعار، ممَّا جعل قرطبة مقصداً لجميع الناس لما فيها من أمن ورخاء. وكان أبو الحزم متثقِّفاً متواضعاً حافظاً للقرآن ويتلوه، وجليسُ كِتَابٍ، ويشارك النَّاسَ في مناسباتِهم من فرحٍ أو عزاء، ويعود المرضى[1].

توفي أبو الحزم ليلة الجمعة السادسِ من محرَّم لسنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة (435هـ/1043م)[2]. وقد كان له أدبٌ ووقارُ، وقد اشتهر أبو الحزم بالشعر لكن بعض المؤرخين خلطوا بينه وبين جده.

محمد بن جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله :

هو ابن أبي الحزم، يكنَّى: أبا الوليد، ولد في ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (391هـ/1000م)[3]. بايعه أهلُ قرطبة بالعهد، وذلك بعد وفاة والده أبي الحزم، لكنَّه لم يكن قادراً على القيام بالمهمَّة على الوجهِ الذي قام به أبوه؛ ففي عام 456هـ/1063م حدثت خلافاتٌ بين ابنَي أبي الوليد عبد الرحمن و عبد الملك على

---

[1] انظر: ابن خاقان، المطمح، ص181-183؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص602-604؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص30-32.

[2] انظر: الحُميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر(ت488هـ/1095م)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م، ص61؛ ابن خاقان، المصدر السابق، ص183؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص604؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص33؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص 56.

[3] ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578هـ/1182م)، الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م، ج2، ص800-801.

السياسة، إلى أن انتهت إلى توزيعها بينهما، بأنْ يكون كلُّ واحدٍ منهما مسؤولاً عن سلطةٍ، وفي آخر الأمر تنحّى أبو الوليد عن الحكم لابنه عبدِ الملك، فأثار عبدُ الملك في الأرض فساداً، واستباح أموالَ المسلمين، فانقلَبت الصورةُ عند أهل قرطبة، فأكثروا من الدعاء عليه، وبلغ من سَفَهِه وجَوْرِه أنَّه سمّى نفسه (ذا السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله)[1]. فقد لقّب نفسه بالسِّيادة و الرِّياسة اللتين لم يطلق أبوه أو جدُّهُ أيّا منهما على نفسيهما، وما زادا عن اسم الوزارة ومسمّاها[2].

كان المعتضد بن عباد، طامعاً بقرطبة، مقرِّ إمارة الجهوريين، فرتَّبَ الحيلَ للحصولِ عليها، لكنَّه توفِيَ قبل بلوغِ حاجته سنة 461هـ/1068م، فتولَّى الإمارةَ بعده ابنُه المعتمد، وفي عام 463هـ/1070م فتك المأمونُ ابن ذي النُّون بقرطبة، فاستنجد عبدُ الملكِ الجَهوَرِي بالمعتمدِ، فكانت هذه الفرصةُ السانحةُ لدخولِها، فناصرَهُ المعتمدُ، وعندما خرج ابنُ ذي النُّون منها دخلَ إليها بنو عبَّاد، فهتَكُوا حُرُمَاتِها، معلِنِينَ نهايَة الحُكمِ الجَهوَرِيِّ، فقبضوا على عبدِ الملك وبعضِ إخوَتِهِ وسائرِ أهله، وخرجَ أبو الوليد منها ذليلاً، ويُقالُ: إنَّه بعد أربعين يوماً من خروجه منها توفي، أي سنة 463هـ/1070م[3].

كان أبو الوليد ابن جهور حافظاً للقرآن، كثيرَ التلاوة له، معتنياً بالعلم، سمعَ في إشبيلية علماً كثيراً، أمَّا في مجال الشعر فلم يَرِد له شعرٌ بل خلط بعضُ الدارسين بينه وبين جدِّه.

عبد الملك بن محمد بن جهور:

هو ابن أبي الوليد محمد بن جهور بن محمد، وهو أصغرُ إخوته، تولَّى الحكم سنة 456هـ/1063م، بعد الخلافات التي وقعت بينه وبينَ أخيه عبد الرحمن، وكان آخرَ الوزراءِ الجهوريين، وبحكمِه انتهى زمنٌ سادَ فيه الأمنُ والرَّخَاءُ في عهدِ أبيه

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج3، ص233.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص606؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج3، ص232-233.

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص606-611؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص801 "ذكر أنَّه توفي في شلطِيش سنة 462هـ/1069م".

وجدِّه، في قرطبة، تلك البلاد التي كانت محطَّ أنظارِ أغلَبِ حكَّام الأندلسِ آنذاك، وانتهى بحكمه أمرُ قرطبة إلى بني عباد.

وقد كان عبدُ الملكِ على عداءٍ مع ابنِ السَّقَّاء[1]، وزيرِ أبيه، إذ استَغَلَّ ابنُ السَّقَّاءِ بساطةَ أبي الوليد، فحَجَّم سلطَتَهُ فلم يكن له سوى التَّوقيعِ على الكُتُبِ، وكان ابنُ السقاء هو الذي يحكم في البلاد، ويسيّرُ أمورَ الدولة، فنَبَذَهُ أهلُ قرطبة وفي عام 455هـ/1063م أقدم عبدُ الملك على قتله، وتشير بعضُ المصادرِ إلى أنَّ هذه الفتنةَ كان قد رتَّبَ لها المعتضدُ بن عباد[2]. وقد أوردت بعضُ المصادر نصوصاً شعريَّةً له. وفيما يأتي مخططٌ توضيحيٌّ يبين العلاقةَ بين أفرادِ بيتِ بني جهور:

بنو جهور

---

[1] ابن السقاء: هو إبراهيم بن محمد، وزير أبي الوليد بن جهور، توفي سنة 455هـ (ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص238-245).

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص 609، (راجع في أخبار مقتل ابن السقاء ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص238 وما بعدها).

3.1.3.1 بنو درّاج:

يعدُ هذا البيت من أصولٍ بربريَّة تنتمي إلى صَنهاجَةَ، واشتهر بنوه بالسياسة ورياسة بلدةِ (قسطَلة) التي يُنسَبُون إليها[1]، وبالشعرِ؛ ومن أفرادِ هذا البيت الشعراء والأدباء:

أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي :

هو أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن درّاج الأندلسي القسطلي الشاعرُ الكاتبُ، يُكنَى: أبا عُمَر[2]. وينسبُ إلى (قسطلة درّاج)، وهي قرية في غرب الأندلس، منسوبةٌ إلى جدِّه درّاج على الأغلب[3]، وقد اشتهر أبو عمر بابن درّاجٍ، وقد ولد في المحرَّم من سنة 347هـ/958م[4].

لم يشتهر ابن درّاج إلا بعد اتصاله ببلاط المنصور بن أبي عامر، حيث أصبح شاعره، وحظي عنده بمنزلة رفيعة، ونال المكانة والحظوة نفسها في مجلس هشام

---

(1) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص60؛ هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط13، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص303؛ *قَسطَلَّه: مدينة بالأندلس قد نسب إليها جماعة من أهل الفضل، ومنهم أبو عمر أحمد بن دراج كاتب الإنشاء لابن أبي عامر، وكان شاعراً مفلقاً (الحموي، معجم البلدان، ج4، ص347).

(2) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977م، ج1، ص135؛ الزركلي، خير الدين، كتاب الأعلام قاموس ترجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمشرقيِّين، ط8، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م، ج1، ص211؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص59؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص76-77؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص60؛ ابن دحية، المطرب، ص156؛ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري (ت429هـ/1037م)، يتيمة الدهر، تحقيق د.مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ج2، ص119؛ هيكل، المرجع السابق، ص302-303.

(3) انظر:ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص76-77؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص139 " ويذكرها بصيغةٍ فيها شكوك"؛ ابن دحية، المصدر السابق، ج1، ص156؛ الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 211؛ هيكل، المرجع السابق، ص303.

(4) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص77؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص138.

المؤيد وبلاطه (ت403هـ/1012م) خليفة المنصور وحاجبه، وبعد وفاة هشام سقطت منزلةُ ابن دراج عند العامريين، كما أنَّ الفتنَ والثوراتِ التي شهدتها الأندلس مطلع القرن الخامس الهجري أثَّرت على ابن درّاج، مما دفعه إلى الترحُّل بين وزراء العامريين أمثال بني حمّود، لكنه لم ينَل الحظوةَ المناسبة، فرحل إلى سَرَقُسطَةَ وأقام في كنف المنذر بن يحيى التجيبي، فنال عنده الحظوة، وبقيت منزلتُهُ بالقدرِ نفسه عند ابن المنذر يحيى. ثم شعرَ ابنُ دراج بفتورٍ في علاقته بالتُجيبيّينَ، فترك سرقُسطة وتوجَّه إلى مجاهدٍ العامري في دانِيَةَ، وبقي في حضرتِه إلى أن توفِّيَ هناك[1].

امتاز أبو عمر ابن دراج بمعرفته بالخبرِ واللغة والنسب، ولعلَّها هي سبب الحظوة التي نالها في بلاطات الأمراء والوزراء، فقال عنه أبو عامر بن شهيد: "والفرق بين أبي عُمر وغيره، أنَّ أبا عمر مطبوعُ النظام، شديدُ أسرِ الكلامِ، ثم زاد بما في أشعاره من الدَّليل على العلم بالخبر واللغة والنسب،..." [2].

أما من الناحية الأدبية فقد نظم الشعر، وبرع في فنون الأدب، فقد كان كاتباً للمنصور وشاعرَه، وقد وصفه بعض من ترجم له بالشاعر الكاتب[3]، وبلغ من شهرته الشعرية منزلة جعلت الثعالبي يصفه بأنَّه "متنبي الأندلس" إذ يقول عنه:" أبو عمر أحمد بن محمد،...، كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحدُ الفحول، وكان يجيد ما ينظم ويقول"[4].

---

(1) انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص60؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص61؛ الزركلي، الأعلام، ج1، ص211؛ فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، ج4، ص377-378؛ *سَرَقُسْطة: بلدة مشهورة بالأندلس تتصلُ أعمالُها بأعمال تطيلة، مبنية على نهر كبير وهو نهر منبعث من جبال القلاع (الحموي، معجم البلدان، ج3، ص212).

(2) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص61.

(3) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1،ص135؛ الزركلي، المصدر السابق، ج1، ص211.

(4) الثعالبي، يتيمة الدهر،ج2، ص119؛ انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص60؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص60؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص135.

كما تحدث ابن بسام عن شهرته الشعرية وأشار إلى أنَّها قد بلغت الشام والعراق، ولا تكاد تقصر عنهما، كما جعله أشعر شعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين، وله نثر لكنَّه لا يبلغ مرتبة شعره في جودته[1].

كما قال عنه ابن حزم الأندلسي:" لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج، لما تأخَّر عن شأوِ حبيبٍ والمتنبي"[2]، فهو يجعله ينافس حبيبَ بن أوسٍ "أبا تمام" وأبا الطيب المتنبي. وكلاهما شاعر لا يمكن إغفال دوره في التجديد في شعر المشارقة وكذلك مكانته بين شعراء المشرق.

وأشار ابن شرف القيرواني في مقامة له في (الشعر والشعراء) إلى أنَّ ابن دراج متأخر في عصره لكنَّه متقدم في أدبه وشعره ويسايرُ به القدماء، فيقول: " وأمَّا القسطليُّ فشاعرٌ ماهرٌ عالمٌ بما يقول، وتشهد له العقول بأنَّه المؤخَّر بالعصر، المتقدِّم في الشعر، حاذقٌ بوضع الكلام في مواضعه،...، وبالجملة فهو أشعرُ أهل مغربه، في أبعد الزمان وأقربه"[3]، فابن شرفٍ جعله أشهر شعراء المغرب في عصرهِ.

ولابن درّاج ديوانُ شعرٍ ضخمٌ، وأشعاره متناثرة في كتب الأدب الأندلسية[4].

توفي ابن درّاج القسطلي في دانية يوم الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة 421هـ/1030م أو قريباً منها[5].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص59-66.

(2) الحميدي، الجذوة، 181؛ ابن دحية، المطرب، ص156-157.

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص211.

(4) أشار للديوان ابنُ دحية، المصدر السابق، ص156؛ الزركلي، الأعلام، ج1، ص211.(وقد حققه الدكتور محمود علي مكي، ط1، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، سنة 1961م)؛ انظر أشعاره: ابن خاقان، المطمح، ص389-390؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص 62-96.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص138، انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص77؛ ابن دحية، المصدر السابق، ص157؛ الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص211.

الفضل بن أحمد بن دراج:

هو ابن أبي عمر بن دراج القسطلي، تأثَّر بأدبِ أبيه، فقد نظمَ على طريقة والده ونثرَ، قال عنه الضبي: "أديبٌ شاعرٌ، وله حظٌّ من البلاغةِ وافرٌ، نحويٌّ، سار في الشعر والرسائل على طريقة أبيه"[1].

اشتهر أمرُ الفضلِ بن دراج القسطلي في عهد إقبال الدولة بن مجاهد العامريِّ في دانيةَ والجزائرِ الشرقية على الرُّغم من أنه كان يتردَّد على بلاطاتِ الأمراء ومجالسهم ولا نعرف كثيراً من المعلومات عن مجرياتِ حياتِه، ويظهر أنَّه كان حيّاً في منتصفِ القرنِ الخامس الهجري كما يشير إلى ذلك الحُميدي بقوله: "إنَّه كان في بَلَنسِيَةَ بعد الأربعين وأربعمائة"[2].

وفيما يأتي مخططٌ توضيحي يبين العلاقة بين أفراد بيت بني دراج:

بنو دراج

محمد بن دراج القسطلي

|

ابنه أحمد (أبو عمر) ت 421هـ/1030م

(شاعر)

|

ابنه الفضل .كان حيّاً بعد 440هـ/1048م

(شاعر)

---

[1] الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت599هـ/1202م)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي،1967م، ص443؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص61-62.

[2] الحميدي، الجذوة، ص520؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص61-62؛ *دانية: مدينة بالأندلس، من أعمال بلنسية على ضفة البحر الشرقية، مرساها عجيب يسمَّى السَّمَّان (الحموي، معجم البلدان، ج2، ص434)؛ *بلنسية: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس، متَّصلة بحَوْزة كورة تدمير، وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة وهي بريّة بحرية، وتعرف بمدينة التُّراب. (الحموي، المصدر السابق، ج1، ص490).

4.1.3.1 بنو صُمادِح:

وهم بيت من البيوت الحاكمة في الأندلس في القرن الخامس الهجري، اشتهر أفرادُه إلى جانبِ السِّياسة بالأدب ونظم الشعر والعلوم، وإلى ذلك يشير ابن دحية بقوله: "وبنو صمادح بيتُ العلوم الفائقة، والآدابِ الرائقة وقد اشتهر أمراء بني صُمادح بالشعر وكذلك نساؤهم"[1].

وبنو صُمادح تُجيبيُّون، وهم ولاةُ سرقُسطة وأمراؤها في الفتنة التي حلّت بالأندلس سنة 400هـ/1010م، ولكنْ ظهرت دولتُهم في المريَّة[2]. ومن أمراء هذه الأسرة الذين اشتهروا بالشعر:

محمد بن معن بن صمادح التجيبي (المعتصم) :

هو أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المُهاجر بن عَميرة– الداخل على الأندلس– بن المهاجر بن سُريح بن حرملة بن تميم[3].

وقد ذكره ابن بسام بأنَّه تُجيبي. حيث يقول:" هو أبو يحيى محمد بن معن ابن صمادح التُّجيبي، وقد ذكر ابنُ حيَّان بيتَه في تُجيب"[4].

---

[1] ابن دحية، المطرب، ص34.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص729؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص79–80؛ *المرية: وهي مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، وكانت هي وبِجاية بابَي الشرق، منها يركبُ التُّجار وفيها تحِلُّ مراكبُ التجار (الحموي، معجم البلدان، ج5، ص119).

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص729؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص195؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص78؛ ابن دحية، المصدر السابق، ج1، ص34؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص39.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص729؛ وتجيب هي امرأةٌ اسمُها تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رهاء، بالراء، من مذحج، إليها ينسبون، وهي أمُّ عَدِي وسعد، أشرسُ بن كندة، واسمه ثورُ بن عفير ابن عَدِي بن الحارث بن مُرَّة بن أدَد بن زيد بن يشجب بن عُريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .(ابن دحية، المصدر السابق، ص34).

وقد كان أبو يحيى محمد بن صمادح جدُّ محمدِ بن معن السابق والياً على "وشْقَةَ" وعملها أيام هشامٍ المؤيد، وقد اشتهر بنباهته، لكن ابن عمه منذر بن يحيى حاربه واستولى عليها وفرَّ منها أبو يحيى[1].

أما والدُ المعتصم –معنُ– ويُكنَى أبا الأحوص، فقد كان مصاهراً لعبد العزيز بن أبي عامر، وبعد وفاة والي المرية زهير_ مولى بني عامر_، توجَّه عبد العزيز وصاحبُه معنٌ إلى المرية لإدارتها، وعندما علم عبد العزيز بنيَّة مجاهدٍ العامري وأنَّه عزم على التوجه إلى بلدة بلنسية، ترك المريَّة واستخلف صهره ووزيره معناً، لكن معناً غدر به، ومهّد لنفسه عند رعيته، وطرده عن الإمارة، وجعل الخلافة ميراثا في عقبه، وكان ذلك سنة 432هـ/1040م[2].

وبقي معن والياً على الإمارة، حتى سنة 443هـ/1051م، وعندما توفي اجتمع بنو عمه وبايعوا ابنه محمداً أبا يحيى، ويُذكر أنَّه لم يكن قد استكمل الثامنة عشرة من عمره. ونستنتج أنَّ أبا يحيى هذا كانت ولادته حوالي سنة 425هـ/ 1033م[3].

تولَّى محمد بن معن الإمارة، واتخذ له من الألقاب السلطانية والأسماء الخلافية، اسم "المعتصم"، وكذلك سمَّى نفسه "معزَّ الدولة، والواثقَ بفضلِ الله"، وهي من الألقاب التي ظهرت في الدولة العباسية في المشرق، ويذكرُ ابنُ الأبَّار، أنَّه اتخذها نكايةً ومناغاةً لصاحب إشبيلية عبَّاد بن محمد (المعتضد)، الذي قلّد خلفاء بني العباس[4]. اتصف المعتصم بحُسْنِ السيرة في رعيَّتِه وجندِه وقرابته، فانتظمَت أيامه وقويت دولته، ولكن كان بينه وبين ملوك الطوائف في زمنه فتنٌ كثيرة، غلبوه عليها ولا سيما مع المعتضد بن عباد[5].

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص730.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص730–731؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص81؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص39–40.

[3] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص81.

[4] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص81؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص39–40.

[5] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص733؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص82–85.

وعندما عبر يوسف بن تاشفين إلى جزيرة الأندلس أيام معركة الزلاقة اختصَّ المعتصم بمؤانسته، ولكن عندما انقلبت نيَّة ابن تاشفين على المعتمد ابن عباد، وجاهرَه المعتمدُ بالعصيان ووافقه المعتصمُ، دفع ذلك ابنَ تاشفين إلى الرغبة في خلعهما[1].

وقد مرض المعتصم في آخر أيامه مرضاً تسبّب في موته، وفي أثناء مرضه تعرضَّت بلاده لهجوم جيش المرابطين، لكنه مات قبل أن تحلّ المأساة ببلده وسلطانه وأهله بأيام، وذلك في شهر ربيع الآخر، وقيل ربيع الأول، وذلك سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة(484هـ/1091م)[2].

أما في مجال الأدب، فقد برع المعتصم بالشعر، فله أشعارٌ كثيرة أوردتها كتب الأدب، كما أنه اهتم بالشعراء والأدباء، إذ إنَّهم حظَوا بمنزلة رفيعة عنده، فأقام المناظرات، وعقَدَ المحاضرات وإلى ذلك يشير ابن خاقان بقوله: "مَلِكٌ أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظامها، في مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأثبت في جبين أوانه رسمها، ولم تخلُ أيامه من مناظرة، ولا عَمُرَت إلا بمذاكرة، أو محاضرة،..."[3].

وقد لازم المعتصمَ عددٌ من الشعراء الفحول، أمثالُ: أبي عبد الله بن الحداد، وابن عبادة بن القزّاز، وأبي الفضل ابن شرف، وغيرهم[4].

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص733-734؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص44.

[2] ابن الابار، الحلة، ج2، ص84؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص44.

[3] ابن خاقان، القلائد، ق1، ص146، انظر شعره: ابن خاقان، المصدر السابق، ق1، ص146، وما بعدها؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص729-740؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص84-88؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص195-198؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج 5، ص40-44.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص733؛ ابن الأبار، الحلة، ج2، ص82-83. وابن الحداد: هو أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي، وقد اختُصَّ بمعن بن صمادح وابنه محمد، وقال فيهما أمداحاً كثيرة، توفي سنة 480هـ/1087م، (ابن بسام، المصدر السابق، ق 1م2، ص691-692؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص143؛ ابن الابار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ/1259م)، التكملة لكتاب الصلة، نشره=

عبيد الله بن محمد بن معن :

هو ابن المعتصم، ويُكنَى: أبا مروان، وذكر ابن سعيد أنه أبو محمد عبد الله، تلقّب من الألقاب السلطانية بالواثق عزّ الدولة[1].

وقع عز الدولة بالسجن عند يوسف بن تاشفين وذلك لمَّا أرسله أبو المعتصم رسولاً لابن تاشفين لتهنئته ورجائه أن لا يعتدي على المرية، وسعى المعتصم إلى إخراج ابنه من السجن بالحيلة إلى أن تحقق له ذلك [2].

تولى أحمد بن المعتصم الإمارة بعد وفاة أبيه، كما أوكل المعتصمُ لعزٍّ الدولة أن يلحق ببلاد ابن حماد، وهي في شرقي العدوة المغربية، فامتثل عزُّ الدولة لذلك أشهُراً بعد وفاة والده[3]. وعندما علم عز الدولة بفرار أخيه أمام جيش يوسف بن تاشفين الذي هاجم المريَّة، لجأ عزُّ الدولة إلى أحد المرابطين لذمّة كانت بينهما، وبقي عنده، وقضى أيامه في الخمر واليأس، وبقي إلى أن غزا يحيى بن أبي بكر بن تاشفين طليطلة في سنة 504هـ/1110م، فشارك معه في غزوته، ولعلها آخر أخباره في الكتب[4].

وقد اشتهر أبو مروان عز الدولة بنظم الشعر[5]. وأما وفاته فلم يرد تاريخ محدَّدٌ لها، ولكن على الأرجح أنَّها كانت في بداية القرن السادس الهجري ولا سيَّمَا بعد سنة 504هـ/1110م.

=وصححه ووقف على طبعه عزّت العطّار الحسيني، مطبعة السعادة، مصر، 1955م،ج1، ص133)؛ وابن القزّاز: هو أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بالقزّاز، كان شاعر معن بن صمادح وابنه محمد. (ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص801؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص134-137)

[1] ابن الابار، الحلة، ج2، ص88؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص201.

[2] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص88.

[3] ابن الابار، المصدر السابق، ص89.

[4] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص89-90؛ المقري، النفح، ج7، ص40-43؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص77-80. لعل المقصود يحيى بن أبي بكر ابن علي بن تاشفين، وكانت غزوة طليطلة سنة 504هـ/1110م.

[5] ابن الابار،المصدر السابق، ج2، ص88-90؛ المقري، المصدر السابق، ج7، ص40-43.

أحمد بن المعتصم بن صمادح:

هو ابن المعتصم بن صمادح، ووليُّ عهده، يُكنَى:أبا جعفر، واشتهر بلقب "معز الدولة"[1]. أُوكِلَ إليه أمرُ المرية بعد أبيه المعتصم، وكان أبوه قد أوصاه أن يترك الحكم إذا ما سمع بحدوث الفتنة من يوسف بن تاشفين على المعتمد بن عباد، فقال له أبوه:" يا بُنَيَّ، إنَّ ابن عباد معنى السريرة، وشيخُ هذه الجزيرة، فساعة يبلغك عنه شيء فاخفِ صوتك، وانجُ وليتك"[2].

كان أبوه قد لقبه من الألقاب السلطانية "بالواثق بالله"[3]، ولذلك يخلط الناس بينه وبين أخيه عبيد الله السابق. كان معزُّ الدولة قد أحسن في حكمه ونظام ملكه، فيقول عنه ابن سعيد: إنه"جرى في طلق أبيه وإخوته، فأحسن في النظام إحساناً أوجب أن ينبّه إليه"[4].

ولما سمع معزُّ الدولة بأنَّ ابن تاشفين قد ألقى القبض على المعتمد بن عباد في رمضان 484هـ/1091م، ترك المرية لابن تاشفين وأصحابه، عاملاً بوصية والده السابقة، وتوجَّه إلى بجاية عند صاحبه الذي تربطه به علاقة جميلة، عند المنصور بن الناصر بن علناس[5]، وهذا الذي دفع بأخيه عز الدولة إلى الفرار عند المرابطي كما ذكرنا سابقا في ترجمته.

أما الناحية الأدبية، فإنَّ معز الدولة قد نظم الشعر، وقد أشار بالنثيا إلى شاعريَّته وشاعريَّة أهل بيته، فيقول: "وكان بنو المعتصم شعراءً مبرزين، ومنهم أبو جعفر الذي خاطب محبوبته بأبيات تفيض رقَّة وعذوبة،

كتبت وقلبي ذو اشتياق ووحشة ولو أنه يسطيع مرَّ يُسلّم "[6].

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص200.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص735.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص735.

[4] ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص200.

[5] ابن الابار، الحلة، ج2، ص89-90.

[6] بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص113.

رفيع الدولة بن صمادح:

لم تذكر المصادر اسمه وهو ابن المعتصم بن صمادح، ويُكنَى: أبا يحيى[1]، وذكره ابن خاقان والمقَّري بكنية: أبي زكريا[2]، وقد اتصل رفيع الدولة بالمرابطين، وقد أسنّ كثيراً إذ عاش إلى آخرِ أيام المرابطين، فيذكر ابن الأبار أن رفيع الدولة كان عند والي تلمسان أبي بكر ابن مزولي وذلك سنة تسع وثلاثين وخمسمائه، عندما كان الموحِّدون يهددون مُلْكَ المرابطين، ويذكر ابن الأبار أنه وقع في الأسر هو وابن أخيه أبي يحيى ابن عزّ الدولة[3]، وأنه قد توفي بعد الخمسين وخمسمائة[4].

وتذكر المصادر وكتب الأدب أن رفيع الدولة قد اشتهر بالشعر، وخاصة في مجال الغزل، وإلى ذلك يشير ابن خاقان بقوله: "وله أدب كالروض إذا أزهر، والصبح إذا أسفر، وقَفَه على النسيب، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب،..."[5].

وقد وصفه بعض النقاد بأنَّه أشعر بني صمادح، فقال عنه ابن الأبار:" لم يكن في بني صمادح أشعرُ منه، إلا أنّ الخمول أضنى على محاسنه وبقي إلى آخر دولة اللِّمتونيين"[6].

وذكر ابن الأبار أن لرفيع الدولة تأليفاً تحدّث فيه عن شعراء عصره، حيث يقول: "وقد كان من علماء الأدباء، بليغ القلم واللسان، معروفاً بالإجادة والإحسان، كان كاتباً متقدماً وشاعراً مجيداً، له تأليف في شعراء عصره"[7].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص737؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص199.

(2) ابن خاقان، القلائد، ق2، ص567؛ المقري، النفح، ج3، ص369.

(3) ابن الابار، الحلة، ج2، ص92-93.

(4) ابن الابار، التكملة، ج2، ص661؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص92.

(5) ابن خاقان، المطمح، ص223، انظر: ابن خاقان، القلائد، ق2، ص567؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص737.

(6) ابن الابار، الحلة، ج2، ص92؛ انظر: بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص115؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص265.

(7) ابن الابار، التكملة، ج2، ص661.

أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح:

وهي ابنة المعتصم بن صمادح، وقد امتازت بالذكاء ونظم الشعر، مما دفع بأبيها المعتصم إلى الاعتناء بها، وقد بلغت شهرتها وبراعتها في نظم الشعر منزلة متميزة، حتى أنها نظمت الموشحات[1]. وكانت قد عشقت فتىً في قصر أبيها عُرِفَ بـ"السمّار" ، وقد نظمت أشعاراً في الغزل بهذا الفتى، وتكشف عن مجاهرتها بالحب والعشق، وهي بذلك فعلت فعل ولاّدة بنت المستكفي[2].

رشيد الدولة بن عبيد الله

هو ابن عزّ الدولة ، وحفيد المعتصم بن صمادح، وهو أبو يحيى محمد بن عز الدولة أبي مروان عبيد الله بن المعتصم محمد بن معن بن صمادح، يلقب بـ"رشيد الدولة"[3]. ولد رشيد الدولة بعد انتهاء مُلْكِ بني صمادح سنة(484هـ/1091م)، واشتهر بالأدب، وقد سعى أيام المرابطين إلى الرئاسة واستعادة ملك أجداده، مما كان سببا في أسره وسجنه، وقد دخل السجن في تلمسان مع عمّه رفيعِ الدولة – كما ذكرنا سابقا في ترجمته- وذلك سنة 539هـ/1144م. ولكن بعد انتهاء حكم المرابطين لصالح الموحدين ، مال رشيد الدولة إلى صداقة الموحدين، لينال عندهم حظوة[4]، وقد اشتهر رشيد الدولة بنظم الشعر، ولا سيما في عهد المرابطين والموحدين، فله أشعار تناقلتها الكتب ولكننا سنخرجها من دراستنا لتأخر عصرها.

فبنو صمادح-هم بيت أدبٍ وسياسةٍ، ظهر مجدهم وسلطانهم في المرية، وانتقل الشعر فيهم جيلاً بعد جيل. وفيما يأتي مخطط يوضح العلاقة بين أفراد هذا البيت.

---

(1) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص204؛ المقري، النفح، ج4، ص170.

(2) هي ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن المستكفي، عشقت الشاعر ابن زيدون ونظمت فيه شعراً كثيراً، توفيت سنة 484هـ/1091م، انظر أشعارها: ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص 430؛ المقري، المصدر السابق، ج4، ص205؛ ج5، ص341-346؛ ابن دحية، المطرب، ص7-8؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص696.

(3) ابن الابار، التكملة، ج2، ص191.

(4) ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص192-196.

بنو صمادح

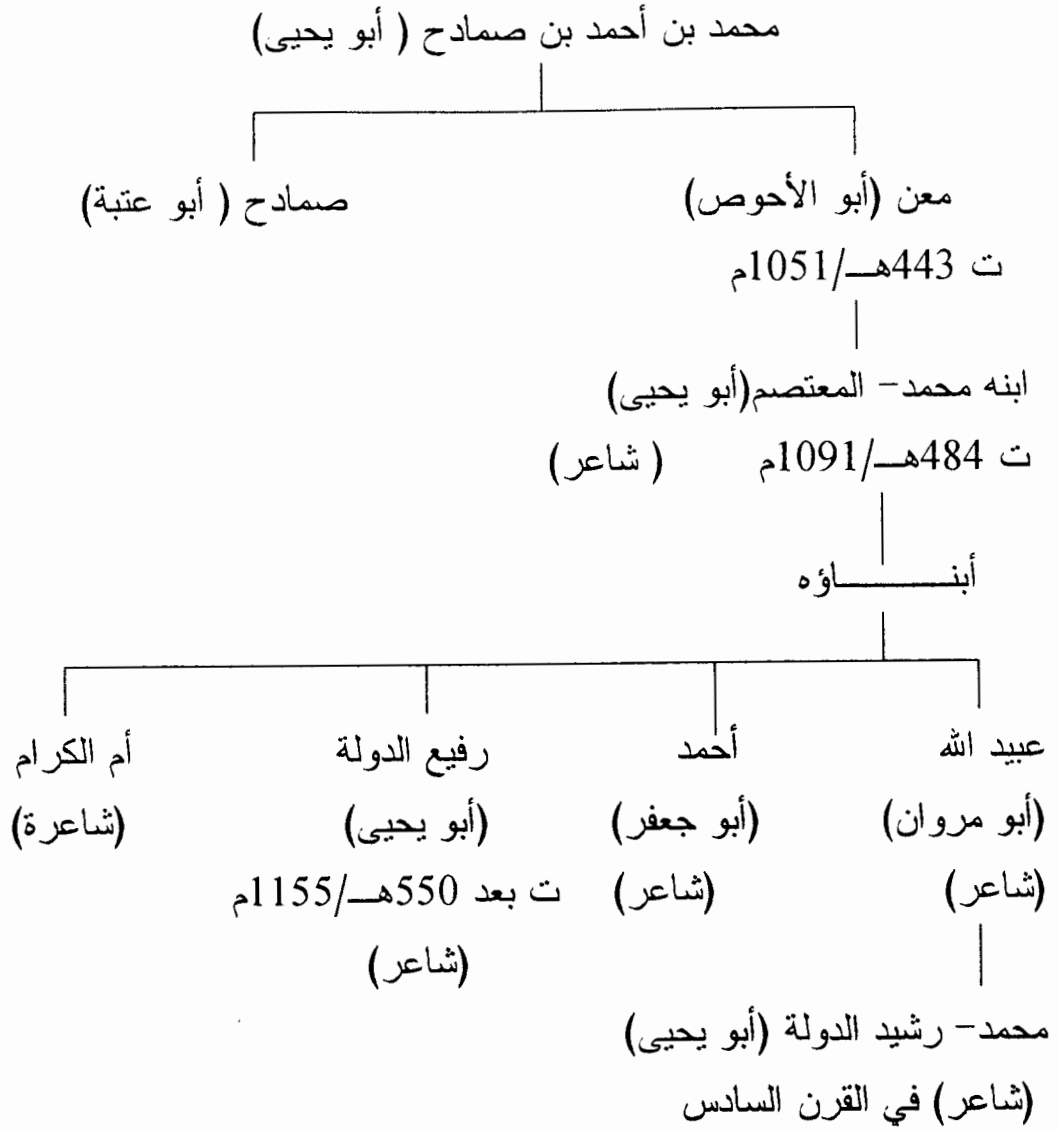

5.1.3.1 **بنو عبَّاد:**

وهي أسرة عريقة في نسبها، بلغت من الشهرة مبلغاً كبيراً، وتتفق الروايات على أنَّ إسماعيل بن عباد اللّخميّ هو مؤسس هذا البيت[1]، ويعود نسبهم إلى قبيلة لخم[2]، وينحدر هذا البيت من سلالة النعمان بن المنذر بن ماء السماء[3]، وقد حكم أفراد هذا البيت في إشبيلية في الفترة 413-484هـ/ 1022-1091م.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص14.

[2] ابن خاقان، المطمح، ص169؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص34.

[3] ابن خاقان، المصدر السابق، ص170؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص35.

وقد اندثر سلطان بعض الأسر وملوك الطوائف لصالح بني عباد، أمثال بني جهور 463هـ/1070م، وبني حمود 450هـ/1058م. ومن شعراء بني عباد :

القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي:

هو أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن محمد ابن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم[1].

كان والده إسماعيل قد تولى أمر القضاء في إشبيلية في عهد القاسم ابن حمـــود[2]، وبعد وفاته ردَّ ابن حمود أمر القضاء إلى محمد بن إسماعيل، فتلقَّب بالقاضي، وعندما ضاع سلطان القاسم بن حمود في قرطبة سعى محمد بن إسماعيل للاستيلاء عليها، واستطاع أن يثبِّط مساعي بعض وزراء ابن حمود، الذين سعوا إلى تولِّي أمر قرطبة، وكانوا جماعة منهم؛ بنو أبي بكر الزبيدي النحوي، وبنو يريم صنائع ابن عباد، وغيرهم[3]. فاستطاع محمد بن إسماعيل أن يرسي قواعد حكمه بالجَدِّ والقوة ، فضمَّ إليه الرجال واشترى العبيد، فساوى ملوك الطوائف، بل زاد على أكثرهم في سعة سلطانه، فنفع الله به الرعية، وأنجاهم من مُلْكِ البرابرة، ولكنَّه مع كلِّ هذا لم يتخذ سوى "القاضي" لقباً له[4].

اشتهر القاضي أبو القاسم باعتنائه بالعلم والعلماء، ورعاية الشعر والشعراء، كما أنه كان يشاركهم في نظم الشعر ويقيم مجالساً لهم[5]، أمَّا وفاته فكانت في آخر جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة للهجرة 433هـ/1041م[6].

---

(1) ابن خاقان، المطمح، ص169؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص14.

(2) هو القاسم بن حمود من أصل بربري، حكم في قرطبة بعد أخيه علي المتوفى سنة 408هـ/ 1017م، ثم حدثت خلافات بينه وبين ابن أخيه يحيى بن علي، توفي سنة 431هـ/1039م (ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص481-484).

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص15.

(4) انظر: الحميدي، الجذوة، ص134؛ ابن خاقان، المصدر السابق، ص170-171؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص13-16؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص34.

(5) ابن خاقان، المصدر السابق، ص172؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1،ص13؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص34.

(6)انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص134؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص25؛ ابن=

عباد بن محمد بن إسماعيل :

هو ابن القاضي أبي القاسم، يُكنَى: أبا عمرو، ولد سنة سبع وأربعمائة للهجرة 407هـ/1016م[1].

تولى الحكم بعد أبيه، وتلقب "بفخر الدولة ثم المعتضد"[2]، لكنَّه اشتهر بالمعتضد، وتجبَّر في الأرض، وسار على سياسة أبيه في إرساء قواعد الملك، فمال إلى القوة والتعسُّف، وتأثر بسيرة أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل أحدُ أشداء الخلفاء العباسيين[3]. فحمل سمته المعتضديَّة، فأقام المعتضد دولته فوق أسنة الرماح، وشب الحروب، واتخذ الرجال والغلمان والخيول، وأحسن سياستها، حتى أخرج منهم رجالاً مساعيرَ حروب أعيى بهم على أعدائه وأنداده في حروبه[4].

مال المعتضد إلى الأدب، فقرَّضَ قطعاً من الشعر، وكان ينفث بأبياتٍ من الشعر فيما يعنُّ له من أمرٍ[5]، وذكر ابن بسام أنَّ " ابن أخيه إسماعيل، قد جمع شعرَ عمِّه هذا في ديوان"[6]، ثم يورد أشعاراً له.

كما حظي الشعراء بمكانة مرموقة في مجلس المعتضد، وإلى ذلك يشير الحُميدي بقوله إنَّه: "من أهل الأدب البارع، والشعر الرائع، والمحبة لذوي

=الابار، المصدر السابق، ج2، ص38؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص765؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص22.

[1] ابن الابار، الحلة، ج2، ص53.

[2] الحميدي، الجذوة، ص468؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص24.

[3] انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص25؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص41؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص147 "ذكر أنه تشبّه بأبي جعفر"؛ المقري، النفح، ج1، ص 214.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص26.

[5] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص29؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص43- 45.

[6] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص29؛ وقد جمع د.محمد مجيد السعيد أشعار المعتضد في بحث له منشور في مجلة المورد العراقية، م5، ع2، سنة 1976م، ص105-118، وسنعتمد عليه في دراستنا لشعره.

المعارف،...، وعلى كل حال فلأهل العلم والأدب بهذا البيت الجليل سوقٌ نافقةٌ، ولهم في ذلك همَّةٌ عالية"[1].

توفي المعتضد في يوم الأربعاء لستٍ خلون من جمادى الآخرة، سنة إحدى وستين وأربعمائة (461هـ/1068م)، وكانت سنُّه سبعاً وخمسين سنة، ومُدَّةُ إمارَتِهِ ثمانٍ وعشرون سنة من يوم بيعته إلى يوم وفاته[2].

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل:

هو ابن المعتضد، يُكنَى: أبا القاسم، ومن ألقابه "المعتمد على الله والظَّافر والمؤيَّد"[3]. وقد وُلِدَ في العَشرِ الأوَاخر من ربيع الأول سنة 432هـ/1040م[4].

كان المعتمد هو الأكثر شهرة من بني عباد، حكم إشبيلية، وكان ملكاً فاضلاً، شجاعاً، جواداً، تولَّى الحكم سنة 461هـ/1068م بعد أبيه، وهو ابنُ تسعٍ وعشرين سنة، ولكنَّه خالف نهج أبيه في الحكم والإمارة، فقد نشرَ الأمنَ وأحسنَ السيرة، إلاَّ أنَّه كان مُولعاً بالخمرةِ والانغماسِ بالملذَّاتِ والمَيلِ إلى الرَّاحة والبِطَالة على حساب ملكه، مما أدَّى إلى ضعف دولته وشجَّع ذلك الإسبانَ على الطمع في ملكه، فاستعان بيوسف بن تاشفين وذلك للإيقاع بالإسبان، وكان ذلك سنة 479هـ/1086م، في معركة الزلاقة، فحذَّره وزراؤه منهم، إلاَّ أنَّه آثر الدِّين على الدنيا، واستطاع اللِّمُتونيون[5] أن يخلعوه عن الحكم سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة(484هـ/1091م) فأُسِر المعتمد وحُمِل هو وأهلُه إلى المغرب وأُسكنوا في أغمات[6].

---

[1] الحميدي، الجذوة، ص468.

[2] انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص24-25، ابن الابار، الحلة، ج2، ص41-53، الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص147" ذكر أنَّه توفي سنة 464هـ/1071م".

[3] ابن خاقان، المطمح، ص172؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص41؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص52.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص57؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص53؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص119.

[5] هم مغاربة جاءوا إلى الأندلس وفتحوها سنة 484هـ ، واشتهروا باسم "المرابطين"(الباحث).

[6] انظر: ابن خاقان، القلائد، ق1، ص84-108؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص56-57؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص53-55.* أغمَات: ناحية البربر من أرض=

بقي المعتمد مأسوراً في أغمات إلى أن توفي سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة 488هـ/1095م[1]، ويورد ابن بسام خبراً نادراً عن وفاته وهو أنه" نُودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظيم سلطانه، وجلالَة شأنه"[2].

اشتهر المعتمد بقدرته الشعريَّة، كما يذكر ابن بسام بقوله: " وله شعر كما انشقَّ الكَمَامُ عن الزَّهرِ لو صَدَرَ مثلُهُ عمّن جعل الشِّعرَ صناعة، واتَّخذَه بضاعة، لكان رائعاً معجباً، ونادراً مستغرباً، فما ظنُّك برجلٍ لا يَجِدُّ إلاّ راثياً، ولا يُجيدُ إلاّ عابثاً"[3]. كما أن نظمه للشعر كان سبباً في زواجه من زوجته اعتماد الرُّميكيَّة، وذلك عندما أجازت له بيتاً من الشِّعر عَجَزَ عن إجازتِه وزيرُه الشاعر ابنُ عمار[4].

لقد كان للظروف التي مرَّ بها المعتمد تأثيرٌ على شعره؛ لذا يقسِّمُه بعض الدارسين إلى قسمين: الأول؛ ما قالَه أيام ملكِه وإقبالةِ الدهر، والثاني؛ ما قاله في منفاه حين اجتمعت عليه الهموم وعبست له الأيام[5].

وقد مزج المعتمد بين السياسة والأدب، فعند تصفُّح تاريخه السياسي، نجد أن أغلب وزرائه من الشعراء، فكان لا يستوزرُ إلا شاعراً، ومنهم ابن عمار وابن زيدون وغيرهم، وبعضهم كان في عهد أبيه المعتضد وبقي في فترة حكمه[6].

=المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان، وأهلها فرقتان إحداهما الموسويَّة، والأخرى مالكية حشوية، (الحموي، معجم البلدان، ج1، ص225).

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص57؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص55؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص119؛ المقري، النفح، ج4، ص218.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص57.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص41-42.

[4] انظر القصة: المقري، المصدر السابق، ج4، ص211؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص110. *ابن عمار: هو محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري، ذو الوزارتين، يكنى: أبا بكر، اشتهر بالشعر، استوزره المعتمد، لكنَّه قتلَهُ سنة 477هـ بإغراءٍ من زوجته اعتماد، لذكره لها في هجائه للمعتمد. (ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص131-165).

[5] بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص98.

[6] انظر: الذخيرة، ق2م1، ص81 وما بعدها؛ المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص=

وقد أنجب المعتمد من جاريته اعتماد الرُميّكيّة عدداً من الأبناء، منهم عبادٌ أبو عمرو الملقَّبُ بسراجِ الدولة، وهو أكبر أبنائه، ثم عبيدُ الله الرشيدُ، والفتحُ، والراضي يزيدُ، وعبدُ الله المعتدُّ، وبثينَة التي اشتهرت بالشعر[1]، أما أبناؤه من غير الرُميّكيّة، فهم شرفُ الدولة يحيى بن محمد، وحكم بن محمد أبو بكر المشهور بأبي المكارمِ ويلقَّب بذخرِ الدولة[2]. وقد استمر حكم بني عباد ثلاثاً وسبعين سنة، كان للمعتمد منها ثلاثٌ وعشرون سنة[3].

ابنه عبيد الله بن محمد الرشيد:

يُكنَى: أبا الحسين. كانت ولادتُهُ في حدود سنة460هـ/1067م[4]، وهو أكبر الأبناء بعد سراج الدولة عباد، وولاَّه أبوه ولاية العهد، كما أسنَدَ إليه القضاء بإشبيلية على نهج أبيه وأجداده، وكان يعقِدُ مجلساً للقضاءِ كلَّ يوم خميس، فتُعرَضُ عليه المظالم والنوازل فيحكُمُ فيها، وبقي على هذه الحالة إلى سنة 484هـ/1091م عندما أخرج اللمتونيون بني عباد من الأندلس، فأُسكن(قلعة مهدي) وبقي فيها إلى أن توفي سنة 530هـ/1135م، وقد نيّف على السبعين[5].

وقد اشتهر الرشيد بنظم الشعر، وقيل أيضاً إنه كان يجيد ضرب العُودِ، ومن أخلاقه الرقَّةُ والدَّماثةُ، وكان قد ترك من الأولاد سبعةً وأربعين ولداً[6].

=أخبار المغرب، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور محمد زينهم محمد عذب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994م، ص97.

[1] انظر: ابن الابار، الحلة، ج2، ص68-75؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص109-110؛ المقري، النفح، ج4، ص284.

[2] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص76-77.

[3] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص65.

[4] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص68؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص109 "ذكره بكنية أبي الحسن ".

[5] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص68.

[6] ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص68.

يزيد بن محمد:

يُكنَى: أبا خالد، ولُقِّب بالراضي بالله[1]، تولَّى الجزيرة الخضراء في عهد أبيه، وبقي فيها إلى دخول جيش يوسف بن تاشفين، فنُقِل إلى رندة، واستُنزِلَ منها عند خلع أبيه، وكان متعلِّماً ومتأدِّباً[2]. وُلِدَ له سبعةٌ من البنين، وقُتِل صبراً في رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة (484هـ/1091م) في دانية[3].

لقد كان مولعاً بالمطالعة للكتب والدواوين، كما اشتهر بنظم الشعر، حتى قيل عنه: إنه" شاعرُ بني عباد بعد أبيه"، وكان شعره " كأنَّما يُنظَمُ من بدائعِ القولِ لآلئ وعقوداً، تُسَلُّ من النفوس سخائمَ وحقوداً"[4].

حكم بن محمد :

هو أبو المكارم ذخرُ الدولة، تنقَّل في المغرب، واستقرَّ به الأمر في مدينة فاس، ونظم بعضَ الشعر لكنَّه لم يصل إلى مرتبَةِ الشاعر. أمَّا أخوه أبو بكر يحيى فلم يكن له حظٌّ في الملكِ ولا في الشِّعرِ، وعاش على كتابة الوثائقِ في مراكش[5].

بثينة بنت المعتمد:

أُمُّها اعتماد الرُّميكيّة، وكانت تشبه أمَّها في الجمال والنَّادرة ونظم الشعر، ولمَّا أَحَاطَ المرابطون بأبيها وأسَروهُ سنة 484هـ/1091م ووقع السَّلبُ والنَّهبُ كانت هي ضمن النساءِ اللائي سُبينَ، ومن أشهر أشعارِها القصيدةُ التي أرسلت بها لأبيها، عندما أراد ابنُ أحدِ تجارِ إشبيلية أن يتزوجها بعد أن اشتراها والده[6].

إنَّ بيت بني عباد ودولتهم في الأندلس من أبهجِ الدول في الفضل والأدب، وصفها أبو بكر ابن اللبّانة أنها:" في الأندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد"[7].

---

(1) ابن دحية، المطرب، ج1، ص38؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص109-110.

(2) ابن الابار،الحلة،ج2،ص71-75؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص326-327.

(3) ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص71؛ المقري، النفح، ج4، ص256.

(4) ابن خاقان، القلائد، ق1، ص111.

(5) ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص76-78.

(6) ابن الابار، المصدر السابق، ج2. ص76-78.

(7) المقري، النفح، ج4، ص255.

وفيما يأتي مخطط توضيحي لبيان العلاقة بين أفراد بيت بني عباد:

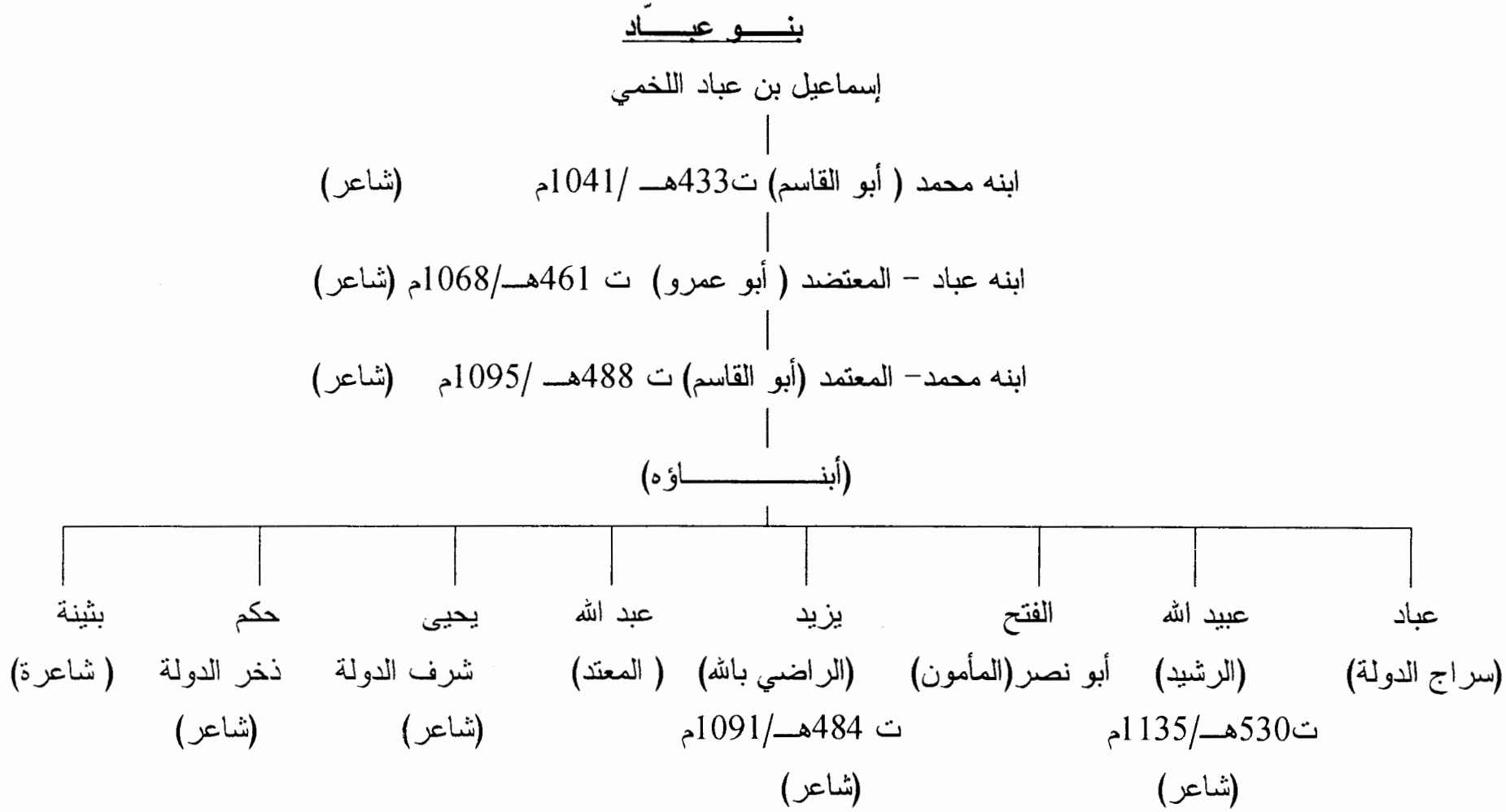

2.3.1 البيوتات العامة:

1.2.3.1 بنو بُرد:

اشتهر أبناء هذا البيت بالأدب، وكانت لهم حظوة عند الحكام والخلفاء، وظهر بيتهم في قرطبة، وقد كان بنو بُردٍ مواليَ لبني شُهيد، فقال عنهم ابن بسام: "وبنو بردٍ ينتمون لبني شُهيد بالولاء"[1]، ويُذكَرَ أنَّ أبا حفصٍ الأكبر جدُّ بني برد كان مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد جدُّ أبي عامر بن شهيد[2] .

أما في مجال الأدب، فقد اشتهر أفراد هذا البيت بالأدب ونظم الشعر، وكانوا كُتّاباً في دواوين الوزراء والخلفاء، لذا يقول عنهم ابن خاقان: "هذه ثنيَةٌ غَذِيَت بالأدب، وربَت في أسمى الرُتَبِ، ما منهم إلا شاعرٌ كاتبٌ، لازمٌ لِبابِ السلطانِ راتب"[3]. ومن شعراء بني برد وأدبائهم الذين اشتهروا بالأدب والحظوة في زمانهم:

أبو حفص ابن برد الأكبر:

هو أحمد بن محمد بن برد، يُكنَى:أبا حفص، ووُصِفَ بالوزير والكاتب، وهو من أهل قرطبة[4]. وللتَّشابُهِ في الاسم بينَه وبين حفيده، مال بعضُ المترجمين لهم إلى وصفه بالأكبرِ، وحفيدِه بالأصغرِ، وذلك للتفريق بينهما[5]. وُلِدَ أبو حفص ابن برد الأكبر في حدود سنة 338هـ/949م[6].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص103.

(2) الضبي، البغية، ص164؛ ابن دحية، المطرب، ص127؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج4، ص510.

(3) ابن خاقان، المطمح، ص207.

(4) الحميدي، الجذوة، ص188؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص103؛ الضبي، المصدر السابق، ص172؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص74؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص204.

(5) انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص103، ص486.

(6) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص103، ذكر سنة وفاته وذكر أنه توفي عن ثمانين سنة، وبطرح عُمُرِهِ من سنة وفاته تكون ولادته حوالي سنة 338هـ/949م، على الأرجح؛ فروخ، المرجع السابق، ج4، ص365.

حظي ابن برد الأكبر بمكانة ومنزلة مميزة، تفوّق بها على نظرائه وأقرانه، فقد تقلّد مناصب مختلفة في دولة العامريين، واستلم ديوان الإنشاء في دولة المنصور ابن أبي عامر، وبعد زوال دولة الأمويين بعد حدوث الفتنة في الأندلس كتب ابن برد هذا عن أمراء الفتنة، أمثال سليمان المستعين[1].

أما في مجال الأدب فقد امتاز ابنُ بردٍ بالبلاغةِ والشِّعرِ، ولعلَّ أشعاره ورسائله تُعطِي الصورةَ الدَّالةَ والواضحة عن بلاغته وأدبه، وقد جعله ابن بسام واسطَةَ سِلْكِ البيت، وقُطْبَ رحى المُلكِ في قرطبة[2].

توفي أبو حفص بن برد الأكبر سنة ثماني عشرة وأربعمائة(418هـ/1027م) وقد تجاوز الثمانين، وكانت وفاته في سرقسطة[3].

محمد بن أحمد بن برد:

ذكر ابن الأبار أنَّه من أهل قرطبة، وسكَنَ المريَّة، سمع من أبيه أبي حفص الأكبر، وأبي الحسن عبد الملك بن مروان بن شهيد وغيرهما[4].

وهو والد أبي حفص الأصغر، وقد توفي ابنه أبو حفص الأصغر في أثناء حياته، وكانت وفاة الأصغر في رواية ابن الأبار سنة 445هـ/1053م[5]. فمِنَ المؤكَّد أنَّ والده قد توفي بعدَ هذه السنة. ومما يؤسف له أنه لم يصل إلينا شيءٌ من شعره.

---

(1) الحميدي، الجذوة، ص188؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص103؛ الضبي، البغية، ص172؛ ابن سعيد، المغرب، ج1،ص204.

(2) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص103؛ انظر أشعاره ونثره: الحميدي، المصدر السابق، ص188؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص129-131؛ الضبي، المصدر السابق، ص172؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج4 ، ص366.

(3) الحميدي، المصدر السابق، ص188؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص103؛ الضبي، المصدر السابق، ص172؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص74؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص204؛ فروخ، المرجع السابق، ج4، ص366.

(4) ابن الابار، التكملة، ج1، ص389.

(5) ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص389.

أبو حفص بن برد الأصغر:

هو أحمد بن محمد بن أحمد أبي حفص الأكبر ابن برد، يُكنَى: أبا حفص ويُوصفُ بالأصغر[1]؛ تمييزاً له عن جدِّه أبي حفص الأكبر الذي عاصرَهُ وتأثَّرَ به وبفنونِهِ البلاغيَّة والكتابية وقد مارسها قبلَ وفاة جدِّه سنة 418هـ/1027م، وأظهر براعته فيها. وكان قد اتَّصل أبو حفص الأصغر بمجاهد العامري(حكم سنة 408-432هـ) أمير دانية والجزائر الشرقية[2].

اشتهر أبو حفص الأصغر بالبلاغة، ونلمَحُ ذلك من خلال أشعاره ونثره، وله كتبٌ ورسائلُ برع فيها، كما أنَّه فاخر فيها بأسرته وشهرتِها بالأدب، فيقول في كتابه(سرِّ الأدبِ وسَبْكِ الذَّهبِ) مفاخِراً ببيتِه:" أما بعد، فإن الله -وله الحمد- جعلنا أهل بيتٍ أُشرِبَ حُبَّ صناعة الكلام نفوسَهم، وشَغَلَ بطلبِ البيان والتبيين قلوبَهم"[3]، ولعله هو الكتاب الذي أَلَّفَه للتقرُّب من المعتصم بن صمادح حاكمِ المريَّة، وتولَّى على أثره وزارَتَهُ[4].

أما رسائلُه فلعل من أشهرها رسالته في (السيف والقلم)، كتبها لمجاهد العامريِّ، وقد فاضل فيها بين السيفِ والقلمِ[5]. وفي مجال الشعر، فقد نظم أشعاراً عديدة في موضوعات مختلفة، ويغلِبُ عليها الوصف، وتأثَّرَ فيها بصور المشارقة ومعانيهم[6].

---

(1) الحميدي، الجذوة، ص188؛ ابن خاقان، المطمح، ص207؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص 486؛ الضبي، البغية، ص164؛ ابن دحية، المطرب، ج1،ص127؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص86؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج4، ص510.

(2) فروخ، المرجع السابق، ج4، ص510.

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص486.

(4) فروخ، المرجع السابق، ج4، ص510.

(5) انظر: ابن خاقان، المصدر السابق؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص523، ويورد فصولاً منها؛ الضبي، المصدر السابق، ص164-165؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ص127.

(6) انظر أشعاره: ابن خاقان، المصدر السابق، ص208-209؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م 1، ص505 -523؛ الضبي، المصدر السابق، ص164-165؛ ابن دحية، المصدر السابق، ص127؛ فروخ، المرجع السابق، ج4،ص513-514.

ولم تذكر المصادر سنة وفاة ابن برد الأصغر، غير أنها تشير إلى أنّها كانت بعد سنة 440هـ/1048م، فقد رآه الحُميدي " بالمريّة بعد الأربعين وأربعمائة زائراً لأبي محمد ابن حزم غيرَ مرَّة"[1]، ولكن ابن الأبار يذكر أن والده قد ثكلَه سنة (445 هـ/1053م)[2]؛ أي أنَّ ابن برد الأصغر توفي في تلك السنة.

وفيما يأتي مخطط توضيحي للعلاقة بين أفراد بيت بني برد:

بنو برد

محمد بن برد

|

ابنه أحمد (أبو حفص الأكبر)

ت 418هـ1027م

(شاعر)

|

ابنه محمد

توفي بعد 445هـ/1053م

|

ابنه أحمد (أبو حفص الأصغر)

توفي حوالي 445هـ/1053م

(شاعر)

2.2.3.1 بنو الجَدِّ:

بنو الجدّ فهريُّون، قال عنهم ابن سعيد: "بيتٌ جليلٌ، وهم فِهرِيُّون، سكنوا لَبلَة، وسادوا أيضا بإشبيلية..."[3]. وهم بيت من البيوتات الشعرية الأندلسية، اشتهر

---

[1] الحميدي، الجذوة، ص188؛ انظر: الضبي، البغية، ص165؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 4، ص511، جعل وفاته في حدود سنة 450هـ/1058م.

[2] ابن الابار، التكملة، ج1، ص389.

[3] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص340؛ انظر: المقري، النفح، ج3، ص18؛ ج6، ص277؛ *لَبْله: قصبةُ كورةٍ بالأندلس، وهي غرب قرطبة، وبينها وبين قرطبة أربع وأربعون فرسخاً، وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلاً، وهي برية بحرية (الحموي، معجم البلدان، ج5، ص10).

أفراده إلى جانب الأدب والشعر بالحظوة لدى الأمراء، فقال عنهم ابن بسام وعن توارثهم للأدب والجاه: "إنهم كانوا صدور رتبٍ، وبحور أدبٍ، توارثوه نجيباً عن نجيب، كالرُّمح أنبوباً على أنبوب، مع اشتهارهم بصحبة السلطان، وشرفهم على وجه الزمان،..."[1]. ومن أشهر شعراء هذا البيت الذين ترجمت لهم الكتب ، وتوارثوا نظم الشعر:

يوسف بن محمد بن الجد:

يُكنَى: أبا الحسين[2]، عاش أبو الحسين هذا في القرن الخامس الهجري، في زمن أبي بكر ابن عمار، وزير المعتمد بن عباد، وأبيه المعتضد من قبله، وقد استكتبه ابن عمار أيام حربه بمرسية، وله أخبار مذكورة معه، ورسائل مشهورة[3].

أما في الأدب، فقد نال منزلة رفيعة، وكان أشهر بني الجدِّ، لكنه مال للخمرة واللهو، مما أنقص من شهرته، فقال عنه ابن بسام: " وأبو الحسين هذا، كان من أسنى نجومِ سعدِهم، وأسمى هضاب مجدهم، ولولا ما خلا به من معاقرة العقَّار، وتمسّك بأسبابه من قضاء الأوطار، لملأ ذكرُهُ البلاد، وطبّق نظمه ونثره الهضاب والوهاد"[4].

وقد أورد له ابن بسام أشعاراً ورسائل ولكن على قلّتها تشهد له بالشهرة الشعرية والفضل[5].

ومما يؤسف له أنَّ المصادر لا تشير إلى تاريخ ولادته ووفاته، ولا تسعفنا في تحديد علاقته بأفراد هذا البيت ، وقد أوردناه للتشابه في اسم العائلة.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص556؛ المقري، النفح، ج1، ص291؛ ج3، ص18 من نسل عبد الملك بن قطن الفهري، دخل الأندلس سنة 114هـ/ 732م، وتولى أمرها.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص556؛ وذكره ابن سعيد، المغرب، ج1، ص340.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص556.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص556.

[5] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص557-562.

محمد بن عبد الله بن الجد:

هو محمد بن عبد الله بن الجدِّ الفهري يُكنَى: أبا القاسم، وعرف بأنَّه فهريُّ النسب، كما أنه وُصِفَ بالفقهِ والكتابةِ والوزارة، لذا وصفه بعضهم وترجم له بقولهم، الوزير الفقيه الكاتب[1].

كان أبو القاسم ابن الجَدِّ من أشرف بني فهر، وعاش في عصر المعتمد بن عباد 461-484هـ، وتولى الوزارة عند ابنه يزيدِ الراضي، ثم تنحَّى عنها عند سقوط دولة بني عباد سنة 484هـ، وكذلك حاضرة الراضي الجزيرة الخضراء، ثم دعاه أهل لَبلَة مضطّرين، فولّوه خطة الشورى والإفتاء، لكنَّه كان كارهاً لها، وانتهى به الأمر إلى لزوم بيته، والاكتفاء برزقه والزهد في الحياة[2].

وقد اشتهر أبو القاسم ابن الجَدِّ بصناعَتَي النظم والنثر وأوردت المصادر التي ترجمت له بعضاً من أشعاره ومكاتباته، وقد أثنى عليه مؤرخو الأدب، فقال ابن خاقان في حقه: "...الذي جَمَعَ طَبْعَ العراقِ، وصَنَعَةَ الحجاز"[3]، وقال عنه ابن بسام: " فإنْ تكلَّمَ فأبو بحرٍ، أو نَظَمَ فكلثوم بن عمرو"[4].

أما شعره، فقد تراوح بين العُذُوبَةِ والبَرَاعَة، ممَّا يُطرِب الأسماع، وبراعته في النظم والشعر جعلَتهُ يزاحم الأقدمين، لبيانه وحسن نظمه[5].

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق2، ص324؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص285؛ ابن دحية، المطرب، ص190؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص341؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص 357؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص837؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص109.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص285-286؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص 837.

[3] ابن خاقان، المصدر السابق، ق2، ص322؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص837، جعله من أهل التفنن في المعارف، والتقدم في الأدب.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص285. وأبو بحر: هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وكلثوم بن عمرو هو الشاعر الجاهلي المعروف والملقب بالعتَّابي.

[5] انظر أشعاره في: ابن خاقان، المصدر السابق، ق2، ص323-330؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص318-323؛ ابن دحية، المصدر السابق، ص191-192؛ ابن سعيد،=

وقد توفي أبو القاسم بن الجَّد سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة(515هـ/ 1121م)[1].

أحمد بن عبد الله بن الجَّد:

يُكنَى: أبا عامر، ويتَّضِح من اسمه أنَّه أخٌ لأبي القاسم السابق، ولكن لم يشر لذلك من ترجم له[2]. وتشير المصادر إلى أنه كان ذا سلوك حسن، فهو لم يشرب الخمر ولم يعاقرها، ولم يمِلْ إلى اللهو ولا إلى المجون[3].

اشتهر أبو عامر كغيره من أبناء بني الجد بالنثر ونظم الشعر، لكن لم تردْ له أشعارٌ كثيرة في المصادر، ولعل السبب في ذلك هو قلتها[4]. أما وفاته فكانت سنة 551هـ/1156م[5]، فهو من شعراء القرن السادس الهجري لذلك سوف نستثني شعره من الدراسة. وفيما يأتي مخطط توضيحي يبين علاقة أفراد هذا بيت.

بنو الجَّدّ

عبد الله بن يحيى بن الجد

محمد	أحمد
(أبو القاسم) (شاعر	(أبو عامر) (شاعر)
ت 515هـ/1121م	ت 551هـ/1156م

*يوسف بن محمد بن الجد / (شاعر)

=المصدر السابق، ج1، ص341؛ الأصفهاني، المصدر السابق، ق4ج2، ص357-368؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص110 وما بعدها.

[1] ابن دحية، المطرب، ص190؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص837.

[2] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص342.

[3] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص342.

[4] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص342.

[5] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص342.

3.2.3.1 بنو جودي :

ظهر هذا البيت في إلبيرة، ويُقَال إنَّهم من غرناطة، وينتسبون إلى سعد بن بكر بن هوازن، من سلالة قيس بن عيلان[1]. واشتهر أبناؤه في الشعر، ومنهم:

سعيد بن جودي السعدي:

هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي، هو من هوازن من جند قنّسرين، ويُكنَى: أبا عثمان[2]. تولى جدُّ جودي الشرطة والقضاء للأمير الحكم الربضي[3]، وبعد مقتل سوار بن حمدون[4]. وفُجِعَت العربُ بمقتلِه، نصّبوا سعيدَ بن سليمان بن جودي أميراً عليهم، لكنَّه لم يكن بنفس بطش وسياسة سوار، بالرغم من شجاعته[5].

اشتهر ابن جودي إلى جانب الفروسية بالشعر والأدب، ويذكر ابن الأبار أنَّ له عشرَ خصالٍ تفرَّد بها في زمانه ومنها الشعر. وأنّه شاعرٌ محسنٌ، إضافة لبيانه في حسن الخطبة[6]، وذهب ابن سعيد إلى أنه " كان فارساً جواداً شاعراً "[7].

أما وفاته فتذكر المصادر التي ترجمت له أنَّه قُتِلَ غَيلَةً في كورة إلبيرة بأيدي بعض أصحابه وذلك في سنة 284هـ/897م[8].

---

(1) المقري، النفح، ج1، ص291؛ انظر: ابن سعيد، المغرب، ج2، ص109؛ *غرناطة: وهي أقدم مدن كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، وأعظمها وأحسنها وأحصنها، يشقها النّهر المعروف بنهر قلزم في القديم، ويعرف الآن- زمن الحموي- بنهر حدّارة (الحموي، معجم البلدان، ج4، ص195).

(2) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص105؛ ابن الابار، الحلة، ج1، ص154.

(3) ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص154.

(4) هو سوار بن حمدون القيسي المحاربيٌ، قتله المولّدون من أصحاب ابن حفصون سنة 277 هـ/890م، امتاز بالبطش والقوة في حكمه. (ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص154-155).

(5) ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص155-156.

(6) ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص155.

(7) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص105.

(8) انظر:ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص156، ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص105.

علي بن جودي :

هو علي بن عبد الرحمن بن سعيد بن محمد[لعلَّه سليمان] بن جودي السعدي ويُكنَى: أبا الحسن، ووُصِفَ بالأدب[1].وهو من أحفاد سعيد بن جودي المذكور.

أخذ أبو الحسن بن جودي العلم عن أبي بكر ابن باجَّة، فيلسوفِ الأندلس لذلك اشتهر بالفلسفة، واتُّهِمَ في دِينِه، كما نظم الشعر وتفنن في الأدب حتى وصل به الأمر إلى الإسراف والتصدِّي إلى الدِّين، وقد بلغ في إسرافه حدَّاً جعل له في نفوس الناس كُرهاً وبغضاً، وربّما رغبة في قتله[2]. وقد وردت له أشعار مختلفة .

توفي أبو الحسن بن جودي على أغلب الروايات بعد سنة 530هـ/1135م[3].

جودي بن جودي:

وهو أحد شعراء وأعلام هذا البيت لكنَّه عاش في القرن السابع الهجري، ونكتفي بالإشارة إلى شاعريته. وفيما يأتي مخطط توضيحي لبيان العلاقة بين أفراد بيت بني جودي :

بنو جودي

سليمان بن جودي

|

سعيد (أبو عثمان)

ت 284هـ/897م (شاعر)

|

ابنه عبد الرحمن

|

ابنه علي (أبو الحسن)

ت.حوالي 530هـ/1135م (شاعر)

|

جودي (القرن السابع الهجري) /(شاعر)

---

[1] ابن خاقان، المطمح، ص358؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص109.

[2] ابن خاقان، المصدر السابق، ص358-359؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص109.

[3] ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص109.

4.2.3.1 بنو حزم:

ينسب هذا البيت إلى قرية الزاوية، وهي من أعمال أُونْبَة[1]، وقد اشتهر أفراد هذا البيت بالأدب والشعر والعلم، فقال عنهم ابن خاقان: "وبنو حزمٍ فتيةُ علمٍ وأدبٍ، وثنية مجد وحسب"[2]. ومن أفراد هذا البيت الذين اشتهروا بالأدب والشعر:

عبد الوهاب بن حزم:

هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم، يُكنَى: أبا المغيرة، ويلقَّب بالوزير الكاتب[3].

نال أبو المغيرة حظّاً عريضاً في دنياه عند أمراء عصره، كما كان هو وأبو عامر بن شهيد خليلَي صفاءٍ، وحليفَي وفاءٍ، لا ينفكّان ولا يفترقان، وكانا متلازمين في قرطبة، ويرى ابن بسام أنَّه كان بدايةُ ظهوره واشتهاره في دولة عبد الرحمن بن هشام المستظهر[4].

وقد حدثت بين أبي المغيرة وابنِ عمّه أبي محمد هِنَاتٌ ظهر فيها أبو المغيرة، ولعل سبب ذلك ما يتمتّع به من"حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجَوْدَةِ أدبه، وهو كان في زمانه في الجِدِّ والهَزْلِ صاحب اللواء"[5]، وتناقلت الكتب كثيراً من المراسلات بينهما.

اشتهرِ أبو المغيرة بالكتابة، وتفرُّدِه في فنونها، وقد أورد ابن بسام كثيراً من رسائله وقصائده[6]. وتوفيَ في طليطلة سنة 438هـ/1046م[7].

---

(1) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص354؛ * أونبة: قرية في غرب الأندلس على خليج المحيط (الحموي، معجم البلدان، ج1، ص283).

(2) ابن خاقان، المطمح، ص202.

(3) انظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص202؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص132؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص357.

(4) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص132.

(5) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص133؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص357.

(6) انظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص203؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص311-167؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص357؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص555.

(7) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص555.

علي بن حزم:

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي مولى بني أمية، يُكنَى: أبا محمد، ويلقَّب بالوزير العالم الحافظ[1]. تولى والده أحمد الولاية لبني أمية، وكان أبوه _جدُّ أبي محمد _حديثَ عهدٍ بالإسلام. فسار أبو محمد على نهج أبيه وجدِّه، فقد تشيَّع لبني أميَّة في المشرق والأندلس، واعتقد بصحة إمامتهم، وانحرافهم عمّن سواهم من قريش، ولعل هذه من أسباب كره بعض العلماء وأقرانه له[2].

اشتهر أبو محمد في علوم مختلفة، وإلى ذلك يشير ابن بسام بقوله: "كان أبو محمد حاملَ فنونٍ، من حديثٍ وفقهٍ وجدلٍ ونسبٍ، وما يتعلَّق بأذيال الأدب..."[3]. فقد كان فقيهاً وفيلسوفاً وأديباً، وتميّز بحسن الاستنباط والقياس في القضايا الفقهية، وقد أدت مخالفته لفقهاء عصره في بعض الأحكام حسب المذاهب إلى بغضهم إياه، إضافة إلى تحذير الحكام في وقته منه، ممَّا دفعَه إلى التِّرحال بين المدن الأندلسية، وبقي متمسكاً بمنهجه الظاهري، وألَّف في علومه كتباً كثيرة، لكنَّ علماء عصره زهّدوا طلبتهم في اقتنائها، كما تعرّض بعضها إلى الحرق والتمزيق ولا سيما في إشبيلية[4].

قد زهد ابن حزم في الوزارة وتركها من أجل العلم، حيث يقول ابن خاقان: "...خَلَعَ الوزارةَ، وقد كسته مُلاها، وألبسته حَلاها، وتجرّد للعِلْمِ وطلبه، وجدّ في اقتناء نُخَبِه،..."[5].

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص354، انظر: ابن خاقان، المطمح، ص279؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص167.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص169.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص167؛ انظر مؤلفاته في: ابن خاقان، المصدر السابق، ص280؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص171.

[4] انظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص280؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص168؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص354-355.

[5] ابن خاقان، المصدر السابق، ص280.

أما في مجال الأدب فقد كان له حظٌّ ونصيبٌ كبيرٌ، وإلى ذلك يشير ابن خاقان بقوله:" وله في الأدب سَبْقٌ لا يُنْكَر، وبديهَةٌ لا يُعلَمُ أنَّه روّى فيها ولا فكّر، وقد أثبتُ من شعره ما يُعلَم أنَّه أوحدُه، وما مثله فيه أحد،..."[1]. وكان قد توفي في بلدة من بادية **لَبْلَة**،التي استقرَّ بها بعد طول الترحال، وذلك سنة 456هـ/1063م[2].

وقد أشار ابن سعيد إلى ابنِ لأبي محمد ويكنّى بأبي عمرو دون ذكر اسمه، وذكر أنه اشتهر بالأدب والنحو، واكتفى بذلك[3]. وفيما يأتي مخطط توضيحي لبيان العلاقة بين أفراد بيت بني حزم:

بنو حزم

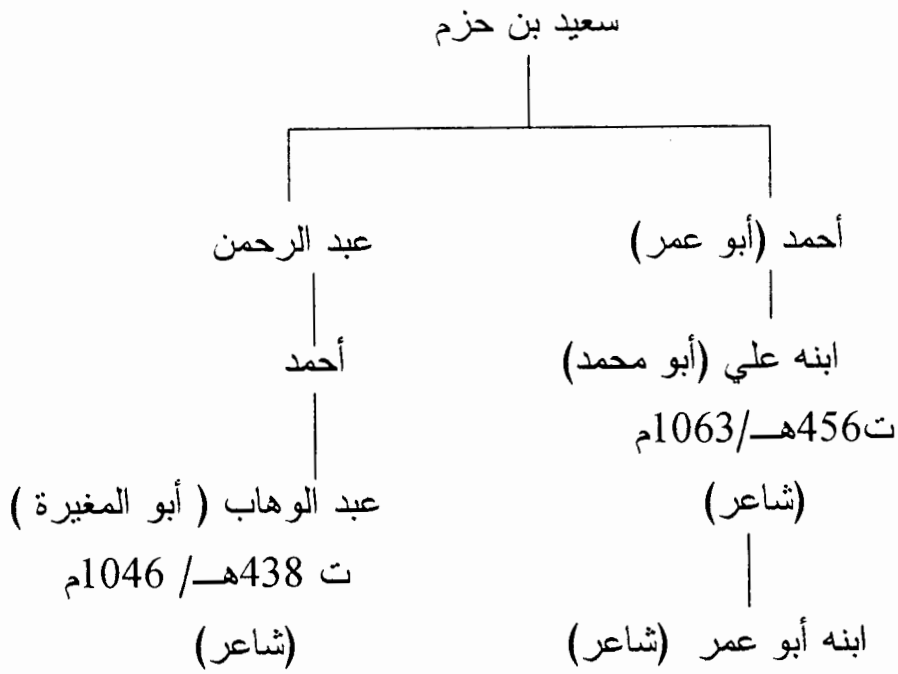

---

[1] ابن خاقان، المطمح، ص280.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص168؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص355.

[3] ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي (ت685هـ/1286) رايات المبرّزين وغايات المميَّزين، حقّقه وعلق عليه د.محمد رضوان الداية، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، 1987م، ص127.

5.2.3.1 بنو شرف:

لقد ظهر هذا البيت في القيروان في بلاد إفريقية[1]، ولذلك ينسب أبناؤه إلى القيروان، وقد اشتهر عدد من أفراد هذا البيت بالأدب ونظم الشعر، ومن أشهرهم:

محمد بن شرف، أبو عبد الله:

هو محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجُذَامي القيرواني، يُكنَى: أبا عبد الله[2]. ولا نعرف شيئاً عن مراحل حياته الأولى ولا سنة ولادته، ولعلَّ عدم إيراد شيء عن تلك الفترة الأولى من حياته عائد إلى ندرة المعلومات التي وصلت إلينا، كما أن الذين ترجموا له من الأندلسيين لا يعرفون من حياته إلا ما كان في الأندلس، ويجهلون حياته في إفريقيا والقيروان، عندما كان في حضرة المعز بن باديس[3]، وذلك قبل ارتحاله إلى الأندلس سنة 450هـ/1058م بعد أن هاجمَها الأعرابُ سنة 447هـ/1055م.

لقد عاصر ابنُ شرف القيرواني ابنَ رشيق القيرواني، وكان لهما حظوة في مجلس المعز بن باديس في القيروان، ويُذكر أنَّه كانت بينهما منافسة ومناقضات ومعارضات، كما أنهما تهاجيا، وأقذع كلّ منهما في هجاءِ الآخر، لكن يُذكر أنَّهما لم يتقاطعا ولم يتعاديا[4].

---

(1) القيروان: مدينة عظيمة بإفريقية غبرت دهراً، وليس بالغرب مدينة أجلّ منها وهي مدينة مصرّت في الإسلام في أيام معاوية (الحموي، معجم البلدان، ج4، ص420).

(2) الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص110؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص169؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص22؛ ابن دحية، المطرب، ج1، ص66؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص359؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص66؛ الكيلاني، حلمي، ابن شرف القيرواني (حياته وأدبه)، مؤسسة البلسم للنشر والتوزيع، عمان، 1998م، ص48-50.

(3) هو المعز بن باديس بن المنصور بن بلقين ، ولد سنة 399هـ/1008م، تولّى الحكم وهو ابن سبع سنين، حكم القيروان إلى سنة 447هـ/1055م عندما أخرجه الأعراب منها. توفي سنة 454هـ/1062م. (ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص21).

(4) ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص170؛ ق4م2، ص598-599؛ الكتبي، المصدر السابق، ج3، ص359.

وكان ابن شرف عند وفوده على الأندلس قد سكَن المريّة، ثم تنقّل بين مدن الأندلس وبلاطات ملوك الطوائف، وتردّد على مجلس المأمون بن ذي النون (حكم 429-467هـ/1037-1074م)، ثم انتقل ابن شرف إلى إشبيلية وراسل المعتضدَ عباد، لكنَّه لم يتَّصِل به خشية بطشه، وخوفاً من غدره[1].

برع ابن شرف في نظم الشعر والتأليف، وإلى ذلك يشير ابن رشيق بقوله: "إنه كان يكتب القصيدة دون مسودَّةٍ وكأنَّه كان يحفظها"[2]. وذكر ابن بسام:" إنه كان في القيروان، من فرسان هذا الشان، وأحد من نظم قلائد الأدب، وجمع أشتات الصواب، وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرياح بأعطاف الغصون،..."[3].

كما برع أبو عبد الله ابن شرف في النثر الفني ووَضَعَ المقامات، ومن ذلك مقامةٌ نقديَّةٌ في الحديث عن الأدباء، وذِكْرِ الشعر والشعراء من العصر الجاهلي في المشرق، وحتى عصره سواء في المشرق أو بلاد الأندلس والمغرب[4].

وقد شقَّ ابن شرف لنفسه طريقاً في مجال النقد فله آراءٌ نقدية عديدة، فمقامته في الشعر والشعراء السابقة، هي آراء نقديَّةٌ حول الشعراء المذكورين، وذكرنا له رأيا في ابن دراج القسطلي _كما مرَّ في ترجمته_ كما تحدَّث ابن شرف عن قضية (توارد الخواطر) وهي من القضايا النقديَّة الهامَّة. ويرى أنَّه إذا طُلِب من شاعرين اثنين أو ناثرين معنىً واحداً في قافيةٍ واحدة أو سجع واحد، فإنَّه من المؤكَّد سيقع توارد الخواطر[5].

كما برز ابن شرف في مجال التأليف، فمن الكتب المنسوبة إليه كتاب (أبكارِ الأفكارِ) ، وكتابُ (أعلام الكَلام)، وكتاب (لُمَح المُلح)[6]، وهذه الكتب ألَّفها على غير

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص170-182؛ الكيلاني، ابن شرف القيرواني، ص80-88.

[2] الكيلاني، المرجع السابق، ص240، (نقلا عن مسالك الأبصار،ج11،ص240).

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص169-170.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص183-214، والمقامة هي كتابه أعلام الكلام وهو منشور.

[5] ابن ظافر، علي الأزدي، بدائـــع البدائـــة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو-المصرية، القاهرة، 1970م، ص240-242.

[6] ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص171؛ ابن دحية، المطرب، ص66، ولم يصل إلينا =

مثال سابق، فكتاب (أبكار الأفكار) كما ورد إنه يقع في سِفرين، وهو مشتملٌ على مائة نوع من المواعظ والأمثال والحكايات، ويراوح فيه بين الهزل والجدّ[1].

أنجب أبو عبد الله ابن شرف، من الأبناء عبد الله، وهو المذكور في كنيته، لكن ليس له ترجمةٌ ولا أخبارٌ في كتب القدماء سِوى ذكرِه في كنية والده، وكذلك أنجبَ جعفراً أبا الفضل، وتوفّي أبو عبد الله ابن شرف، على أغلب الروايات سنة 460هـ/1067م[2].

جعفر بن أبي عبد الله بن شرف :

هو ابن أبي عبد الله ابن شرف السابق، ويكنّى: أبا الفضل، وأغلب المصادر التي ترجمت له ذكرته بكنيته دون اسمه سوى ابن سعيد والسيوطي والمقّري[3].

ويختلف الباحثون في مكان ولادته، فمنهم من يرى أنَّها كانت في القيروان، وأنه دخل مع أبيه إلى الأندلس صغيراً، وذلك بعد خراب القيروان على يد الأعراب سنة 447هـ/1055م[4]، وقسمٌ آخر يرى أنَّها كانت في بُرجَةَ من أعمال المرية[5].

= منها إلا أعلام الكلام وهو منشور، أما الآخرين فلا ندري عنهما شيئاً.

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص179–180؛ ابن دحية، المطرب، ص66؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص359.

(2) الكتبي، المصدر السابق، ج3، ص359؛ الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي(ت626هـ/ 1228م)، معجم الأدباء" إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، تحقيق د.إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ج19، ص38؛ وذكرها السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر، 1979م، ج1، ص114، أنها كانت سنة 518هـ/1124م (انظر كيف دحضها حلمي الكيلاني في كتابه ابن شرف، 92).

(3) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص230؛ السيوطي، المصدر السابق، ج1، ص486؛ المقري، النفح، ج3، ص395، انظر: ابن خاقان، القلائد، ق4، ص791؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص867؛ ابن دحية، المصدر السابق، ص67؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص23.

(4) ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص867، فيقول: وطرأ أبوه على جزيرة الأندلس من بعد بلده القيروان وأبو الفضلِ هذا يومئذ لم يَصُبْ قطرُهُ ولا خَرَجَ من الكمَامَةِ زهرُه.

(5) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص230؛ المقري، المصدر السابق، ج3، ص395.

وعلى الرغم من تعدّد الروايات إلا أنّنا نستطيع القول إنّه ولد قبل سنة 450هـ/ 1058م، في تقديري.

نشأ أبو الفضل ابن شرف نشأةً أدبيةً، فقد تلقّى علومه على أبيه وأبي الوليد الوحشي وأبي عبد الله المرابط وغيرهم[1]، واستطاع لِسعَةِ ثقافته وحُسن نظمِه أن يصل إلى مكانةٍ مميَّزَةٍ في بلاط ملوك الطوائف آنذاك، ولا سيَّما في بلاط المعتصم ابن صمادح في المريَّة. إذ مدحه في عدة أشعار، وقد أدَّى ذلك إلى حسد بعض الشعراء المعاصرين له على المكانة التي حظي بها[2].

وقد عُرِفَ أبو الفضل بالأديب والحكيم والفيلسوف[3]، وذلك لشهرته في الأدب، أما الحكيم فلأنَّه كان صاحبَ حكمٍ، فقد ألّف مجموعين من الأمثالِ والحِكَم أحدهما شعراً والآخرُ نثراً، وقد تضمَّنا ما يشير إلى سِعَةِ اطِّلاعه وعمق تجربته في الحياة، ومال في مرحلة متأخِّرة من حياته إلى الطِّبِّ وترك الشعر، وإلى ذلك يشير ابن بسام: "ومن المَريَّة درج وطَارَه، وباسم صاحبها أنجَدَ ذكرَهُ وغار، وهو اليوم قد طلّق الشعر ثلاثاً، ونفضَ غزله بعد قوةٍ أنكاثاً، وارتسم في حُذَّاق الأطباء،..."[4].

أما في مجال الأدب فقد برز في الشعر، وقد أثبتَ ابن بسام في كتابه الذخيرة من أشعار أبي الفضل ما لم يفِ بقدرِه لعلوّها[5]، كما وصف بعض النقاد شعره بالمتانَةِ والخشونَةِ أحياناً وأحياناً يُقارِبُ المتنبي ويعارِضُهُ[6].

وقد ألّف عدة كتب في النحو والعروض وله معارضات لبعض الكتب مثل كتابه "الزمان" الذي يعارضُ به "كليلة ودمنة" [7].

---

[1] السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص486.

[2] المقري، النفح، ج3، ص395-396.

[3] ابن خاقان، القلائد، ق4، ص791؛ ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص867؛ المقري، المصدر السابق، ج3، ص395.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص867.

[5] ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص867-868.

[6] فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص226.

[7] الضبي، البغية، ص486؛ ابن دحية، المطرب، ص67.

توفي أبو الفضل بن شرف في القرن السادس الهجري، إذ طال عُمُرُهُ، لذلك جعله ابن سعيدٍ من شعراء القرن السادس الهجري[1]. وكانت وفاته في منتصف ذي القعدة سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (534هـ/1139م)[2].

أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل بن شرف:

هو ابن أبي الفضل ابن شرف، اشتهر بالأدب والفلسفة، وقد كان شاعراً وأديباً ووشَّاحاً، أي أنَّه سار على نهج أبيه وجدِّه وأهل بيته[3]، وقد اشتهر وذاع شعرُه في القرنين السادس والسابع الهجريين. وبذلك سيُستَثنَى من الدراسة لتأخُّرِ زمنِه واكتفيت بذكره لتوضيح أصالة البيت الشعرية. وفيما يأتي مخطط توضيحي لبيان العلاقة بين أفراد بيت بني شرف:

بنو شرف

أبو سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني

|

ابنه محمد (أبو عبد الله)

ت 461هـ/1068م (شاعر)

|

ابنه جعفر (أبو الفضل)

ت 534هـ/1139م (شاعر)

|

ابنه محمد (أبو عبد الله)

في القرن6هـ/11م (شاعر)

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص232.

[2] الضبي، البغية، ص259؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص130؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص486.

[3] ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص232؛ المقري، النفح، ج3، ص396.

6.2.3.1 بنو شُهيد:

اشتهر هذا البيت في عهد بني أمية والعامريين من بعدهم، ومؤسِّسُ هذا البيت هو عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعي، وكان جدُّهم شُهيداً مولى بني أمية، وبالأخصِّ مولى معاوية بن مروان بن الحكم، وقد دخل الأندلس في أيام عبد الرحمن بن معاوية. ويذكر أن جدَّهم الوضَّاح كان يعمل بيطاراً قبل أن يوالي بني أمية[1].

اشتهر أفراد هذا البيت بالوزارة والأدب، فقال الضبي في حق عبد الملك مؤسس البيت: "من بيتِ أدبٍ ووزارةٍ وجلالةٍ، وهو أبو جدِّ أبي عامر بن شهيد"[2]، وقد أورث هذه المكانة لأبنائه من بعده، فيقول ابن الأبار: "وتصرَّف بنوه للخلفاء في الخُطَطِ السَّنيَّة، من الإمارة والحجابة والوزارة والكتابة، إلى انقراض الدولة الأموية بالأندلس"[3].

وقد تولَّى عبدُ الملك بن عمر الوزارة في عهد الأمير محمد بن عبد الله (ت 300هـ/912م)، وبقي كذلك في عهد ابنه الناصر عبد الرحمن (ت350هـ/961م) من بعده، فقال عنه ابن سعيد: "أن الأمير محمداً استوزَرَهُ، وجالس الناصر"[4].

وقد توارث الحظوة والمكانة السياسية أبناءُ عبد الملك وأحفاده من بعده، ومن أشهر أبنائه الذين اشتهروا بالأدب والسياسة ابنه أحمد أبو العباس.

أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد:

يُكنَى:أبا العباس، وأبا عمر[5]. وقد عاش أحمد في كنف أبيه، في أيام العامريين، واستوزره الناصرُ، وكان يرى أحمدُ أنَّه لن تكون له شهرَةٌ بوجودِ أبيه،

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص77؛ ابن الابار، الحلة، ج1، ص238، ويضيف اسمَ شُهيد بين محمدٍ وعيسى في النسب؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص116، وهذا السند في النسب يشترك مع سند نسب أبي عامر الشاعر الذي ترجمت له الكتب.

[2] الضبي، البغية، ص381.

[3] ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص238.

[4] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص77-78.

[5] ابن خاقان، المطمح، ص166 "أبا العباس"؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ص237 "أبا عمر".

ولعل سبب ذلك يعود في ظنِّه إلى أنَّ شهرتَهُ ستكون مرتبطَةً بشهرةِ والده وجاهه، إذ يقول ابن سعيد على لسانه في ترجمته لأبيه:"...واستوزر الناصر ابنه أحمد الشاعر، وكان أحمد يقول: لا يخلُصُ لي جاهٌ ما دام أبي في الحياة "[1].

برع أحمد في الأدب إلى جانب السياسة، حتى لُقِّبَ بذي الوزارتين، وكان أول من لُقِّبَ بهذا اللقب، وحملهما على ارتفاع منزلتهما وسمُوِّهما[2].

كان أحمد بن عبد الملك وزيراً في حضرة الناصر، وكان عبد الملك بن محمد بن جَهْوَر وزيراً عند الناصر، ويلقّب ابن جهور –الجدِّ– (بالحِمَار)، وعندما زاره ابن شهيد هذا امتنع ابن جهور عن استقباله، فهجاهُ ابنُ شهيد بلقبِه الحمار وعيّبَه عليه، ممَّا دفع ابن جهور إلى الردِّ عليه وهجاه بجدِّه وضنّاح–أبا هشام، الذي كان يعمل بيطاراً قبل أن يخدم معاوية بن المروان الحكم[3]. وهذه القصة تعكس لنا ثقافة ذلك المجتمع، واستحقاره لمهنة البيطرة، فهي من المهن التي تعابُ على صاحبها.

وقد نظم أحمدُ الشعرَ، وشهد له ابن سعيد كما ذكرنا سابقاً بالشاعريَّة، وجاءت أشعاره في موضوعات عديدة فمنها الغزل والهجاء، وهي الغالبة على أشعاره، ولن ندرسها في الفصول اللاحقة، لتقدمها على زمن دراستنا، وكل ما يهمنا هو أصالة البيت الشعريّة.

عبد الملك بن أحمد:

وهو ابن أحمد السابق، ويُكنَى: أبا أحمد، وهو من أهل قرطبة، ونسبه الكثير إليها بقولهم: القرطبي[4].

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص77–78، انظر: الحميدي، الجذوة، ص207؛ الضبي، البغية، ص190.

[2] الحميدي، المصدر السابق، ص207؛ ابن خاقان، المطمح، ص166؛ ابن الابار، الحلة، ج1، ص238؛ الضبي، المصدر السابق، 190.

[3] انظر القصة في: الحميدي، المصدر السابق، ص207؛ ابن خاقان، المصدر السابق، ص168 –169؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص238؛ الضبي، المصدر السابق، ص190.

[4] ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص239؛ الضبي، المصدر السابق، ص374؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص521–522؛ الزركلي، الأعلام، ج4، ص156.

تولّى أبو مروان الوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر، وزاد على الوزارة بأنّه كان من ندماء المنصور، لذا فإنه شكّل نقطة التحوّل في عائلة بني شهيد، فبعد الجلالة التي سادت البيت، أصبح أبو مروان نديماً للخليفة، ثم تولّى في عهد هشام بن الحكم المؤيد (ت403هـ/1012م) أمرَ طليطلة[1].

أما من الناحية الأدبية والعلمية، فقد كان أبو مروان عالماً وعارفاً بالحديث، والأخبار والتاريخ، وقد ألّف كتاب(التاريخ الكبير)، وجعله في مائةِ مجلد، تحدّث فيه عن أخبار بلده من عام الجماعة 40هـ/660م، وانتهى به إلى أخبارِ زمانه حتى وفاته[2]. كما أنّه اشتهر إلى جانب ذلك بالبلاغة ونظم الشعر، قال عنه الضبي: "من أهل الأدب والشعر"[3].

توفي أبو مروان سنة(393هـ/1002م)، وكان عُمُرُه حوالي سبعين سنة، ولذلك تكون ولادته على الأغلب سنة 323هـ/934م أو قريباً منها، وقد كانت ولادته ووفاته في قرطبة[4].

أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد:

هو ابن أبي مروان، ويكنّى: أبا عامر[5]، ولعله هو سبب شهرة هذا البيت، إذ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص28؛ ابن الابار، الحلة، ج1، ص239؛ الضبي، البغية، ص 374؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج4، ص318-320؛ الزركلي، الأعلام، ج4، ص156.

[2] ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص521-522؛ فروخ، المرجع السابق، ج4، ص318-320.

[3] الضبي، المصدر السابق، ص374؛ انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص27-30؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج1، ص240-276؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص 521-522؛ فروخ، المرجع السابق، ج4، ص318-320.

[4] ابن بشكوال، المصدر السابق، ج2، ص522؛ السيوطي، بغية الوعاة، 311، ذكر أنّها سنة (493هـ/1099م) وهذا خطأ؛ الزركلي، االمرجع السابق، ج4، ص156؛ فروخ، المرجع السابق، ج4، ص320.

[5] ابن خاقان، المطمح، ص189؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص191؛ الضبي، المصدر السابق، ص191؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص78؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص635، ورد اسمه"محمد"؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص116؛ فروخ، المرجع السابق، ج4، ص455.

ترجم كثيرٌ من المؤرخين لهذا البيت بسببه وشهرته. ولد أبو عامر سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائه 382هـ/992م، فكان عُمْرُه عند وفاةِ والدِه إحدى عشرة سنة[1].

نشأ أبو عامر في بيت الخليفة الحكم، حيث كان أبوه، وقد منحهُ ذلك حظوةً ومكانةً عند المنصور بن أبي عامر، فقد حظي بالمكانة والوزارة في مجلس المنصور، وبذلك يكون قد سار على نهج سلفه من أهل بيته، كما أن ابن بسام جعله شيخَ الحضرةِ العظمى وفتاها[2].

مال أبو عامر إلى اللَّهوِ وشربِ الخمرِ، وكان منزلُهُ عامراً بالندماء، حتى إنَّهم كانوا حريصين على عدم التَغيُّبِ عنه، وامتاز بالرأي السديد، وحسن المشورة والكرم، حتى في أيام بطالته، مما أدى به إلى الفقر والإملاق[3].

كما امتاز أبو عامر بالبلاغة والفصاحة، ونظم الشعر والنثر، وقد مال في شعره وأدبه إلى الجِدِّ أحياناً، وإلى الهزل أحياناً أخرى، كما أنَّه جمع في رأي بعض النقَّاد بين أساليب عبد الحميد الكاتب والجاحظ وسهل بن هارون، ويظهر ذلك في رسائله ونوادره، وخاصة التي مال فيها إلى الفُكَاهَةِ والهَزْلِ [4].

وجعله الضبي "حاملَ لوائَي الشعرِ والبلاغةِ آنذاك، وأنَّه لم يخلِّف لنفسه نظيراً في ذلك "[5]. وقد جاءت معظم أشعاره في اللَّهوِ والخمرِ وإرضاءِ للحاكمين[6].

كما اشتهر أبو عامر بالتأليف، فله "رسالة التوابع والزوابع"، وكتابين هما: "حانوت عطار"، و"كشف الدّك وإيضاح الشّك"[7].

---

[1] الضبي، البغية، ص163؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص118.

[2] انظر: ابن خاقان، المطمح، 189-190؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص191-192.

[3] انظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص191؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص193.

[4] انظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص189؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص192.

[5] الضبي، المصدر السابق، ص193.

[6] انظر شعره: ابن خاقان، المصدر السابق، ص190-201؛ ابن خاقان، القلائد، ق2، ص439-443؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص199-336؛ الضبي، المصدر السابق، ص 192- 193؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص638-642؛ المقري، النفح، ج3، ص244.

[7] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص245؛ الأصفهاني، المصدر السابق، ق4ج2،ص638، ولم يصلنا منها سوى رسالة التوابع وهي محققه، وقد وردت في هامش سابق حيث اعتمدنا=

وقد أصيب أبو عامر في سنة 425هـ/1033م بمرض الفالج، بعد أن زاد عليه مرضُهُ السابق الذي دام عليه سنين، فأقعدهُ المرض وبقي على حاله حتى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ستٍّ وعشرين وأربعمائة 426هـ/1034م، عندما توفَّاه الله _ ويُذكَر أنَّه قد همّ لقتلِ نفسه من شدة المرض، لكنَّه لم يفعل_ وفجع الناس بموته، وشَهِدَ على قبره جمعٌ كثيرٌ وبكوه، ولم يُشهد مثله على قبرِ أحدٍ من قبله، وقد رثى نفسه قبل الوفاة، كما أنَّه أوصى أن يدفَن إلى جانب صديقه أبي الوليد الزجَّالي[1]. وقد ظهر من هذا البيت شعراء آخرون، لكن لم تُكثِر كتبُ التاريخ والأدب في الترجمة لهم، ومنهم:

شهيد بن عيسى بن شهيد :

ولعلَّه أخو جدِّ عبد الملك بن شهيد مؤسِّس البيت، أو أنْ يكون هو جدُّ عبد الملك على رواية ابن الأبار كما ذكرنا سابقاً. وقد اشتهر شُهيد بالشعر والأدب، فقال عنه الضبي: "من أجواد بني شهيد، بيت الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد، أديب شاعر، ذكر له مسلمة بن محمد بن عمر شعراً يفخر فيه بقيس"[2].

عمُّ أبي عامر بن شهيد :

ولم تشر المصادر إلى اسمه وذكر ابن سعيد أنه شاعرٌ وله شعر ذكره أبو عامر في كتابه حانوت عطار[3].

أخو أبي عامر بن شهيد :

كذلك لم تشر المصادر إلى اسمه ولكن ذكره أبو عامر في كتابه حانوت عطار، وذكر له ابن سعيد شعراً[4]. وفيما يأتي مخطط توضيحي يبين العلاقة بين أفراد بيت بني شهيد:

=عليها في بعض أشعاره، أم البقية فلم تصل إلينا ولا ندري عما آلت إليه.

[1] ابن خاقان، المطمح، ص200؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص328-334؛ الضبي، البغية، ص193، ابن سعيد، المغرب، ج1، ص85 ؛ ابن خاقان، وفيات الأعيان، ج1، ص118.

[2] الضبي، المصدر السابق، ص317.

[3] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص85.

[4] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص86.

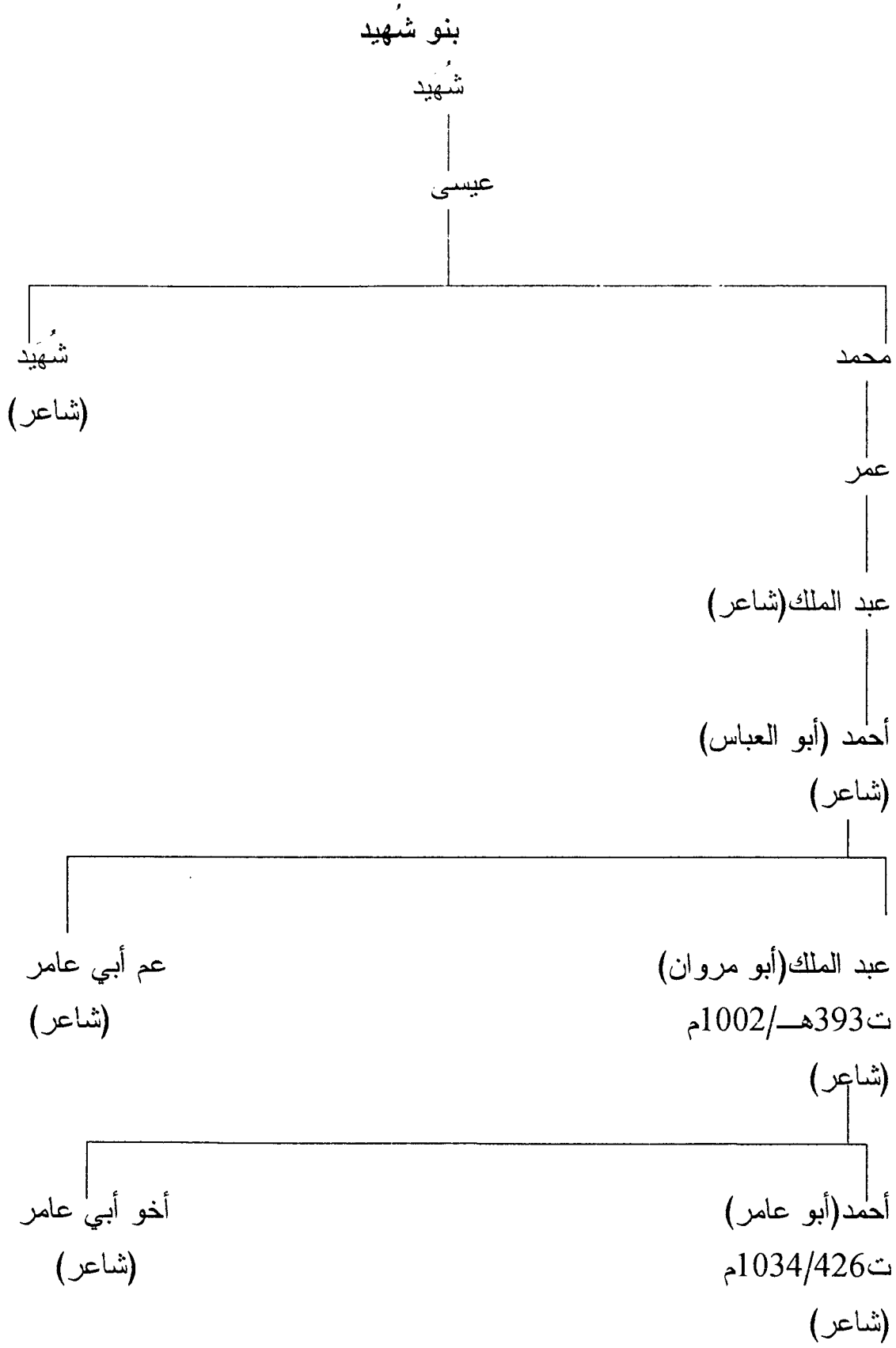
بنو شُهيد
شُهيد
عيسى
محمد
شُهيد
(شاعر)
عمر
عبد الملك(شاعر)
أحمد (أبو العباس)
(شاعر)
عبد الملك(أبو مروان)
ت393هـ/1002م
(شاعر)
عم أبي عامر
(شاعر)
أحمد(أبو عامر)
ت426/1034م
(شاعر)
أخو أبي عامر
(شاعر)

7.2.3.1 بنو الطبني:

بيت بني الطُبْنِي أصلُهم من طُبْنَة[1]، قاعدة الزّاب[2]، وهم ينسبون إليها، وهم من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مره بن أدد[3]، وهذا البيت بيت أدبٍ وشعرٍ وجلالةٍ في بلاد الأندلس. وممن اشتهر من أفراده بالشعر:

أبو مضر، محمد بن الحسين التميمي الطُبْنِي:

هو محمد بن الحسين بن محمد بن أسد بن محمد بن إبراهيم بن زياد بن كعب بن مالك التميمي الحمَّاني الطُبْنِي الزَّابي، ويكنَّى: أبا عبد الله[4]. وهو أصلُ بني الطبني، وأوّل من بنَى شرفَهم وأشهرهم في قرطبة[5]. ولد أبو مضر في طُبْنَة ببلاد إفريقية سنة 300هـ/912م[6]، وعاش فيها، ثم وفد على الأندلس سنة 331هـ/942م[7]، اشتهر بالعلم والأدب.

اقترب أبو مضر من قلوب الملوك لظرافته وتفنُّنِه بالأدب، واشتهر بمعرفته بأخبار العرب وأنسابهم، كما أنَّه كان كثيرَ الشعر، متقِنَ الأدب، كثيرَ الإصابة والبديهة في النظم، وقد أوردت المصادر أشعاراً له[8].

---

[1] طُبْنَةَ: بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزَّاب ، فتحها موسى بن نصير. (الحموي، معجم البلدان، ج4، ص21).

[2] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص92.

[3] الحميدي، الجذوة، ص161؛ الضبي، البغية، ص145.

[4] الحميدي، المصدر السابق، ص91؛ الضبي، المصدر السابق، ص68؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص861. وذكره بالحصاني، وما أثبتناه الأصح.

[5] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص536؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص206.

[6] الضبي، المصدر السابق، ص68-69، وذكر ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص861، أنه ولد سنة 333هـ/944م، وهذا غير صحيح _كما سيمر في السطر اللاحق_ يؤخر ولادته على قدومه للأندلس.

[7] الضبي، المصدر السابق، ص68-69؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج3، ص861 وفد سنة 325هـ.

[8] انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص91؛ الضبي، المصدر السابق، ص69؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص207.

توفي أبو مضر في قرطبة سنة 394هـ/1003م[1]، وقد أنجب أبناء نجباء فضلاء، نظموا الشعر[2]. ولم تصل إلينا تراجمهم وأشعارهم، وقد تُرجِم لأحفاده في القرن الخامس الهجري، ومنهم:

محمد بن يحيى بن أبي مضر:

هو محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين الحمّاني السعديّ الطُبْنِي، يكنَّى: أبا عبد الله[3]. واشتهر أبو عبد الله بالشعر، وكان يجالس الملوك والوزراء، فقد جالس أبا الحزم بن جهور وابنه أبا الوليد، وصحب ابن شهيد. وقد أوردت الكتب التي ترجمت له بعضاً من أشعاره[4].

إبراهيم بن يحيى بن أبي مضر الطُبْنِي:

يُكنَى: أبا بكر، تولَّى الوزارة لذلك يوصف بالوزير[5]، اشتهر بالأدب ونظم الشعر، وقد وردت في بعض كتب التراجم أشعار له، وقد كان معاصراً لابن عمّه الأديب أبي مروان عبد الملك بن زيادة الطُبْنِي ت 457هـ/1064م[6].

عبد الملك بن زيادة الله بن أبي مضر الطُبْنِي:

هو عبد الملك بن زيادة الله بن أبي مضر التميميّ الحمَّانيّ الطُبْنِي، يُكنَى: أبا مروان، أصله من طُبنَة، وعاش في قرطبة، ولد سنة 396هـ/1005م[7].

---

(1) انظر: الضبي، البغية، ص69؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، ص861؛ الزركلي، الأعلام، ج6، ص98.

(2) انظر: الحميدي، الجذوة، ص91؛ الضبي، المصدر السابق، ص68-69؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص207.

(3) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص161؛ الضبي، المصدر السابق، ص145.

(4) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص161-162؛ الضبي، المصدر السابق، ص145؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص92.

(5) الحميدي، المصدر السابق، ص246؛ الضبي، المصدر السابق، ص227.

(6) انظر قصتهما في مجلس أبي محمد علي بن أحمد في، الحميدي، المصدر السابق، ص246؛ الضبي، المصدر السابق، ص227.

(7) الحميدي، المصدر السابق، ص449؛ الضبي، المصدر السابق، ص378-379؛ ابن سعيد، المصدر السابق ،ج1،ص92؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص109 وذكره (الطيني).

عاش أبو مروان بداية حياته في الأندلس، ثم رحل إلى المشرق لأكثر من مرة، وزار مصر والحجاز، وسمع من شيوخها وحدث فيها، ثم رجع إلى الأندلس، وقيّد كثيراً من الأخبار في أسفاره[1].

عرف أبو مروان بأنَّه كان عالماً بالفقه والحديث، والرواية والشعر، واللغة العربية[2]، لكنَّه كان بخيلاً وكثير التقتير على أهل بيته، مما كان السبب في مقتله، وقصة مقتله مشهورة تناقلتها الكتب[3]. وقد برع أبو مروان بنظم الشعر، ولعله كان من أشعر بني الطبني، فقد كان ينظم الشعر على طريقة العرب، وارتفع إلى أعلى مراتب الشعر آنذاك[4]. وقد أوردت المصادر أشعاراً مختلفة له.

توفي أبو مروان في قرطبة، وذلك في حادثةِ قتلٍ من أبشع الحوادث، وكان ذلك سنة 457هـ/1064م[5]. وترك من الأولاد ابنين هما: عبد الرحمن وزيادة الله، المسمَّى على اسم جدِّه، ولزيادة الله يدٌ في قتلِ والدِه بالتعاون مع أمِّهِ وأمِّ أخيه[6].

علي بن عبد العزيز بن زيادة الله بن أبي مضر الطُبْنِي:

يُكنَى: أبا الحسن، واشتهر بنظم الشعر، وجعله الحجاري _كما ورد في المغرب_ "من أشعرِ بني الطُبْنِي"[7]، وتناقلت كتب التراجم أشعاراً له[8]. ولم أجد

---

(1) الحميدي، الجذوة، ص449؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص537؛ الضبي، البغية، ص378؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص92؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص109.

(2) ابن خاقان، المطمح، ص268؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص539.

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص537-540؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج، ص93.

(4) ابن خاقان، المصدر السابق، ص268؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص535؛ الضبي، المصدر السابق، ص378.

(5) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص537؛ وذكر الضبي، المصدر السابق، ص379؛ والسيوطي، المصدر السابق، ج2، ص109 أنه توفي سنة 456هـ/1063م؛ أما الحميدي، المصدر السابق، ص449، ذكر أنه توفي بعد 450هـ/1058م؛ وابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص92 ذكر أنه توفي سنة 427هـ/1035م، ولعلها أضعف الروايات.

(6) انظر القصة عند ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص537-540.

(7) ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص93. ينقل عن الحجاري في المسهب.

(8) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص547-548؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص93.

أخباراً تعين على معرفة مجريات حياته سوى ما يشير إليه ابن بسام من أنه عاش زمن ملوك الطوائف. وفيما يأتي مخطط توضيحي يبين العلاقة بين أفراد البيت:

بنو الطُبْنِي

محمد بن الحسين الطبني(أبو مضر)

ت 394هـ/1003م

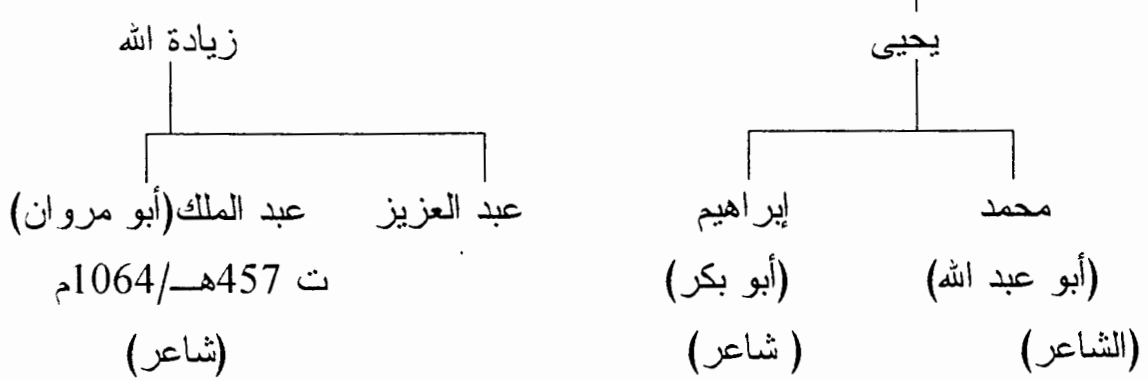

8.2.3.1 بنو عبد الصمد :

الصَّمديُّون قومٌ من ذوي الهيئات، متقدِّمون في الكتابة وأدوات أهل النَّبَاهَات، وأصلهم من إقليم الشِّبتَان من كورة جيّان[1]، وجدُّهم الأوّل هو السمح بن مالك بن خولان، أحدُ أمراء الأندلس[2]. ومن أدباء وشعراء بني عبد الصمد:

أبو عبد الصمد:

عاش أبو عبد الصمد في سرقسطة في ظل بني ذي النُّون، ويرى ابن بسام أنَّه من سلف أبي بحرٍ الشاعر المشهور، وقد كان من شعراء ذلك العصر، وكان معاصراً لأبي عامر بن عبدوس، واجتمع به في الثغر، وعاصر ابن برد الأصغر[3].

---

[1] جَيَّان: مدينةٌ لها كورةٌ واسعةٌ بالأندلس، تتَّصل بكورة إلبيرة، مائلة عنها إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة سبعةَ عشرَ ميلاً (الحموي، معجم البلدان، ج2، ص195).

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص809؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص203.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص818-819.

لقد برع أبو عبد الصمد بالكتابة، فله رسائل نثرية أشار إليها ابن بسام، كما أنه كان جمّاعة للكتب فعنده خزائنُ اجتمع فيها زهاء خمسمائة رسالة، إضافةَ إلى مطوّلاتٍ من القصائد[1]، فهو ناثرٌ وشاعرٌ غير أن أشعاره ضاعت ولم تصل إلينا.

وتميز أبو عبد الصمد بأنَّه مال في أدبه إلى استخدام وحشيِّ الألفاظِ وغريبِها، ويذكر أنَّه سأله أحد أصحابه عن سبب تعقيده في كلِّ وصف، فشتمه وقال له:" أتُنكِرُ أن استعملَ الغريبَ وفصيحَ الكلامِ ؟ لو كان في طبعك ما مجَّه سمعُك"[2].

أبو بحر بن عبد الصمد:

هو يوسف بن أبي القاسم خلف بن أحمد بن عبد الصمد، وكان في زمان ملوك الطوائف، يُكنَى: أبا بحر[3]. خدم والِدُه أبو القاسم الخزانة في المريّة. وذلك زمن خيران العامريِّ، وكذلك دولة المنصور بن أبي عامر، وقد توفي زمن بني صُمَادح حوالي سنة 408هـ/1017م. ثم سار بنوه وقرابته على نهجه أيضاً في خدمة الخزانة[4].

اشتهر أبو بحر بالأدب ووصفه ابن بسام بأنه: "بحرُ نُبْلٍ كاسمِهِ، في نثرِه ونظمِه. حسنُ الحديثِ، حاضرُ النادرة، ذو رويّة وبديهة"[5].

ولم تذكر المصادر الأندلسية تاريخ وفاته، ولكنَّها كانت على الأغلبِ بعد دخولِ المرابطين على الأندلس، وسقوطَ دولة بني عباد، وممَّا يدلُّ على ذلك ما ورد عنه في رثاء المعتمد بن عباد (ت 488هـ/1095م)، إذ كان شاعرَهُ المتَّصلَ به، المتوَصِّل إلى المنى بسببه[6].

وفيما يأتي مخطط توضيحي لبيان العلاقة بين أفراد بيت بني عبد الصمد:

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص818-819.

(2) ابن بسام، المصدر السابق.

(3) انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص809؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص203؛ وقد ذكره ابن خاقان، القلائد، ق1، ص160 بكنية "أبي بكر"، وقد تفرّد فيها.

(4) ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص809-810.

(5) ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص810؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص203.

(6) ابن خاقان، المصدر السابق، ق1، ص106-108؛ ابن سعيد، المصدر السابق،ج2، ص203.

بنو عبد الصمد

أبو عبد الصمد/ القرن الثالث الهجري/ (شاعر)

|

خلف بن أحمد بن عبد الصمد

(أبو القاسم)

ت408هـ/1017م

|

ابنه يوسف(أبو بحر)

توفي بعد 488هـ/1095م

(شاعر)

9.2.3.1 بنو القُبْطُرْنَـــــــة :

اختلف مؤرِّخو الأدب الأندلسيِّ في اسم هذا البيت، فقال عنهم ابنُ خاقان:" بنو القُبْطُرْنَةِ"[1]. وذكرهم العمادُ الأصفهاني بلفظ: "بني القَنْطَرِيَّة"[2]. أما ابن سعيد فقال عنهم:" بنو القَبْطُورِنَّة"[3]. وذكرهم فروخ من المحدثين بلفظ:"بنو القَبْطَرْنُوه"[4]. ولم أجد لها مثيلاً عند القدامى. أما ابن بسام فقد تحدَّث عن أدبهم، لكنَّه لم يشر إلى هذه التسميات، وإنَّما نسبَهم إلى بلدهم بَطَلْيَوس[5]. وسنعتمد في الدراسة تسمية ابن خاقان(بني القُبْطُرْنَةِ)؛ لأنها الأكثر شيوعاً.

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق2، ص429؛ ووافقه في هذه الرواية ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 520؛ المقري، النفح، ج1، ص636؛ ابن ظافر، بدائع البدائة، ص196؛ ابن دحية، المطرب، ص186 وذكر أنَّها وردت في القلائد "بنو القبطرنية" لكن لم أجد لها إشارة في هذه النسخة.

[2] الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص312.

[3] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص367-368؛ واعتمدها بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص120.

[4] فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص122.

[5] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص753؛ انظر: ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص520.

اشتهر بنو القُبطرنة بالوزارة في دولة بني الأفطس في بطليوس، وكانوا كتّاباً عند المتوكل بن الأفطس، ولكنَّهم بعد سقوط حكمِ الطوائف دخلوا تحت راية المرابطين[1].

امتاز بنو القبطرنة وهم ثلاثة إخوة بالأدب والعلم إلى جانب الوزارة، وذكر ابن خاقان أنَّهم أفضلُ الجلساءِ" هم للمجدِ كالأثافي، وما مِنْهُم إلاَّ موفُورُ القَوادِمِ والخوافي، إنْ ظهروا أزهَروا، وإنْ تجمَّعُوا تضوَّعوا، وإن نطقُوا صدقوا، ماؤهم صفوٌ، وكلُّهم كفوٌ"[2].

كما جعل ابنُ بسام العلم فيهم وراثةً، وينتهي علمُ الناس عند علمهم، وذلك في ترجمته لأبي بكر– أحدهم–، فيقول: "...من أسرةٍ أصالة، وبيتِ جلالة، أخذوا العلم أوَّلاً عن آخر، ورَوُوهُ كابراً عن كابر، وهم منتَهَى قولِ القائل، وأُعجُوبة الأواخر والأوائل"[3]، كما عدّهم لسانُ الدين بن الخطيب " عيوناً من عيون الأدب بالأندلس ممَّن اشتهروا بالظَّرفِ وبالسَّروِ والجَلالَةِ"[4].

وتشير كتب التراجم إلى أنَّهم قد انصرفوا إلى اللهو والخمر بالرغم من الجلالة التي وُصِفوا بها، وذكروا النساء، ويرى فروخ أنَّهم في أشعارهم لم يكونوا من ذوي المبادئ السامية، وأنَّه لم يكن لهم اهتمامٌ في الحياة الأخرى سوى اللَّهو[5]، وأرى أنه قد أصاب بأنَّهم لم يحافظوا على جلالة مكانتهم، أما عدم اهتمامهم بالحياة فهذا غير صحيح، فلو لم يكن لهم اهتمامٌ لمَّا بلغوا تلك الحظوة في ديوان المتوكل بن الأفطس وكتبوا له، ثم عند اللِّمتُونيِّين من بعده، وأدباء هذا البيت وشعراؤه ثلاثةُ إخوة هم:

---

[1] انظر: ابن خاقان، القلائد، ق1، ص144؛ ق2، ص435–436؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص520–521؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص312؛ ابن دحية، المطرب، ص186؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص122.

[2] ابن خاقان، المصدر السابق، ق2، ص429.

[3] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص753؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص520.

[4] ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص520.

[5] فروخ، المرجع السابق، ج5، ص122–123.

عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي :

ويُكنَى: أبا بكر[1]، ولم ترد أخبارٌ عن مرحلة حياته الأولى، وبلغت شهرته عندما كتب للمتوكل بن الأفطس ثم ليوسف بن تاشفين قائد المرابطين[2].

عاش أبو بكر في أثناء حكم بني الأفطس، وبقي إلى القرن السادس الهجري، ويذكر الكُلاعي أنَّه كانت بينه وبين أبي بكر هذا مكاتبات في سنة 507هـ/1113م، ويشهد له بالأدب، فيقول: " والوزير أبو بكر من رؤساء العصر، في صنعة النظم والنثر، واتَّفقت بيني وبينَه سنةَ سبعٍ وخمسمائة مكاتبةٌ، وجرت بيننا مراسلة، ومخاطبة، ذكرت منها في ثمرةِ الأدبِ ما أشهى من الشنَبِ، وأحلى من الضرب- إن شاء الله- "[3].

وقد بلغ أبو بكر من الشهرة منزلةً جعلت ابن بسام يمنَحُه المكانةَ العليَّة فيهم، حيث يقول: "ولم يحضُرني من أشعارِهم ومستَطْرَفِ أخبارِهم حين إخراجي هذه النسخة من هذا المجموع، إلاَّ ما أثبَتُّه لأبي بكر منهم خاصة، وهو عَلَمُ بُردِهم، وواسطَةُ عِقدِهم"[4].

وأشير هنا إلى أنَّ أبا بكر هذا قد نال المنزلة المرموقة مع إخوته على الرغم من أنَّه كان أصغرهم. ويذكر أنَّه تولَّى الوزارة قبل أن يلتحي، ومن الألقاب التي لحقت به "الرئيس الكاتب، الوزير الخطير"[5]، أمَّا وفاته فيُذكر أنّها كانت سنة خمسمائة وعشرين للهجرة 520هـ/1126م[6].

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق2، ص435؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص753؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص520؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص122 وذكر أن تسمية "البطليوسي" اكتسبها لطول مكوثه عند بني الأفطس في بطليوس.

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص521.

[3] الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي (القرن6هـ/12م)، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ص137.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص753.

[5] فروخ، المرجع السابق، ج5، ص123.

[6] فروخ، المرجع السابق.

طلحة بن سعيد بن عبد العزيز[1]:

يُكنَى: أبا محمد[2]، وهو أسنُّ بني القبطرنة، كتب للمتوكِّل بن الأفطس، واتَّصل بابن خاقان وراسله[3]، ويُذكَر أنَّه اتَّصل بالمعتمد بن عباد، وبعد انتهاء دولة بني الأفطس، اتَّصل أبو محمد بيوسف بن تاشفين، وكتب له هو وأخواه[4]. وقد نظم أبو محمد أشعاراً كثيرة تناقلتها كتب الأدب[5].

أما وفاته فيذكر أنَّها كانت في أثناء حياة أخيه أبي بكر؛ أي قبل سنة 520هـ/ 1126م، لكن لم ترد إشارةٌ صريحةٌ إلى سنة وفاته[6].

محمد بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي:

يُكنَى: أبا الحسن[7]، وهو ثالث الأثافي الذين ذكرهم ابن خاقان، ويظهر أنَّه كان كاتباً عند المتوكل، ثم عند يوسف بن تاشفين[8]. كما أنَّه برع بنظم الشعر، ولعل أخبار المجلس الشعريِّ الذي دار بينه وبين إخوته عند مبيتِهم ذات ليلة في روضة (البديع) التي يمتلكها المتوكل بن الأفطس تدلِّلُ على قدرته الشعرية[9]. وقد

---

(1) هكذا ذكره ابن الابار، التكملة، ج1، ص237؛ وذكره ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص521 بلفظ (طلحة بن عبد العزيز بن سعيد بن القبطرنة)؛ فخلط بين الأب والجدّ .

(2) انظر: ابن خاقان، القلائد، ق1، ص144؛ ق2، ص429؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص 753؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص520.

(3) انظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ق1، ص144؛ ق2، ص429.

(4) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص521.

(5) انظر أشعاره: ابن خاقان، المصدر السابق، ق1، ص144؛ ق2، ص430-434؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص772-773، ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص521.

(6) انظر: فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج5، ص123.

(7) ابن خاقان، المصدر السابق، ق2، ص436؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص753؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص520؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص121؛ فروخ، المرجع السابق، ج5، ص123.

(8) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص521.

(9) انظر:ابن خاقان، المصدر السابق، ق2، ص444؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص 772-773؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص522؛ بالنثيا، المرجع السابق، ص121.

سكتت المصادر على تاريخ ولادته وتاريخ وفاته. وفيما يأتي مخطط توضيحي لبيان العلاقة بين أفراد بيت بني القبطرنة:

بنو القُبْطُرنَة

سعيد بن عبد العزيز بن القُبطُرنَة

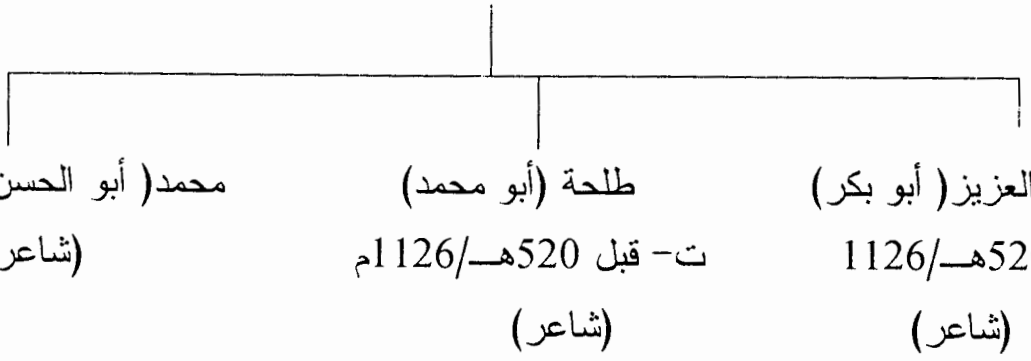

10.2.3.1 بنو النغرلّة اليهودي:

اشتهر كثيرٌ من اليهود في الأندلس بالأدب والشعر، ولا سيَّما الشعر العربي، وقد أشار المقّري إلى طائفة منهم[1]، ومن البيوت اليهودية التي اشتهر بنوها بالأدب إلى جانب السياسة "بنو النِغرِلَّة"[2]. وهو بيتٌ مشهورٌ في اليهود بغرناطة[3]، ومن شعراء هذا البيت :

إسماعيل بن يوسف بن النغرلة اليهودي:

كان أبوه رجلاً من عامة اليهود، حَسَنَ السيرة فيهم، تولّى جباية الأموال من اليهود لباديس بن حبُّوس ووالده من قبله في غرناطة. كما أُوكِلَت إليه إدارة كثيرٍ من الأعمال التي تخصُّ اليهود[4]، ويُكنَى إسماعيل: أبا إبراهيم[5].

---

[1] المقري، النفح، ج3، ص518-533.

[2] ورد اسم العائلة بعدة صيغ، ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص761 وردت" النغريلي"؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص114 وردت"النِغرِلّة"وسنعتمدها في الدراسة؛ ابن زيري، الأمير عبد الله، مذكراته-المسمى "التبيان"، نشر وتحقيق إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1955، ص37 وردت " نغرالّة" بتشديد اللام.

[3] ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص114.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص766.

[5] ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد (ت456هـ/1063م)، رسالة في الردّ على ابن=

تولَّى إسماعيل منصب والده عند باديس، ولكنَّه كان على خلافه، فقد استهزأ بالمسلمين وتكبَّر على الرعية، حتى يذكر أنَّه كان يغسلُ يديه من القُبَلِ، كما جاهر في الطعن على مِلَّةِ الإسلام. ولسوء أخلاقه ومعاملته؛ تشاءمت اليهود باسمه وتظلّمت من جَوْرِ حكمه. على الرُّغمِ من كلِّ ما كان يعمله من أجلهم. وكان قد تسمى من خطط اليهود بـــ(الناغيد أو الناغيذ) وهي عبرية تعنِي (المُدبِّر)، وهي صفة وخطة تحاماها قدماؤهم[1]. قال عنه ابن السقَّاء:" لا بأس بإسماعيل لولا أنه نَسِيَ اليهوديَّةَ"[2].

سعى إسماعيل إلى تهميش دور رئيسه باديس، فأشغله بالمُجُونِ والخمرةِ وأخذَ يتصرَّف بأمور السياسة كيفما يشاء، حتى لا يكادُ يفرَّق بين الرئيس والوزير، ثم أخذَ يدبِّر للقضاءِ على سلطانِ باديس، وذلك بالتآمُرِ والتعاون مع المعتصم بن صمادح في المرية فأغراه بغرناطة، وكان ينوي القضاءَ عليه عندما يسيطرُ عليها، فتخلُو له غرناطة وسلطانها، ورتَّبَ للمؤامرةَ دون علمِ باديس، لكنَّ أهلَ غرناطة اكتشفوا أمرهَ، فأفشلوها وثاروا عليه وهتكوا حُرَمَهُ وقتلوه، وقُتِلَ معه حوالي نَيِّفٍ على أربعةِ آلافٍ من اليهود، فكانت هذه الحادثة من أكثر ملاحم بني إسرائيل[3].

أما في مجال الأدب، فقد كان أبو إبراهيم كاتباً بين يدي أبي العباس كاتبِ حبّوس، وعندما توفِّيَ أبو العباس، جعل حبّوسُ أحدَ أبناءِ أبي العباس كاتباً، لكن هذا الابن ما زال في مرحلة الطفولة، ممّا سهّل لإسماعيل خدمةَ الرئيس وتهميش دور هذا الفتى، فأكثرَ من حضور مجلس حبّوس وخاصةً عند غيابِ ولدِ أبي العباس، فإذا

=النغريلة، رسائل ابن حزم، تحقيق د.إحسان عباس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م، ج3، ص7؛ ابن زيري، التبيان، ص30.

[1] وردت هذه الأخبار بهذه الصيغة عند ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص766-769؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص114، وهي منسوبة لإسماعيل؛ أما ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص439-440؛ ابن زيري، التبيان، ص30-55؛ ابن حزم، رسائله، ج3، ص7-15؛ فقد نسبت إلى ابنه يوسف.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص767.

[3] انظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2، ص766-769؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص114.

سألَه عنه حبُّوس أجابه معتذِراً عنه، ومطالِباً الحظوة والقُرْب في لحنِ القول، فيقول: "ولَدُ أبي العباس، كما ترى صبيٌّ يؤثر الراحة، وأنت جديرٌ بالإغضاءِ عليه وإقامةِ عذرِه، وأنا عبدُه، أنوبُ منابَه، فمُرْني بما شئت، يتهيَّأْ ذلك"[1].

وكان إسماعيل هذا كاتباً وأديباً متقفاً، كتب رسالةً طعن فيها بالإسلام والقرآن وجاهر بها، وقد ردَّ عليه أبو محمد ابن حزم في إحدى رسائله[2]. كما برع في مجال الشعر، وله أشعارٌ باللغتين العربية والعبرية[3]، وقد استثنيتُ أشعاره العبرية لخروجها عن مجال الدراسة. وقُتِلَ إسماعيل سنة 459هـ/1066م بغرناطة[4].

يوسف بن إسماعيل بن النغرلّة اليهودي:

يُكنَى:أبا حسين[5]. كان صغيراً عندما قُتِلَ أبوه، فهرب إلى إفريقية[6]، عوَّده أبوه على مطالعة الكتب، فجمع المعلمين والأدباء، وجعله متعلِّقاً بصناعة الكتابة، ورشّحه لكتابة بُلكين بن باديس أميرِ غرناطة[7]. برع يوسف بن النغرلة إلى جانب الكتابةِ بالشعرِ، فله شعرٌ أرسل به إلى أهل غرناطة من إفريقية بعد مقتل والده[8].

قسمونة بنت إسماعيل بن يوسف:

هي ابنة إسماعيل، اعتنى أبوها إسماعيل بتأديبها حتى أصبحت شاعرة كبيرة، إذ يروى أنها أجازت بيتا من الشعر نظمَهُ والدُها، ممَّ أثار إعجابَه، فقام كالمُختبِلِ وضمَّها إليه، وأخذ يقبِّلُ رأسَها ويقول: "أنتِ والعشرِ كلماتٍ، أشعرُ مني"[9].

---

(1) ابن زيري، التبيان، ص30-31.

(2) ابن حزم، رسائله، ج3، ص7-69؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص766.

(3) ابن حزم، المصدر السابق، ج3، ص11-12؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص114؛ انظر شعره العبري في بحث عبد الحميد، محمد بحر، "الأدب العبري في الأندلس"، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، م15، 1975-1978م، ص121-137، ص121-137.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص439.

(5) ابن حزم، المصدر السابق، ج3، ص7؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص439.

(6) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص115.

(7) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص439.

(8) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص115.

(9) المقري، النفح، ج3، ص530.

امتازت بأنَّها لم تنظِم الشعر فحسب، بل نظمت الموشحات، التي تتطلَّب مقدرة فنيَّة عاليَة ومهارة من الشاعر أو الوشَّاح فقد صنع والدُها قسماً من موشَّحٍ وأتمَّتْهُ. وفيما يأتي مخطط توضيحي لبيان العلاقة بين أفراد بيت بني النِّغرِلَّة:

بنو النِغْرِلَّة

يوسف بن النِغْرِلَّة اليهودي

إسماعيل (أبو إبراهيم)

ت 459هـ/1066م (شاعر)

يوسف (أبو الحسين) قسمونة(شاعرة)

ويمكن للباحث أن يخلص إلى القول: إن شيوع ظاهرة الاتصال الشعري في البيت الواحد في الأندلس في القرن الخامس الهجري، قد أسهم في اندفاع النشاط الشعري آنذاك، فانتشار الشعر بين أفراد بعض البيوتات الحاكمة أدَّى إلى زيادة اهتمامهم بالشعراء وتقريبهم إليهم وإغداق العطايا والهبات عليهم، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى أدَّى إلى أن يصبِحَ الشعرُ أمراً مشتركاً بين الأمراءِ الشعراء والشعراءِ من أبناءِ البيوتات الأخرى، وهذا كلُّه جعل الحركة الشعرية أكثر ازدهاراً وتطوراً.

الفصل الثاني

البعد العام في شعر البيوتات الأندلسية

تعدُّ موضوعات البعد العام من أهم الموضوعات التي نظم فيها شعراء البيوتات في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وتمتاز هذه الموضوعات بأنّها تمسُّ المحيط الخارجي للشاعر وليس ذاته.

ولمّا كان الإنسانَ كائناً يعيش في مجتمعه، ويتفاعل مع أحداثه المختلفة، فلا بدّ أنْ تكون له مواقف تجاه بعض قضايا المجتمع وهمومه، إضافة إلى أبنائه؛ لذا فقد تفاعل الشاعر معها وعبّر عن ذلك من خلال أشعار تعالج بعداً عاماً تحدده علاقة الشاعر مع من حوله.

ومن أكثرِ الموضوعات التي لها بعدٌ عام المديح والشعر الحربي وشعر الطبيعة والخمرة والحكم والمواعظ وكذلك الإجازات والتمليط.

وقد كان للبيئة الطبيعية التي نعمت بها الأندلس، والرفاه والترف واللهو والمجون الذي عاشه الناس، أثرٌ كبيرٌ في ازدهار بعض هذه الموضوعات وخاصةً في مجال شعر الطبيعة والخمرة والإجازات، أما الفتنة البربرية في مطلع القرن الخامس الهجري وازدياد الخطر الإسباني على الوجود العربي الإسلامي فقد نتج عنها حروب ومعارك تناولها شعراء البيوتات في أشعارهم، ولا سيما شعر المديح السياسي والشعر الحربي. وفيما يأتي دراسة لموضوعات البعد العام التي نظم فيها ذَوُو البيوتات الشعرية:

1.2 شعر المديح السياسي:

لقد ازدهر فن المديح السياسي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ازدهاراً كبيراً، وأصبح تجارة رائجةً، ويشير إلى ذلك الشَّقُندي بقوله: "ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادِي النَّوَاسِم بين الرّياض، وتفتِكُ في أموالهم فَتك البَرَّاص، حتى إنّ أحد شعرائهم بلغَ به ما رآه من منافسَتِهم (الأمراء) في أمداحِه أنْ حلفَ ألاّ يمدَحَ أحداً إلا بمائةِ دينارٍ"[1].

---

[1] المقري، النفح، ج3، ص190.

ولعل ذلك يعود إلى حاجة أمراء الطوائف إلى شعراء يتغنون بمحاسنهم، وينشرون فضائلهم ومناقبهم بين الناس، ويخلعون على حكمهم الشرعية الدينيّة والسياسية[1].

ولقد شارك شعراء البيوتات الأندلسية العامة في المدح السياسي الذي اشتمل على معانٍ سياسية مختلفة مثل إضفاء الشرعية على حكم الممدوح لأصالة نسبه، ودوره في إقامة الجهاد ضدّ الأعداء، وتأييد سياسة الممدوح الداخلية والخارجية وتمجيدها، إلى جانب التركيز على معاني المديح التقليدية وخاصة ما يتعلق منها بالكرم والجود والحِلم وغيرها.

تأكيد نسب الممدوح:

لقد كان هذا المعنى من أهم المعاني التي يقوم عليها مدح أمراء الطوائف وولاة الأمر، فقد تردّد عند معظم شعراء البيوتات العامة، فقد مدح ابن دراج القسطلي المنصور المنذر بن يحيى في قصيدة عندما عاد من غزوة، كان قد عقد فيها المصاهرة بين ابن فرذلند وابن راي مند، فيقول[2]: (الكامل)

فـــي جَحفَـــلٍ كَاللّيـــلِ جَـــرَّارٍ لَـــه مِـــن عِزِّ نَصرِكَ جحفلٌ جَـــرَّارُ

أُمدِدْتَ فِيـــــه بالملائكـــــةِ التِـــي نُصِرَت بِهـــا أعمامُـــك الأنصارُ

فهو يؤكد ارتفاع نسب المنصور بن يحيى إلى الخزرج من الأنصار، الذين نصروا الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك يرى أنّ أفعال المنصور استمرار لأفعال أجداده، فقد كرّس جهوده لنصرة الدين الإسلامي، فأمدَّ الله جيشه بالملائكة، كما أمدّ الله أعمامه الأنصار بالملائكة في بدر، إن ذلك مما يضفي على حكمه صفة الشرعية.

---

[1] بهجت، منجد مصطفى، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م، ص354-355.

[2] ابن دراج، أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي القسطلي (ت421هـ/1030م)، الديوان، حققه وعلق عليه وقدم له الدكتور محمود علي مكي، ط1، منشورات المكتب الإسلامي، بدمشق، 1961م ، ص151-153.

وقد مدح أبو الفضل ابن شرف نسب بني عبد العزيز الذين حكموا مرسية وبلنسية والمريّة، وذلك بقوله[1]: (الوافر)

مِن القَومِ العَزيزيّين مِن أهلِ الـــ ـــعُلَى والطَوْلِ والنّسبِ الصّراح
أقامُوا المَجْـــدَ فِي سَمْـكِ عَلِيٍّ ومدُّوا العِزّ في أرضٍ فَيَـــاح

فهو يمدحهم بشرف النسب وعلوّ المكانة والمجد، وانتشار عزّهم في شتى البقاع، وهي صفات تجعلهم أهلاً للحكم.

كما مدح أبو الفضل أيضاً المعزّ بالله أحمد بن المعتصم بن صمادح أمير المرية، بقوله[2]: (البسيط)

وإنّ أحمدَ فِي الدّنيَا وإنْ عظُمَــت لَــوَاحدٌ مُفردٌ فِــي عَالَــمِ أُمَــمِ
تُهدَى المُلُوكُ بِه مِن بعدِ ما نَكَصَت كمَا تَرَاجَعَ فَلُّ الجيــشِ بِالعَلَــمِ
رَحْبَ الذِّرَاعِ طَويلَ الباعِ مُتَّضِــحٌ كَــأنَّ غُرّتَهُ نَــارٌ عَلَــى عَلَــمِ
من المُلُــوكِ الأُلى اعتادَت أوائلُهم سَحبَ البُرُودِ ومَسحَ المسكِ باللَّمَمِ
زَادَت مرورُ الليالي بينَهُم شَرَفَــاً كالسّيفِ يزدادُ إرهَافَــاً عَلَى القدَمِ
تَسنَّمُــوا نَكَبَــاتِ الدَّهرِ واختَلَطُوا مَعَ الخُطُوبِ اختلاطَ البُرءِ بالسَّقَمِ

فهو يمدحه بأنه لا مثيل له في الدنيا وإن عظمت، كما أنّ جميع الملوك تهتدي به، ولا سيما بعد ما نكصت وخاب سعيها، فهو ينتسب إلى قومٍ من الملوك الأوائل الذين حكموا وتملَّكُوا الشَّرَفَ وعَلَتْ مكانَتُهُم فِي الدُّنيَا على مرّ السنين.

كما مدح ابن دراج القسطلي علي بن حمود بقصيدة مشهورة، وذلك عندما قصده من الأندلس إلى سبتة سنة 404هـ/1013م فقال في مطلعها[3]: (المتقارب)

لَعلَّك يَا شمسُ عِنــدَ الأصيــلِ شَجِيتِ لِشَجــوِ الغَرِيبِ الذَّليــلِ
فَكُونِي شَفِيعِي إلى ابنِ الشَّفِيعِ وكُونِي رَسُولِي إلى ابنِ الرّسول

فهو يرى أنّ الشمس عند الغروب قد حزنت لحزنه، وهو غريبٌ عن دياره فيطلب منها أنْ تشفع له عند ابن حمود وهو ابن الشفيع والرسول محمد صلى الله

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق4، ص802؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص37-38.

[2] ابن خاقان، المصدر السابق، ق4، ص797-799.

[3] ابن دراج، الديوان، ص75-76.

عليه وسلم، فجعله من نسل المصطفى عليه السلام، ثم يؤكد عراقة انتسابهم إلى آل البيت، حيث يكشف عن كثير من معاني التشيُّع لآل البيت، ويضفي صفة القداسة على آل حمود لانتسابهم إلى بيت الرسول عليه الصلاة السلام، فيقول:

فأنتــم هُداةُ حيَــــاةٍ وموتٍ   وأنتَــــم أئمَـــةُ فِعلٍ وقِيل

وساداتُ مَن حلّ جنّاتِ عَدَن   جَميـــعُ شَبَابِهـــم والكهـــول

وأنتُــمُ خَلائفُ دنيا وديـــنٍ   بحكــمِ الكِتابِ وحُكمِ العُقُولِ

ووالدُكُم خَاتَــمُ الأنبيــــــاءِ   لَكُم منــهُ مَجدٌ حَفِيٌّ كَفِيــلِ

كما مدح ابن شرف القيرواني المتوكل بن الأفطس وانتسابه إلى القبيلة العربية المشهورة تجيب، على الرُّغمِ من شكوك بعض مؤرخي الأندلس في صحة هذا الانتساب[1]، لكن ابن شرف يقول فيه مادحاً هذا النسب[2]: (السريع)

يَا مَلِكَاً أَمْسَتْ تُجيبُ بِــهِ   تَحســـدُ قحطانَ عَليه نـــزَارْ

لَولاكَ لَم تَشرُف مَعَدٌ بِها   جَــلّ أبو ذَرٌ فَجلَّت غِفَـــارْ

وتناول الشعراء في مدائحهم السياسية كثيراً من معاني المديح التقليدية ذات الصلة الوثيقة بأصالة أنسابهم، وصوروهم وقد ورثوا الفروسية والشجاعة والكرم والعطاء وغيرها من المناقب والخلال الحميدة عن آبائهم وأجدادهم، ومن ذلك مدح المعتمد بن عباد والده المعتضد بالمجد والكرم والشجاعة،فيقول[3]: (البسيط)

مَن مِثلُ قومِكَ، مَن مِثلُ الهُمامِ أبي   عمــــروٍ أبيكَ، لَـــهُ مَجدٌ ومُفتَخَرُ

سَمَيْــدَعٌ يَهَـــــبُ الآلافَ مُبتَدِئـــاً   ويَستَقِــلُّ عَطَايــاهُ ويَعتَـــــــذِرُ

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص641.

(2) ابن شرف القيرواني، أبو عبد الله محمد بن شرف (ت460هـ/1067م)، الديوان، تحقيق الدكتور حسن ذكرى حسن، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، (د.ت)، ص59؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص642-643.

(3) المعتمد، أبو القاسم محمد بن عباد(ت488هـ/1095م)، الديوان، جمعه وحققه الدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي، راجعه الدكتور طه حسين، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1997م، ص37-38؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص47؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص24.

لَــهُ يــدٌ كُــلُّ جبَّــــارٍ يُقَبِّلُهـــــا لَـــولا نَـــداها لَقُلنَـــا إنّهــا الحجرُ
يَا ضَيغَماً، يقتُلُ الفُرســانَ مُفتَرِساً لا تُوهِنَنّي، فإنّي النّــابُ والظُّفــرُ
يَا فارِساً تَحـــــذَرُ الأبطَالُ صَولَتَهُ صُنْ عَبدَكَ القِنَّ، فَهوَ الصَّارِمُ الذَّكَرُ

فهو ينحدر من قوم لا نظير لهم، ومن أبٍ صاحب مجدٍ وفخر، إنه السيد الكريم السخيٍّ الذي يهب العطايا العظيمة فيستقلُّها ويعتذر لمن يعطى، وهو صاحب السطوة والعظمة، الذي تخرُ له الجباه، ويقبِّل يده العظام، وهو ضيغم يحدث القتل في الفرسان الأشاوس، وفارس تحذر الأبطال صولته، وما إلى ذلك من معاني الفروسية والشجاعة.

ومدح أبو الفضل ابن شرف أيضاً بني صمادح في قصيدة جعلها تدور حول معاني الفروسية والشجاعة، فيقول[1]: (الطويل)

وركبٍ كَأنَّ البِيضَ أمسَت ضَرَائباً لهُــم، وهُم أمسَوا لَهُنَّ ضَرَائبَــا
إذا أوَّبُــوا صَارُوا شُمُوساً مُنِيرةً وإنْ أدلَجُوا أمسَوا نُجُوماً ثَوَاقِبَــا
طِوَالٌ، طِوَالُ البَاعِ، والخَيلِ والقَنَا تَخَـــالُهُـــمُ فوقَ الجِبَالِ أهَاضِبَـــا
فَمَا يَحمِلُــونَ السُّمــرَ إلا عَوالِياً ولا يَركَبُــونَ الخَيــلَ إلا سَلاهِبَا
إذا اعتَقَلُوا لِلطَّعنِ سُمراً عَوَاسِلاً أو اتَّشَحُوا للضَّربِ بِيضاً قَوَاضِبَا

فقد أصبحوا لطول ملازمتهم للسيوف كأنهم وإياها شيئاً واحداً، وتأتي هذه الملازمة من كثرة المعارك والحروب التي خاضوها وعادوا منها منتصرين؛ فهم غدوا عند إيابهم من المعارك شموساً في الرفعة وعلوِّ المكانة؛ وإن أدلجوا إليها أمسوا نجوماً تنير ظلمات الليل بأفعالهم، وهم قد بلغوا الغاية في كلِّ شيء: في كمال هيئتهم، وحدَّة أسلحتهم، وهيبة ركوبهم وما إلى ذلك مما يتعلق بالفروسية والشجاعة.

ومدح أبو عامر ابن شهيد فروسية يحيى المعتلي وشجاعته، بقوله[2]: (الكامل)

بَطَلٌ إذا خَطَبَ النُّفُوسَ إلى الوَغَى جَعَلَ الظُّبَا تَحتَ العَجَاجِ صَدَاقَهَا
لَو عَارَضَتْ هُوجُ الرِّيَاحِ بَنَانَـــهُ يَومـــاً لَســدَّ بِبَعضِهَـــا آفَاقَهَـــا

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق4، ص799-800؛ ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص885-886؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص34-35.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص136-137؛ الأصفهاني، المصدر السابق، ق4ج2، ص640-641.

وإذا المُلُوكُ جرت جِياداً فِي الوغَى والجُـود، قطّـع جفوةَ أعنَاقَهـا
ولَو أنَّ أفـواه الضَّرَاغِـم منْهَلٌ لِلـورْدِ أوردَ خَيلَـهُ أَشداقَـهـا

فهو الفارس الشجاع في المعارك يواجهُ ولا يهرُبُ، حتى إن الرياح إذا رفع يدهُ في طريقها فإنّها تغيِّرُ مسارَها، لأنّه يسدُّ آفاقها، وهنا مبالغةٌ كبيرةٌ لكنّها لطيفةٌ، كما أنّ الملوك إذا جرت إلى المعارك بالجياد والكرم قطّعَ أعناقَها لأنّها تتعدَّى على حماه.

تأييد سياسة الأمراء الداخلية والخارجية:

يمتاز هذا الموضوع بأنه يختص بمدح ذوي السياسة والسلطان، وقد اشتمل على الحديث عن سياسة الحاكم الداخلية التي يتبعها في إدارة شؤون رعيته. فقد اشتهر ابنُ دراج القسطلي بالمدح، إذ مدح المنذر بن يحيى التجيبي وابنه يحيى من بعده، وتغنّى بانتصاراتِهم ووصف معاركَهم ومكارم أخلاقهم، وكان لسياسة الحاكمِ نصيب في شعره، فهو يقول في مدح المنصور منذر بن يحيى ضمن رسالة إليه[1]: (مجزوء الكامل)

السَّيفُ أبهَى للعُـلا والحَزْمُ أبلَغُ فِي المَدَى
وشَرائِعُ الحَقِّ الذي يَمَّمْتَ أهـدَى للهُـدَى
وعَوَاقِبَ الأيَّـامِ أو لى أنْ يَفِينَ لِمَن وَفَـى

فهو يمدح هذا الحاكم بأنه كالسيف في الحزم، وأنه حريص على إقامة شرع الله، لذلك لا بد من الوفاء له، وردٌّ جزء من عطائه. وله أيضاً قصيدة يمدح فيها السياسة الداخلية للمظفر يحيى بن منذر، وهو ابن المنصور، فيقول[2]: (المتقارب)

هربْنَـا إليكُم فآويْتُمُونَـا وخِفْنَا الحُتُـوفَ فَأمَّنْتمُونَا
وشَرَّدَنَا السّيفُ من أرضِنَا سِـرَاعَـاً إليكُم فَآسيتُمُونَا
وهَوَّنَ أقدارَنَـا الاغترابُ عَلى كُلِّ خَـلْقٍ فَأكرَمْتُمُونَا
وقَابَلْتُم دُونَنَـا المُعتَدِينَ ونَحنُ بِأسوَارِكُم عَائذُونَـا

فالأمن الذي عمَّ بلاده، حتى أصبحت ملجأً لكلِّ هارب يلوذ إليها، لأنّه عُرِفَ بحماية المستجير والدفاع عنه، وجنده يطيعونه يحمون اللاجئين ويردُّون المعتدين.

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص526-527.

[2] ابن دراج، المصدر السابق، ص524.

وقد أشار أبو عامر ابن شهيد في مدحه لأبي عامر المظفر، بأنه اجتمع تحت سلطته وإمرته المسلمون والنصارى، وتآلفوا معاً في ظلٍّ سياسة التسامح التي يتبنّاها تجاه رعيته، على اختلاف مذاهبهم الدينية، فيقول[1] : (الكامل)

جُمِعَت بِطَاعَةِ حُبِّــك الأضْدَادُ   وتَألَّفَ الأفصَاحُ والأعيَــادُ

كَتَبَ القَضَاءُ بِأنَّ جدَّكَ صَاعِدٌ،   والصُّبْحُ رَقٌّ، والظَّلامُ مِدَادُ

كما مدح المعتمدُ بن عباد والدَه المعتضدَ، بأنّه محط رحال الخائفين والباحثين عن العطاء، فنال بذلك السمعةَ الطيبةَ بين الورى، وأنّه تميز في عطائه وحزمه، فبشّرَهُ وهنَّأهُ بأنّه نال ما تمنّى، فيقول له[2]: (السريع)

يَا أيُّها المَلِكُ الذي لَم يَزَل   يَسرِي إلَى غُرَّتِه السّــَارِي

وجَامِعَــاً فِي كَفِّــه بِالنَّدَى   والبَأسِ، بيــنَ المَاءِ والنَّار

اهنَأ، فَقَد نِلتَ الذي تَشتَهِي   نَفسُكَ، واشكُر نِعمَةَ البَارِي

أما أبو عبد الله ابن شرف فقد مدح المعز بن باديس، وبيَّنَ أنّ العزَّ والغنى لم يُشغلاه عن الاهتمام بذوي الحاجات والمُعوزِين، الذين أضناهم الدَّهرُ، ويصفهُ بأنّ الله قد أغاث الناس به، فأصلح بعطائه وحسنِ اهتمامِه وعظيمِ اعتنائه ما بين الناس والدهر من جفوة وسوء حالٍ، فيقول[3]: (البسيط)

لَم يُلهِكَ العِــزُّ عَن أهلِ الخُمُولِ عَلَى   أنّ الغِنَــى شَاغِــلٌ والعِزُّ فَتَّــانُ

لَمّــا رأى اللهُ بُقيَــانَــا عَلَــى ظَمَإٍ   أغاثَنَــا بِكَ، إنّ اللهَ رحمَـــانُ

أصلَحتَ بَينِي وبَينَ الدَّهرِ بعدَ وغــيً   شمطاءَ فاصطلَحَت عبسٌ وذبيَانُ

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص97.

[2] المعتمد، الديوان، ص40.

[3] ابن شرف، الديوان، ص104.

ومدح المعتضد بن عباد، فأشار إلى شدة سطوته في قتال الأعداء، وكيف جعل عنده حديقةً من رؤوس أعدائه، وخزانة فيها رؤوسُ أعدائه الملوك الذين قتلهم بسيفه، فهو متجبِّر شديدُ السطوة والسياسة، فيقول في مدحه[1] : (الكامل)

لَــولاهُــمُ لَحَجَجتُ أوّلَ حَجَّـــةٍ   حَرَمَ الكِرَامِ وطَالَ فيــه طَوَافِي
ولَزُرتُ حِمصَ الغَربِ أقرَبَ زَائِــرٍ   بغَــرَائبَ كَالحُلَّـــةِ الأفْــــوافِ
يُخلِي الدِّيَــارَ مِنَ الجُسُومِ ويَجتَنِي   ثَمَرَ الرُّؤوسِ وطُرفَةَ الأطرَافِ
فَكَأنَّمَــا الأجســامُ بَعــدَ رؤوسِهَا   أبيَــاتُ شِعــرٍ مَا لَهُــنَّ قَوَافِ

ويظن ابنُ بسام أنّ ابنَ شرفٍ فيما وصف شبّه الأجسام دون رؤوسها بأبيات شعره في هذه القصيدة ليس لها مبادئ ولا قوافٍ، ولعلّ الغربة سبب ذلك[2]. ولأبي عبد الله ابن شرف أيضاً في مدح أمير قرطبة فيقول[3]: (الطويل)

وقُرطُبَةٌ ضَمَّت إليهَــا جَوَانِحِــي   كَمَا ضَمَّ مِن عَفرَاءِ عروةَ تَعنِيقُ
نَزَلنَا بِهَا لا نَبتَغِي السُّوقَ عندَهَا   فَمَــا كانَ بُدٌّ أنْ أُقِيمَتْ لنــا سُوقُ
وأحيا ابنُ يحيى مَيِّتَاتِ خَوَاطِرِي   وفَسَّحَ آمَــالِي وكانَ بِهــا ضِيقُ
أبَا حَسَنٍ أحسَنْتَ بَدءاً وعَــودَةً   ولِلغُصنِ إثْمَارٌ إذا كَــانَ تَورِيــقُ
فَلَم يُرَ بُؤسٌ إذْ وَلِيتَ أمُــورَهَا   ولا كَسَدَت سُوقٌ إذْ التَفَّتِ السُّوقُ

فهو يشير إلى الأيام التي قضاها في حضرة منذر بن يحيى المظفر، ثم يمدح أبا الوليد ابن جهور، الذي ورث الإمارة عن أبيه، وذكر ابن شرف حسن الأحوال في زمانه، وهذا مخالف لما ورد عن تردي الأحوال بسبب تنازع ابنيه على الحكم.

كما مدح أبو عبد الله ابن شرف أمير مرسية في وقته، أبا عبد الرحمن ابن طاهر، فيقول[4]: (الطويل)

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص73- 74؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص221.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص221-222.

[3] ابن شرف، المصدر السابق، ص75-76؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص236.

[4] ابن شرف، المصدر السابق، ص52؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق4م1، ص220-221. والممدوح هو محمد بن إسحاق بن زيد بن طاهر القيسي، أبو عبد الرحمن، من أهل العلم والأدب البارع، يذكر أنّه يماثل الصاحب بن عباد في المشرق في الكتابة عن نفسه تولى أمر=

وعاجُوا علَى عَسْفَان والليلُ أليــلُ ... وهزُّوا بِذاتِ البينِ والصَّبحُ مُسفِرُ
وحَازَتْهُمُ حزوَى ضُحىً وتَروَّحُــوا ... بِمَنعَــجَ واستَعلَوا أبانَــا فَنوَّروا
تَصَرَّمَ ذَاكَ العَيْـــشُ إلا إدِّكَــارُه ... وإلا كذُوبَـــا فِــي المنَــامِ تُزوَّرُ
فَتَىً طَــاهِرِيٌّ طاهــرُ الثّوبِ ذكرُهُ ... مِن المِسكِ أذكَى أو مِن المَاءِ أطهَرُ

ومدح أبو الفضل ابن شرف سياسة المعتصم بن صمادح، بقوله[1]: (البسيط)

لَمْ يَبقَ لِلجَّورِ فِي أيَّامِكُم أثَرٌ ... إلاّ الذِي فِي عُيُونِ الغِيدِ مِن حَوَرِ

فهو يشير إلى انتشار العدل في زمنه، واختفاء الظُّلمِ إلا ظُلْمَ الحَوَرِ في عيون النساء الغيد، ويذكر ابن سعيد أن الحجاري أثنى على أبي الفضل وعظّمه في الشعر لنظمه هذا البيت[2].

ويمدح أبو الحسن ابن الجدِّ يوسفَ بن تاشفين الذي يمثل بدخوله الأندلس صبحاً جاء بعد ليلٍ طويلٍ من الضعف والفرقة التي سادت الأندلس في ظل ملوك الطوائف، فيقول من قصيدة[3]: (البسيط)

وانظُر إلى الصُّبحِ سيفاً فِي يَدَي مَلِكٍ ... فِي اللهِ مِن جُندهِ التَأيِيدُ والظّفرُ
يرعَى الرّعايَا بِطَــرفٍ ساهــرٍ يقظٍ ... كمَــا رَعَاهَا بِطرفٍ ساهرٍ عُمَرُ
رِدُوا مَــوَارِدَ قَــد أورَدْتُــم حَنَقَــاً ... بِهَــا الأنَامَ ولَكِن مَا لَكُــم صَدَرُ

فابن الجدّ يصور الصبح سيفاً في يدِ يوسف بن تاشفين وهو مُؤيّد من جنده، وإمامٌ عادلٌ يسهر على شؤون رعيته كما سهر عمر بن الخطاب من قبل، كما يرى أنّ

=مرسية، توفي حوالي سنة 507هـ/1113م، (ابن خاقان، القلائد، ق1، ص170-206؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق3م1، ص24-92 ويذكر كثيراً من رسائله؛ ابن الأبار، الحلة، ج2، ص116-125؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص247).

(1) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص232.

(2) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص232.

(3) ابن الخطيب، لسان الدين، أبو عبد الله محمد بن سعيد(ت776هـ/1374م)، كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق وتعليق إ.ليفي برفنسال، ط2، دار المكشوف، بيروت، 1956، ج2، ص242.

عهد ابن تاشفين هو بداية عهد جديد ستشهده الأندلس، ويدعو جنده إلى طاعته وعدم عصيانه.

وقد مدح أبو المغيرة ابن حزم المنصور منذر بن يحيى التُجيبي، ومدح ابنه في إحدى المعارك، وأنّهم أبطال يعينُونَ المُستَجيرَ والمستغيثَ، فيقول في مطلع القصيدة[1]: (الكامل)

أمِنَ البُرَاقِ التَاحَ بَرقٌ ما سَرى   إلاّ ورَدّ الأُفقَ مرطـــاً أحمَــرا
أتبعتَــهُ نَظَرَ المَشُوقِ بِمُقلَـــةٍ   لَم تَدرِ مُذ عَهدُ الأثيلَةِ مَا الكَرى

ثم ينتقل إلى المدح فيقول:

إلا تَرَى المَنصُورَ تَحـتَ لِوَائـــه   تَلقَ ابنَه طَلَقَ الجَبينِ مُظَفَّرَا
فإذا دعونَـــا مَــن يُجيــبُ لِنَكبَــةٍ   لَبّتْ تُجِيبُ فخلتُهَا سَيلاً جَرَى
لله دَرُّكَ والرِّمَـــاحُ شَـــوَارِعٌ   والبيضُ تقطَعُ لأمَـــةً وسَنَوَّرَا
ومَقَامَةٌ لَكَ فِي الأعَادِي قَد حَمَت   أيامَ قَــومٍ قبلَهـــا أنْ تُذكَـــرا

فيشير إلى أنّ المنصور وابنه يسيران مع الجيش ولم يتأخّرا عنه، حتى أنّهما من شجاعتهما يكونان أول من يلبي، وإذا قاتلا تركا في نفسِ الأعادي غصّةً وهزيمةً لا تُنسى.

وقد مدح أبو بحر ابن عبد الصمد المعتمدَ بن عباد لدوره الكبير في معركة الزلاقة، كما يشدّ على يده فيقول[2] : (الكامل)

خَضَعَت لِعزّتِــك المُلـــوكُ الصِّيدُ   وعَنَت لَك الأبطَالُ وهْي أُسودُ
رأيٌ يَفُــلُّ الجَيشَ وهــوْ عَرَمرَمٌ   ويُعَفِّرُ الجَبَّــارَ وهْــوَ عَنيــدُ
لَم تَرضَ إلاّ والسُيُــوفُ تَمَائِــمٌ   والحَربُ ظِئرٌ والسُّرُوجُ مُهُودُ
هَيهَاتَ لا يَمضي لِحَقِّــكَ شَــاهِدٌ   يَومَ العَروبَةِ شَاهِــدٌ مَشهــودُ
يَــومٌ تَوَاصَلَــت التَّــرائِبُ والقَنَا   فِيــه وعانَقَت الأســودَ أُسودُ
لَو زلتَ زَالَ الدّينُ وانتَهبَ الهُدى   ونَبَــا اليَقِينُ ونَافَــقَ التّوحِيدُ

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص178-180.

(2) ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص814-816؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص204.

فهو يمدح سياسته فالملوك تخضع لرأيه، وكذلك الأبطال الشجعان، كما أن المعتمد لم يرض سوى السيف والحرب، وذلك لما رآه من سوء الحال التي تمرّ بها الأندلس، وأنّه هو الذي يحافظ على الدين والهدى، ولو زال ملكه لزال الدين وانتهى حكم الإسلام في الأندلس، فكأن المعتمد هو من يرسي بسياسته قواعد عهد جديد للإسلام.

ويستمر ابنُ عبد الصمد في مدح المعتمدِ ويصفه بأنّه حامي المُلكِ، ومحاربُ الأعداء حتى لو بلغُوا الثُّريَا والسِّمَاكَ، وفاتح البلاد، حتى لو كانت السماء بلاداً والنجوم جنوداً لقاتلهم، وقد ارتضاه الله مَلِكاً لأنه يرى الرياسةَ والنفاسةَ والعُلا حَرَماً يجبُ الدفاع عنها، فيقول:

والمُلــكُ لا يَحميــه إلاّ أروَعُ   ثَبتُ الجَنانِ عَلَى الجِلادِ جَليــدُ
فَاطعَن ولَــو أنَّ الثُّريَــا ثُغرَةٌ   واضرِب ولَو أنَّ السِّمَاكَ وريد
وافتَح ولَــو أنَّ السَّماءَ مَعَاقِلٌ   واهزِم ولَو أنَّ النَّجُــومَ جنودُ
واطلُب بِمُلــكِ الأرضِ حقاً إنَّه   فَرضٌ عَلَى بِيضِ السُّيُوفِ وَكيد
وطُلِ ابنَ عبَّــادٍ عَلَى أملاكِهَا   فقَــد ارتَضَاكَ الواحدُ المعبُــودُ
إنّ الرِّيَاسَــةَ والنّفَاسَةَ والعُلا   حُــرَمٌ تدافِــعُ دُونَهَــا وتَذُودُ

وقد مدح الفضلُ بن أحمد بن دراج القسطلي إقبالَ الدولة بن مجاهد صاحب دانيةَ والجزر الشرقية، قائلا[1]: (المديد)

وإذا مَا خُطُوبُ دَهرٍ أَطَافَت   وأَنَافَت كَأَنَّهَا الجِــنّ تَسعَى
كَلأَتنَــا مِن لَسعهِنَّ أيادِي   مَلِكٍ يكــلأُ الأَنَــامَ ويَرعَــى
مَلِكٌ إنْ دَعَاهُ لِلنَّصرِ يَومَاً   مُستَضَامٌ كَفَاهُ نَصراً ومَنعَــا
أو عَرَاهُ السّلِيبُ صُفراً يداه   جَمَعَ الرِّزقَ مِن يَدَيهِ وأوعَى

فهو يثني على سياسته الداخلية التي تقوم على نصرة المظلومين وإجابة المستغيثين به، وحماية المستضعفين ودفع الحاجة عن الفقراء وتحريرهم من ضنك المعيشة.

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص61-62.

الجهاد ضد الأعداء:

لقد نالت الحروب والمعارك التي خاضها أمراء الطوائف مكانة في أشعار شعراء البيوتات، فمدحوا هذه الانتصارات وأصحابها، ومن هؤلاء ابن دراج القسطلي الذي مدح المنصور منذر بن يحيى وابنه المظفّر يحيى، وسجّل انتصاراتهما على النصارى المجاورين لإمارة سرقسطة، ومن ذلك قوله في قصيدة عينيّةٍ، يهنّئ فيها المنصور بجهاده في شهر رمضان، وظفرهُ بأعدائه، يقول[1]: (البسيط)

حتّى جدَعتَ أُنُوفَ الشِّركِ قَاطبَةً ... بأنفِ مَعقِلِ كُفرٍ أنتَ جادِعُهُ

وفي قصيدة أخرى يمدح خروجَهُ من بنبلونة[2]: (البسيط)

سَعيٌ شَفَى بِالمُنَى قبلَ انتِهَا أمدِه ... ويَومُ سَعد أرانَا الفَتحَ قَبْـــلَ غَدِه

داعٍ إلى دعوةِ الإسلامِ ينصُرُهَـــا ... فَـــأيُّ مُعتَمَـــدٍ مِن شَـــأوِ مُعتمَـــدِه

مُجهِّزاً فِي سبيـــلِ اللهِ جيشَ هُدىً ... السَّمعُ والطَّوعُ للمنصُورِ مِن عُدَدِه

وآبَ منصورُ قحطـــــانَ بعِزَّتِهِ ... أوْبَاً تَذُوبُ مُلُوكُ الأرضِ مِن حَسَدِه

فهو يضفي على جهاده صفة القداسة؛ ذلك أنّه يسعى إلى نصرة الدين وتجهيز الجيوش القادرة على انتزاع النصر وشنّ الغارات، ويتخذ من هذا المعنى مناسبة للتعريج على نسب المنصور التجيبي الذي يرفعه إلى قحطان.

وقد مدح ابن شهيد يحيى المعتلي بن علي بن حمود، عندما انتصر على السودان بإشبيلية، فيقول[3]: (البسيط)

غنّاك سعدُكَ فِي ظِلِّ الظُّبَا وسَقَى ... فاشرَب هنيئاً عليكَ التّاج مرتفقَـــا

سَقياً لأُسدٍ تَساقَى المَوتُ أنفُسَها ... وتَلبَسُ الصَّبرَ فِي يَومِ الوَغَى حَلَقَا

قَامَت بِنَصرِكَ لمّا قَامَ مُرتَجِـــلاً ... خَطيـــبُ جُودِكَ فِيهـــا ينثُرُ الوَرِقَـــا

سَرَيْتَ تقدُمُ جَيشَ النّصرِ متَّخِذاً ... سبْلَ المَجَرَّةِ فِي إثْـــرِ العُلا طُرُقَا

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص142.

[2] ابن دراج، المصدر السابق، ص145-150.

[3] ابن شهيد، الديوان، ص131.

فهو يمدح القائد وجنده الذين يشربون الموت ويلبسون الصبر، ويمتثلون لأمر القائد الذي لا يكون إلا في مقدمة الجيش ليس متخاذلاً أو متأخراً عنه، وهو أمرٌ يمنح الجنود لوناً من الشجاعة والقدرة على الثبات.

ويستذكر المعتمد بن عباد يوم العروبة الذي حدثت فيه معركة الزلاقة، وشهد بلاءَ يوسف بن تاشفين ويمدحه فيقول[1]: (المتقارب)

ويَومَ العَرُوبَـــةِ ذُدْتَ العدَا   نَصَرتَ الهُدَى وأبَيتَ الفرَارا
ثَبَـــتَّ هُنَـــاكَ، وإنّ القُلُـــو   بَ بينَ الضُّلُوعِ لَتَأبَى القَرارا
ولَـــولاكَ يَا يوسفُ المُتّقى   رأينَـــا الجزيرةَ للكُفْـــرِ دَارا
فللّهِ درُّكَ فِـــي هولِـــه   لَقد زَادَ بأسُكَ فِيـــهِ اشتِهَارَا
إذا نَـــارَ حربِـــكَ ضَرَّمتَها   حَسِبنَا الأسنَّةَ فيهـــا شرارا
ستَلقَى فِعَالَـــك يَومَ الحِسا   بِ تَنثُرُ بِالمسكِ منكَ انتِثَارَا
ولِلشُّهدَاءِ ثَنَـــاءٌ عَلَيـــكَ   بِحُسنِ مُقَامِـــكَ ذَاك النَّهَارا
وأنّهـــم بِـــك يَستبشِـــرو   نَ ألاّ تَخافَ وألاّ تُضَـــارا

فهو يمدح جهوده في رَدِّه الأعداء في ذلك اليوم، وثَبَتَ في وقت كانت القلوب تبحث فيه عن فرصة للفرار والهروب، ولولا يوسف لأصبحت الجزيرة دارَ كفرٍ، ويشير المعتمد إلى أعمال ابن تاشفين العظيمة فتعبق بطيب المسك يوم القيامة، وسيثني الشهداء عليها في ذلك اليوم لحسنِ مقامه، وهم يستبشرون به ألا يخاف أو يُضار.

2.2 الشعر الحربي:

لقد شهدت فترة ملوك الطوائف في الأندلس اضطراباتٍ سياسيةً كبيرةً، فقد اشتدت فيها الخلافات بين أمراء الطوائف الذين طمع كلُّ واحد منهم في توسيع حدود إمارته على حساب جيرانه، ولعل هذه الخلافات كانت نتيجةً طبيعيةً للفتنة التي شهدتها الأندلس مطلع القرن الخامس الهجري، وأدت إلى انتهاء حكم بني أمية وخلافتهم، وانقسام الأندلس إلى دويلات متصارعة.

---

[1] المعتمد، الديوان، ص97-98.

كما شهد هذا العصر ازدياد الصراع بين بعض دول الإمارات الأندلسية والإمارات الإسبانية بقيادة الأذفونش، الذي سعى إلى إضعاف إمارات الطوائف ومهاجمتها، ومحاولة القضاء عليها، وقد أدى ذلك إلى سقوط عدد من المدن الأندلسية بيد الإسبان، إضافة إلى نشوب معارك.

ولقد كان لهذه الاضطرابات والأحداث السياسية والعسكرية أثر كبير في الشعر الأندلسي عامة وشعر البيوتات خاصة، إذ نظم بعض شعراء البيوتات أشعاراً تحدثوا فيها عن هذه الاضطرابات، وكانت في عدة محاور منها، الصراع بين المسلمين والإسبان والفتن الداخلية، كما تحدثوا عن الجيش واستعداداته وأسلحته.

الصراع بين المسلمين والإسبان والفتن الداخلية:

لقد كانت الأندلس ثغراً مهماً من ثغور المسلمين لمجاورتها الروم، لهذا رأى كثيرٌ من أمرائها- منذ بدء الوجود العربي الإسلامي هنالك- أنّ في الغزو والجهاد في سبيل الله سنّةً لا يمكن أن يحيدوا عنها أو يتهاونوا فيها، غير أنّه في عصر ملوك الطوائف قد تقاعس الملوك والأمراء، ولم يهتموا بالجهاد إلا بما يحفظ لهم عروشهم وسلطانهم، فلم يكونوا على مثال أمراء الأندلس السابقين، فكان من آثار ذلك ضياع كثير من المدن الأندلسية وسقوطها بيد الإسبان نتيجة تراجع القوى الإسلامية واشتداد القوى الإسبانية الساعية على استعادة الأندلس إلى سيادة النصرانية [1].

فـــأمراء الطوائف لم يعطّلوا الجهاد، وإنما مالوا إلى أسلوب الدفاع عن النفس، كما أن خطر الإسبان لم ينته، بل بقي يهدد الوجود العربي الإسلامي من حين إلى آخر، وأدى إلى سقوط بعض المدن الأندلسية مثل طليطلة التي سقطت في يد أذفونش سنة 478هـ/1085م، وبقيت إلى زمن طويل بعد انتهاء عهد الطوائف، وكذلك مدن أخرى، ولعل استدعاء المعتمد وبعض ملوك الطوائف ليوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب، كان نتيجة سقوط عدد من المدن الأندلسية في أيدي الإسبان وتهديد الأذفونش للوجود العربي فيها.

---

[1] بهجت، منجد مصطفى، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، ص263.

لقد كان لمعركة الزلاقة التي أحرزت فيها الجيوش المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين والأندلسية صدىً كبيرٌ في الشعر الأندلسي عموماً، فهذا المعتمد بن عباد يكتب ليوسف بن تاشفين مستبشراً بانتهاء الخطر الإسباني الذي يهدد الوجود العربي الإسلامي في الأندلس عقب جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، حيث يقول[1]: (الكامل)

غَــزوٌ عَليكَ مُبارِكٌ   فِي طَيِّهِ الفَتحُ القريــبْ
للهِ سيفُــك إنّـــــه   سُخطٌ على دينِ الصّليبْ
لا بُدّ مِن يَــومٍ يَكو   نُ له أخٌ يومِ القُلَيــــبْ

فالمعتمد يعبّر عن تفاؤله بانتصار المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين على الإسبان، وأنه سيحرز انتصاراً عظيماً كيوم بدرٍ الذي أظهر اللهُ فيه الحقَّ، وهزم الباطلَ والشرك.

ويصف ابن دراج القسطلي في قصيدة له في مدح المنصور منذر بن يحيى، أحد انتصاراته على الإسبان، ويصف تلك المعركة، حيث يقول[2]: (البسيط)

تَلقَى شبابَهم في السِّلمِ إنْ نَطَقُوا   شِيباً وشِيبَهُمُ في الحَــربِ شُبَّانَا
هُمُ المُلَبُّونَ والأبصارُ ناكِصَـــةٌ   نَبِيَّهُمْ يَومَ نَادَى : يَا لَقَحطَـــانا
والمُطلِعُونَ نُجُومَ المُلك إذ أَفَــلَت   والكَافِلُونَ بِعِزِّ الحَقِّ إذ هَانَـــا
لَهُم مَدى السَّبقِ فِي بَدرٍ وفِي أُحُدٍ   وآلُ حَرْبٍ وحِزبَي قَيسِ عَيلانَـــا
وفِي تَبُوكَ وأَوطَاسَ ومُصطَلِـــقٍ   ومَن عَصَى اللهَ في أبنَاءِ عَدنَانَا
لَهُم بَراءَةُ والأنفالُ إذ خُتِمَـــــتْ   والنِّصْفُ قِسْمُهُمُ من آلِ عمرَانَا
ويومَ صِفِّينَ لَم تَخذُلْ سُيُوفُكُـــمُ   آلَ الرَّسُولِ بِه يَا آلَ هَمدَانَـــا
فَليَهنِكُم نَصرُ مَن أَهدَى الهُدَى لَكُم   ونَصرُ أبنائِه مِن بعدِهِ الآنَـــا

فهو يستدعي أحداث التاريخ الإسلامي في مدح المنصور منذر بن يحيى، والثناء على جنده، فهم رجال السلم والحرب، إذ تلقى شبابهم في السلم ينطقون عن حكمة الشيوخ وتجاربهم وحنكتهم، وتلقى شيبهم في الحرب شبّاناً لقوتهم واندفاعهم إلى

---

(1) المعتمد، الديوان، ص53.

(2) ابن دراج، الديوان، ص134.

الجهاد والقتال، يستدعي تاريخ قحطان التي ينحدر منها المنذر بن يحيى، ويجعل انتصارات القحطانيين اليوم امتداداً لجهود أجدادهم الأبطال في معارك التاريخ الإسلامي، مثل بدر وأحد وتبوك وأوطاسَ ومصطلقَ وصِفِّين وغيرها، وقد وصفهم القرآن هم وأجدادهم في سُورِ آلِ عمران والأنفال والبراءة.

تحرير المدن أو سقوطها:

وكان ابن شهيد قد مدح يحيى المعتلي ابن علي بن حمود عند انتصاره على السودان بإشبيلية، كما ذكرنا في موضوع المدح، فقد حلّت بهم هزيمةٌ عظيمةٌ، حيث جرت دماءُ القتلى، الذين قطِّعَت رؤوسهم، وصارت دماؤهم فوق النهر نهراً، حتى أضحى الماء المختلط بالدماء كأنه سماء جليت بالشفق، ويؤكد أن القدر قد قاد إلى النصر الذي كان حليفاً للمعتلي وقد أشار إلى ذلك في قوله[1]: (البسيط)

سَرَيتَ تَقدُمُ جَيْشَ النّصرِ مُتَّخِذاً سُبُلَ المَجَرَّةِ فِي إثْرِ العُلا طُرُقا

وقد نتج عن المعارك التي خاضها أمراء الأندلس لتوسيع رقعة ملكهم وسيادتهم، أن ضمّ بعضُهُم بعضَ المُدُنِ الأندلسية التي كانت تخضع لمَلِكٍ آخر، ومنها(رندة)، فقد كان المعتضد كثيراً ما يحنُّ لتلك الأيام التي أُعيدت فيها، كما أنّه نظم شعراً أُعجِبَ به ومالَ الناسُ إلى حفظه، فيقول فيه[2]: (مجزوء الوافر)

لَقَد حُصِّلْت يَا رُنــدَه فَصرت لمُلكنَا عــقــدَه
أَفَادَتْنَاك أرمَـــــاحٌ وأَسيَافٌ لَها حـــــدَّه
وأجنَادٌ أَشِــــــدّاءٌ إليهم تَنتَهِي الشِّـــدَّه
غَدَوتُ يَرَونَنِي مَولَىً لَهُم وأَرَاهُم عُــــدّه
سَأَفنِي مُدّةَ الأعــــدَا ءِ إنْ طَالَت بِي المُــدَّه
فَكَم مِن عُدّةٍ قَتَّلْــــــتُ منهُم بَعدَهَــا عُدّه
نَظَمْتُ رُؤوسَهُم عِقْداً فحلَّتْ لَبَّةَ السُّـــــدّه

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص131.

[2] المعتضد، أبو عمرو عباد (ت461هـ/1068م)، الديوان، تحقيق د.محمد مجيد السعيد، مجلة المورد العراقية، م5، ع2، 1976م، ص105-118، ص116؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق2 م1، ص32؛ المقري، النفح، ج4، ص243.

فهو يشخِّص رُندةَ على أنها إنسان، تدرك ما يقول، كما شرَّعت السيوفُ والرِّماحُ، وقُتِل جُندٌ من أجل تحريرها، كما يتعهد بأن يقضي على الأعداء إنْ طال عمره وملكه.

وفي قصيدة أخرى يعبر المعتضد بن عباد عن كيفية ردِّه كيد الإسبان عن مالقة، وأنه بذل قصارى جُهدِه في سبيل ذلك ويحتَسبُ فيها عملُه لوجه الله تعالى، وأنّه لا يسأله إلا الجنة ثواباً، فيقول[1]: (الوافر)

بَذَلنَا جَهدَنَا عَزماً وحَزْمَـــاً وَوَطَّنَا الكُمَاة على الطِعَــانِ

واجهَدنَا العَزَائم والمَسَاعِــي وأعملنَا الحُسَامَ مَع السِّنَان

لِيُهنِيء أهلُ مالِقَةَ انتِصَاري وإعزازي لَهم بعدَ الهَــوَانِ

ثم ينتقل إلى وصف آثار انتصاره، وطرده للأعداء، وكيف تحولت مالقة إلى مبانٍ للبِرِّ بعد هدم مباني الفسق، فرُفِعَ الأذان، وأُقيمت الصلاة، وعاد إليها الأمان والأمن، بعد أن فقدت ذلك مدة احتلالها، فيقول في القصيدة نفسها:

أَلَم أعتِقهُم مِن ذُلِّ كُفــــرِ جَرَى فِي ضَيمِهِم مِلءَ العَنَــان

فَعَاد البِرُّ معمورَ المَغَانِـــي وعادَ الفِسقُ مَهدُومَ المَبَانِـــي

وقَامَ إمامُ جَامِعِهِــم يُصَلِّــي وآنَسَت المَسَامِـــعُ بِالأذانِ

وكانَ ذَوُو الهُدى مَا بَين ثاوٍ قتيلٍ أو فقيدِ العقــلِ فَــانِ

وفي آخر القصيدة يؤكد احتسابه لهذا العمل عند الله تعالى، فيقول:

عِتَادِي أجرُ مَا أولَيتُ فِيهِم مِن الفَتَكَات بِكرٍ أو عوانِ

وحَسبِي فِي سبيلِ اللهِ مَوتٌ يَكونُ ثوابُهُ دارَ الجِنَـــان

وقد تحدث ابن دراج عن كيفية انصراف المنصور منذر بن يحيى من "بنبلونة"، بعد أن خلّصها من الإسبان، وكيف أرسى بها قواعد الدين، وذلك في قصيدة طويلة يقول في مطلعها[2]: (البسيط)

---

[1] المعتضد، الديوان، ص115.

[2] ابن دراج، الديوان، ص145-150 ، ويذكر أن قائد الإسبان هو "شنج بن شانجه" وذلك بذكرِ اسمه في القصيدة ذاتها. ويرجِّح محقق الديوان أنه "شنج بن غرسيه بن شانجه" خامس ملوك البشكنس في بنبلونة.

سَعيٌ شفَى بِالمُنَى قبلَ انتهِا أمدِه   ويومَ سعْدٍ أرانَا الفَتْحَ قبلَ غَدِه

ويستمر فيها في مدح المنصور، وجيشه الذي لا يعصيه، وكيف تشتّتَ جمع ُقائد الإسبان وجيشه، ثم ينتقل إلى الحديث عن حالة بنبلونة وأهلها بعد دخول المنصور، فيقول:

فَتَتَّ منهَا قَوَاصِـــي"بَنْبلُونَتِــــه"   بالـهَدْمِ والنّارِ فتّاً فَتَّ في عَضُدِه
وَقُدْتَ منها مَطَايـــــاه مُوَقَّــــرَةً   بأهلِ كُلِّ رَفِيعِ القَدْرِ أو ولَــــدِه
سَمَا لَهُم رَهَجُ(المَنصُورِ) فانقَلَبُوا   نَحْلاً جَلاهُ دُخَانُ النّارِ عَن شُهُدِه
وراحَ كُلُّ مَنيعٍ مِـــــنْ مَعَاقِلِهِــم   غَاباً خَلا لمُبِيرِ الأُسدِ من أَسَــدِه
يَرمِي إلى الخَيلِ والأبطالِ مُفتَدِيــاً   بكُلِّ أَغْيَدَ زَادَ الذُّعْرَ في غَيَــــدِه

فقد هُدِّمت معاقل بنبلونه واشتعلت فيها النيران، وتشتّت سكانها، كالنّحل الذي يشتّتُه الدُّخَان، وانقلبت مساكن أهلها كالغابة التي خلت من أَسَدِها ابنِ شنجٍ وجنده.

وصف الجيش واستعداداته وأسلحته:

مال الشعراء إلى وصف الجيش وقائده وأسلحته، وهذا يعكس أهمية المعارك التي يخوضها، والتي تتطلب كل هذا الاستعداد، فابن دراج القسطلي في قصيدة مدح فيها منذر بن يحيى المنصور، عند انصرافه من بنبلونة، يشير إلى الجيش ويصفه بالقوة والعظمة، فيقول[1]: (البسيط)

جَيشاً إذا آدَ مَتْنَ الأرضِ تَعدِلُــــهُ   بحِلمِ أروَعَ رَاســي الحِلْمِ مُتَّئِــــدِه
كَالبَحرِ تَنْسِجُهُ رِيحُ الصَّبَا حُبُكَــاً   إذا تَرَقْرَقَ في المَــاذِيِّ مِــنْ زَرَدِه
بَحْرٌ سَفَائِنُــهُ غُـــرٌّ مُسَوَّمَـــةٌ   والبيضُ والبيضُ والرّايَاتُ من زَبَــدِه
وجَاحِـمٌ مِن حَرِيقٍ لا خُمُــودَ لَــه   إلاّ ونَفسُ"ابن شَنْجٍ" وَسْــطَ مُفتَــأَدِه
كَتَائِــبَـــاً تَرَكَـــت عُبَّــادَ مِلّتِــه   لا تعرِفُ السّبتَ في الأيامِ مِن أحَــدِه
إنْ ضَاقَ عَن مَرِّهَا رَحبُ الفَضاءِ فَقَد   نَفَذْتَ من قَلبِــهِ فيها إلــى كَبِـــدِه

فهذا الجيش يشبه في قُوّته حِلمَ رَجُلٍ كَيِّسٍ، وفي كثرته كزبدِ البحر، وكذلك النار التي لا تخمُدُ، وهذا الجيش ترك ابن شنج يرى أنّ جيشَه قد تفرّقَ وهُزِمَ، وأنّ اتباعَه

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص149.

اليهودَ والنصارى لم يعودوا يفرّقُون السبت من الأحد، لشدّةِ هولِ الحدثِ والهزيمةِ، كما أنَّ الدُنيا بسعَتِها يراها ضيقة، ويشير إلى أنّ المنصور ينفُذُ من قلب ابن شنج إلى كبده، فابن دراج يتحدث عن وقع الهزيمة على نفس الأعداء.

وفي وصف الجيش، يتحدث ابن دراج أيضاً عن جيش المنصور منذر بن يحيى، فهذا الجيش يهتدي بلواء المنصور، ويستمدُّ قوتَه من قائده، فيقول في قصيدة مدحٍ[1]: (البسيط)

جَيْشٌ يَجِيشُ بِرَعدِ المَوتِ يقدُمُــهُ   إلى عدَاكَ قَضَاءٌ حُــمَّ وَاقِعُــهُ

يُهدَى بِهَدِي لِوَاءٍ أنتَ عَاقِـــدُهُ   للهِ، واللهُ بالتَّأييـــدِ رَافِعُـــهُ

مَثْنَى جِهَادٍ وَصَوَمٍ ضَمَّ شَمْلَهُــمَــا   عَزْمٌ يُسايِرُهُ صَبْرٌ يُشَايِعُـــهُ

حَتَى جَدَعتَ أُنُوفَ الشِّرك قَاطِبَــةً   بِأنفِ مَعقِلِ كُفرٍ أَنــتَ جَادِعُــهُ

اسعَدْ بِفَخرٍ وفِطرٍ أنت حَاصِـــدُهُ   مِن بِرٍّ فَتْحٍ وصَومٍ أنتَ زَارِعُهُ

فِي جِيشٍ عِزٍّ ونَصرٍ أنتَ غُرَّتُــهُ   وشَمْلِ دِينٍ ودُنيَا أنتَ جَامِعُــهُ

ويتحدث أبو الفضل ابن شرف عن جيش المعتصم بن صمادح في إحدى معاركه، فيقول[2]: (البسيط)

أَرِحْ خُطَاكَ فَحَلْيُ النَّجْـمِ قَد نُهِبَــا   وقَد قَضَى الشَّرقُ مِن وَصْلِ الدُّجَى أَرَبَــا

سَلْ النُّجُومَ هَل ارتَابَتْ بِصَفْحَتِهَــا   لَمّا أَثَرنَ إِلَيهِــنّ القَنَــا السُّلُبَــا

إذا استمرَّت بِمَجرَى النَّجم سَالِكَةً   خِلْتَ المَجَرَّةَ مِــن آثارِهَــا نَدَبَــا

تَهفُــو الرِّكَابُ فَتَهدِيهَا أَسِنَّتَهَــا   كَأَنَّمَا عَارَضَت أطرافُهــا الشُّهُبَــا

وبَاتَت الخَيلُ يَقدَحْنَ الحَصَى حَنَقاً   حتّى تَضَرَّمَ ذيــلُ الليــلِ والتَهَــبَا

تلكَ الفَوَارِسُ لا تَثْنِــي أعنَّتَهَــا   عَن وِجْهَةٍ أو يَنَالَ السَّيفُ مَا طَلَــبَا

بَاتُوا عَلَى نَشوَةٍ مَا هَاجَهَا طَــرَبٌ   وقَد أَدَارُوا لطاسات السُّــرَى نُخُبَــا

إذا أَثَارُوا القَنَا عن جُنحِ مَظْلَمَــةٍ   شَالُوا النُّجُومَ عَلَى أطرافِهَــا لَهَبَــا

فهو يبدأ القصيدة بمدح المعتصم، ثم يشير إلى أنّ رماح الجند تؤثر على النجوم العالية، وذلك لعلوِّ مكانة هذا الجيش، كما أنّ النجوم تهتدي بهذه الرماح، والخيل

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص141- 144.

[2] ابن خاقان، القلائد، ق4، ص800-801؛ ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص886.

لسرعتها إذا لامست أقدامُها الحصى يقدحُ منه الشّررُ الذي يضيءُ الليل، كما أنّ فرسان المعتصم إذا عزموا على قتالٍ لا يردُّهُم شيءٌ حتى يحقّقوه ولو بالسّيف.

لقد جاءت النصوص السابقة في التمجيد والإعلان عن مكانة الجيش، لكنّ بعضَ الشعراء مالَ إلى الوصفِ من بابِ الاستهزاء أو ذكر مثالِبِ القائد، فابن دراج القسطلي يستهزئ بقائد الإسبان "ابن شنج"، وذلك في مدحه للمنصور المنذر بن يحيى، فيقول[1]: (البسيط)

رَاعَ المُلُــوكَ فَمَخنُوقٌ بجَرَّتِـــــه يَهِيمُ فِي الأرضِ أو لاجٍ إلى سَنَـــــدِه

فَتلْكَ نَفسُ "ابنِ شَنَجٍ" لا مَـــآلَ لَها من ميتَةِ السَّيفِ أو عَيْشٍ عَلَى نَكَــدِه

مَا يَرتَقِي شَرَفَاً إلا رَفَعْـــتَ لَــهُ وَجهاً من الرَّوعِ مَرفُوعَاً عَلَى رَصَدِه

ولا انتَحَى بَلَــداً إلا قَرَنْــتَ بِــهِ هَمَّاً يُبَلِّدُهُ عَن مُنتَحَـــــى بَلَـــــدِه

وقَد تَرَكْتَ "ابنَ شَنَــجٍ" فَلَّ مُعتَرَك إنْ لَم يَمُتْ من ظُبَاهُ مَاتَ من كَمَــدِه

مُشَرَّداً فِي قَوَاصِي البِيــدِ مُغتَرِباً وقد مَلأَتَ فِجَاجَ الأرضِ من خُـــرُدِه

فهو يشير إلى أنّ ابن شنج لا مآل له إلا الموت تحت السيف أو أن يعيش عيشة نكد، فما سعى إلى بناء شرف ومجد له، إلا وأرعبَه المنصور وأقلقه، كما أنّه إذا ذهب إلى بلد آخر وجد المنصور قد قَرَن له فيها همّاً يُزعِجُهُ، فهو مشرّدٌ ومغتربٌ، وسبَبُ ذلك سطوةُ المنصور عليه، فابن دراج يرى أنّ الخوف يخيم على ابن شنج، ولعل هذا سبب هزائمه.

وممّا يُذكرُ أنّ المعتمد بن عباد لمّا قصد (لُورَقَةَ)، علم أنّ العدوَّ قد جيَّش، فأمر ابنَه الراضي بالخروج، لكنّه تمارض وتقاعس للهروب من ملاقاة العدو الطعّان، فأرسل المعتمد ابنَه المعتدَّ، ممّا أدّى إلى خسارته أمام جيش العدو، فأرسل الراضي لوالده، مستهزئاً بالأعداء ويواسيه على ما حدث، فيقول[2]: (البسيط)

لا يُكرِثَنّكَ خَطبُ الحَادِثِ الجَّـــارِي فَمَا عَلَيكَ بِذَاكَ الخَطبِ من عَـــــارِ

مَاذا عَلَى ضَيغَمٍ أمضَى عَزِيمَتُــهُ إن خَانَهُ حَدُّ أنيَـــــابٍ وأظفَـــــارُ

لَئنْ أتَوكَ فَمِنْ جُبْنٍ ومِن خَــوَرٍ قَد يَنهَضُ العِيرُ نَحوَ الضَيغَمِ الضَّارِي

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص148-150.

[2] المقري، النفح، ج4، ص252-253.

عليكَ للنّاسِ أنْ تبقى لنُصـرتِهِم   وما عليكَ لَهُم إسعـــادُ أقـــدارِ
لَو يَعلَمُ النّاسُ فيمَا أنْ تَدُومَ لَهُم   بَكَوا لأنَّكَ من ثَوبِ الصِّبَــا عارِي
ولَو أطاقُوا انتِقَاصاً مِن حياتِهِمُ   لَم يُتحِفُوكَ بِشَيءٍ غَيــرَ أعمَــارِ

فهو يبدأ النصُّ بالاعتذار لأبيه ومدحه، بأنّه كالأسد لا يخاف، وهذا الحدث يجب أنْ لا يسبب له الخضوع والإحباط، لأنّ هؤلاء الأعداء لم يأتوا من قوة وشجاعة، ولكنْ غلب عليهم الجُبْنُ والضعفُ، ويدعو والدَهُ بأنْ يستمر على خدمةِ الناس ورعايةِ شؤونِهم وشؤون بلاده، وأنْ لا يثنيه هذا الحدثُ عن عملِه المعتاد.

وتعدُّ الأسلحة من مستلزمات الجندِ في المعارك، فقد وصف ابن دراج القسطلي سيوف جيش، فيقول[1]: (الطويل)

سُيُوفٌ تُنيرُ الحَقَّ أنّى انتَضَيتَهـــا   وخَيلٌ يَجُولُ النّصرُ حيثُ تَجُولُ
وبِيضٌ تَرَكْنَ الشِّركَ في كُلِّ منتَأىً   فُلُولاً، ومَا أزرَى بِهِنَّ فُلُــولُ
تَمُورُ دِماءُ الكُفـرِ فِي شَفَرَاتِهَـــا   ويَرجِعُ عنهَا الطَّرفُ وهو كَلِيلُ
حُسَامٌ لِدَاءِ المَكْرِ والغَدْرِ حَاسِـــمٌ   وظِلٌّ عَلَى الدِّينِ الحَنيفِ ظَلِيــلُ
سُيُوفٌ عَلَى الجُردِ العِتَاقِ عَزِيــزَةٌ   وأرضٌ الى البيتِ العتيقِ ذَلُــولُ

إنّها سيوفٌ تنيرُ الحقَّ أنّى سُلَّت من أغمادها، وتترك جيوش الشرك فلولاً، وأنَّ دماءَ الكُفرِ تكثر على شِفَارِه، كما أنّه ظل يحمي هذا الدِّينَ، ويحمي جميع بلاد المسلمين حتى البيتِ العتيقِ، وهذا يُكسِبُ السَّيفَ مَكانَةً مميزَةً بين أسلحة الجُندِ.

كما تحدث عن السيوف التي يستخدمها بربر زناتة وصنهاجة الذين يقاتلون في جيش سليمان المستعين بن الحكم، في عصر الفتنة، فقد كانوا يستخدمون الحسام الذي يلتهم هامات الأعداء ويطيح بها كما تلتهم النار القرابين، وتبدو سيوفُهم اللامعةُ التي تهوي على رؤوس الأعداء كأنها شهابٌ في السماء يهوي على شيطانٍ أو قربانٍ، حيث يقول[2]: (الطويل)

بِكُــلِّ زِنَاتِيٍّ كَــأنَّ حُسَامَهُ   وهَامَةَ مَن لاقَـاهُ نَــارٌ وقُربَانُ
وأبيضَ صِنهَاجٍ كَأنَّ سِنَانَهُ   شِهَابٌ إذا أهوى لِقِرنٍ وشَيطَانُ

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص4-8.

[2] ابن دراج، المصدر السابق، ص57.

وقد وصف أبو الفضل ابن شرف السيف[1]: (البسيط)

إنْ قُلتُ: نَارٌ تَنَدَّى النَّارُ مُلهِبَةٌ أو قلتُ: ماءٌ أَيرمِي الماءُ بِالشَّرَرِ؟

فهذا السيف كالنار الملتهبة على الأعداء، وكذلك كالماءِ في لمعانه وبريقه، ولكن يتساءل الشاعر، كيف لهذه النار أن تندَى مع شدةِ حرارتها، وكذلك الماءُ أن يرمي بالشرر؟ ولعل النّدى على النار فيه إشارة إلى دماء الأعداء. كما وصف أبو الفضل أيضاً في القصيدة نفسها الدِّرعَ، بقوله:

مِن كُلِّ ماذِيَّـــةٍ أُنثَى فَيَا عَجَبَاً كَيفَ استَهَانَت بِوَقْعِ الصَّارِمِ الذَّكَرِ؟

إنه يجعل من الدِّرع أنثى، ذات قوةٍ عظيمة قادرة على الصمود في وجه الذَّكَرِ الصّارِمِ وهو السيف، على الرغم ممّا تتسم به من لينٍ.

ووصف أبو عامر ابن شهيد السيف والرمح، فقال فيهما[2]: (الطويل)

وَمِن تَحتِ حِضنِي أبيضٌ ذُو سَفَاسِقٍ وفِي الكَفِّ مِن عَسَّالَةِ الخَطِّ أسمَرِ

هُمَا صَاحِبَايَ مِن لَـــدُن كُنتُ يَافِعَـــاً مُقِيلانِ مِن جَدِّ الفَتَى حِينَ يَعثُـــرُ

فَذَا جَدوَلٌ فِي الغِمدِ تُسقَى بِه المُنَى وذا غُصنٌ في الكَفِّ يُجنَى فَيُثمِرُ

فالسيف والرمح هما صاحبا الشاعر، وملازماه في جميع الأوقات والأحوال، منذ أن كان فتىً يافعاً، وهما مصدر العزَّةِ والعظمة، وتحقيق الآمال والطموحات.

ووصف ابن دراج الرُّمحَ والقوسَ، وذكر فعلهما في الأعداء وكأنّهما عطشى لدمائهم، كما أنها لا تعصي مرسلها فيقول[3]: (الطويل)

وأَسمَرَ ظَمآنِ الكُعُوبِ كَأَنَّمَـــا بِهِنَّ إلى شُـــربِ الدِمَـــاءِ غَلِيـــــلُ

إذا ما هَوَى للطَّعْنِ أَيقَنتَ أنّه لِصَرفِ الرّدَى نَحـــوَ النُّفُوسِ رَسُولُ

وحنّانَةِ الأوتارِ فِي كُلِّ مُهجَةٍ لِعَاصِيكَ أوتَـــارٌ لَهَـــا وذُحُـــــولُ

إذا نبعُهَا عَنْهَا أرنَّ فإنَّمَـــــا صَدَاهُ نَحِيبٌ فِي العِـــدَى وعَوِيْـــلُ

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق4، ص795-796؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص30.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص108؛ وسفاسق: جمع سِفسِقة وهي للسيف وتعني طريقته، وهي ما بين الشطبتين طولاً، ويقال لها الفرند، وهي فارسيية معربة،(ابن منظور، لسان العرب، م2، ص156، مادة سَفْسَقَ)

[3] ابن دراج، الديوان، ص7.

ووصف بعض شعراء البيوتات الخوذة التي كانوا يطلقون عليها أسماء مختلفة، وذلك لاختلاف المواد التي كانت تصنع منها، والأشكال التي تصاغ فيها، ومن ذلك استخدامهم لفظة المِجنّ والحجف والتّرس والدرَقة والزاهقة والتّرِيكة وغيرها[1]، ومن ذلك قول المعتمد بن عباد يَصف مجنّاً[2]: (المتقارب)

مِجَنٌّ حكَى صَانِعُوهُ السّمَاءَ لِتَقْصُرَ عَنهُ طِوَالُ الرِّمَــــاحِ
وقَد صَوّرُوا فِيه شَبَه الثُّرَيَّا كَواكِبَ تَقضِي لَهُ بالنَّجَـــاحِ
وقَد طَوَّقُوهُ بِـــذَوبِ النُّضَـــارِ كمَا جَلَّلَ الأُفْقَ ضَوءُ الصَّبَاحِ

فيكشف عن أنّ هذا المِجَنَّ لازوَردِيَّ اللون، مطوقاً بالذهب، في وسطه مسامير مذهَّبَة وفيه كواكبُ فضةٍ.

ويقول المعتمد بن عباد أيضاً في وصف الخوذة، وقد أطلق عليها اسم التريك، فيقول[3]: (الكامل)

وإذا تغنّـــت هذه فـــي مِزهَرٍ تألُ تلك علـــى التَّريك غناءَ

كما وصف بعض شعراء البيوتات مستلزمات الجيش من طبول ورايات وبنود وغيرها، مما كان يستخدمها الجيش في سيره إلى ساحات القتال وفي أثناء الاستعراضات والمهرجانات، ومن ذلك قول أبي محمد ابن حزم في وصف الطبل وأثرهُ في أسماع الناس[4]: (الكامل)

فالطبل جلد فارغ وطنينه يرتاع منه ويغرق الإنسان

فهو على الرغم من أنه فارغ من داخله، ومصنوع من الجلد، فإنه إذا قرع يرتاع الإنسان لطنينه.

---

[1] لمزيد من التفصيل انظر: بيريس، هنري، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف (ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية)، ترجمة د.الطاهر أحمد مكي، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1988م، ص312-313.

[2] المعتمد، الديوان، ص29.

[3] المعتمد، المصدر السابق، ص28.

[4] بيريس، المرجع السابق، ص311.

وقد أشار المعتمد إلى الطبل ورايات كتيبة من الفرسان كان على رأسها، وقد اضطرَّ إلى فراق زوجته التي يخاطبها قائلاً[1]: (الطويل)

ولمّا التقينا للوداع غُديّـــــة وقد خفقت في ساحة القصر رايات

وقُرِّبَتِ الجُردُ العِتَاقُ وصفّقت طبولٌ، ولاحت للفراق علامـــــات

أما المعتصم، فيشير إلى طبول الجيش وبنوده في أثناء وصفه حزنه على ابنه الذي أرسله إلى غرناطة سفيراً، فأُلقِي بهِ في السجن، فأشرك المعتصم معه في حزنه كلَّ الجيش، فيقول[2]: (مجزوء الوافر)

لقطّعت البيضُ أغمَـــادَها وشَقَّت بُنُودٌ ونَاحَت طُبُولُ

فقد قطّعت السيوف أغمادها، وشقّ الجيش بنوده، وناحت طبوله حزناً على وقوع الأمير في الأسر في يد المرابطين، وهو أمرٌ غيرُ مألوفٍ في الحديث عن هذه الأدوات العسكرية التي تمثل العلاقة المادية للسلطة.

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن القول إنّ الشعراء من ذوي البيوتات قد أسهموا في الحديث عن الاضطرابات والأحداث التاريخية والعسكرية التي شهدتها الأندلس في القرن الخامس الهجري.

3.2 الطبيعـــــة:

لقد شغف أهل الأندلس عامة والشعراء خاصة بطبيعة بلادهم، حتى إنه جرى الشعر على ألسنة الكثيرين بسببها وفي وصفها، كون الطبيعة كانت مسرح لهوهم، ففي أحضانها يستسلم الشاعر للَّهو والحبِّ والخمرة، فيعكف على تصويرها في إطار الطبيعة، وتقديم لوحات منها فيها العبير والأصباغ والألوان[3].

وقلَّد شعراءُ الأندلس المشارقةَ في هذا الموضوع فجعلوا مقدمات قصائدهم في وصف الطبيعة بدلاً من الغزل أو الأطلال وغيرها، ويرى إحسان عباس"أنهم تأثروا

---

[1] المعتمد، الديوان، ص4.

[2] ابن الأبار، الحلة، ج2، ص89.

[3] الركابي، جودة، الطبيعة في الشعر الأندلسي، ط2، مكتبة أطلس، دمشق، 1970م، ص23-24.

في وصف الطبيعة -وفي الحديث عن الأزهار خاصة- بموقف ابن الرومي الذي فتح باب المناظرة بين أنواع الأزهار،...، فكان يفضّل النرجس على الورد، فعارضه الأندلسيون وأكثروا من القصائد التي يفضلون فيها الورد على بقية الأزهار،..."[1].

ولكن ما يميِّز الأندلسيين هو أنهم لم يقفوا عند التقليد فحسب بل فاقوا المشارقة كمَّاً وكيفاً في هذا الموضوع فتوسعوا في موضوعات شعر الطبيعة فكانوا أكثر براعةً وابتكاراً وتجديداً ودقةً في التصوير؛ أي أصبح له شأن عندهم لم يكن له مثله عند المشارقة[2].

ويعود ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس لعدة عوامل منها طبيعة الأندلس الخضراء، ووفرة مياهها ونقاء هوائها، فجميعها تبعث في النفس البهجة والسعادة، ومنها حياة اللهو والاستمتاع التي كان يمارسها الشعراء، فمجالس الأنس واللهو والشراب كانت الطبيعة مسرحها وميدانها، فضلاً عن تعلُّق الأندلسيين ببلادهم وحنينهم إليها وخاصة عند الرحلة أو الانتقال من مدينة إلى أخرى في الأندلس نفسها[3].

وقد عبَّر أبو عبيد البكري عن جمال طبيعة الأندلس بقوله:" شآمية في طبيعتها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هنديَّة في عطرها وذكائها، أهوازية في عظيم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار لليونان أهل الحكمة وحاملي الفلسفة"[4]، فهذا القول فيه إشارة إلى أن الأندلس بلاد

---

[1] عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي "عصر سيادة قرطبة"، ط8، دار الثقافة، بيروت، 1996م، ص110.

[2] عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976م، ص291؛ الدقّاق، عمر، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت، (د.ت)، ص206.

[3] عتيق، المرجع السابق، ص291؛ منصور، حمدي، الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين، ط1، دار الجوهرة، عمان، 2003م، ص58-60.

[4] المقري، النفح، ج1، ص64.

جمعت من بين محاسن بلاد عديدة، فأخذت من كل بلاد أجمل ما فيها من محاسن، وما اشتهرت به.

وقد جاء حديث الشعراء الأندلسيين عن الطبيعة في لونين، أولهما ما جاء ممتزجاً مع موضوعات أخرى كالغزل والخمرة وغيرها، وثانيهما ما جاء مستقلاً، إذ خصَّصوا كثيراً من قصائدهم لوصف جمال طبيعة الأندلس عامة أو مدينة خاصة والتغني بجمالها، أو وصف مجالي السماء والأرض، أو التغني بمجالس الأنس والخمرة التي تعقد وسط الرياض والمتنزهات[1].

وموضوع الطبيعة كما يرى إحسان عباس وُظِّفَ كافتتاح للقصيدة، مثل الأطلال والغزل، ويبنى عليه الموضوع الرئيس كالخمرة والحب، فيشكل قاعدة أو كالعامل الكيميائي المساعد في القصيدة الأندلسية[2].

وتحدّث الشعراء عن الطبيعة في ثلاثة محاور هي: أولها الطبيعة الحية الصائتة، وتشمل الكائنات الحية أو الحيوانات ماعدا الإنسان، وثانيها الطبيعة غير الحية الصامتة، وتشمل الحديث عن مظاهر الكون كالليل والنهار والبرق والمطر والنجوم والكواكب والنباتات وغيرها، وثالثها الطبيعة الصناعية التي ابدعتها يد الإنسان مثل القصور والبرك والتماثيل وغيرها[3].

ولقد شارك شعراء البيوتات في الأندلس في القرن الخامس الهجري أقرانهم شعراء الأندلس الآخرين في وصف الطبيعة والتغني بجمالها، فتغنَّى الشعراء بجمال طبيعة مدنِهم وأخذوا بوصفها فهذا ابن برد الأصغر يتغنَّى بحيِّ الرُّصافة وجمال طبيعته وحدائقه، فيقول[4]: (الوافر)

---

[1] عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص295-318.

[2] عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي"عصر الطوائف والمرابطين"، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع،عمان،2001م، ص162.

[3] انظر: الركابي، الطبيعة في الشعر الأندلسي، ص23-24؛ نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1978م؛ منصور، حمدي، الطبيعة في الشعر الأندلسي، ص55.

[4] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص519.

سقَى جوفَ الرُّصافة مستَهِلٌ تؤلِّف شملَه أيـدي الريـاحِ
محـلٌ ما مَشَيْتُ إليـه إلاَّ مشى فِيَّ ابتهاجي وارتياحي
كأنَّ ترنُّـمَ الأطيـارِ فيـه أغانٍ فوقَ أوتـارٍ فِصـاحِ
كأنَّ تثنِّـي الأشجـارِ فيه عَذارى قد شَرِبْنَ سُلافَ راحِ
كأنَّ الجَـدولَ المُنسابَ نصلٌ صقيلُ المتـنِ هُزَّ إلـى كفاحِ
كـأن رياضَـه أبرادُ وَشـيٍ تعطَّفُ فـوق أعطافٍ مِـلاحِ

فالشاعر في هذا النص يتغنَّى بطبيعة الرُّصافة وجمالها، ففيها الأطيار ذات الأصوات الجميلة، وفيها الأشجار الكثيرة التي تتمايلُ تمايلَ العذارى اللائي ثَمِلْنَ من الرَّاحِ التي شربنها، ويخترق جنانها وحدائقها جدول كالسيف، ولقد بدت الرياض الجميلة كأنها البرود المزينَّة بالرسم والوشي.

وهكذا يصف أبو الفضل ابن شرف "وادي عذراء" الذي يقع في مدينة برجة التابعة لأعمال المرية، التي تشير بعض الروايات إلى أنها مكان ولادته، فيقول[1]: (المتقارب)

إذا جئتَ بُرجَةَ مستَوفِزاً فخُذْ في المُقامِ وخَلِّ السَّفَر
رياضٌ تعشَّقها سنـدُسٌ توشّت معاطفُهـا بالزَّهَـرْ
مدامعُها فوقَ خَدِّي رُبىً لها نظـرَةٌ فتَنَت من نَظَرْ
وكلُّ مكـانٍ بها جنَّـةٌ وكـلُّ طريـقٍ إليها سفَر

فيصف الشاعر هنا منظر رياض برجة الموشاة بالأزهار والورود، والمغطاة بالندى وهو منظر ساحر يبعث في النفس السرور والسعادة.

ولم يقتصر الشعراء على وصف عناصر الطبيعة الصامتة، بل وصفوا أيضاً عناصر الطبيعة الحية، ومنها الحيوانات أو ما أسماها الدارسون بالطبيعة الصائتة، ومن هذه الحيوانات "الفرس" الذي وصفه أبو الفضل ابن شرف، وجعل لونه أسود

---

[1] المقري، النفح، ج1، ص151؛ وفي ديوان أبيه أبي عبد الله ابن شرف، ص55، وردت منسوبة له وليس لابنه، وينقلها عن معجم الأدباء، وقد اعتمدنا رواية النفح.

كالليل، وهو ينطلق في المعركة بسرعة كأنّه جفَل من لسعة حيّةٍ أو طعنةٍ من سيفٍ أو رمحٍ، فيقول عنه في بعض أبيات القصيدة[1]: (الرمل)

لبست أعطافُهُ ثوبَ الدُجى وتحلّى خدُّه بالفلـــقِ

وانبرى تحسبُهُ أجفلَ عن لسعةٍ أو جنَّةٍ أو ولقِ

ثم يقول:

أوجست في الحرب من وخْزِ القنا فتــوارت حلقاً في حلــق

فهذا الفرس أسود اللون زين خدَّه بياضٌ، وإذا انطلق في ساحة القتال فإن سرعته الحادَّة كلسعة العقرب أو الأفعى أو طعنه السيف، ولكثرة المعارك التي خاضها هذا الفرس مع صاحبه أصبح جسمُه كحلقاتٍ متصلةٍ من كثرة آثار الطعنات فيه.

وقد وصف ابن دراج القسطلي جواداً، فقال[2]: (الكامل)

سامي التليل كــأن عقد عذاره في رأس غصن البانة الميَّــاد

يُهدى بمثل الفرقدين وناب عن رعي السِّمــاك بقلبــه الوقَّاد

فكأنما أطأ الأبــاطــحَ والرُبى بعقابِ شاهقـــةٍ وحيــّة واد

وكأنَّه من تحت سوطي خارجاً في الرَّوع شعلــةُ قادحٍ بزناد

لقد جعل هذا الجواد رفيع النسب ومن أصائل الخيل، وله عينان كالفرقدين وهما نجمان في السماء، وسريع حتى إنه عندما يركبه فارسُه في سفر أو في قتال فكأنَّه يركبُ على عقابٍ أو أفعىً، ويشبه الشعلة الخارجة عند قدح زناد للمنجنيق.

ومن الحيوانات التي وصفها الشعراء "البقرة" فهذا أبو بكر بن القبطرنة يصف بقرة أخذها منه الطاغية صاحب قُلُمرِيَّة، فيقول فيها[3]: (الطويل)

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص871؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص23؛ المقري، النفح، ج3، ص393-395. والولَق: هو أخفُّ الطعن، وكذلك الإسراع بالشيء في أثر الشيء، كعدوٍ في أثر عدوٍ، أوكلام في أثر كلام، ولعل المعنى الأول أكثرها مناسبة لمعنى النص (ابن منظور، لسان العرب، م3، ص983، مادة ولَقَ)

[2] ابن دراج، الديوان، ص543-544، ويشير محقق الديوان إلى وجود اختلاف في نسبة الأبيات لابن دراج.

[3] هو ألفونسو هنريكز، صاحب قُلمرِيَّة، وهي عاصمة البرتغال آنذاك. (ابن بسام، المصدر=

وفجَّعني ذا الرِّيقِ لا درَّ دُرُّه بأمِّ عيـــالٍ ما عرفَنا بها الجدبا
ترى فخذَيها يحملان خزانَةً إذا فَتَحتْها إصبعاً ملأَتْ وَطَبــا

لقد بكى الشاعر هذه البقرة التي اغتصبت منه، ذلك أنها ذات أولاد وعطاء وفير، يمدُّه وأسرته ضرعُها باللبن الكثير الذي يكفيهم ويسد حاجتهم، حتى إنهم لم يعرفوا بها الجدب والفقر، ويصف ضرعيها بأنهما خزانة تحملها فخذاها، وإذا فتحت مقدار إصبع ملأت كثيراً من الآنية، لقد أخذ الطاغية مصدر عيشهم.

ومن الحيوانات التي وصفوها"الظبية" فتغزَّلوا بجمالها وتغنَّوا بسماتها، فقد اتخذت قسمونة بنت إسماعيل بن النغرلة من الظبية مثالاً تصوِّر من خلالها وحشتها ويأسها، ولا سيما بعد أن تقدَّم بها السنُّ ولم تتزوج، فهي مفردة بلا زوج، فحالها حالُ ظبيةٍ ترعى في روضةٍ منفردةٍ دون صاحب، فتقول مقابلةً بين الصورتين[1]: (الرجز)

يا ظبيةً ترعى بروضٍ دائمـــاً إنِّي حكيتُك في التوحُّش الحـــوَرْ
أمسى كلانا مفرداً عن صاحب فلنصطبـــر أبداً على حكم القـــدرْ

ومن الحيوانات التي وصفوها الحيوانات المفترسة "كالذئب"، فيقول فيه ابن شهيد[2]: (الطويل)

إذا اجتاز عُلويٌّ الرِّياح بأفقـــــه أجـــــدّ لعرفـــان الصَّبـــا يتنفَّـسُ
تذكَّر روضاً من شَوِيٍّ وباقِـــــر تولَّتْه أحـــراسٌ مـــن الذُّعرِ تحرس
إذا انتابها من أذؤُبِ القفرِ طارقٌ حثيثٌ إذا ما استشعر اللَّحظَ يهمِسُ
أزلُّ كســا جثمــانَــه متستِّــراً طيـــالس ســـوداً وهـــو أطلـــسُ
فدلَّ عليـــه لحـــــظُ خِبٍّ مخادعٍ ترى نارَه من ماءِ عينيه تُقبَـــسُ

= السابق، ق2م2، ص768؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص522 /الهوامش)؛ انظر النص: ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص769؛ وذكر ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص 522-523 القصة لكنَّه أورد أبياتاً غير الواردة. وهنالك روايات أن هذه البقرة هي لأبي محمد عبد المجيد بن عبدون شاعر المتوكل بن الأفطس.

(1) المقري، النفح، ج3، ص530.

(2) ابن شهيد، الديوان، ص119؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص277.

لقد عبَّر الشاعر عن حالة الذئب إذ إنه يعلو الرياح ويفوقها في سرعته، ولاسيما إذا جاع، حتى أنه ليميل على رياضٍ فيها من الأغنام والبقر التي مُلِئت قلوبها ذعراً منه، فيدخل عليها وقد ستر جسمَه ليلٌ أسود إضافةً إلى سواده وطيلسانِه، ولكنه لم يتمكن من الصيد لأن لمعان عيونه دلَّ عليه، فهي كعيون الخِبِّ إذ تعكس الضوء فيراها الآخرون حتى في سواد الليل، فهنا رسم الشاعر صورة للذئب مزج فيها بين العناصر اللونية والحركية وقدم من خلالها الصورة.

وقد وصف بعضهم الخرشف أو الحرشف، وشبهوه بالقنافذ وأشواكه، فقد وصفه ابن شهيد بقوله[1]: (السريع)

هل أبصرَتْ عيناكَ يا خَليلِـي ... قنـافِـذاً تُبَـاعُ فـي زنبيـلِ؟

مـن حُرشُفٍ مُعتَمَـدٍ جَليـلِ ... ذي إبَـرٍ تنفُـذُ جِلْـدَ الفيـلِ

كأنَّهـا أنيـابُ بنـتِ الغُـولِ ... لو نُخِسَت في إستِ امرئ ثقيل

لقفّزتْـهُ نحـوَ أرضِ الفيـل ... ليسَـت تـرى طيَّ حشا منديل

نقلُ السخيفِ المائنِ المجهول ... وأكـلُ قـومٍ بارِحِـيِّ العُقُولِ

أقسِـمُ لا أَطعَمتُهـا أكَيْـلِـي ... ولا طَعِمْـتُهـا علـى شَمُـولِ

وقد وصف أبو بكر ابن القبطرنة قنفذاً بعث به إلى بعض إخوانه، فقال[2]: (الطويل)

بعثتُ بها عشراً بناتِ شيـاهم ... مكلّلـةٍ هامـاتُهـا بمبـاضـع

تراها بها الأعداءُ فوقَ جفُونِهم ... نهاراً، وليلاً تحتَهُمُ في المَضَاجِعِ

وإنْ مـدَّ مـولانَـا لها يدَ قابلٍ ... فإنِّيَ فيهـا باسـطٌ خـدَّ ضارع

فيذكر أن عددها عشرة، كما أن الإبر على رأسها كالمباضع التي تُلحقُ الضرر بمن يلمسها، وفي البيت الأخير يكشف الشاعر عن غرضه من هذه الهديّة وهو الاستهداء وطلب العطاء من مولاه، وفي النص أيضاً تورية وهي أن تكون الهدية رماح رؤوسها حادة كالمباضع.

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص140.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص770.

كما نالت الطيور مكانةً بارزةً في أوصاف الشعراء الأندلسيين، وقد ركّزوا على ألوانها وأصواتها، لأنها تمثل جزءاً جميلاً من طبيعة الأندلس، فهذا المعتضد ابن عباد يقول في وصف تغريد البلبل الذي يدعونه "أمَّ الحسن" عندما يكون طليقاً، فيقول فيها[1]: (مجزوء الرجز)

أتتـــك أمُّ الحســـنِ تشدو بصـوتٍ حسنِ

تمـــدُّ في ألحانِهـــا مدَّ الغنـــاء المدنـــي

تقـــودُ منّي سلـسلاً كأنّـــني في رســـنِ

أوراقُهَـــا أستَـــارُهـــا إذا شَـــدَتْ في فَنَـــنِ

فهو يعبِّر عن مدى تأثره بصوتها عندما تشدو، حتى كأنها جارية تمدُّ في ألحانها، وكأنه منقاد لها بسلاسل من حديد تكون رسناً وقياداً له كالفرس.

ويصف ابن برد الأصغر حسنَ صوتِ طيرٍ جميلٍ مغرِّدٍ فيقول[2]: (مجزوء الرمل)

بأبي طائــرُ حُسْنٍ لاقـــطٌ حَـــبَّ القلوبِ

كلّـــما اهتـــزَّ الــ ـــصّدِّ هُـــزَّتْ بالوجيـــب

يَتَغَنَّـــى بلســـانٍ معربٍ فـــوق قضيـــب:

أُعطِيَ المُلْكَ مُحِبٌّ فـــاز منِّـــي بنصيـــب

فهنا يجعل ابن برد هذا الطير المغرد لجمال صوته، تهواه القلوب ويأسرها، كما أنه يتغنّى ويعرب عن مجده وقدرته على التأثير في الآخرين.

ومال بعض الشعراء إلى استهداء الطيور والحيوانات، فهذا أبو بكر بن القبطرنة يستهدي "سوذانقا " أوشاهيناً من الشاعر عبد المجيد ابن عبدون، فأرسل إليه رسالة شعرية بدأها بوصف حمامة حملت رسالته إلى ابن عبدون، فيقول[3]: (الطويل)

أغادِيَـــةٌ باتت مـــعَ النَّـــورِ والتَقَتْ على الغَورِ ريحُ الفجرِ مَرَّت بِدارِين

---

[1] المعتضد، الديوان، ص116؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص30.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص507.

[3] الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص418-419.

خَطَت فوقَ الأرضِ من عرارِ وحنوةٍ   وحطَّت بروضٍ من بهارٍ ونسرين
وباتت بوادي الشحر تحت يدِ الصِّبا   إلى الصُّبْحِ فيما بينَ رشٍّ وتدجين
ومرَّت بوادي الرَّندِ لَيلاً فأيقَظَت   به قائماتِ الوردِ بين الرَّياحين

لقد تتبع ابن القبطرنة رحلة هذه الحمامة فوصف عناصر الطبيعة التي مرَّت بها بما فيها من جبال وأودية ورياض حتى بلغت منطقة دارين، وهي ناحية من البحرين شرقاً، وما فيها من ورود وأزهار، وما فاح فيها من عطور زكيَّة، وكل ذلك من أجل تبليغ سلامه لابن عبدون، ثم ينتقل للحديث عن الاستهداء، وأيام الصيد مع ابن عبدون، ولا ننسى أنهما متعاصران وكانا في ديوان المتوكل بن الأفطس، وبعدها يصف الشاهين، فيقول:

إذا ملتِ عن مجرى النجومِ فبلّغي   سلامي مبلولَ الجَناحِ ابنَ عبدون
وبينَ يدَيْ شوقِي إليه لبَانَةً   تخفِّفُ من قلبٍ للقياهُ محزون
مضى الأنسُ إلا لوعَةٌ تستَفِزُّني   إلى الصَّيدِ، إلاَّ أنَّني دونَ شاهين
فمَنّ به صافي الجنَاحِ كأنَّه   على دستبَانِ الكفِّ بعضُ السلاطين
إذا أخذَتْ كفّاه يوماً فريسةً   فمِنْ عقدِ سبعينَ إلى عقدِ ستين

فهو مشتاق لابن عبدون وللصيد معه لكنه لا يملك شاهيناً، فأرسل إليه ابن عبدون شاهيناً امتاز بصفاء جناحه وسلامته من الأذى، وإذا وقف تظنُّه أحد السلاطين لصلابته وسطوته، إضافة إلى وقاره، وإذا هاجم فريسة فإنه يطرحها أرضاً .

ومن الطيور التي وصفها شعراء البيوتات في الأندلس"البازي"، فقد وصف أبو بكر ابن القبطرنة بازياً استهداه من المتوكل بن الأفطس، حيث يقول[1]: (الكامل)

يا أيُّها الملِك الذي آباؤهُ   شُمُّ الأنوف من الطِّراز الأول
حلَّيْت بالنعم الجسامِ سماحةً   عُنُقي، فحلِّ يدي كذاك بأجدل
وامننْ به ضافي الجناح كأنَّما   حُذِيَتْ قوادمه بريحِ شمأل
أغدو به عُجْباً أصرِّفُ في يدي   ريحاً وآخذُ مطلقاً بمكبَّل

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص769؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص96.

فالشاعر يمدح المتوكل بن الأفطس وعراقة بيته، وأنه تفضّل عليه بالكثير من النعم والعطايا، فقد حلّى عنقه بها ويريد أن يحلّي يديه ببازيٍّ صافي الجناح يثير العجب والثقة له في رحلات صيده.

وقد اتخذ المعتمد من الطيور وحريتها نموذجاً له للتعبير عن شوقه لأيام حريته عندما كان أميراً في إشبيلية، وأنه يشكو انقلابَ الزمنِ والدهر عليه، يقول وهو في الأَسْرِ في أغمات واصفاً سربَ القطا[1]: (الطويل)

بَكَيْتُ إلى سِرْبِ القطا إذ مَرَرْنَ بي ... سـوارحَ لا سجـنٌ يعـوقُ ولا كبـلُ
ولـم تـكُ –واللهُ المعيـذُ حَسادَةً ... ولكـن حنيناً أنَّ شكلـي لها شكـلُ
فأسرِح، لا شملي صَديعٌ، ولا الحَشَا ... وَجِيْـعٌ، ولا عينـايَ يُبكِيهُمـا ثُكْـلُ
هنيئـاً لها أن لـم يُفـرَّقْ جميعُها ... ولا ذاقَ منهـا البعـدَ من أهلِها أهلُ
وأن لـم تبُت مثلي تطيـرُ قلوبُهـا ... إذا اهتزَّ بابُ السجنِ أو صَلصَلَ القُفلُ
وما ذاك ممَّـا يعتَرِينـي، وإنَّمـا ... وصفتُ الذي في جِبْلَةِ الخَلْقِ من قبلُ
لِنَفْـسي إلـى لُقيَا الحِمامِ تشـوّقٌ ... سواي يحبُّ العيـشَ في سـاقِهِ حَجْلُ
ألا عَصَمَ اللهُ القَطَـا فـي فِراخِهـا ... فإنَّ فِراخِـي خانَهـا المـاءُ والظِّـلُّ

فهو يتخذ منها خليلاً يبكي له سوء حاله، فهي لا تعيذه من الحسد ولكن يحنُّ من خلالها إلى ماضيه، ثم يهنئها إذا لم يفرُّق شملها، وتبتعد عن بعضها، كما أنها وإن سُجِنَت إلا أنها تستطيع التحرر عند فتح الباب، فتعود إلى وطنها، وحالة السرب تشبه حالة المعتمد المأسور. وإن كان رغم ذلك يفضّلُ لقيا الحمام ويتشوّق للموت، فالموت وهو عزيز النفس أحب إليه من حياة الذلِّ والهوان التي يحياها في سجنه، بينما غيره يرضى بمثل هذه الحياة ويخشى الموت، ثم يدعو لسرب القطا بالعصمة والحفظ لها ودوام النعمة عليها وعلى فراخها، أمّا فراخه وهم أولاده فقد خانها الماء والظل، وفي ذلك تعبير عن حزنه وألمه لما أصابه وأصاب أبناءه[2].

---

[1] المعتمد، الديوان، ص110-111؛ المقري، النفح، ج4، ص221.

[2] والي، فاضل فتحي محمد، الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، 1416هـ، ص303.

إنه يغبط سرب القطا على حريته واجتماع شمله وإحساسه بالأمن والأمان، ويتمنى أن يكون مثل هذا السِّرب لا يفرِّقه عن أهله وأحبابِه سجنٌ ولا قيدٌ، ونلحظ أن المعتمد عندما تحدَّث عمَّا يعتري المسجون في سجنه من خوف وفزع عندما يُفتحُ باب السجن أو يسمعُ صلصلة الأقفال، أو وقعَ خطوات الحراس الثقيلة الوقع، بادر فنفى عن نفسه مثل هذا الفزع الذي جُبِلَ عليه الناس بينما هو ما زال متمسكاً لا يعتريه الخوف.

ومن مظاهر اهتمام الأندلسيين بالطيور توظيفُها في الألغاز، فظهر عندهم فنٌّ شعريٌّ عُرِف "بالمطيَّرات أو المعمَّيات"، وهي نوع من المطارحات الشعرية ينهض على الأحاجي والألغاز وتدور كلُّها على أسماء الطيور ولكلِّ طيرٍ حرفٌ يرمزُ إليه، وقد تتغيَّر الرموز بتغير القصائد[1].

كما وصف شعراء البيوتات الأندلسيون الحشراتِ كالبراغيث والنحل وغيرها، فهذا ابن شهيد يقول في برغوث[2]: (الكامل)

ومنفِّــرٌ للنَّـــــــومِ مَسكَنُهُ، إذا نامَ المُملَّــكُ، بيــــن أثناء الثيابْ
يَسرِي إلى الأجسامِ يهتِكُ عدوُهُ عَن كُلِّ جِسمٍ صِيغَ بالنُّعمَى حِجابْ
ويَعُضُّ أردَافَ الحِسَـــانِ ومَالُه كَفٌّ ولَكِــنْ فُوهُ مَن أعدَى الحِرَابْ
متحكِّـــمٌ فـــي كـــلِّ جسمٍ ناعمٍ متدلِّلٍ ما بيـــن ألحاظِ الكعـــــــابْ
فإذا همـــــــمتَ بزجرِهِ ولّى ولا يثنيه عمّــا قــد تعــوَّدَهُ طِـــــلابْ
وترى مَوَاضِعَ عَضِّه مَخضُوبَةً بدمِ القُلُــوبِ ومَا تعاوَرَهُ خضـــابْ
قَرْمٌ من الليلِ البهيــمِ مُكَـــوَّرٌ يمشي البَـــرَازَ و ما تواريـــه ثيابْ
عظُمَت رزيَّتُهُ ولكـــن قَــــدْرُهُ أخزَى وأهوَنُ من ذُبَابٍ في تـــرابْ

إنه يصف ما يختص به من أعمال مميِّزة له، وهو في وصفه هذا يسعى إلى الجمع بين الحقيقة والتفنُّنِ القائم على المبالغة في ما يمثِّلها من الصُّور، فيصفه بأنه

---

[1] ابن زيدون، أبو بكر أحمد بن عبد الله (ت 463هـ/1070م)، ديوانه ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، مكتبة نهضة مصر- بالفجالة،1957م، ص594؛ (انظر أمثلة أخرى على المطيرات، ديوان ابن زيدون، ص595-632؛ المعتمد، الديوان، ص77-86).

[2] ابن شهيد، الديوان، ص87؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1،ص220.

لا يسكن إلا بين الثياب، كما أنه يهتك عورات الناس ويعضُّ أجسام النساء، فكأنه يتلذَّذ بالأجسام الناعمة، كما أنه سريع الحركة حتى أنك لا تستطيع الإمساك به، ولا يُعرَف منه إلا آثار عضَّته، ويمشي مجاهراً لا يستره شيء، ولا يأبهُ بأحدٍ حتى أنه من دناءته ورزيَّته أهون من الذباب في التراب، كما وصف أيضاً النحلة بقوله[1]: (الطويل)

وطائرةٍ تهـوي كـأنَّ جنـاحَهـا ضميـــرٌ خفـيٌّ لا يحدِّدُهُ وهمُ
ملازمـةٍ للـروضِ حتـى كأنَّمـا لها كُلُّ ما تفتَـرُّ عنه الرُّبى طُعْمُ
تَمُجُّ بفيها الشهدَ صرفاً ويختفـي لمُشتارِهِ مـا بين أحشائها سهمُ
منافِـرةٍ للإنـسِ تأنـسُ بالفـلا مفرِّقةٍ للشَّهدِ، مـن بعضها السُّمُّ
فإدناؤُها رُشْدٌ، وهَتْكُ حِجابهـا إذا احتَجَبَت في غيـر أيَّامِها ظلمُ

فهذه الأبيات تكشف عن أن ابن شهيد كان يتأمل النحلة ورقَّة جناحها وشفافيته، حتى بدا كأنه ضمير خفيٌّ لا يصل إليه، وقد جعلها تلازم الرُّبى والرِّياض، وتتَّخذُ ما تنتجه هذه الروابي والرياض طعاماً لها، وهي تجمع بين المتناقضات فالعسل يخرج من فمها والسهم يختفي بين أحشائها، وهي تحمل في عطائها بين النفع والضرر، إذ هي تفرِّقُ على الناس شهداً وسمّاً على السواء، كما أنها تنفِرُ من الإنسان وتأنَس بالفلا.

فمن النصوص السابقة نلحظ أن الشعراء عبروا عن طبيعة بلادهم الحية "الصائتة"، فوصفوا حيواناتٍ كثيرة وطيوراً وحشراتٍ صغيرةً، ونستنتج منه أنهم لم يهملوا ولم يهمِّشوا شيئاً منها.

الطبيعة الصامتة:

وقد تناول الشعراء في أشعارهم كثيراً من مظاهر الطبيعة الصامتة التي تشكِّل كلَّ ما هو غيرُ حيٍّ، فتشمل المياه والأشجار والرياضَ والأزهارَ والليلَ والنهارَ ومظاهرَ الكونِ والفُلكِ أي ما اشتملت عليه الأرض والسماء.

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص150؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص219.

ومن مظاهر الطبيعة الصامتة التي تحدّث عنها شعراء البيوتات الرياض والربيع، فهذا ابن شهيد يقول في وصف الربيع وعيد النيروز[1]: (الكامل)

وأتــاك بالنَّيْــروزِ شــوقٌ حافزٌ و تطلّــعٌ للــزورِ غبٌّ تطلع
وافــاك فــي زمنٍ عجيبٍ مونقٍ وأتاك في زهْــرٍ كريمٍ ممتع
فانظرْ إلى حُسْنِ الرَّبيعِ وقد جلَت عن ثوب نَوْرٍ للرَّبيعِ مُجزَّعِ

فهو يشير هنا إلى قدوم فصل الربيع والاحتفال بعيد النيروز وهو أول أيام الربيع، فتحلّى بالزَّهرِ الطَّيب الكريم الذي يمثّل ثوب الربيع، ومن الأزهار التي وصفها "النرجس" فصوَّرها بأنها تشبه النجوم اللامعة المتقاربة، كما أنها تشبه عيون الأحباب التي ينظرون بها ولكن بخوف من أعين الرقباء والوشاة، فيقول:

فكأن نرجسَها وقد حشــدت به زُهْرُ النجومِ تقاربت في مطلع
أو أعيُنُ الأحبابِ حين تراسلت باللَّحظِ تحت تخــوُّفٍ وتوقُّــعِ

وتتعدد في هذه الروضة الأزهار، من نرجس وبنفسج وخيريٍّ وغيرها، ويقدمها في صورة يمزج فيها بين الطبيعة والغزل، فيقول:

وبها البنفسجُ قد حلى بخضوعه و قُنُوٍّ لونٍ في سوادٍ مشبع
خدَّ الحبيبِ وقــد عضضْتَ بجنَّةٍ فشكــا إليــك بأنّةٍ و توجُّع
وكأنّمــا خيريُّهــا تحت الــدُّجى بين الأزاهــر قام كالمتطلّعِ
يرجُو زيارةَ مــن يحبُّ لوعــده كَلَفــاً فبات مراقباً لم يهجعِ

لقد رسم منها الشاعر صورةً فنيَّةً ذاتَ ألوانٍ وحركات مختلفة، فالبنفسج خدُّ الحبيبِ لصفاء لونه وبياضه ونعومته، أما الخيري فكالمترقب للقاء الحبيب في الليل، ذلك أنّ أزهارُه تتفتَّح ليلاً، فهو أشبه حالاً بالعاشق المتيَّم الذي يتطلَّعُ للقاء الحبيب دون أن يراه أحد ولا يتحقق ذلك إلا في الليل.

وقد ضمَّن بعضُ الشعراء وصف الربيع ولا سيما الأزهار في قصائدِ المدح، فأبو عمر ابن دراج القسطلي يصف أحدَ قصور ممدوحيه بأنَّه مبنيٌّ من السوسن، الذي شيدته أيدي الربيع، فيقول[2]: (الكامل)

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص125.

[2] ابن دراج، الديوان، ص36؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص187.

لمعاقلٍ من سوسنٍ قَدْ شيَّدت أيدي الرَّبيعِ بناءها فوق القَضُبْ
شرفاتُها من فضَّةٍ وحُماتُهـا حولَ الأميرِ لهم سُيُوفٌ من ذَهبْ

كما جعل بعضهم الربيع حلَّةً جميلةً ترتديها الأرض وتتباهى بها، ممَّا يدفع العشاق إلى التغزل بها، فقد وصف أبو بكر ابن القبطرنة الأرض كأنها تضحك عند ارتدائها لنباتها وأزهارها التي نبتت بعد أيام ماطرة، وقد تداولَ الوصفَ مع الأديب أبي العباس بن صارة الأندلسي، في تمليطٍ شعري رائع، فيقول[1]: (مخلّع البسيط)

هذي البسيطةُ كاعبٌ أبرادُها حللُ الربيعِ وحليُّها النَوَّارُ

فقال ابن صارة:

وكأن هذا الجوَّ فيها عاشقٌ قد شفَّه التعذيبُ والإصرارُ

ثم أتبع قائلاً:

وإذا شكا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ وإذا بكى فدموعُه الأمطارُ

فقال أبو بكر:

من أجلِ ذلَّةِ ذا وعزَّةِ هـذه يبكي الغَمامُ وتضحكُ الأزهارُ

لقد وظَّف الشاعران عناصر الطبيعة المختلفة في تقديم صورة جميلة للأرض وقد صوَّرها فتاةً في بداية بلوغها، ترتدي ثوباً موشىً بالأزهار، والبرق والجو المحيط بها كالعاشق المتيَّم بها، كما أنَّ حزنه يسبِّبُ بكاء الغمام ومطرها الذي يجعل الأزهارَ تضحك وتفرح لأنه أعاد إليها الحياة.

أما أبو الفضل جعفر بن شرف فقد جعل من الرياض والأزهار ساتراً يستر المحبوبة التي خرجت متخفِّيةً للقاء محبوبها فيقول[2]: (الوافر)

أَتَتْ والرَّوضُ يعطفُ جانبَيْهَـا كما يتَأَوَّدُ الغصنُ الرطيـبُ
وما بالرَّملِ إنْ خافَـتْ سُلَيمَى عُيُونَ عُداتهـا إلا الكثيـبُ
وليس على شعابِ الحَزْنِ بأسٌ إذا زار الحبيبَ بهـا الحبيبُ

---

[1] هكذا ذكره المقري، النفح، ج3، ص350؛ وقد ورد عند ابن ظافر، بدائع البدائة، ص196 برواية مختلفة، ولا سيما في نسبة الأبيات، فجعل الأول والثالث لابن صارة، والثاني والرابع لأبي بكر.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص876.

إذا صدقَ الغَرامُ فكُــلُّ قـــاصٍ   وإن بعُــدتْ مسافتُهُ قَريـــبُ

فهو يُطمْئِن المحبوبة "سليمى" بأن عيون العداة لن تراها لأن الرياض تحيط بها وتسترها، وكذلك الرمل ليس فيه سوى الغبار، كما أنه لا بأس من زيارة الحبيب لحبيبه، ولكن إذا صدق الغرام بينهما، فصدِقُ الغرامِ يقرّبُ المسافات وإن بعدت.

وقد كان للأشجار حظٌّ في أشعار وصف الطبيعة الصامتة، ومنها "الموز"، فيقول فيها أبو عبد الله ابن شرف[1]: (مجزوء الرجز)

هــل لـــك في موزٍ إذا   ذقنـــاه قلنــــا حبَّــذا

فيـــه شـــرابٌ وغـــذا   يـــُريك كالمـــاء القذى

لـــو مـــات مـــن تلذَّذَا   بـــه لقيــــل:ذا بــذا

وله في أخرى في وصفه يقول فيها[2]: (السريع)

يا حبَّـــذا الموزُ وإسعادُه   من قبل أن يمضغَه الماضغُ

لانَ إلى أن لا مجسّ لـــــه   فالفـــمُ مـــلآنٌ بـــه فـــارغُ

سيّـــان قلنا مأكـــلٌ طيبٌ   فيـــه وإلا مشربٌ سائـــــغُ

وقد نظم أيضاً في وصف نبات يسمى "الكركر"، فيقول[3]: (الرجز)

ورأسُ قُبّـــارِيَّة بـــرَأســـه   أثوابُه تحميه والمخَالِـــب

فِي مِثْلِ خَلْقِ الخَلْقِ إلاّ أنَّه   قَلْـــبُ عَدُوٍّ كُلُّـــهُ عقارِب

فهذا النبات له رأس كرأس القُبّاريّة، تغطيه أثوابٌ كثيرةٌ، وتنمو عليه فروع تشبه قدم الإنسان، حتى إن منظره كاملاً كالإنسان، لكن قلبَه قلبُ عدوٍّ للشوك الذي يضمُّهُ.

ومن عناصر الطبيعة الصامتة التي حظيت باهتمام شعراء البيوتات المياه الجارية والراكدة عامة، وقد أبدع الشعراء في تصوير شفافية الماء حين يهبُّ النسيم عليها ويلطف الجوَّ، ويموج سطح الماء، وقد شبَّهَهُ بعضُهم بالدِّرعِ أو الدِّلاص، ومن

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص51؛ ابن ظافر، بدائع البدائة، ص241.

[2] ابن شرف، المصدر السابق، ص73؛ ابن ظافر، المصدر السابق، ص240.

[3] ابن شرف، المصدر السابق، ص40؛ راجع القصة، ابن ظافر، المصدر السابق، ص240-241.

ذلك ما يروى عن وصف المعتمد للماء في إحدى رحلاته التي رافقه فيها وزيرُه ابن عمار، فقال[1]: (الرمل)

صنَعَ الرِّيحُ مِن المَاءِ زَرِدْ

ثم سكت طالباً الإجازة من وزيرِه الشاعر ابن عمار، لكنَّه تأخَّر في إتمام البيت فقالت الجارية اعتماد الرُّميكيَّة التي كانت مع نساء كُنَّ بالقرب منهم :

أيُّ درعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

مما جعلها تحظى باهتمامه، فاشتراها من سيدها وتزوجها وكان يحبها، وأنجب منها معظم أولاده.

وقد قدم بعض الشعراء صوراً بديعة للمياه الجارية من أنهار وجداول وقنوات وغيرها، فقد شبَّهُوهَا بالزَّوَاحِفِ كبيرها أو صغيرها، فالمعتصم بن صمادح جلس عند موضع يتداخل فيه الماء في مجلسه بالصُّمادِحيَّة، ويتلوّى في مناحيه، فوصفه بقوله[2]: (البسيط)

انظُرْ إلى حُسْنِ هذا المَاءِ في صَبَبِهِ   كأنَّـــه أرقـمٌ قد جَـدَّ في هَرَبِـــه

فهو يصوِّر الماء في سرعة جريانه ولمعان سطحه كالأفعى الذي أسرع في هربه وازداد لمعانه مع أشعة الشمس.

كما وصف ابن برد الأصغر عارضاً ممطراً، فيقول[3]: (الرمل)

عارضٌ أقبلَ في جُنْـحِ الدُّجـى   يَتَهَـادَى كَتَهَـادِي ذِي الوَجَى
أَتلَفَـتْ رِيْـحُ الصَّبَـا لؤلُـؤَه   فانحنَـى يُوقِـدُ عنْـه السَرَجَا
وكَـأنَّ الرَّعـدَ حادِي مُصعَـبٍ   كُلَّمَـا صَـالَ عليـه وسَجَا
وكَـأنَّ البَـرقَ كَـأسٌ سُكِبَـتْ   في لَهـاةِ المُـزنِ حتَّى لَهَجَـا
وكَـأنَّ الجَـوَّ مَيْـدَانُ وَغَـىً   رَفَعَتْ فيـه المذاكـي رَهَجَـا

فهذا العارض أقبل في ساعة الليل والظلام، وازداد ظلمةً عندما أطفأت الرياح بريق حبيات المطر فيه، وجاء معه الرعدُ الذي يقود الغيوم ويستطلع لها الأماكن في

---

(1) المعتمد، الديوان، 74.

(2) انظر: ابن خاقان، القلائد، ق1، ص151؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص197.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص517-518؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص91.

الأمام كما يفعل الحادي لطليعة الإبل، وكذلك البرق في بريقه كأنه كأسٌ ألقيت في وسط الغيمة، كما أن الأجواء المضطربة تشبه ساحة المعركة، ونلحظ في هذا النص أن الشاعر قد حشد طائفة من المشاهد. ويصف أيضاً يوماً ماطراً، فيقول(1): (المتقارب)

وَيَــومٍ تَفَــنَّنَ في طِيبِــه   وجَاءَتْ مَواقِيتُــهُ بالعَجَــبْ
تَجَلَّى الصَّبّاحُ به عن حياً   قد أُسقَى وعن زَهَرٍ قد شَرِبْ
وما زِلتُ أحسِبُ فيه السَّحا   بَ ونـــارُ بوارِقِهـا تلتهبْ
بَخاتِــيَّ تُوضِعُ في سيرِها   وقد قُرِعَت بسياط الذهـــبْ

فهذا اليوم الماطر يمثّل الخير والسقيا للنباتات والأزهار، وقد ماثلت السحب المتراكمة فوق بعضها والتي اشتملت على البرق الملتهب البَخاتيّ؛ وهي الإبل الخرسانية، وفي ذلك دلالة على بطئها لكثرة مائها، إنّ هذه الناقة بطيئةٌ في سيرها على الرغم من أنها تُضرَب بسياطٍ من الذهب لكي تُسرع.

ويجعل ابن شهيد كثرة المزن والسحب تشبه عساكر الزنج، فيقول(2): (الطويل)

ومَرَّت جُيُوشُ المُزنِ رَهْواً كأنَّهـا   عَسَاكِـرُ زِنْجٍ مُذهَبَاتُ المناصلِ
وحلّقتِ الخَضراءُ في غُرِّ شهبِهـا   كلُجَّـةِ بَحرٍ كُلِّـلَت باليعالِـلِ
تخالُ بهـا زُهرَ الكَواكِبِ نرجِسـاً   على شطِّ وادٍ للمَجَـرَّةِ سائـلِ

فيصور اشتياق الأزهار لماء الغمام بالطفل الذي يصرخ حنيناً إلى ثدي أمه ليرضع منها، وعندما تتقدم الغيوم تشبه في اسودادها الزنج ولا يميِّزها سوى بريق البرق فيها، فهو كالذهب في أيدي العساكر ولا سيما في مناصل السيوف والدروع، ولم تفارق البلاد إلا عندما جعلت الأزهار كأنها في لجّة بحر دلالة على وفرة الماء الذي نزل مطراً، ولقد وظَّف الشاعرِ عنصرَ اللونِ فاسودادُ الغيوم يبعث على الرهبة لدى الرائي وينبئ عن طقس غير عادي.

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص516؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص90.

(2) ابن شهيد، الديوان، ص143؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص83.

وقد كان لليل تأثيرٌ كبيرٌ في نفوس الشعراء، فمالوا إلى وصفه والحديث عن عناصره المختلفة، فابن شهيد يشبهه بملك الزنج، إشارة إلى شدة سواده، فيقول[1]: (الطويل)

وبِتْنَا نُراعِـي اللَّيلَ لم يَطوِ بُردَه ولم يُجرِ شَيبُ الصُّبحِ في فَرْعِه وَخَطَا
تَرَاه كمَلِكِ الزِّنْـجِ في فرطِ كبرِه إذا رام مشيـاً فـي تبـخـتُـرِه أبطـا
مُطِـلاً على الآفاقِ والبدرُ تاجُه وقد علَّـقَ الجـوزاءَ في أذنِـه قُرطَا

فهذا الليل بطيء في حركته حتى بدا كأنه ملك الزنج، وقد اتخذ له من القمر تاجاً ومن الجوزاء حلقاً.

وعندما يأتي الفجر ينبعث الأمل من جديد، مما يدفع الليل إلى الهروب مسرعاً، وفي ذلك يقول أبو حفص ابن برد الأصغر[2]: (المديد)

وكأنَّ اللَّيـلَ حينَ لَـوَّى هارِبـاً والصُّبـحُ قد لاحا
كِلّـَةٌ سـوداءُ حرَّقهـا عامـدٌ أسـرجَ مصبـاحا

فهو يشبِّهُ انحسار الليل وتراجعه عند بزوغ نُورِ الصُّبح كتلك القطعة السوداء التي تكون في المصباح، لكن يذهب سوادُها عندما يحرقها العامد الذي يشعل المصباح، فيمزج بين السواد والبياض لرسم صورة دقيقة وجميلة لهذا الليل.

أما أبو الفضل ابن شرف فقد وصف تعاقب الليل والصباح، فيقول[3]: (الرمل)

مَطَـلَ الليـلُ بوَعـدِ الفلقِ وتشكّـى النجـمُ طولَ الأرقِ
وَمَرَتْ ريحُ الصَّبَا مسكَ الدُّجى فاستفـادَ الرَّوضُ طيـبَ العبقِ
وألاحَ الفجـرُ خـدّاً خجـلاً جـال من رشحِ الندى في عرقِ
جاوزَ الليـلُ علـى أنجُمِـه فتسـاقَطْـنَ سقـوطَ الـورقِ
واستفـاضَ الصبحُ فيها فيضةً أيقـنَ النجـمُ لهـا بالغرقِ

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص122.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص519؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص91؛ المقري، النفح، ج3، ص197.

[3] انظر القصيدة: ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص869-875.

فانْجلَـــى ذاكَ السَّنَـــا عن حلَكٍ وامَّحت تلك الدُجـــى عن بهـــقِ

فهذا الليل قد تماطل في الرحيل، وفي آخر وقته بدأت ريح الصَّبا الشرقية تطغى عليه وتبدِّدُ ظلمته، وعندما لاح الفجر كأنه شخص جميل طغى على الليل وتجاوزه إلى نجومه، حتى إنه أطمس نورَهُنَّ فكأنَّهُنَّ بدأنَ بالسقوط كما يسقط ورق الشجر، وبدأ الصبح ببزوغ شمسه يسيطر ويبسط نوره على الأرض فجلى فيها الظلام ومحاه، ونلحظ هنا أنّ الشاعر يعمد إلى تشخيص عناصر الطبيعة وبث الحياة فيها. وقد عبر بعض الشعراء عن الليل بأنه الوقت الذي يلتقي فيه الأحبة، لأنه يسترهم، يقول المعتمد بن عباد[1]: (الطويل)

وليـــلٍ بسُدِّ النهـــر لهواً قطعتُـــهُ بذاتِ ســـوارٍ مثْـــلِ منعطَفِ النَّهرِ

نَضَت بُردَها عن غُصنِ بَانٍ منعَّمٍ نضيرٍ، كما انشقَّ الكمَامُ عن الـــزَّهْرِ

فهو قد أمضى ليله بجوار النهر مع فتاة ذاتِ سوارٍ، تتمايل وتتعاطف تعاطف النهر، ويصف محاسنها عندما نضت ثيابها فهي مزهرة اللون، كأنها غصنُ بانٍ.

إنَّ التعبير عن الليل يختلف من شاعر إلى آخر على حسب الحالة النفسية التي يكون فيها، فابن شهيد وابن برد الأصغر جعلاه مطلاً طويلاً بطيئاً في سيره، لأنهما يعبِّران عن حالة نفسية تتطلع إلى بزوغ الفجر؛ لعل في اليوم الجديد ما يبعث على السرور، أما المعتمد فقد وصف الليالي بأنها تسير مسرعة لأنه في أحضان الحبيب فتمرُّ الساعات مسرعة دون حساب أو شعور بها.

ولم يقف الشعراء عند الليل فحسب بل وصفوا بعض مظاهره، فوصفوا القمر والنجوم والكواكب وغيرها، فأبو المغيرة ابن حزم يصف القمر وهو في حالة الهلال بأنَّه كالصولجان أو السيف، إشارة إلى رقَّته وشدة لمعانه، فيقول[2]: (المنسرح)

لمَّـــا رأيتُ الهـــلالَ منطويـــــاً في غُرَّةِ الفجرِ قارنَ الزُّهـــرة

شبَّهتُـــهُ والعيَـــانُ يشهـــدُ لي بصولجانٍ انثنى لضرب كـــرة

وقد شبه المعتمد القمر في وسط النجوم كالملك يتبختر في ملكه، يقول[3]: (الكامل)

---

[1] المعتمد، الديوان، ص12؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص46-47.

[2] ابن خاقان، المطمح، ص203.

[3] المعتمد، المصدر السابق، ص28.

ولقد شربتُ الراح يسطعُ نورُها والليلُ قد مدَّ الظلام رداءَ
حتى تبدَّى البــدرُ فــي جوزائهِ ملكاً تناهى بهجةً وبهــاءَ
وتناهضَت زُهْــرُ النجومِ يحفُّهُ لألاؤُها فاستكمــل اللألاءَ

لقد مزج الخمرة مع الطبيعة كما أنه جعل القمرَ ملكاً والنجومَ تحفّه فزادته بهاءً ولمعاناً.

ويشبه ابن برد الأصغر البدرَ بالمرآة المصقولة، التي أصابها ندشٌ نتيجة عبث العذارى بها، ولعل العذارى هنا الرياح، فيقول[1]: (الكامل)

والبدرُ كالمرآةِ غيّرَ صقلهــا عبثُ العذارى فيه بالأنفــاسِ
والليلُ ملتبِسٌ بضوءِ صباحِهِ مثلَ التباسِ النفسِ بالقرطاسِ

ووصف أبو عامر ابن شهيد النجوم بقوله[2]: (الخفيف)

وكأنّ النجومَ في الليلِ جيــشٌ دخلوا للكمينِ في جوفِ غابِ
وكأنّ الصّبَاحَ قانــصُ طيــرٍ قبضَتْ كفُّه برجــلِ غُــرابِ

فالنجوم في الليل كالجيش الذي دخل في غابة مظلمة، وهي غابة الليل والصبح عند بزوغه كقانصِ طيرٍ، وقد أمسك برجل غراب، وهو تعبير عن نهاية الليل.

وجعل أبو الفضل ابن شرف دخول الصبح على الليل كالشيب يغزو مَفرِقَ الشّعرِ، ولعله من الأوصاف النادرة، يقول[3]: (البسيط)

ومَفرِقُ الليلِ قد شابَتْ ذوائبُهُ فبتُّ أدعو لــه بالطُّولِ في العُمُرِ
والليلُ يعجَبُ والظلماءُ داجيــةٌ من ساهرٍ يتشكّى الليلَ بالقِصَــرِ

لقد صوَّر أواخرَ الليلِ بشخص قد تقدَّم به العمر فشابت ذوائبه، فيدعو له الشاعر بطول العمر، ويستغل الشاعر هذا الموقف فيشير إلى أنَّ الليلَ يعجَبُ من الساهر الذي يشتكي قِصَرَ الليل، وهو في هذا يكشف أيضاً عن الحالة النفسية له.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص520.

[2] ابن شهيد، الديوان،ص85؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص81.

[3] ابن خاقان، القلائد، ق4، ص796؛ انظر: الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص29-30؛ المقري، النفح،ج3، ص396.

كما صور المعتمد بن عباد الكواكب ومنظرها في السماء ليلاً، فيقول[1]: (الكامل)

وجاءتك ليـــلاً فـــي ثياب نهارِ   من نـــورها وغـــلالَة البُلّارِ
كالمشتري قد لَــفَّ من مرِّيخه   إذ لفَّـــه في الماءِ جذوةَ نارِ
لطُــفَ الجُمُــودُ لِذا وذَا فتألَّفَا   لم يلْــقَ ضدٌّ ضـــــدَّهُ بِنِفَارِ
يتحيّــرِ الراؤون في نعتيهمـــا   أصفاءُ ماءٍ أم صفاءُ دَرارِي

فهو يصوِّر أنَّ هذه النجومَ قد أضاءت بنورِها الليلَ وجعلت منه نهاراً، فالمشتري والمرِّيخ يلتفَّانِ بهالة وضّاءةٍ كما تلتفُّ حول الماء جذوةٌ من نار، فيتعانقان لدرجة تحيِّرُ من يراهما بها، هل هما صفاءٌ أم دراري مجتمعة؟ وفي ذلك دلالة على لمعانهما.

النـــوريّـــــات:

لقد حظيت الأزهار والنواوير مثل النرجس والياسمين والخيريِّ الأصفر والعادي والورد والنيلوفر وغيرها باهتمامٍ كبيرٍ لدى الشعراء الأندلسيين عامة وشعراء البيوتات خاصة، فقد عمد بعض الشعراء إلى تخصيص مقطعة أو جزء من قصيدة لوصف نوّارة واحدة أو أكثر من النواوير دون سواها، وتسمى هذه المقطعة بالنوريّة نسبة إلى النّور[2].

وقد اختلف الباحثون والدارسون حول بدايات ظهور هذا الفن الشعري الوصفي، فيذهب إحسان عباس إلى أن بداياته تعود إلى ابن الرومي وصريع الغواني من قبله، وأن الأندلسيين لم يكن لهم سوى التأثر بهم والأخذ عنهم[3]، ويذهب آخرون إلى أنَّه كان للأندلسيين فضل السبق في هذا اللون من الشعر الوصفي في الطبيعة عامة والنوريَّات خاصة[4].

---

(1) المعتمد، الديوان، ص18.

(2) رحيم، مقداد، النوريَّات في الشعر الأندلسي، ط1، دار عالم الكتب، بيروت، 1986م، ص7.

(3) عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي "عصر سيادة قرطبة"، ص110.

(4) رحيم، مقداد، المرجع السابق، ص27.

ومهما يكن من أمر، فقد ازدهر فن وصف النوريَّات في الشعر الأندلسي ازدهاراً كبيراً حتى غدا ظاهرة قائمة بذاتها، ولعل ذلك يعود إلى جمال طبيعة الأندلس وكثرة الأزهار فيها، كما كان لتشجيع الملوك والأمراء للشعراء للنظم فيها دور كبير، فضلاً عن أنَّ بعض الأمراء كان يشارك في نظم النوريَّات، كما كان للرخاء الاقتصادي الذي شهده المجتمع الأندلسي دور كبير في جعل أفراد المجتمع قادرين على مواجهة مشكلات الحياة بنوع من التفاؤل والتمنع بمفاتنها، كما لعبت الفتن والصراعات الداخلية التي واجهتها الأندلس في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري دوراً في دفع الناس إلى السعي وراء سبل اللهو والراحة التي تخفف من وطأة مأساة هذه الفتنة على نفوسهم[1].

ومن النوريَّات التي وصفها شعراء البيوتات "الياسمين"، فهذا أبو القاسم القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد يقول فيه[2]: (السريع)

وياسمينٍ حَسَـــنِ المَنظرِ يفُوقُ في المَرأى وفي المَخبَرِ
كأنَّه من فَـــوقِ أغصَانِه دراهِـــــمٌ في مُطرَفٍ أخضرِ

فهو يجعل أزهاره البيضاء في صفاء لونها ولمعانها كالدراهم المنثورة على فراش أو بساط أخضر، وله فيه أيضاً قوله[3]: (المنسرح)

يا حَبّذَا الياسمينُ إذ يُزهِرْ فَـوق غصـونٍ رطيبةٍ نُضَرْ
قد امتَطَى للجِبال ذروتَها فوقَ بِساطٍ من سندُسٍ أخضَرْ
كأنَّه والعيـونُ ترمُقُـهُ زمـــرّدٌ فـي خِلالِـه جوهرْ

فالياسمين لا يزهر إلاّ فوق بساط أخضر من السندس، وهو يعلو فوق أغصانٍ خضراء نديّةٍ في ذرى الجبال، ولشدَّة بياض زهرِه يحسَبُه الناظر زمرُّداً وجواهرَ.

---

[1] رحيم، مقداد، النوريَّات في الشعر الأندلسي، ص49-62.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص23؛ ابن الأبار، الحلة، ج2، ص38؛ وينسب بيريس البيت الثاني للمعتضد وهو خطأ، راجع بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص163.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، 2م1، ص23؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص39.

وقد وصفه المعتضد بن عباد، بقوله[1]: (المنسرح)

كأنَّمـــا ياسمينُنَــا الغَــضُ   كواكبَ في السَّماءِ تبيّضُ

والطُّرُقُ الحُمْرُ في جوانبِه   كَخَــدٍّ عــذراءَ نالَهُ عضُّ

إنَّه يركِّز على عنصر اللون، فالياسمين أبيض كالكواكب في السماء، وتحيط به طرق حمراء اللون كخد فتاة عذراء فيه آثار عضّة عاشق لها، وهذه الصورة التي رسمها ليس فيها تكلّف ولا مبالغة وإنما استمدها من الواقع ومما درج على ألسنة الناس والشعراء.

ووصف بعض الشعراء "الياسمين البري" الذي يسمى "الظيان" وهو ذو لون أصفر ويشبه النسرين، ويكثر في حدائق القصور والبيوت[2]. وفي لونه يقول أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد[3]:

كأن لون الظَّيَّان حين بدا   نوّارُه أصفــراً علـــى ورقـــه

لونُ محبٍّ جفاه ذو ملــلٍ   فاصفرَّ من سُقمِـــه ومن أرقِه

إنَّه أصفر اللون يشبه العاشق المتيم الذي اصفرّ لونه من السقم لهجر الحبيب إياه.

ويرسم صورة له أيضاً وهو وسط الرياض فإذا مرَّت عليه قطرات الندى يشبه الياقوت، فهنا يصفه في وسط الرياض، فيقول فيه[4]: (الطويل)

ترى ناظرَ الظيَّـــان فوق غصونـــه   إذا هو من ماءِ السحـــائبِ يغتذي

وحَفّـــت بـــه أوراقُـــه في رياضِه   وقد قُدَّ بعضٌ مثلَ بعضٍ وقد حُذي

كصُفرٍ من الياقوتِ يُلبَسْنَ بالضُّحى   منضَّـــدةً من فـــوقِ قُضبِ الزمرُّذِ

ومن الأزهار التي وصفها الشعراء"النيلوفر" الذي كانت تزيّنُ به البحيرات وأحواض النوافير الموجودة في بيوت الأمراء أو المينات في الريف، وأحياناً يستخدمون نيلوفراً صناعياً من الفضة، ويرى بيريس أن "أوراق النيلوفر الخضراء

---

(1) المعتضد، الديوان، ص112.

(2) بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص162، يسمى النوع الأول "الياسمين البستاني".

(3) ابن الابار، الحلة، ج2، ص39.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص23؛ ابن الابار، المصدر السابق، ج2، ص39.

الطافية على الماء لم تكن مناط اهتمام الشعراء، وإنّما كانت تجذبهم زهورُه البيضاء، إذ تتوسطها نقاط سوداء تتفتح نهاراً وتنطوي على نفسها في المساء"[1].

وقد وصف ابن دراج القسطلي هذا النيلوفر وتفتُّحَ أزهارِه نهاراً وانطفاءها ليلاً، فيقول[2]: (المتقارب)

ونَيْلُوفَر قَمِنٍ بالذُّبُولِ يَرُوقُ فيذبَلُ عَمَّا قليل
يُلاقي الصَّبَاحَ بيُمنَى جوَاد ويُخفِي الظَّلامَ بيمنى بخيلِ
يُبيحُ الضُّحَى ما حوَى من نَسِيمٍ ويمنعُهُ عند وقتِ الأُفُول

فهو يشير إلى تفتحه صباحاً حتى كأنه جواد فاتح يد العطاء، كما يشير إلى انطواء زهره في المساء حتى كأنه يُمنى بخيل وهو ينشر عطره الذكي ضحىً ويمنعه عند الأُفول وقت المساء.

و يمدح القاضي أبا القاسم محمد بن عباد النيلوفر، فهو عنده حسنٌ في جميع أحواله سواء عند التفتُّح أو الانطفاء أو يعبق عطره أو يختفي، فيقول[3]: (البسيط)

يا حُسنَ منظرِ ذا النيلَوفَرِ الأرج وحُسْنَ مخبَرِهِ في الفَوحِ والأرج
كأنَّه جامُ درٍّ في تألُّقِهِ قد أحكموا وسطَه فصّاً من السبج

فهنا يصور أزهار النيلوفر بأنها تشبه في بياضها عقداً من الدُّرِّ الأبيض يتوسَّطُه جوهرُ السبَجِ الأسود، وهي حسنة المنظر وعطرة الرائحة.

ومن الأزهار التي وصفوها "الخيريَّ الأصفرَ"، وهو أصفرٌ كالذَّهبِ له رائحة وأريجٌ تعبق ليلاً، وقد وصف شعراء البيوتات مثل هذا النوع من الأزهار، فمن ذلك قول أبي عمر بن دراج القسطلي[4]: (السريع)

أعارَهُ النَّرجسُ مِن لونِه تفضُّلاً وازدادَ مِن طيبِه
وناسَبَ النَّمَّامَ لمّا انتمى إلى اسمِه الأدنى وتركيبِه
وما يُجَاري واحِداً منهُمَا إلا كَبَا في رِيحِ تقريبِه

---

[1] بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص160.

[2] ابن دراج، الديوان، ص42.

[3] ابن الابار، الحلة، ج2، ص39.

[4] ابن دراج، المصدر السابق، ص40.

فهذا الخيري أخذ لونه من النرجس الذي تفضَّل عليه، واشتُقَّ اسمه من الخيري النَّمَّام، حتى أنه يكاد يحاكي كلُّ واحد منهما الآخر إلى درجة لا يمكن معها التمييز بينه وبين أي نوع منهما.

ووصف ابن شهيد ميول هذا الخيري للظهور ليلاً بأنه كالمحبِّ الذي يهرب من حبيبته في الصباح ليلقاها ويتقرب إليها في المساء، فيقول واصفاً له في معرض حديثه عن الربيع الذي جاء في مقدمةِ قصيدةِ مدحٍ[1]: (الكامل)

وكأنَّما خيريّها تحـــت الدُّجى   بينَ الأزَاهِرِ قامَ كالمتطلِّعِ

يرجُو زِيارةَ من يُحِبُّ لوعدِه   كَلَفَاً فبات مراقِباً لم يهجعِ

أما الخيري النمام فيمتاز بتفوقه على الخيري الأصفر في جماله وأريجه، ولا يمكن التمييز بين هذين النوعين لعدم تفريق الأندلسيين بينهما بدقة على الرغم من معرفتهم التامة لهما، سواء في الشعر أو حتى في البيئة، فكلاهما يفوح عطره ليلاً، لكن يذكر بيريس أن الخيري النَّمَّام لونه أزرق، لذا يرى أن يدعى "بالخيري الأزرق" تمييزاً له عن الأصفر[2].

وكذلك وصفه ابن دراج القسطلي بقوله[3]: (المتقارب)

غدا غيرَ مسعدِنا ثمَّ راحـــا   يساعِـدُنـــا طرباً وارتياحا

وخُيِّرَ فاختار دين الغَبُــوق   ولجّ فليس يرى الاصطباحا

فإن آنسَ الصبحَ نامَ وشحَّ   وإن آنس الليلَ نمَّ وفاحـــا

ومن الأزهار التي وصفها الشعراء الأندلسيون من ذوي البيوتات أيضاً "البَهَار"، وهو النَّرجس في المشرق، ويسمَّى في اللغة "العَبْهَر"[4]، ولكن من الأندلسيين من يرى أنَّهما اسمان لزَهرٍ واحد، أمثال ابن دحية والمقَّري، وهنالك من

---

(1) ابن شهيد، الديوان، ص125.

(2) بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص154-157.

(3) ابن دراج، الديوان، ص39.

(4) انظر: ابن دحية، المطرب، ص127؛ المقري، النفح، ج3، ص193؛ بيريس، المرجع السابق، ص151-152؛ رحيم، مقداد، النوريات في الشعر الأندلسي، ص147.

يرى أن كلَّ اسمٍ هو لزهرٍ مختلفٍ عن الآخر، ومن وصفهم للبهار قول ابن برد الأصغر[1]: (الطويل)

تأملْ فقد شقَّ البهارُ كمائماً وأبرز عن نوَّاره الخضلِ النديِ
مداهنُ تبرٍ في أناملَ فضـــةٍ على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجدِ

فابن برد في النص السابق يتحدث عن البهار ويصفُ وسطَ زهرته الصفراء وكأنه من الذهب، أما أوراق الزهرة فهي بيضاء كأنها الفضة، وجميعها قائمة على فروع من الزبرجد الأخضر وهذا الوصف فيه تفريط ومبالغة[2].

وقد وصف ابن دراج القسطلي البهار وجعله أحدَ مظاهرَ الربيع فيقول عنه في إحدى مقطوعاته المدحيَّة لأحد الملوك[3]: (المتقارب)

دعيت فاصغِ لداعي الطربْ وطابَ لك الدهرُ فاشربْ وطِبْ
وهذا بشيرُ الربيعِ الجديـد يبشِّــرُنا أنَّــه قـد قَـــرُبْ
بَهَارٌ يــروقُ بمسكٍ ذكــيٍّ وصُنْعٍ بَدِيعٍ و خَلْــقٍ عجــبْ
غصونُ الزبرجدِ قد أورَقَت لنـــا فضـــةً نــوَّرَت بالذهــبْ
إذا جُمِعَت في حبالِ الحَريرِ وقامت أمامَــك مثــل اللُّعَــبْ

فهو يصف البهار بتلك الصفات التي وصفه بها ابن برد، وهذا يؤكد لنا ما ذكره بيريس من أن وصفهم للبهار كان يقف على ثلاثة عناصر هي: "الساق والأوراق وهي خضراء، والجزء الأوسط من الزهرة نفسها وهو أصفر، وأوراق الزهرة وهي بيضاء"[4].

ومن النوريات والأزهار التي وصفها الأندلسيون "النرجس"، وميَّزُوا بين أنواعِ النَّرجِس لكي لا يحدثُ خلطٌ بينها، فعندهم "النَّرجس الأصفر" و"النرجس الكبير أو القاسي"[5].

---

[1] ابن خاقان، المطمح، ص207–208؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص519.

[2] بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص152.

[3] ابن دراج، الديوان، ص37–38.

[4] بيريس، المرجع السابق، ص152.

[5] بيريس، المرجع السابق، ص152.

وقد وصف أبو مروان عبد الملك بن جهور النرجس الأصفر، فقال عنه[1]: (البسيط)

اصفرَّ حتَّى كأنَّ الإلْـف يهجُرُه   وطابَ حتَّى كأنَّ المسْكَ ينثُرُه
واخضرَّ أسفَلُهُ من تحت أصفَرِه   فراقَ منظرُهُ الباهِي ومخبَرُهُ
يا نرجِساً ظَـلَّ قُدَّامِي تَنُمُّ له   ريحٌ تُذَكِّرُني شوقِي فأذكُرُه
زُمُرُّدٌ مِـنْ فَوقِـه ذَهَبٌ   مَعيَّنٌ نابُـهُ مِنْهُ ومحجَرُهُ
هيَّجْتَ لِي شَجَنَاً قَدْ كانَ فارَقَنِي   ذكَّرتَنِي بالَّذِي ما زِلْتُ أذكُرهُ

فقد جعل لون النرجس الأصفر ناتجاً عن هجر إلفه له، كما تعبق منه رائحة ذكيَّة أذكى من المسك ، وفروعه خضراء وأزهاره صفراء كالذهب، وهذه الزهرة لجمالها تهيِّج مشاعر وأحزان الشاعر السابقة وذكريات لا يودُّ استذكارها.

أما ابن شهيد فقد جعل من جمال النرجس سبباً في الازدحام حوله واحتشاد النجوم بالرغم من حسنها، فيقول[2]:

فانْظُرْ إلى حُسْنِ الرَّبيعِ وقَد جلَت   عن ثَـوبِ نَورٍ للرَّبيعِ مجزَّعِ
فكَـأنَّ نرجِسَها وقد حَشَدَت بِـه   زُهرُ النُّجُومِ تقارَبَت في مَطْلَعِ
أو أعيُنُ الأحبَابِ حينَ تراسَلَـتْ   باللَّحظِ تحـتَ تخوُّفٍ وتوقُّعِ

كما استخدم الشعراء لوني النرجس الأبيض والأصفر للتعبير عن الأحبة "فالأبيض هو المحبوب جامد الشعور، والأصفر هو الحبيب الذي يعاني من قوة الشوق إلى المحبوب"[3]، والذي ورد في أشعار شعراء البيوتات المتوفرة هو اللون الأصفر.

أما المعتمد بن عباد فلم يصف النرجس كباقي الشعراء بل جعله غرضاً يستدعي من خلاله نديمه ابن عمار، فقد أدخل عليه أحد فتيانه باكورة نرجسٍ، فعندما رآها أرسل إلى ابن عمار يستدعيه قائلاً[4]: (البسيط)

---

[1] رحيم، مقداد، النوريات في الشعر الأندلسي، ص150.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص125.

[3] بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص152.

[4] المعتمد، الديوان، ص64.

قد زارنَا النَّرجِسُ الذَّكي وحَان من يومِنَا العشِيُّ
ونحنُ في مجلِسٍ أنيقٍ وقد ظمِئنَا وثَمَّ ريٌّ
ولِي خَليلٌ غَدا سَمِيٌّ يا لَيتَه ساعَد السَّمِيُّ

فقد جعل النرجس زائراً عزيزاً، لا بدَّ من عقد مجلس لهوٍ احتفاءً بقدومه، فهنا شخّصَ النباتَ ولم يصفْ وصفاً مجرداً.

ومن هذه الأزهار التي وصفها شعراء البيوتات "الورد"، وهو نوعان الأبيض ولأحمر، فيقول ابن دراج القسطلي في وصف الأحمر منه[1]: (الكامل)

ضحكَ الزمانُ لنا فهاكَ وهاتِهِ أوَ ما رأيتَ الوردَ في شجراته؟
قد جاء بالنَّارنجِ من أغصانِه وبخجلةِ المعشوقِ من وجناتِه
وكساه مولانا غلائلَ سيفِه يوماً يسربِلُهُ دماءُ عُداتِهِ
من بعد ما نفخَ الحيا من روحِه فيه وعَرْفُ المسكِ من نفحاتِه
إن كان أبدع واصفٌ في وصفه فلقد تقاصَرَ عن بديعِ صفاته

فيجعل الورد سبباً في ضحكِ الزمان وابتهاجه، فقد نبتت من بين الأغصان وردة حمراء كالنارنج، وتفوح منها رائحة طيبة كالمسك، وهو من جماله الفاتن لا يفي الواصفون في وصفه.

أما السّوسن فقد كان له نصيب من أشعار ذوي البيوتات، وقد وصف ابن دراج القسطلي السوسن منفرداً ووصف روضة من السوسن، ومما ورد في وصفه السوسن وحده قوله[2]: (المنسرح)

إنْ كان وجهُ الربيعِ مبتسماً فالسوسن المجتلى ثناياه
يا حسنَه سنَّ ضاحكٍ عبقٍ بطيب ريح الحبيب ريَّاه
خاف عليه الحسود عاشقُهُ فاشتقَّ من ضِدِّه فسمَّاه
وهو إذا مُغْرَمٌ تنسَّمه خلَّى على الأنف منه سيماه
كما يخلِّي الحبيبُ غاليةً في عارضي إلفه لذكراه

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص40-41.

[2]ابن دراج، المصدر السابق، ص41-42؛ انظر أيضاً ص35-37 نص يصف فيه روضة سوسن.

يا حاجبـاً مـذ براه خالقـهُ توَّجه بالعُلـى و حـــلاَّه
إذا رآه الزمـان مبتسمـاً فقـد رأى كـلَّ مـا تمنَّـاه
وإنْ رآه الهـلالُ مطَّلعـاً يقـول: ربِّي و ربُّـك الله

فهو يشبه السوسن بالثنايا للربيع إشارة إلى لونها الأبيض، وتبرز عندما يبتهج وجه الربيع، كما أن رائحته تبقى في أنف من يشمُّها ولا سيما العاشق المحبُّ، أما الهلال فإنه يعجب لجماله على الرغم من جماله هو، ويصل به الإعجاب حدَّاً يجعله يؤكد حقيقة الجمال بأن خالقهما واحد هو الله، فيقول: "ربِّي وربُّك الله".

إنَّ شعراءَ البيوتاتِ قد نظموا في الوصف عموماً، ووصف الأزهار خصوصاً، وربَّما للبيئة دورٌ كبيرٌ في التأثير على نفسيَّات الأفراد ومشاعرهم، أمّا من الناحية الفنية فقد جاءت معظم أشعارهم في مقطعات تمتاز بالوحدة الموضوعية، فلا يتناول الشاعر في مقطوعته غيرَ الحديث عن الزهرة فقط.

4.2 رثاء المدن والممالك والدول:

لقد كان للفتنة البربرية التي شهدتها الأندلس في مطلع القرن الخامس الهجري أثرٌ كبيرٌ في القضاء على وحدة العرب والمسلمين فدمِّرَت قرطبة عاصمة الخلافة، وتمزَّقت الأندلس الدولة الواحدة إلى دويلات وإمارات متعددة يتنازع الحكم فيها العرب والبربر والصقالبة والمولّدون مثل دولة بني عباد في إشبيلية، وبني الأفطس في بطليوس، وبني جهور في قرطبة، وغيرها.

وقد ترك سقوطُ قرطبةَ في مطلع القرن الخامس الهجري، وتفرُّقُ الأندلسيين بعد وحدتهم أعمقَ الأثر في نفوس شعرائها، كما ساهمت في بزوغ موضوع شعري جديد هو (رثاء المدن)، ولكن لم يقتصر هذا الموضوع على رثاء المدن فقط، بل رُثِيَت دويلاتٌ فيما بعد. وقد أصبح تهاوي المدن أمراً مألوفاً بعد غروب شمس القرن الرابع الهجري؛ لذا طرق شعراء البيوتات هذا الموضوع[1].

---

[1] الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، 282.

لقد كانت قرطبةُ مركز العلم والثقافةِ والسياسةِ في القرون الثلاثةِ الأولى من الوجود العربي الإسلامي في الأندلسِ، ومهبط الأدباءِ والشعراءِ والعلماء، وقد رثاها أبو محمد ابن حزم بقصيدة قدّم لها بنثرٍ، يقول فيها[1]: (الطويل)

سلامٌ على دارٍ رحلنا وغُودِرَت   خَــلاءً من الأهلينَ مُوحشَةً قَفرا
تَرَاها كَأنْ لَم تَغنَ بالأمسِ بَلقَعاً   ولا عَمَرَتْ من أهلِها قبلَنَـــا دهرا
فَيَـــا دارُ لَم يُقفرك منَّا اختيارُنا   ولو أنَّنـــا نَسطيـــعُ كنت لنَا قبرَا
ولكـــنَّ أقـــداراً مـــن اللهِ أُنفذَت   تُدمِّـــرُنا طَوعَـــاً لمَا حَلَّ أو قَهرَا
ويـــا خيرَ دارٍ قد تُركْـــتِ حميدةً   سَقَتْكِ الغوادي ما أجلَّ وما أسرى

لقد كان ابن حزم من أكثر الشعراء استجابة لحالة التغيُّر التي حدثت في قرطبة، فرثاها شعراً ونثراً وصوَّر ما حلَّ بها من دمار وخراب، وما آلت إليه حال أهلها من تفرُّق وتشتت، وهو في رثائها يصوِّر المعاناة النفسية الكبيرة التي يكابدها نتيجة الحاضر المؤلم المفجع الذي حوّل المدينة من حال الاستقرار إلى الاضطراب والفوضى، فقد كانت عامرةً بأهلها قبل اليوم، ولقد غادرها أهلها مجبرين على الرغم من تعلقهم بها وحبِّهم لها، ولو استطاعوا لَبَقَوا فيها وكانت قبراً لهم، غير أنَّ أقدار الله سبقت فيهم وفيها.

ولم تكن قرطبة عهدئذ مدينةً كسائرِ المُدنِ، ولم تكن محنتها كسائر المحن، لذلك فليس عجباً أن يرثيها عدد كبير من الشعراء إلى جانب ابن حزم، ويندبوا عهودها الزاهية[2]، فقد كان لمحنتها تأثيرٌ على نفس أبي عامر ابن شهيد الذي رثاها

---

[1] ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456هـ/1063م)، رسالة "طوق الحمامة في الألفة والألّاف"، رسائل ابن حزم، تحقيق د.إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م، ج1، ص311-313؛ ابن الخطيب، لسان الدين السلماني، أبو عبد الله محمد بن سعيد(ت 776هـ/1374م)، كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956م، ص106-107.

[2] الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، ص276.

بقصيدة رائية يستذكر فيها ماضيها، ويعبِّر عن التفجُّع والأسى والحزن الذي يعاني منه نتيجة هذه المحنة التي حلت بمدينته، فيقول[1]: (البسيط)

ما في الطلولِ مــن الأحبةِ مخبرُ   فمن الــذي عن حالِها نستخبرُ

لا تسألَــنَّ ســوى الفِــراقِ فإنه   ينبيك عنهُم أنجدوا أم أغوَروا

جــارَ الزمـــــانُ عليهمُ فتفرَّقُوا   في كــلِّ ناحيـــةٍ وبــادَ الأكثرُ

جرَتِ الخطوبُ على محلِّ ديارِهم   وعليهِــمُ فتغيّـــــرت وتغيَّرُوا

فدَعْ الزمانَ يصوغُ في عرصاتِها   نــوراً تكــادُ له القلوبُ تنوَّرُ

فلمثــلِ قرطبــةَ يقــلُّ بكاءُ من   يبكــي بعيــنٍ دمعُه ــا متفجِّرُ

دارٌ أقـــالَ اللهُ عثـــرةَ أهلِهــا   فتبَربَرُوا وتغرّبُــوا وتمصَّروا

فــي كــلِّ ناحيــةٍ فريــقٌ منهم   متفطِّــرٌ لِفراقِهَـــا متحيِّــرُ

يستخبر ابن شهيد القادمين من قرطبة عنها، لكن عمَّ يسأل ومن يسأل؟! فقد أصبحت أطلالاً خاليةً من الناس أو حتى من شخص يخبره عن أهلها، ويرى أن الفراق هو من ينبئه عن مصيرهم، إذ تفرَّقوا في البلدان وهَلَكَ أكثرهم، ثم ينتقل إلى وصف حال قرطبة إذ تفرق أهلها فغادر بعضهم إلى البربر والمغرب ومصر، أي تشتَّتوا وأصبحوا في كلِّ مكان محتارين وفي وضع محزن.

ويستمر ابن شهيد في استدعاء ذكرياته عن هذه المدينة المنكوبة، لقد كان لها ماضٍ مشرقٌ، وكانت تمثل لابن شهيد مركزاً حضارياً يعيش أهلها في تلاحم وتضامن ورخاء ونعيم في قصورها وخدورها وبُدُورِها، وهم في ذلك يتنقلون في أمن وراحة بال، وهم لا يتوقَّعون تغيُّر أحوالهم، كما كانت مركزاً دينياً جعل منها كعبة القصّاد وموئل الواردين من كلِّ مكان والآن تغيَّرت الأحوال، لذا فالشاعر يبكيها بكاءً مرَّاً، فيقول:

عهدي بها والشملُ فيهــا جامعٌ   من أهلها والعيشُ فيها أخضرُ

و رياحُ زهرتِها تلـــوحُ عليهم   بروائحَ يفتَــرُّ منهــا العنبَــرُ

والدارُ، قد ضربَ الكَمالُ رِواقَــه   فيها وباعُ النقــصِ فيها يقصُرُ

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص109-111؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص105-106 ذكرها كاملة.

والقومُ قد أمِنُــوا تغيُّــر حُسنِها فتعمّمُــوا بجمالهـــا وتأزّرُوا
يا طيبَهم بقصورِهـــا وخدورِها وبُـــدُورُها بقصـــورِها تتخدَّر
والقصرُ قصـــرُ بنـــي أميَّةَ وافِرٌ من كـــلِّ أمرٍ والخـــلافةُ أوفرُ
والزاهريَّـــةُ بالمـــــراكِبِ تُزهِرُ والعامِريَّـــةُ بالكواكِـــبِ تُعمَر
والجامعُ الأعلى يغصُ بكلِّ مـــن يتلو ويسمعُ مـــا يشاءُ وينظرُ
ومسالـــكُ الأسواقِ تشهدُ أنَّهـــا لا يستقِـــلُّ بسالكيها المَحشَرُ
يا جنَّـــةً عصفَـــت بها وبأهلِها ريحُ النَّوى فتدمَّرت وتدمَّرُوا

ولم يقتصر رثاء قرطبة على ابن حزم وأبي عامر بن شهيد، بل رثاها شعراء آخرون يخرج الحديث عنهم عن مجال دراستنا.

وقد عادت قرطبة إلى شيءٍ من سالف عهدها ومجدها من جديد وذلك بعد مضي زمن قصير، فتوالت عليها الأُسر الحاكمة في عصر ملوك الطوائف، فخضعت لحكم بني حمود وبني جهور وبقيت هكذا إلى أن انتهى أمرها لصالح بني عباد، واستطاعت أن تنافس إشبيلية حاضرة بني عباد، وعندما دخل المرابطون الأندلسَ بقيادة يوسف بن تاشفين لحق بقرطبة خرابٌ وتدمير كباقي المدن الأندلسية، فقال ابن خاقان في حال قرطبة: " لمّا بدت الفتنة، وسال سيلُها، وانسحب على بهجة الهدنة ذيلها، نازل المرابطون قرطبة،...، فأقاموا عليها شهوراً، وأرخُوا من محاصرتها والتضبيق عليها ستوراً، يساورونها مساورة الأراقم، ويباكرونها بداءً من الحصار فاقم،..."[1].

وقد دفع ذلك المعتمد بن عباد إلى رثائها بنفسه وذلك في إطارِ رثائه لسُلطَانه الذي زال وبزواله سقطت قرطبة، فقال عنها مستذكراً ماضيه في إشبيلية وقرطبة وغيرها، فيقول[2]: (البسيط)

اقنَعْ بحظِّك في دُنيــاك مـــا كانـــا وعَزِّ نفسَك إنْ فارقــت أوطانـــا
في اللهِ من كلِّ مفقودٍ مضى عِوضٌ فاشعِـــر القلبَ سُلوانـــاً و إيمانا
أكُلَّما سنحت ذِكــرى طرِبتَ لهـــا مجّت دُموعَـك في خدَّيْك طُوفانا

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق1، ص84.

[2] المعتمد، الديوان، ص114-115.

أما سمعتَ بسلطـــانِ شبيهِـــك قد   بزَّتْهُ سودُ خطوبِ الدهرِ سلطانا
وَطِّنْ على الكُرهِ وارقُب إثْرَهُ فرجـاً   واستغنم اللهَ تغنَـمْ منه غُفرانــا

ومن المدن التي رثاها شعراء البيوتات مدينة "القيروان" مكان ولادة أبي عبد الله ابن شرف ونشأته، التي سقطت على أيدي الأعراب سنة 447هـ/1055م، وكان أبو عبد الله ابن شرف ممن شهدوا خراب وطنهم ودماره بأمِّ أعينهم، مثلما رأوا التنكيل بالنساء والأطفال، وهدم المساجد وسبي النساء، وما إلى ذلك من صنوف التعذيب والتخريب، وقد عانى ابن شرف وغيره من شعراء القيروان ما عاناه أبناء وطنهم من قهر وإذلال وقتل وتشريد، فترك ذلك أثراً كبيراً في نفسه، فصوَّر هذه النكبة والمصيبة التي ألمَّت بوطنه تصويراً حزيناً، ومن ذلك ما جاء في قصيدة مدح بها المأمون بن ذي النون، ورثى في بعض أبياتها القيروان ووصف ما أصابها وحنينه إليها، فيقول[1]: (الطويل)

تذكّرتُهــا واليــمُّ بينـــي وبينهـــا   وموصولـــةٌ فيْـــحٌ مهجورةٌ غُفُلُ
ومن دونِها حربٌ عَوَانٌ وفَــارِضٌ   ولُــودٌ لهـــا مـــن نفسِها أبداً بَعْلُ
يُقرُّ امرؤ القيس بن حُجْرٍ لفضلها   ويُظهِرُ عنهـــا العَجْزَ علقَمَةُ الفحلُ
فلو وصلَتْ عُمْري الليالي لوقتِــه   لقالت له الأشعــارُ ما قالَتْ النمْلُ

فابن شرف يتذكر القيروان على الرغم من البحر الذي يفصل بينهما، والحرب التي تشهدها أرضها، فهذه الحرب تتراوح بين الشدة والرخاء، وهي مستمرة وكأنها تلد من نفسها التي تضم بعلا لها،ويؤكد أن امرأ القيس وعلقمة التميمي لو أدركا ما حلَّ بهذه المدينة لنظما فيها أشعاراً مؤثرة. كما عبر عن حزنه على القيروان لما أصابها من دمار وفرقة لأهلها، فيقول في مطلع قصيدة له[2]: (الخفيف)

آهِ للقيــروانِ أنَّـــةَ شجـــوٍ   عن فؤادٍ بجاحِمِ الحُزنِ يَصلَى
حِينَ عادتْ بِهِ الدِّيَارُ قبوراً   بَـــلْ أقــولُ الدِّيَّارُ منْهُنَّ أخلى

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص93.

[2] ابن شرف، المصدر السابق، ص89-92؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص227؛ للاطلاع على المزيد انظر: الكيلاني، ابن شرف القيرواني، ص129-134.

ثم يصف حالة سكّانها الذين خرجوا منها مذعورين في مشهدٍ يحاكي يوم الحشر، حيث أنَّ همَّ الواحدِ منهم هو أنْ ينجوَ بنفسه تاركاً وراءه أبناءه وكلَّ ما يملك، فيقول:

بعـدَ يَـومٍ كأنَّمـا حُشِرَ الخَلْـ ـقُ حُفَـاةً به عَـوارِيَ رجلَـى
ولَهُـم زحمَـةٌ هنـالكَ تحكِـي زحمـةَ الحَشْرِ و الصحائفُ تُتلَى
وعَجِيـجٌ وضَجَّـةٌ كضَجِيجِ الـ خَلْـقِ يَبكُـونَ والسـرائرَ تُبلَى
جَارَ فيهِـمُ زمانُهُمُ وأُولُو الأَمْـ ـرِ فَفَرُّوا يرجُون في الأرضِ عَدْلا
تركُـوا الرَّبعَ والأثاثَ وما يَثْـ قُـلُ لِيَغدُو النَّبيهُ في النَّاس غَفْلا
نادِبـات، عَفـراءَ تُسعِدُ سُعدى وسُعـادٌ تجيـبُ بالنَّـوحِ جُمْـلا
ليس منهُنَّ مـن يـودِّعُ جاراً لا ولا حُرمَـةً تُشيِّـعُ أهْـلا

ونلحظ ما أضفاه الشاعر من ملامح الحزن على حالة السكان حتى أنَّه من سوء الأحوال لم يعد للمألوف وجودٌ بعد هذه المصيبة، فلا يجدُ المسافرُ والراحلُ منهم من يشيِّعَه لأنّ الكلَّ مسافرٌ. كما يصف حالة التَّمزيقِ والفرقة التي عانى منها السكان والحكام، كما يتمنّى أن يعود إلى بلاده من جديد، فيقول:

فَتَـرى أشـرَفَ البَرِيَّـةِ نَفْسـاً ناكِسـاً رأسَـه يلاطِـفُ نَـذْلا
فـهُـم كُلَّمـا نَبَـتْ بِـهُـمُ أر ضٌ مطايـا الفِراقِ خيلاً ورَجْلا
مُزِّقُـوا في البِـلادِ شرقاً وغرباً يسكُبُونَ الدُّمُوعَ هَطْلاً ووَبْـلا
لا يُـلاقِـي النَّسيـبُ منهُمُ نسيباً يتعـزَّى بـه ولا الخِـلُّ خِـلاَّ
ليتَ شِعرِي هَلْ عَودَةٌ ليَ في الغَيْـ ـبِ إلى ما أطالَ شجوي أمْ لا؟

5.2 الحكم والمواعظ:

لقد قدّم بعض شعراء البيوتات خلاصة تجاربهم في الحياة، في شكل حكم شعرية موجّهة إلى المجتمع عامة نَحُوا فيه منحىً أخلاقياً، وسعوا من خلالها إلى الوعظ والإرشاد والتنبيه أو إثبات فائدة ينتفع بها الناس في معاشهم أو معادهم من وجهة نظر شخصية[1].

---

[1] حول مفهوم الحكمة انظر: اليوسي، الحسن، زَهرِ الأكم في الأمثال والحِكم، حقَّقه د. محمد حجي و د. محمد الأخضر، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981م، ص27-29؛ ص39-

ومن شعراء البيوتات الذين نظموا في الحكمة أبو عبد الله ابن شرف القيرواني الذي تحدث في بعض حكمه عن شيم أهل الزمان، وطبيعة الناس الذين انتشرت بينهم الخيانة والغدر وموت الوفاء، ولعل ذلك يعود إلى انقلاب المعايير والأخلاق وتراجع تأثير القيم الدينية فيهم، يقول[1]: (الكامل)

ولقد يُهَوِّنُ أن يخونَك كاشِـحٌ كَوْنَ الخيانةِ من أخٍ وخَدِينِ
لقَّى أخُو يعقوبَ يعقوبَ الأذى وهمَا جميعاً في ثِيَابِ جَنينِ
ومضى عقيلٌ عن عليٍّ خاذلاً ورأى الأمينُ جنايةَ المأمونِ
فعلى الوفاء سلامٌ غيرِ معاينٍ شخصاً لهُ إلاّ عِيانَ ظُنُـونِ

كما أن أبا عبد الله ابن شرف كان قد وجد أن الثقة أمرٌ يصعب تحقيقه في الناس، ذلك أنهم أصبحوا يخلفون الوعود ويقولون ما لا يفعلون، يقول[2]: (الوافر)

وجـدتُ النَّـاسَ كُلَّهُمُ طُلُولاً فلم أُطِلِ الوقوفَ على الطُّلولِ
وتسمَـعُ منهُـمُ مـا لا تراهُ كسامِعِ ضربَةِ السيفِ الصَّقيل
فمن بِسِوَاكَ باعَك فاغنَ عنه كما استغنى عليٌّ عن عقيـلِ

ويتحدث أبو الفضل جعفر بن شرف عن سكرات الموت المفزعة، ولكنَّها ليست بشيء إذا قسناها بالوحدة التي يتركنا فيها الأصدقاء، بقوله[3]: (الوافر)

لَعَمـرُكَ ما حَصَلْتُ على خطيرٍ مـن الدُّنيَـا ولا أدركتُ شيّاً
وها أنا خـارِجٌ منها سليبـاً أقلِّـبُ نادمـاً كلتـا يديَّـا
وأبكـي ثم أعلَـمُ أنَّ مَبكـا يَ لا يُجـدِي فأمسَـحُ مقلتيَّا

= 43؛ قطامش،عبد المجيد، الأمثال العربية (دراسة تاريخية تحليلية)، ط1، دار الفكر، دمشق، 1988م، ص18. ويكاد يتفق الغالب على أنَّها: العبارة التجريدية التي تصيب المعنى الصحيح، وتعبِّر عن تجربةٍ من تجارب الحياة، أو خبرة من خبراتها، ويكون هدفها عادة الموعظة والنصيحة. أي بتعبيرٍ أدقَّ إصابة الحق والتعبير عن الشيء بالقول والفعل.

[1] ابن شرف، الديوان، ص102.

[2] ابن شرف، المصدر السابق، ص88-89؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص225؛ وعقيلٌ هو أخو علي بن أبي طالب التوأم، كان قد هرب يوم صفِّين إلى معاوية وفارق أخاه عليّاً.

[3] المقري، النفح، ج3، ص229.

ولم أجزعْ لهولِ الموتِ لكــنْ   بكيتُ لقلَّــةِ الباكــي عليَّــا
وأنَّ الدهــر لم يعلَـــمْ مكاني   ولا عرفَتْ بنُــوهُ مــا لديَّــا
زمانٌ سوفَ أنشُرُ فيه نَشــراً   إذا أنــا بالحِمامِ طُويتُ طيَّــا
أُسَرُّ بأنَّني سأعــيشُ ميتَـــاً   به، ويسوؤنِــي أن مِتُّ حيًّا

كما يرى أبو عبد الله ابن شرف أنَّ الإنسان مهما كان الوضع الاجتماعي الذي يعيش فيه، والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والغايات التي يسعى إلى تحقيقها، فإنه يعي ضعفَهُ وعدم قدرته، ومدى تفاهة الأشياء في هذه الدنيا، يقول[1]: (البسيط)

إنِّي وإنْ عزَّني نيلُ المُنى لأَرى   حِرصَ الفتى خلَّةٌ زِيدَت على العُدْمِ
تقلّدتْني الليالي وهـــي مُدبِــرَةٌ   كأنَّني صارمٌ فــي كَـــفِّ منهَــزِمِ

ويحضُّ رفيعُ الدولة بن المعتصم بن صمادح على التفاؤل وعدم القنوط من عون الله إذا ما أخفق الإنسان، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت، فيقول[2]: (الوافر)

إذا ما الأمرُ أخفَقَ فيه سعيٌ   وضاقَ مراحُه من كلِّ بابِ
فلا تقنَــــطْ فإنَّ اللهَ يأتـــي   بفتحٍ لم يكُنْ لك في حِسابِ

كما سعى بعض شعراء البيوتات إلى إضفاء المسحة الدينية على العظة والعبرة المقدمة للمخاطب، ومن هؤلاء ابن حزم الأندلسي، الذي يقدِّمُ خلاصة رؤيته للحياة الدنيا وحقيقتها، بقوله[3]: (المتقارب)

فمـــا هـــذهِ الدارُ إن حصّلْــتَ   حقيقتُها غيــرُ طيــــفٍ ألــمّ
سيفنَى العزيــزُ و يغنَى الذليلُ   وتغنَى القُــوى وسيفنَــى الألمْ
يبيــدُ الجميعُ فـــلا تغتَــررْ   بما لا يدُومُ لمَن لَـــمْ يَـــدُمْ
فأينَ الذيــن بنَــوا تدمُـــراً   وباني البرابي وبانــــي الهَرَمْ
أولئكَ أهــلُ القُوى قد قَضَوا   كما قد قَضَى ســدُّ سيلِ العَرِمْ
فمِن حالِ طفــلٍ إلى صبــوةٍ   وشرخِ شبابٍ ويأتـــي الهرمْ
وتأتـــي المنيَّـــةُ لا بـــدَّ أنْ   يطيفَ بنا حكمُهـــا الملتــزمْ

---

(1) ابن شرف، الديوان، ص96.

(2) ابن الابار، الحلة، ج2، ص96.

(3) عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص370-374.

ففي هذا النص يشير إلى أنّ الإنسان يجب أنْ لا يركنَ إلى الحياة الدنيا ويغترَّ بها، فهي إلى الزوال والفناء أو كطيفِ ألمَّ، وعلى الإنسان أن يأخذ العبرة من الأمم السابقة، لقد مضوا وانتهوا بعد أن كانوا عمَّروا الحياة الدنيا، وبضرب أمثلة كالذين بنَوا تدمر والأهرامات وغيرهم، وينتهي إلى القول بأنَّ دورة حياة الأمم تشبه دورة حياة الإنسان الذي يبدأ طفلاً صغيراً، ثمَّ يصبح صبيَّاً فشابَّاً قوياً، ثمَّ يُردُّ إلى أرذل العمر، وينتهي إلى الموت وهو حكم لا ينجو منه أحد، وينتهي إلى قوله:

ومـــنْ بعدِ ذلك دارُ الجزاءِ وما قد مضى فكماضي الحُلُمِ
فدارُ النعيـــمِ لأهلِ الفـــلاحِ و نارٌ لمن قد عصى تضطرِمُ
فبادرْ قبيلَ حلولِ الـــــرَّدَى فتندمُ إذْ ليسَ يُغني النَّـــــدَمُ

إنَّه يؤكد أنَّ العبرة في العاقبة في الحياة الآخرة التي لا ينفع فيها الندم. حيث يُجازى المؤمنون بالجنة والكافرون بالنار، لذا فإنه يقدِّم خلاصة رأيه في الحضِّ على مراجعة الذات وإظهار الندم على ما اقترف الإنسان من معاصٍ، والإقبال على العمل الصالح قبل حلول الأجل.

وكان أبو عامر ابن شهيد قد ذهبَ مذهبَ ابن حزم من قبل، وذلك في الكشف عن سرِّ الحياة الدنيا وحقيقتها الزائلة، التي أدركها بعد زوال عمره في اللهو والمجون، وكذلك شعوره عندما أصابه المرض بخيبة الأمل، وندمه على ما فات، إذ انتهى إلى أنَّ مدَّة العمر لا تعدو أن تكون لمحة ناظرٍ، وأنَّ إقبال الإنسان على ملذات الحياة وإهماله القيم ما هو إلاّ صفقةُ خاسرٍ، وبالتالي سيكون عند وفاته رهنُ ما قدَّمت يداه من عملٍ يقول[1]: (الطويل)

تأمَّلتُ ما أفنَيْتُ من طولِ مُدَّتـــي فلَـــمْ أرَهُ إلاّ كلَمحَـــةِ ناظِـــرِ
وحصَّلتُ ما أدركتُ من طُولِ لذَّتي فلـــم ألفه إلا كصفقةِ خاســـرِ
وما أنا إلاّ رهنُ ما قدَّمَـــت يدي إذا غادرُونِي بينَ أهلِ المقابرِ

ولـــه في قصيدة أخرى يرثي فيها نفسه، وقد عزم على الانتحار، نلحظ في بعض أبياتها إنابته وتوبته إلى الله، فيقول[2]: (الطويل)

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص113.

[2] ابن شهيد، المصدر السابق، ص145.

رضيْتُ قضاء اللهِ في كلِّ حالةٍ عليَّ وأحكاماً تيقّنت عدْلَها

كما قدَّم أبو عبد الله ابن شرف خلاصة تجربته في الحياة حين أشرف على الموت، فيقول تائباً وراغباً في رحمة الله[1]: (الوافر)

رحلْتُ وكنتُ ما أعددْتُ زاداً وما قَصَّرتُ عن زادِ المقيمِ

فها أنا قد رحلتُ بغيرِ شيءٍ ولكنِّي نزلتُ علـــى كريـــمِ

لقد رحل عن الدنيا، وقد أفنى عمرهُ دون أن يُعِدَّ زاداً لهذا الرحيل، مقصِّراً بحقِّ نفسهِ، وما قَصَّر ذات يومٍ عن أداء حقوق المقيمين في رحابه، لكنَّه يكشف عن أملِه في عفوِ الكريم الذي سينزل في رحابه وهو الله.

6.2 الإجازة الشعرية والتمليط :

يعدُّ فنَّا الإجازة الشعرية والتمليط من الأشكال الشعرية التي شاعت في القرن الخامس الهجري، ويمتازان بأنَّ النصَّ الشعريَّ الواحدَ يشترك في نظمه شاعران أو أكثر، ويعود ذلك لعدة أسباب، منها، عجزُ الأول عن إتمام النظم في معنى واحد، مما يدفعه للاستعانة بالآخرين، كما في الإجازة، أما التمليط فلعل السبب وراءه هو الرغبة في المساجلة الشعرية.

والإجازة الشعرية كما يعرفها ابن ظافر بقوله: "أن ينظمَ الشاعرُ على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامُه وكمالُه، وقد يكون بين متعاصرَينِ وغيرَ متعاصرَين، وهي مشتقة من الإجازةِ في السقي، يُقالُ: أجاز فلانٌ فلاناً إذا سقاه أو سقى له، فكأنَّهم شبَّهوا عمل الشاعر المُجيزِ لعمل الشاعر المجازِ شعرُه بسقْي الشخص للشخص"[2].

فمن تعريف ابن ظافر السابق يمكن تقسيم الإجازة إلى قسمين: الأول؛ إجازة الشاعرِ لمعاصرٍ له، والثاني؛ إجازة الشاعر لغيرِ معاصرٍ له، أي لشاعرٍ سابقٍ عليه.

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص97؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص24، ويورد شكوكاً في روايتها هل هي لأبي عبد الله أم لابنه جعفر أبي الفضل؟

[2] ابن ظافر، بدائع البدائة، ص61. وذكر أمثلة من الإجازات المشرقيَّة، وفيها إشارة إلى أن هذا الفن ليس أندلسي النشأة بل ظهر من قبل في المشرق.

ففي مجال إجازة الشاعر لمعاصرِه، فهنالك من الشعراء من أجاز قسيماً بقسيم، أي شطراً بشطرٍ، ومن أمثلة ذلك ما حدث مع المعتمد بن عباد، عندما خرج مع بعض ندمائه وخواصِّ شعرائه للتنزُّه بظاهر إشبيلية، فلمَّا أبعدوا، بدأ بالسباق فدخلت فرسُه بين البساتين، فرأى شجرةَ تينٍ أينعت، وبرزت منها ثمرةٌ قد بلغت، فسدَّدَ إليها عصاً كانت بيده، فأصابها وثبتت في أعلاها، فأطربه ما رأى، والتفَتَ ليُخبِرَ من لحِقَ به، فرأى ابن جاخ الصباغ، فقال له[1]: (مجزوء الرجز)

أجِزْ: **كأنَّها فوق العصا**

فأجابه مسرعاً: **هامةُ زِنجيٍّ عصى**

وكذلك عندما خرج المعتمد في نزهةٍ مع وزيره ابن عمار، فرأى من منظرِ الماء ما أعجبَه، فقال المعتمد[2]: (الرمل)

صنعَ الريحُ من الماءِ زَرَدْ

فعجزَ ابنُ عمارٍ عن إجازته، فأجازَتْه الجاريةُ "اعتماد الرميكيَّة" التي كانت تسمع ما يدور بينهما بقولها:

أيُّ درعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

فكان ذلك سبباً في إعجاب المعتمد بها، فتزوجها وأنجب منها عدداً من أبنائه.

وقد تكون الإجازة، بإجازة قسيم بقسيم وبيت أو بيتين، ومما ورد في ذلك أن المعتمدَ نظم في قبَّةٍ قصره الزاهي، والمسمَّاة، بـِ"سعدِ السعودِ"، شعراً يقول فيه[3]: (الكامل)

سَعدَ السُّعُودِ يتيهُ فوقَ الزَّاهي

فلم يستطع الإكمال، فاستجاز الحاضرين فعجزوا، فصنع ولدُهُ عُبيدُ اللهِ الرشيد،–وقد كان مع الحضور– بقوله:

وكلاهُما في حسنِهِ متناهِ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص74؛ انظر: ابن ظافر، بدائع البدائة، ص73–74.

[2] المعتمد، المصدر السابق، ص 74؛ انظر: المقري، النفح، ج4، ص211.

[3] المعتمد، المصدر السابق، ص76؛ انظر: ابن الأبار، الحلة، ج2، ص69؛ ابن ظافر، المصدر السابق، ص86.

ومن اغتَدى سكَنَاً لمثلِ محمَّدٍ قد جلَّ في العليَا عن الأشبــاهِ

لا زالَ يخلُدُ فيهما ما شــاءه ودَهتْ عداهُ منْ الخُطُوبِ دواه

وكذلك ما ورد عن المتوكل بن الأفطس، أنَّه صنع قسمياً قال فيه[1]: (مجزوء الكامل)

الشَّعْرُ خُطَّةُ خَسْفِ

فأُرتِجَ عليه، فاستدعى أبا محمد عبد المجيد بن عبدون، أحد وزرائه وخواصِّهِ، فاستجازه إيَّاهُ، فقال:

لكــلِّ طـــالـــبِ عَرْفِ

للشيــخِ عيبَــةُ عيبِ وللفتـــى ظرفُ ظرفِ

وقد اشتهر ابن جاخ الصباغ بحسن الإجازة، ويذكر أن ابن جاخ قصد المعتضد بن عباد، فلمَّا وصل إليه، قال له المعتضدُ:أجزْ[2]: (البسيط)

إذا مَرَرْتَ بركبِ العِيسِ حيِّيها

فقال ابنُ جاخٍ في الحال:

يا ناقتي لعلَّ أحبابَنا فيها

ثم زادَ، فقال:

يا ناقِ عوجِي على الأطلالِ علَّ بها منهُمْ غريباً يراني كيفَ أبكِيهـــا

أمْ كيف أرفُضُ طيبَ العيشِ بعدَهُــم أم كيف أسكُبُ دمعاً في مغانيها

إنِّي لأكتُمُ أشواقِـــي وأستُـــــرُها جَهدِي ولكنْ دموعُ العينِ تُبدِيها

وفي مجال الإجازة لمعاصر، أن يجاز بيت ببيت، ويرى ابن ظافر أنّ ما يندرج تحته، هو أن يكون الشاعر قد عمل بيتاً، واستجاز له أوَّلاً، أو عملَ بيتين وأراد إبدالَ أحدِهما أو الاختبار فيه، ومن أمثلة ذلك، أن المعتمدَ جلس يوماً للشُّربِ، وذلك في وقتِ مطرٍ، فكانت بين يَدَيهِ ساقيةٌ غايةٌ في الحُسنِ والجمالِ والرقَّة، فلمع برقٌ فارتاعت منه، فقال بديهاً[3]: (السريع)

---

[1] ابن ظافر، بدائع البدائة، ص80، وهنالك رواية تشير إلى أن القسيم الأول ليس للمتوكل.

[2] المعتضد، الديوان، ص 116؛ ابن ظافر، المصدر السابق، ص85–86.

[3] المعتمد، الديوان، ص21؛ انظر: ابن ظافر، المصدر السابق، ص107–108.

روَّعها البــرقُ وفــي كفِّهـــــا   برقٌ مــن القهــوةِ لمَّــاعُ

عجِبْتُ منها وهي شمسُ الضُّحَى   كيــف مــن الأنوارِ ترتَاعُ !

فأُعجِبَ وأُطرِبَ لمعناهما، فاستدعى عبد الجليل بن وهبون المرسيِّ، وأنشدهُ البيت الأوَّل، فقال عبدُ الجليلِ:

ولن ترى أعجَبُ من آنسٍ   مِن مِثْلِ ما يُمسَكُ يَرتَاعُ

فاستحسنه المعتمد، وأمر له بجائزة، وهذا البيت في نظر ابن ظافر أحسن من بيت المعتمد[1].

ففي المثال السابق، يكون الشاعر قد نظم البيت الثاني، ولكنَّه يستجيز الأول إما للتبديل، أو لاختبارِ المُجِيزِ، ولعلَّ السببَ الثاني أقوى في نظري.

ومن أنواع الإجازات أن يُجازَ البيت بأكثر من بيت، ومنها ما حدث مع المعتمد في ذات يوم، عندما رأى إحدى حظاياه تسير، وعليها غلالةٌ ناعمةٌ، لا يكاد يُفرِّقُ بينها وبينَ جسمِها، وذوائبُها حالكةٌ في سوادها، فسكب عليها ماءَ وردٍ كان بين يديه، فامتزج الكلُّ ليناً واسترسالاً، فأدركته أريحيَّة الطرب، فقال[2]: (الكامل)

عُلِّقتُ سالبةَ النفوسِ غريرةً   تختالُ بين أسنَّةٍ وبواترَ

فتعذَّر عليه المقال، فأرسل بالبيت إلى أبي الوليدِ النحليِّ مع أحد الخدم، وطلب منه أن لا يفارقه حتى يفرغ، فقال النحلي، لأول وقوع الرقعة بين يديه:

راقت محــاسنُهــا ورقَّ أديمُهــا   فتكادُ تبصِرُ باطناً مــن ظاهــرِ

وتمايلَت كالغُصنِ في دِعص النقا   والتفَّ في ورَق الشباب الناضرِ

يندى بمـــاءِ الوردِ مُسبَلُ شعرِها   كالطَّلِّ يسقط من جناح الطَّائــرِ

تُزهَى برونقِهــا وعزِّ جمالهـــا   زهــو المؤيَّدِ بالثَّنـــاء العاطــرِ

---

[1] ابن ظافر، بدائع البدائة، ص108.

[2] المعتمد، الديوان، ص14؛ انظر: ابن ظافر، المصدر السابق، ص113-114، مع اختلاف في رواية البيت الأول، وهنالك مثال آخر، بين المعتمد وأبي القاسم بن مرزقان، حول إجازة البيت:

بعثنا بالغزال إلى الغزال   وللشمس المنيرة بالهلال

(انظر: المعتمد، المصدر السابق، ص24-25؛ ابن ظافر، المصدر السابق، 114-115).

ملكٌ تضاءلت الملوك لقـــــدرِه   وعنا له صرفُ الزَّمانِ الجائـــرِ

وإذا لمحت جبينَه ويمينَـــــــــه   أبصرت بدراً فوق بحرٍ زاخـــرِ

فاستحسنها المعتمد، وتعجَّب من حسن تصويره، وكأنَّه كان معهم.

وقد تكون الإجازة لبيتين ببيتٍ، فيُذكَر أنَّه اجتمع أبو عبد الله ابن شرف يوماً مع أبي علي ابن رشيق القيرواني، فوصف له منزلاً ضيقاً كان فيه، ثم صنع في صفته، فقال[1]: (السريع)

كأنَّمـــا حمَّامُنَـــا فَقْحَةٌ   النَّتْنُ والظُلمَةُ والضِّيقُ

كأنَّني في وسْطِه فيشةٌ   ألوطُه والعَرَقُ الرِّيـــقُ

وكان ابن شرف أعورَ أصلعَ، فقال ابنُ رشيق يداعبُه على طريق الإجازة:

وأنتَ أيضاً أعورٌ أصلعُ   فوافَقَ التشبيهَ تحقيقُ

ولعلَّ المقصودَ بالمنزل هنا هو الحمَّام، وجاءت إجازة ابن رشيق القيرواني هنا من باب التندُّر والتسلية، وليس من باب العجزِ والتعذُّر على ابن شرف.

ويُذكَر عن أبي الوليد الحسين بن محمد المعروف بابن الغراء أنَّه حضر عند عمٍّ له، وكان عنده ابن دراج القسطلي، وأبو عبد الله المعيطي، فغنَّى المعيطي[2]: (مخلّع البسيط)

مروَّعٌ منك كـــلَّ يـــومِ   محتملٌ فيك كلَّ لـــومِ

يا غايتي في المُنى وسُؤلي   ملَّكتَ رَقِّي بغيرِ سَومِ

فأُعجبوا بهذين البيتين، فقال ابن درَّاج القسطلي:أنا أُضيفُ إليهما ثالثاً لا يتأخَّر عنهما، فقال:

تركْتَ قلبي بغيرِ صبرٍ   فيك وعيني بغيرِ نومِ

أمَّا النوع الثاني من الإجازات، فهو أن يجيزَ الشاعرُ شعراً لآخر سابق عليه، أو غيرِ معاصرٍ له، وهذا النوع من الإجازة يكشف مهارة الشاعر المُجيزِ، فهو يستحضر البيت ثم يحاول أن يتمثَّل التجربة نفسها التي نُظم فيها البيت، وبعدها يجيز، فيكون بذلك أقرب إلى الإتمام، ونيل مطلبه.

---

(1) ابن ظافر، بدائع البداهة، ص121؛ ابن شرف، الديوان، ص80؛ وهنا يهجو حمّاماً .

(2) ابن ظافر، المصدر السابق، ص157-158.

ومن أمثلة هذا النوع أنَّه غُنّي بين يدي المعتمد بن عباد قولُ ابنِ المعتزّ[1]: (المتقارب)

وخمَّارةٍ من بناتِ المَجُوسِ   ترى الزّقّ فــي بيتِها شائلاً
وزَنّا لها ذَهَبــاً جامِـــداً   فكالَت لنا ذهبَــــاً سائـــــلاً

فأجازهما بديهاً، بقوله:

وقُلنَا خُذِي جوهَراً ثابِتَاً   فقالَت خُذُوا عَرَضاً زائـــلاً

فمن خلال الأمثلة السابقة نلحظ أن هذا الفن ناتجٌ عن عجز شاعرٍ عن إتمامِ بيت في معنىً ما، فيجيزُ له آخرٌ المعنى نفسه، أي بتعبير آخر أن يُغَمَّ عليه الإتمامُ، ولكن الطريف في موضوع الإجازة أن يتمِّمَ الثاني معنى الأول مع أنَّه ليس قريباً منه- زمانا أو مكانا- ولا يعرف الحالة التي يكون فيها.

أمَّا التمليط فهو على حدِّ قولِ ابن رشيق أن يتساجلَ الشاعران، فيصنع هذا قسيماً وهذا قسيماً، ليُنظر أيُّهما ينقطعُ قبل صاحبه[2].

ويذهب ابن ظافر إلى أنَّ التمليط هو أن يجتمع شاعران فصاعداً على تجريدِ أفكارهم، وتجريبِ خواطرِهم في العمل في معنىً واحد[3].

ويذكر ابن ظافر أنّ التمليطَ منه ما يكون بين شاعرين أو بين شعراء، ومنه ما يكون بقسيم لقسيم، أو بيت لبيت، أو بيتين لبيتين[4].

ومن هنا يظهر الفرق بين الإجازة والتمليط ، ففي التمليط يتفق الشعراء قبل العملِ على العملِ، وهذا غيرُ موجودٍ في الإجازة، بدليل وجود إجازةٍ لشاعرٍ غيرِ

---

(1) ابن ظافر، بدائع البدائة، ص158؛ البيتان عند ابن المعتز، أبو العباس عبد الله (ت296هـ/908م) الديوان، دراسة وتحقيق الدكتور يونس أحمد السامرائي، صنعة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، 1978م، ق1ج2، ص 201.

(2) ابن رشيق، العمدة، ج2، ص91.

(3) ابن ظافر، المصدر السابق، ص167.

(4) ابن ظافر، المصدر السابق، ص167.

معاصرٍ، أو لشاعرٍ لا يعيشُ الحدث، حتى إذا أجاب وأجاز بما كان يطلبه الأول، قال له الأولُ:" كأنك كنت معنا".

وتتكرر في التمليط المناوبة بين الشعراء، لكن في الإجازةِ فهو غيرُ مشروطٍ، فنرى في الإجازة انتهاءَ المعنى بانتهاءِ الإجازة[1].

والتمليط كالإجازة، لم يكن فنّاً أندلسيّاً بحتاً، بل له ظهورٌ في المشرق من قبل، ومن شعراء البيوتات الذين امتازوا بالتمليط المعتمدُ بن عباد، فيذكر أنَّه سار في ركبٍ قاصِداً الجامع، وكان معه الوزيرُ ابنُ عمارٍ، فسمع المؤذِّنَ يؤذِّنُ، فقال المعتمد[2]: (الكامل)

هذا المؤذِّنُ قد بدا بأذانِهِ

فقال ابن عمار:

يرجو بذاك العفوَ من رحمانِهِ

فقال المعتمد:

طوبى له من شاهدٍ بحقيقةٍ

فقال ابن عمار:

إن كان عَقْدُ ضميرِهِ كلسانِهِ

وكذلك يُروَى أنَّ ابنَ حمديس الصِّقلِّي وفد على إشبيلية، وعندما دعاه المعتمد لبَّى الدعوة، ولمَّا وصل إلى مجلسه قال المعتمد: افتَحْ الطَّاقَ الذي يليكَ، فإذا بكورِ زجاجٍ والنارُ تلوحُ من بابيه، وواقدُه يفتَحُ البابين تارةً ويسدُّهما أخرى، ثم أدام سدَّ أحدِهما وفتح الآخرَ، فحين تأمَّلَهُما، قال له المعتمد[3]: ملِّطْ: (الرجز)

انظرْهُما في الظلام قد نجمَا

فقال ابن حمديس:

كما رنا في الدُّجُنَّةِ الأسدُ

فقال المعتمد:

---

[1] ابن ظافر، بدائع البدائة، ص167-168.

[2] المعتمد، الديوان، ص75-76؛ ابن ظافر، المصدر السابق، ص179.

[3] المعتمد، المصدر السابق، ص75؛ ابن ظافر، المصدر السابق، ص180.

يفتَحُ عينيه ثم يطبقُهَا

فقال ابن حمديس:

فِعْلَ امرئٍ في جفونِهِ رمَدُ

فقال المعتمد:

فابتزّهُ الدهرُ نُورَ واحدةٍ

فقال ابن حمديس:

وهل نجا من صروفِهِ أحدُ؟

إنَّ التمليط في الأمثلة السابقة كان بين شاعرين، ومن الأمثلة التي تشير إلى أنَّه كان قد وقع بين عددٍ من الشعراء ما يُذكر من أنَّ المعتمد عند جوازه للقاء يوسفَ بن تاشفين، وهو في "سبتة"، التقى بشاعرٍ من أهل " تنس" من بلاد إفريقية، فنادمَ الشاعرُ المعتمدَ ونامَ، وفي نومه أحدث صوتاً، وعندما استيقظ، وبعد حديث، قال المعتمدُ للحاضرين: قولوا في هذا شيئاً، فقال أحد الحاضرين[1]:(مجزوء الرجز)

وضرطةٍ كالجَرَسِ

فقال المعتمد:

أو كصهيلِ الفرسِ

فقال الشاعر:

أفلتَهَـــا صاحِبُنَا

فقال المعتمد:

عند انصرامِ الغَلَسِ

فقال الشاعر:

سمعتُها من سبتَةَ

فقال المعتمد:

وأصلُها من تَنَسِ

---

[1] ابن ظافر، بدائع البدائة، ص182-183.

وهذا النص، جاءت فيه تورية بين صهيل فرسِ أدهم كان مشهوراً في الأندلس، وعزيزاً المحلِّ عند المعتمد، وبين الصوت الذي صدر من الشاعر في أثناء نومه.

وقد استخدم بنو القبطرنة-الإخوة الثلاثة- التمليط في الحديث عن الدنيا وضرورة الإقبال على اللّهو، حيث ربطوا بين الخمرة ووصف الطبيعة، وكان ذلك عندما باتوا في روضةٍ للمتوكل، تسمَّى(البديع)، فقال أبو محمد[1]: (الخفيف)

يا شقيقي وافى الصباحُ بوجهٍ ستَرَ الليلَ نورُه وبهـــــاؤه

فاصطبِحْ واغتنِمْ مسرَّةَ يــومٍ لستَ تدري بما يجيءُ مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر، فقال:

يا أخي قُمْ ترَ النَّسيمَ عليلاً باكرَ الرَّوضِ، والمُدامَ شمولا

في رياضٍ تعانَقَ النَّورُ فيه مثلما عانَقَ الخليــلُ خليـــلا

لا تَنَمْ واغتنِمْ مسرَّة يــومٍ إنّ تحتَ التُّرابِ نوماً طويــلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن وقد هبّ من غفلةِ الوسَنِ، فقال:

يا صاحِبَيَّ ذرا لومي ومعتَبتي قُمْ نصطبِح خمرةً من خيرِ ما ذخرُوا

وبادِرا غفلةَ الأيامِ واغتنِمــا فاليوم خمرٌ ويبدو في غــدٍ أمــرُ

لقد تتابع الثلاثة في الوصف والتعبير عن الرغبة في الإقبال على الدنيا، وجاء حديثهم بالتناوب، دون أن يكون هنالك عجزٌ أو تعذرٌ من واحدٍ في إتمامِ المعنى.

ومن خلال الأمثلة والنصوص التي وردت، يمكن أن نلحظ أن هذا الموضوع يتَّسم بغنى مجالاته وتعدُّدِ موضوعاته، وأنَّه ازدهر في مجالس شعراء البيوتات الحاكمة أكثر من شيوعه في بيوتات شعراء العامة، ولعل ذلك يعود إلى رغبةِ الأمراءِ أو ذوي السلطة في إثارة اهتمام الشعراء، واختبار مهارتِهم الشعرية وسرعة بديهتِهم.

---

[1] انظر: ابن خاقان، القلائد، ق2، ص435-436؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص773؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص367-368؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص522.

الفصل الثالث

البعد الخاص في شعر البيوتات الأندلسية

تعدُّ موضوعات البعد الخاص من أهم الموضوعات التي نظم فيها الشعراء من ذوي البيوتات الشعرية في الأندلس، وتمتاز هذه الموضوعات بأنها تمسُّ الذَّات والمشاعر والأحاسيس الخاصة بالشخص، وأنها ذات علاقة حميمة به وترتبط بمحيطه الخاص ارتباطاً وثيقاً.

ولم تقتصر هذه الموضوعات على هؤلاء الشعراء فحسب بل نظم فيها شعراء الأندلس الآخرون، لأن الإنسان كائنٌ ذو أحاسيسَ ومشاعرَ ويمتلك الكثير من الطاقات الداخلية، لذلك يحتاج إلى التعبير عنها بأيَّة وسيلة، وكان الشعر هو الوسيلة التي يلجأُ إليها الشعراء، فيُفرِغُون فيه الكثير من هذه المشاعر والانفعالات التي تنتابهم، فتجعلهم يشعرون بنوع من الارتياح النفسي؛ وذلك أنَّ الشاعرَ يُخرِجُ المشكلةَ من محيطه الضيِّق إلى المحيط العام ويقدِّمها للمتلقي، على نحوٍ خاص مؤثر.

ومن أكثرِ الموضوعات التي تمس المشاعر والعواطف الخاصة، الفخر والغزل والرثاء والهجاء ومدح الأصدقاء والخمرة والشَّكوى والحنين والاغتراب إضافة إلى المراسلات الذاتية.

وقد كان للظروف السياسية والاجتماعية التي مرَّ بها المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري أثرٌ كبيرٌ في ازدهار بعض هذه الموضوعات وخاصةً في مجال الشكوى والغربة والحنين للوطن، وقد أثَّرت الاضطرابات السياسية على شعراء البيوتات الحاكمة، في حين أنَّ هنالك موضوعاتٍ نظم فيها الحكَّام والعامة على حدٍّ سواء مثل الغزل والفخر والرثاء، فلم تقتصر على فئة دون أخرى.

وفيما يأتي دراسة لموضوعات البعد الخاص التي نظم فيها ذَوُو البيوتات الشعرية.

1.3 الفخر:

لقد تغنّى الشعراءُ من ذوي البيوتات في القرن الخامس الهجري في الأندلس بالفخر، مجسدين محاسنهم الخُلقيَّة من الوفاء والمروءة والعزَّة والكرامة والطموح إلى العُلا والسيادة، وغيرِ ذلك من الشِّيَمِ الرَّفيعةِ والخصال الحميدة.

وتشيع على ألسنة كثيرٍ من الشعراء الأمراء من ذوي البيوتات أشعار الفخر، حيث يفتخرون بما حقَّقوه من مجدٍ وسيادة وعُلوِّ شأنٍ، وبكرمهم الفيَّاض وعطائهم الواسع، وشجاعتهم الفريدة، وحمايتِهم لإماراتهم وحُسن سياساتهم وتدبيرهم شؤون رعاياهم، ومن هؤلاء الشعراء الأمراء القاضي أبو القاسم محمد بن عبَّاد، الذي يفتخر بأنَّه صاحب نفسٍ عزيزة تعيش للبأس والمجدِ وتحقيق السيادة والعُلا والعطاء والجود، فالمجدُ كامنٌ في ضلوعه والجودُ ثائرٌ من يمينه، والعُلا يجولُ بين جنبيه، والنَّدى زاخر بين كفَّيه، لقد فُطِر على هذه الخصال، فيقول(1): (الطويل)

ولا بُدَّ يوماً أنْ أسُـــودَ الورَى ولو رُدَّ عمروٌ للزمان وعامــرُ
فما المجدُ إلاَّ في ضُلُوعِي كَامِنٌ ولا الجُودُ إلا مِن يَمِينِي ثائــرُ
فجيشُ العُلا ما بينَ جَنبَيَّ جائلٌ وبحرُ النَّدى ما بَيْنَ كَفَيَّ زاخِرُ

ويتغنَّى المعتضدُ بن عبَّاد بالمجد كما تغنى والده من قبله، فهو يعتد بنفسه، ويفتخر بشجاعته، فيقول(2): (الطويل)

أنامُ وما قلبِي عنِ المجدِ نائـــمٌ وإنَّ فؤادِي بالمعانِـــي لهائـــمُ
وإنْ قَعَدَت بِيَ علَّةٌ عن بُلُوغِ ما أُؤَمِّلُه إنَّ اجتِهـادِي لقائــــمُ
تُنادِي الوَغَى بِيَ إنْ أحسّت بفَترَةٍ إلى أينَ يا عبَّـادُ تلكَ العَزائِــمُ
فتهتَزُّ آمالِي وتَقـوَى عَزَائمِـي وتَذكُـرُ لذَّاتِهِـنَّ الهَزَائِــمُ

ويقول مفتخراً بالفروسية أيضاً(3): (البسيط)

زُهرُ الأسنَّة في الهَيجَا غَدَت زَهرِي غَرَستْ أشجارُها مستجزِلَ الثمرِ
ما إنْ ذَكَرتُ لها مِنَ مُعتَرَكٍ جَلَـلٍ إلا تجلَّلتُه بالصَّـــارِمِ الذَّكـرِ

---

(1) ابن الأبار، الحلة، ج2، ص38.

(2) المعتضد، الديوان، ص112- 113.

(3) المعتضد، المصدر السابق، ص108.

حتَّى غدوتُ وأعدائِـــي تُخاطِبُنِـــي   يا قاتلَ النَّاس بالأجنَـــادِ والفِكرِ

فيشير إلى أنَّ الرماح في المعركة كالأزهار، وقد أثمرت أشجارُها أطيب الثمار، ومن تفوقه على الآخرين فقد خاطبه أعداؤه بأنَّه يقاتل الناس بالجنودِ وبالفِكرِ؛ أي أنَّه يفتخر بأنَّه إذا حارب ففارس، وإن تكلّم فهو بليغ ينمّ كلامه عن فكرٍ. ويفتخر أيضاً بقوله[1]: (الطويل)

أقومُ على الأيامِ خيــرَ مُقـــامِ   وأُوقِدُ في الأعداء شَــرَّ ضِــرامِ

وأُنفِقُ في كَسبِ المَحامِدِ مُهجَتِي   ولو كانَ في الذِّكرِ الجَميلِ حِمَامِي

وأُبلِغُ من دُنيايَ نَفسِي سُؤلَهــا   وأَضرِبُ في كُلِّ العُــــلا بِسِهامِ

إذا فَضَحَ الأملاكَ نقــصٌ فإنَّـــه   يُبَيِّنُهُ عنــدَ الأنـــامِ تَمامِــــــي

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحقِ الأعداء وإذاقتهم شرَّ البلاء، كما يعيش لكسب المحامد والذكر الحميد، بالغاً من دنياه كلَّ ما يتمنَّى محقِّقاً لنفسه كلَّ ما تريد من المعاني والأماني الرفيعة التي يقصّر عن نيلها الآخرون، بل إنَّه أصبح أنموذجاً للرجلِ التام الذي يقاس عليه الآخرون فيتكشَّف نقصهم.

كما افتخر بما جُمِع في شخصيَّته من مكارم الأخلاق، وخاصة الكرم والندى الذي طُبع عليه، فيقول[2]: (الطويل)

لقد بَسَطَ اللهُ المَكَــارِمَ مِــن كفِّي   فلستُ على العِلاّت منها أخــا كفِّ

تُنادِي بيوتُ المالِ من فرطِ بذلِها   يَميني: قدْ أسرَفتِ، ظالمَتِي، كُفِّي!

فتُغرِى يميني بالسَّماحِ فتَنهَمِــي   ولا ترتضِي خِلاًّ يقــول لها: يكفي

لَعمرُكَ ما الإسرافُ فيّ طبيعــةٌ   ولكنَّ طبعَ البُخلِ عنديَ كالحَتْــفِ

ويؤكد ذلك في نص آخر، يقول فيه[3]: (مجزوء الكامل)

مَنْ كانَ يَسلُو عَنْ نَوَالِ   فأنَا الــذي لستُ بســالِ

البُخلُ عيـــنُ نقيصَــةٍ   والجُــودُ عينٌ للكَمَــــالِ

أبصرتُ رُشدِي في النَّدَى   فالبُخلُ عِنــدِي كالضَّلالِ

---

(1) المعتضد، الديوان، ص107.

(2) المعتضد، المصدر السابق.

(3) المعتضد، المصدر السابق.

هــذا زِعــافٌ طعمُـــــهُ   والجُودُ حُلوٌ كالـــــزُّلال

كما يفتخر المعتضد بأنَّه الوحيد القادر على الإمساك بزمام أمور الحكم، وكذلك الدفاع عن الرعية، فيقول[1]: (البسيط)

هذي السَّعَادةُ قَد قَامَت علَى قَــدمٍ   وقد جلستُ لها في مجلِـسِ الكَرمِ
فانْ أردْتَ إلـهي، في الورى حُسناً   فملِّكني زِمَــامَ الدَّهـــرِ والأُمــمِ
فإنَّني لا عَدلتُ الدَّهرَ عن حُســنٍ   ولا عَدَلتُ بِهِــمُ عن أكرمِ الشِّيَــمِ
أُقَارِعُ الدَّهرَ عنهُمُ كُلَّ ذي طَلَــبٍ   وأطرُدُ الدَّهرَ عنهُمُ كلَّ ذي عُــدْمِ

وسار المعتمد بن عباد على نهج والده وجدِّه في الفخر، فقد نظم أشعاراً كثيرة في هذا الموضوع، ومن ذلك مقطوعة شعرية قالها عندما استولى على قرطبةَ، وافتخرَ فيها بنفسه و خصاله الكثيرة، فيقول[2]: (البسيط)

منْ للمُلُوكِ بشأوِ الأصيــدِ البَطَـــلِ   هيهاتَ جاءتكُمُ مهديَّـــــــةُ الدُّولِ
خطبتُ قُرطبةَ الحسنَـــاءَ، إذ مَنَعَــت   مَن جاءَ يَخطُبُها، بالبِيضِ والأسَلِ
وكَمْ غَدَتْ عاطِلاً حتّى عَرَضْــتُ لها   فأصبَحَتْ في سَرِيِّ الحَلْيِ والحُلَلِ
عُرسُ المُلُوكِ لنَا في قَصرِها عُرُسٌ   كُلُّ المُلُوكِ به في مأتَمِ الوَجَـــلِ
فراقِبُوا عن قَرِيـــــبٍ، لا أبالكُـــمُ   هُجُومَ ليثٍ، بِدِرْعِ البأسِ مشتَمِــلِ

فهو يفتخر بأنَّه استطاع أن يحقِّق بافتتاح قرطبة انجازاً لم يستطع أحدٌ من الملوكِ أن يحقِّقه، وربَّما يشير بذلك إلى تلك الحادثةِ عندما استنجدَ به أبو الحزم ابنِ جهورِ ضدَّ ابن ذي النون، فناصرَهُ المعتمدُ، وأزال خطر بني ذي النُّونِ عن قرطبة، ودخل هو إليها، ويشبِّه المعتمد قرطبةَ بالفتاة الحسناءِ التي امتنعت عن خطّابها، حتى جاء المعتمد فخطبها، ولهذا فإنَّ دخوله قرطبةَ يمثِّل بالنسبة إليه العرسَ والسَّعادة، بينما هو لباقي الملوكِ المأتم والحزن.

وقد افتخر المعتمد أيضاً بالكرم والجود، الذي يسري في دمِهِ وجسمِهِ، وهو أحبُّ إليه من النَّصر في المعارك، فيقول مفتخراً بذلك[3]: (البسيط)

---

[1] المعتضد، الديوان، ص108.

[2] المعتمد، الديوان، ص65- 66.

[3] المعتمد، المصدر السابق، ص65.

الجُودُ أحلَى على قلبِي من الظَّفَــرِ ومن مَنالِ قَصِيِّ السُّــؤلِ والوطَــرِ
ومن غنَاءِ أُريْوى في الصَّبُوحِ لنَا يا طَلْعةَ الشَّمسِ في الآصالِ والبُكَرِ
وقدْ حَنَنْتُ إلى ما اعتَدْتُ مِن كَرمٍ حنينَ أرضٍ إلى مُستَأخِــرِ المطَــرِ
وقد تَنَاهت يدِي عن كأسِها غضباً ومجَّتْ الأُذنُ أيضاً نَغمَــةَ الوتَـــرِ
حتّى أُملِّكُ هذي ما تَجُــودُ بـــه وأَسمَعُ الحمْدَ بالأخرى على الأثَــرِ
فهاتِهَا خِلَعاً أُرضِي السَّمَاحَ بِهَــا مَحفُوفَةً في أكُفِّ الشَّــرْبِ بالبِــدَرِ

فهو يفرح بالكرم والجود على الآخرين أكثرُ من فرحة النّصر أو حتّى بلوغَ أقصى غاياته، ويحِنُّ إليه أكثر من حنينِ الأرضِ للمطر المتأخِّرِ من السَّنة، وقد أصبح لا يطيق كأسَ الشَّراب ولا تترنَّم أذنُه مع نغمة الوترِ في مجالسه المحبَّبة إليه، حتى يجودَ لِمَن يحتاجُ، ويسمَعُ الحمدَ من الناس.

كما إنّه يفتخر بانتسابه إلى بيت عرف بالمجد والعظمة، حتى أنَّه يزعمُ أنّ منْ وصفَهم بذلك فقد صدقَ، وأنَّ هذا المجد لا تؤثِّر عليه خطوب الزمان ومصائبُه؛ لأنَّهُ كالشمس في علوِّها ورفعتها ومن يريد طمس شعاعها لا يستطيع، فيقول[1]: (الرمل)

مَنْ عزَا المجْدَ إلينَا قَدْ صدَقْ لَمْ يُلَمْ منْ قَالَ، مَهمَا قالَ حــقْ
مجدُنا الشَّمسُ سناءَ وسنَـــا منْ يـــرُم سَتْرَ سناها لم يُطِــقْ
أيُّهـــا النَّـــاعي إلينـــا مجدَنا هل يضيرُ المجدُ أنْ خَطبٌ طَرَقْ

وقد كان الاتِّصافُ بمكارم الأخلاق، وحفظِ الوِّدِّ وعدمِ خيانَةِ الصَّديقِ، من المعاني التي عبر عنها المعتمد، فيُذكَر أنَّه رُفع إليه في بداية عهدِ دولَته شِعرٌ يُعزَى لبعض وزرائه وكُتَّابِ دولته، وفيه تعريضٌ بوزيرِه أبي بكرِ ابن زيدون، وفيه إغراء للمعتمد بأن يقتُلَهُ، وجاء في أوله[2]: (الكامل)

يا أيُّها المَلِكُ العَلِيُّ الأعظَمُ اقطَعْ وريدَيْ كُلِّ باغٍ يَنأَمُ

لكن المعتمد عندما قرأ الشعر فَهِمَ الغرضَ منه، ووقَّع على ظهرِ الرقعة نفسها بقوله:

كَذَبَتْ مُنَاكُمْ، صرِّحُوا أو جَمْجِمُوا الدِّينُ أمتَــنُ، والمُروءَةُ أكــرَمُ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص109؛ وقد ورد المطلع وحده ص65.

[2] المعتمد، المصدر السابق، ص66-67؛ انظر القصة والقصيدة: ابن خاقان، القلائد، ق1، ص 73- 77.

خُنْتُمْ، ورُمتُم أنْ أخُون، وإنَّمـــا حاولْتُـمْ أنْ يُستخَـــفَّ يلمْلَـمْ
وأَردْتُمُ تَضْيِيقَ صدْرٍ لَـمْ يضِـقْ والسُمْرُ في ثَغْرِ النُحورِ تحطَّـمُ
وزَحفْتُم بِمُحالكُـــمُ لِمُجَــرِّبٍ ما زالَ يثبُتُ فِي المجالِ فيهـزِمُ
أنَّى رَجَوْتُمْ غَدْرَ مَــنْ جرَّبْتُـمُ منْهُ الوفَاءَ، وجور منْ لا يظلِـمُ
أنا ذاكمُ، لا البَغْيُ يُثمِرُ غَرسُـهُ عندِي، ولا مبنَى الصَّنيعَةِ يُهـدَمُ
كُفُّوا، وإلاَّ فارقُبُوا لِي بَطشَـةً يُلْقَى السَّفيهُ بمثلِهَـا فيحلِـمُ

فهو يصفهم بأنَّهم خائنون للوُدِّ، وأنَّهم سعوا من أجل أن يَضيقَ صدرُهُ ويغضب على ابنِ زيدونٍ، ليقعَ ما يطلبونَه ويتمنَّونَه، لكنَّه يخبرُهم أن مساعيهم لن تنجحَ، فكيف به أنْ يخونَ من لم يخُنْهُ، واستحالةِ حُدوثِ ذلك أشبهُ باستحالةِ تحرُّكِ(يلَملَم)؛ ذلك الجبلُ في ناحية من مكة ببلاد المشرق، ويَستَغرِبُ توقُّعَ الغدرِ ممَّن ليس الغدرُ من أخلاقه، ثمَّ يحذِّرَهم من هذه الأعمال، لأنَّها ستسبِّبُ له الغضب عليهم فينالهم بطشه.

ومن الشعراء الحكام من ذوي البيوتات الذين افتخروا بأنفسِهم، المتوكِّلُ ابن الأفطس، الذي يفتخر بأنَّه صاحبُ شخصية تتجمَّع فيها كُلُّ الخصال الحميدة، ومفردات المروءةِ، وليس للأيام وللظروف لبسُ مثلها، وجاء ذلك في عتابٍ أرسلَ به إلى أخيه يحيى، لمَّا ذُكِرَ عنده بسوءٍ، فيقول مفتخراً[1]: (الطويل)

وكيف؟ورَاحِي دَرْسُ كُـــلِّ غَرِيبَـةٍ ووِرْدُ التُقى شَمِّي وحَربُ العِـــدَا نَقْلي
ولي خُلُقٌ في السُّخطِ كالشَّرِي طعمُهُ وعندَ الرِّضا أحلَى جَنَىً من جَنَى النَّحلِ
وإنِّي وإنْ كنتُ الأخيـــرَ زمانُـهُ لآتٍ بمـا أعيـا الصّنـاديد مـن قبلي
ومَا أنا إلاّ البَـدرُ تَنبَـحُ نُـــورَهُ كـلابُ عِـدىً تأوي اضطراراً إلى ظِلِّي

فالشاعر في هذا النص يستنكر ذلك التّصرُّفَ من أخيه، ثم يذكر صفاته ومكارمِ أخلاقه. فهو حارسُ الدِّين، كما أنَّه إذا غَضِبَ فهو مرٌّ كمَرارِ نبات الشَّري، وإنْ رَضِيَ فإنّه أحلّى من عَسلِ النَّحل، وإنّه وإن كان قد تأخّرَ زمانُه لآتٍ بأفعالٍ عظيمةٍ عجِزَ عنها الشجعان الذين سبقوه.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص648- 649؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص303- 305.

ويفتخر أبو الفضل ابن شرف بعزّة نفسه ورفعتها عن التكسب بالشّعر، كما يفتخرُ بقوّة نفسه التي لم تؤثر فيها محنُ الزمان أو تنال منها، فيقول[1]: (البسيط)

إنّي وإنْ عزّني نيلُ الغنى لأرى   حرص الفتى خلّةً زيدت إلى العدمِ
فما عكفتُ بآمالي على وثــــنٍ   ولا سجدْتُ بأشعاري إلى صنَـــمِ
تقلّدتنيَ اللّيالي وهـــــي مُدبــرةٌ   كأنّني صارمٌ في كَــــفِّ منهَــزِمِ
ذَهَبْتُ بالنَّفْسِ لا ألوي على نَشَبٍ   وإنْ دُعيتُ به ابن المجْدِ والكَــرَمِ
فللمِصاعِ وأطــرافِ اليَــراعِ يَدٌ   بَنَتْ ليَ المَجدَ بينَ السَّيفِ والقَلَــمِ

فالشاعر يرى أنّ الحرص والبخلَ من الخلالِ التي لا خير فيها للفتى، كما أنّه ما سجدَ لوثنٍ ولا صنَمٍ من أجل الحصول على المال، وربَّما يقصد بعض حكام عصره ممن لا يستحقّون الثّناء، كما أنَّه لا يسعى للتغنّي بالنَّسبِ والشُّهرة لأنَّه هو ابنهما فكيف يدَّعي ذلك، كما أنَّه استطاع أن يبني لنفسه المجد العظيم، وأن يجمع بين القلم والسيف.

وكما ذكرنا في سياقِ حديثنا في الفصل الثاني من هذا البحث، أنَّ من دواعي ازدهار فن المديح رغبةَ بعضِ الشعراءِ في التكسُّب والحصول على أنداءِ الأمراء والحكَّام وأعطياتهم، لكنْ عندما يفتخر الشاعرُ بأنّه لا يسعى لهذا المال ويترفَّع عن التكسُّب فإنَّه حقاً من صورِ الفخر، وقد عبَّر عن هذا المعنى أبو بحر ابن عبد الصمد، بقوله[2]: (الكامل)

فَوَصَلْتُ أقطَاراً لِغَيرِ مَحَبَّــةٍ   ومَدَحْتُ أقواماً لغيرِ صِلاتِ
أموالُ أشعَارِي نَمَتْ فَتَكَاثَرَتْ   فَجَعلْتُ مَدحي لِلبَخِيلِ زَكاتِي

فهو يشير من خلالِ البيتين السابقين إلى أنّه يمدح كلَّ من يستحِقّ المدح، حتى لو كان هذا الممدوح بخيلاً لا يُرجَى منه الوَصْلُ والعطاءُ، وهو يجعل بذلك مدحه لمثل هذا البخيل زكاة، ولعلّ هذا المعنى مِن الفخر من المعاني الغريبة، ويرى ابن بسام أنّه ألمّ بقولِ ابن رشيق القيرواني:

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق4، ص797- 798.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص810؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص203- 204.

فإنْ وجبتْ علَيَّ زكاةُ شِعْرٍ   جعلْتُك مِنْ مساكِينِ الكِرامِ[1]

إذ إن قول ابن رشيق فيه فخرٌ بذاته وكرمه حتّى في شعره، كما أنّ فيه هجاءً للمخاطبِ الممدوحِ، حيث أنَّه حصلَ على فَضلَةِ المدح.

وكان بعض الشعراء من أبناء البيوتات العامة يفتخرون بمكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات التي تتصلُ اتِّصالاً وثيقاً بمفردات المروءة التي تعارف عليها الناس، من كرمٍ وحِلمٍ ونخوةٍ وعزّة نفسٍ وغيرها، ومن هؤلاء أبو عامرٍ ابن شهيد الذي افتخر آخر حياته بنفسه وبرفاقه، فهم قد ترفَّعوا عن الجهل والتصابي وانقطعوا للوعظ واستخلاص العبَر، بعد ذهاب العمر ومُضيِّ الأيام، فيقول[2]: (الخفيف)

قدْ ترَكْنَا الصِّبَا لكلِّ غويٍّ   وانسلَخْنَا مِـــنْ كُلِّ ذامٍ وعابِ

وانقطَعْنا لواعِظَاتِ مَشيبٍ   آذَنَتْنَـــا حياتُهَـــا بذَهَــــــابِ

وإذا ما الصِّبَا تحمَّلَ عنَّـــا   فقَبِيحٌ بِنَا ارتِضَاءُ التَّصَابِـــي

وله نصٌ آخر يفتخر فيه بنفسه، حيث يقول[3]: (البسيط)

ومَا ألانَ قناتِي غَمْـــزُ حادثَـــــةٍ   ولا استَخفَّ بِحِلمْي قَطُّ إنسَـــانُ

أمضِي على الهَوْلِ قَدْماً لا يُنَهنِهُنِـــي   وأنْثَنِي لِسَفِيهِـــي وهْوَ حَـــردَانُ

ولا أُقارِضُ جُهَّـــالاً بِجَهلِهِـــمُ   والأمرُ أمْـــرِي والأيَّامُ أعْـــوَانُ

أُهِيبُ بالصَّبرِ والشَّحنَـــاءِ ثائـــرَةٌ   وأكظُمُ الغَيظَ والأَحقَادَ نيــــرَانُ

ومَا لِسَانِي عِندَ القَـــومِ ذو مَلَـــقٍ   ولا مُقَالِي إذا مَا قُلـــتُ إدهَـــانُ

ولا أَفُوهُ بِغَيرِ الحَقِّ خَـــوْفَ أَخِـــي   وإنْ تأَخَّرَ عَنِّي وهـــو غَضْبَـــانُ

ولا أمِيلُ على أَخِـــي فَآكُلُـــهُ   اذا غَرِثْتُ وبعضُ النَّاسِ ذُؤبَـــانُ

بالعِلـــمِ يفخَـــرُ يَـــومَ الحَفْلِ حَامِلُهُ   وبالعَفَافِ غَـــدَاةَ الجَمْـــعِ يـــزدَانُ

إنَّه يفخر بعلمه وعفافه وعدم ردِّهِ على حُمقِ الأحمَقَ، وإنَّه يعتصم بالصبرِ وكظمِ الغيظ، ولا يتملَّق ولا يفوه بغير الحقِّ، وإنَّه قد يبيتُ على الطَّوى حانياً الضلوع على لظى المعركة دون تبرُّمٍ أو ضيقٍ.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص810.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص85.

[3] ابن شهيد، المصدر السابق، ص161.

كما يفتخر ابن شهيد في آخر النص بعزّة نفسه، وعدم كشف عيوبها أمام الآخرين، فالكريم هو الذي يتحامل على نفسه في سبيل أن لا يكشف ضعفه أمام الآخرين؛ لأن التذمُّر ليس من أخلاق الكرام، فيقول:

إنَّ الكَــريــمَ إذا نَــالَتْــهُ مخمصةٌ   أَبْدَى إلى النَّاسِ شِبْعاً وهو طَيَّانُ

يُحنِي الضُّلُوعَ على مِثلِ اللَّظَى حُرَقَاً   والوَجهُ غَمْرٌ بِماءِ البِشْرِ مَــلآنُ

فالكريم ينحمل الجوعَ وألمه ولا يُشعِرُ الآخرين بذلك بل يُظهر بشره وسروره، وكأن الشاعر في هذين البيتين يتمثّل قولُه تعالى: "يحسبُهم الجاهل أغنياءَ من التعفُّف"[1].

وافتخر ابن شهيد أيضاً بكرمه، ولعلّه كان صادقاً في ذلك، إذ عُرِفَ عنه بأنّه أنفق ما يملك على ندمائه وأصحابهِ حتى في أيّام بطالته، ممّا أدى به إلى الفقر والإملاق، ويذكر في قصيدة له كيف أنّهُ كان يعمدُ في ليالي البرد الشديد والثلج العميم إلى إشعال نارين، إحداهما لإرشاد ساري الليل إلى بيته، وثانيتهما للقِرى أو الطعام، إنّه يطلب ساري الليل ليأمِّنَهُ من خوف، ويأويه من قرٍّ ويطعمهُ من جوعٍ، فيقول[2]: (الطويل)

ولَمَّــا رأيتُ اللَّيـــلَ عَسْكَرَ قُرُّهُ   وهبَّتْ لــه ريحَانِ تَلتَطِمَانِ

وعمَّ صُلْعُ الهُضْبِ مِن قَطْرِ ثَلْجِهِ   يَدَانِ مِن الصِّنَّبْرِ تَبْتَــدِرانِ

رفَعْتُ لِساري اللّيلِ نارَينِ فارتَأَى   شُعَاعِينِ تَحْتَ النَّجْمِ يلْتَقِيانِ

فَأَقْبَلَ مَقْرُورَ الحَشَــــا لَم تَكُنْ لَهُ   بِدَفْعِ صُرُوفِ النّائِبَاتِ يَدَانِ

ثمَّ يقصُّ علينا ابن شهيد حكايةً لضيفٍ من أضياف الليل كان قد طرق بابَهُ، ويكشف لنا عن طبيعة ما جرى بينهما، من خلال حوارٍ مثيرٍ، يقول:

فَقُلتُ :إلَى ذَاتِ الدُّخَانِ فَقَالَ لِيَ:   وَهَلْ عُرِفَتْ نَارٌ بِغَيرِ دُخَـــانِ؟

فَمِــلْتُ بِهِ أجْــتَرُّهُ نَحوَ جَمْرَةٍ   لَها بَارِقٌ لِلضَّيْفِ، غَيرُ يَمَانِ

ثم أخذ الشاعر يقرّبه من النار ليشعر بالدفء، ثم يقدّم له الطعام والمنام ويحرص على إيناسه في السهر، كما يحرِصُ على إكرامه وخدمته إلى أنْ يَحِنَّ هو بنفسه لأهله وبلاده، ويرغب في العودة إليهم، ويعطيه طعاماً وما يحتاج إليه في طريقه،

---

[1] سورة البقرة، آية 273.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص163.

فيتركُ هذا الضيفُ الذكر الحسن لهذا المُضيفِ في كل مجلسٍ، وهذا كلُّ ما يريده المضيف، فيقول ابن شهيد :

فما زالَ في أكلٍ وشُربِ مُـــدارِكٍ إلى أنْ تَشَهَّى التَّركَ شَهوةَ وانِي
فَألحقْتُهُ، فامتَــدَّ فَــوقَ مهـــادِهِ وخَــدّاهُ بالصَّهبَــاءِ تَتَّقِـــدانِ
ومَا أنفَكَّ معشُــوقُ الثَّــواءِ نَمُدُّهُ ببِشْــرٍ وتَرحِيــبٍ وبَسْطِ لِسَــانِ
تُغَنِّيه أطيارُ القِيَــانِ إذا انتَشَـــى بِصنجٍ وكِيثَـــارٍ وعُــودِ كِــرَانِ
إلى أنْ تَشَهَّى البيتَ مِن ذاتِ نفسِهِ وحَنَّ إلـــى الأهلِينَ حَنَّـــةَ حَــانِي
فَأتْبَعْتُــهُ ما سدَّ خَلَّةَ حَــالِـــــهِ وأَتْبَعَنـــي ذِكْــراً بِكُــلِّ مكَــانِ

وقد ورد عن المعتضد بن عباد أنه افتخر بالكرم، وأنّه من حبِّه للكرم يمكن أن يبذُلَ كلَّ مالِه في سبيلِ المدح والثناء، فيقول[1]: (الطويل)

فَمَا مرَّ بِي بُخْلٌ بِخَاطِرِ مُهجَتِــي ولا مَرَّ بُخْلُ النّـــاسِ قَطّ بِبالِيَـــا
ألا حبَّذَا فِي المَجْدِ إتلافُ طَارِفِي وبَذْلِي عِندَ الحَمدِ نفسِي ومَالِيَا

كما تشيع على ألسنة كثيرٍ من شعراء البيوتات غير الحاكمة أشعار الفخر بما حازوه من علمٍ وأدبٍ، فهذا أبو محمد ابن حزم يفتخر بعلمه الواسع وثقافته المتنوعة، وبأنَّه غدا شمساً منيرة في العلوم، ولم يُعبهُ طلوع شمسه من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، يقول[2]: (الطويل)

أنا الشَّمسُ في جوّ العلوم منيرةٌ ولكِــنَّ عَيْبِيَ أنَّ مطلعِـــي الغَـــربُ
ولو أنَّني من جانبِ الشَّرق طالِعٌ لَجَدَّ على ما ضاع من ذِكري النَّهْبُ

وفي قصيدة أخرى يفتخر بعلمه فيقول[3]: (البسيط)

وإنَّ مَنزِلَتِي فِي العِلـْـمِ مَنزِلَةٌ فِي المُلك خَطٌّ كخَطِّ الصَّادِقِ النَّسبِ
ما زِلْــتُ أَدخُرُهُ دَهرِي وأُنفِقُهُ كفعله في اللُّجَينِ المَحضِ والذَّهبِ
وإنَّنـــي لَبَخِيــلٌ بالسَّــلامِ إذا بَخِلْتُ بالعِلمِ مِن لَفْظِي ومِن كَسْبِي

---

[1] المعتضد، الديوان، ص114.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص173.

[3] الطرابلسي، محمد الهادي، "شعر ابن حزم"، حوليات الجامعة التونسية، ع9، سنة 1972، ص 151-176، ص170- 171.

لو استطعتُ منحتُ النّاس كُلّهُمُ ما قدْ تجمّع في حفظي وفي كَسْبي

وكيفَ أسترُ مُعلي رُتبتي أبــداً ومن يُخلِّدُ ذكري آخــر الحقـــب

فهو يشير إلى أنَّ عنده من العلمِ ما يمنحُه منزلةً تفوقُ منزلةَ الملكِ، كما أنَّه يدَّخرُ علمه وينفقُ منه على من يطلبه وكأنّه الذّهبُ والفضّةُ، كما أنّه لا يمكنُ أنْ يبخَلَ بالعلم ولو بخلَ به لبخِلَ بالسّلام، ومن شدة حرصه على نشر العلم يتمنّى لو يمنحه لجميعِ النّاس، ولا يستطيعُ حفظه وستره، لأنّه لو ستر العلم لانتهى ذكره على مدى الأزمان، فالعلمُ في نظره هو الذي يخلّد ذكره.

ولم يقفْ ابن حزم عند حدِّ الافتخار بعلمِهِ، بل تجاوز ذلك إلى الافتخار بالعلوم العربية والفنون الأدبية التي عرفها العرب، وذلك في قصيدة ردَّ فيها على كاتب مرتدٍّ عمل عند نقفور ملك النصارى، يقول[1]: (الطويل)

لنَا كلُّ علمٍ من قديمٍ ومُحدثٍ وأنتُمُ حميرٌ دامياتُ المخَـــازمِ

أتيتُم بشعرٍ بــاردٍ مُتَخَـــاذلٍ ضعيفِ معاني النَّظمِ جمِّ البلاغمِ

فَدُونَكَها كالعِقْدِ فيـــه زُمُرُدٌ ودُرٌّ وياقُوتٌ بإحكَـــامِ حاكِـمِ

كما افتخر أبو مروان عبد الملك الطبني بعلمه الواسعِ ومعرفته الدينية المتعددة الجوانب، وذلك عندما رجعَ إلى قرطبةَ وبرزَ في علمِه، فاجتمعَ عنده في مجلسه خلقٌ عظيمٌ، فلمَّا رأى تلك الكثرة وما لهم عنده من الأثرة، قال[2]: (البسيط)

إنِّي إذا حَضَرَتْني ألفُ محْبرةٍ يكتُبْنَ حدَّثَني طوراً وأخْبَـــرَني

نَادَت بِعقْوَتِيَ الأيَّامُ مُعلِنَـــةً هذِي المفَاخِرُ لا قُعبَانَ من لَبَـنِ

وكذلك افتخر ابنُ بردٍ الأصغرُ بموهبته الأدبية وانتسابه إلى بيتٍ معروفٍ بالعراقة الأدبية، أي أنّ الأدبَ والعلمَ متأصِّلٌ في بيتِه، فيقول مفتخراً[3]: (الرجز)

يا طَالِبَ الدُّنيَا بأَقْصَـى الجَّهْدِ اسْـعَ بِجِدٍّ منْـــكَ لا بِكَـــدِّ

مَنْ شَاء خَبَرِي فأنَا ابـنُ بردِ حَدُّ حُسامِـي قطعَةٌ من حَدِّي

---

[1] عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص382.

[2] ابن خاقان، المطمح، ص269؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص543؛ الضبي، البغية، ص 379، ويذكر أنّ البيتين يُنسبَانِ إلى أبي بكر الخوارزمي، وربما يكون الطبني قد تمثّل بهما.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص487.

وأرفعُ النَّاسِ بِنـــاءَ جِــدِّي   منْ نَظْـمِ الألفَاظِ نَظْمِ العِقْــدِ
ونَقَدِ الكَلامِ حَـــقَّ النَّقْـــدِ   وكَفَّ بالأقْلامِ أيدِي الأُسْـــدِ
بِهِ استَضاءَ في الخُطُوبِ الرَّبْدِ   كُلُّ إمــامٍ ووَلِـــيِّ عهـــدِ

وله نصٌ آخرٌ يعبّر فيه عن مهارته وموهبته الفذَّةِ في نظمِ الشِّعر، فيقول[1]: (مجزوء الكامل)

اسْمعْ لِعبْدِك شِعْرا   وإنْ أَرَدْتَ فَسحْرا
وما تَخيَّرْتُ لَفْظَــاً   لَكن تَخَيَّــرتُ دُرًّا
نَظَمْتُهُ لكَ عِقْـــداً   فَوافَقَ العِقْدُ نَحْرا

2.3 الرثاء:

لقد كان فنُّ الرثاء من الموضوعات التي نظم فيها شعراء البيوتات الأندلسية، وأكثروا فيه من التفجُّع والتَّهويلِ في وصف الأحزان، ولعل ذلك يعودُ إلى طبيعةِ ظروفِهم النفسيَّة والاجتماعية[2].

وقد تراوحت أشعار شعراء البيوتات بين رثاءٍ من يخصُّونَهُم ورثاءِ من لا يخصُّونَهم، لذلك سنُقَسِّمُ هذه الأشعارُ إلى قسمين هما: الرثاء العام، ويشمل رثاء الحكّام والأمراء والعلماء والأصدقاء، وعامة الناس، والرثاء الخاص، ويشمل رثاء الذَّات ورثاء الأبناء والأهل.

الرثاء العام:

لقد نظم عددٌ من شعراء البيوتات مراثيَ متعدِّدة في رثاء الحكّام والأمراء والعلماء، فعدّدوا مناقبهم ومآثرهم، واستذكروا دورَهُمُ السِّيَاسِي أو الاجتماعي أو الديني أو العلمي، فإن كان المرثيُّ حاكماً استذكروا أيَّامَ حُكمِهِ التي سادها الرخاء

---

(1) الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص88، وذكر أنه "برد بن أحمد بن برد"، ولذلك يرجّح أنّه الأصغر.

(2) محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م، ص175.

والنعيمُ والعدلُ بين الناس، وإنْ كان عالماً فقيهاً صوّروا خسارة الناس والزمان بموته، وذكروا علمهُ وفقهه اللّذينِ خدم بهما الأمّةَ، وهما سيخلّدان ذكره.

وممَّن رثُوا الحكّام والأمراء، ابن دراج القسطلي الذي رثى المنذر بن يحيى التُجيبي في قصيدة يعبِّرُ في مطلعها عن لهفتهِ وتحسُّرِه على موت المنصور، ويرى أنّه بموته ترك فراغاً في قلوب الرعيّة، فيقول[1]: (الطويل)

ولا فِي سرُورِ العيدِ نَحنُ مُهنُّوهُ ولا فِي سَريرِ المُلْكِ نحنُ مُحَيُّوه
فلَهفِي عليه والكُمَــاةُ تَهابُــــهُ ولَهفِي عليه والمُلُوكُ مُطيعُــوه
ولَهفِي عليه حاضِراً كُلَّ مسجدٍ وداعُوهُ أشيَــاعٌ لَهُ ومُصلُّـــوهُ
تَلَهُّفَ قلبٍ ليس يُشفِي غَليلَــهُ سوابِقُ دمعٍ لاعِجُ الحُزنِ يحدُوهُ

ثم هو يدعو اللهَ أنْ يُخفِّفَ من مُصابهم، وأنْ يجعلَ المنصور ممَّن يفوزَ بالنّعيم في الآخرة، فيقول:

وأشكُو إلى الرَّحمنِ تَرحةَ فَجْعَةٍ بمَنْ لم يَبِتْ داعٍ إلى اللهِ يشكُوهُ
وأَدعُو لَديهِ فَوزَ رَوْحٍ وراحَــةٍ لِمَن لَم يَزل يدعُو إليه ويدعُوهُ

ولكن ابن دراج يرى أنّ العزَاءَ الوحيد في موتِ المنصورِ هو تَولي ابنِه يحيى المظفر الحُكْمَ من بعده، فيقول:

وإنْ جَلَّ فينَا فقدُهُ ومُصَابُـــــهُ ليَبلُونَا في الصَّبرِ عنْهُ ويبلُــوهُ
فَقَدْ عوَّضَ الإسلامَ مِن فَقد نفسه هلالَ سماءٍ لا يَضِــلُّ مُهِلُّـــوهُ
وبَحراً سَقَاكُمُ رِيَّ جُودٍ وأنْعُــــمٍ فَسقُوهُ إخلاصَ الصُّدُورِ ورَوُّوهُ
فَقَدْ حتَمَ الدَّهرُ الذي حَلَّ خَطْبُــهُ بأنْ لَيْسَ إلاّ "بالمُظَفَّرِ" يَجلُــوهُ

وبعد ذلك يهنئ المظفر يحيى بالحكم، ويمدحه، فيقول:

فَلَولاكَ يَا "يَحيَى" لَهُدَّت لِفقْــدِهِ ذُرَى عِلْمٍ أَذْوَاؤُكَ الغُرُّ بانُــوه
ولَولاكَ يَا "يَحيَى" لَمَاتَ بِمُوتِه رِجَالٌ بِأحرَارِ القُلُوبِ مُوَاسُوهُ
فَلا فَضَّنَا دَهْرٌ وأنْــتَ تَلُمُّنَــا ولا مَضَّنَا جُرْحٌ ويُمنَاكَ تَأسُوهُ

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص237- 239.

فابنُ دراج يمزج الرثاء والتعزيةَ بالتهنئة، فإنْ ماتَ المنذرُ المنصورُ، فقد تَولّى الأمر بعده ابنُه يحيى، وهو خيرُ خلفٍ لخيرِ سلفٍ.

وقد رثى ابن دراج ابناً للمظفّر، توفي وهو صغير، فقال[1]: (المتقارب)

عزاءٌ وأنتَ عزاءُ الجميعِ ومَنْ ذا سِواكَ لِجَبْرِ الصُّدُوعِ

فَفُزْ يا مُظفّرُ ممَّن شَجَاكَ بأكرمِ ذُخْرٍ وأزْكـى شَفيعِ

تُصافِحُهُ عند بابِ الجِنَانِ وتَعلُو بهِ في المَحلِّ الرَّفيعِ

وفي ذِمَّةِ اللهِ أصلٌ كريمٌ يُسكِّنُ من فَقْدِ بعضِ الفُرُوعِ

بِطُولِ بقاءٍ يفي بالزَّمانِ وصفْوِ حياةٍ تَفِـي بالجَّميعِ

فقد جعل من وجودِ يحيى بن منذرٍ الذي هو الأصلُ عزاءً للناس بموت الفرعِ وهو الطفل، وجعلَ عزاءَ المظفَّر أن يلقى ابنَهُ يوم القيامة في الجِنان، ويعدِّدُ صفات الطفلِ الذي سيكون شفيعاً لولده عند الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة، الذي سيُعلي من شأنه ويبوِّأه منزلةً رفيعة في الجنَّة.

وعندما توفي المعتمد بن عباد رثاه عددٌ من الشعراء، منهم أبو بحر ابن عبد الصمد، الذي زار قبرَهُ بعد وفاته بأيَّام، وذلك في يوم عيد، فطاف حول قبرِه ورثاه بأبياتٍ قال فيها[2]: (الكامل)

مَلِكَ المُلُوكِ أسامعٌ فأُنَادي أمْ قَد عدَتْكَ عنِ السَّمَاعِ عَوادِ؟

لمَّا خَلَتْ منكَ القُصُورُ فلَم تَكُنْ فيها كمَا قَد كُنتَ في الأعيَادِ

قَبَّلْتُ في هَذا الثَّرَى لَك خَاضِعَاً وتَخِذْتُ قَبْرَكَ مَوضِعَ الإنْشَادِ

قَد كُنتُ أحسبُ أنْ تُبَدِّدَ أدمُعِي نيرانَ حُزْنٍ أُضرِمَتْ بفُؤادي

فإذا بِدَمْعِي كُلَّمَا أجْرَيْتُهُ زَادتْ عَليَّ حَرَارَةَ الأَكبَادِ

يا أيُّهَا القَمَرُ المُنيرُ أهَكَذَا يُمْحَى ضِياءُ النَّيِّرِ الوَقَّادِ؟

أُفْقِدْتُ عَيني مُذ فَقَدْتُ إنَارَةً لحجَابِهَا في ظُلمَةٍ وسَوَادِ

مَا كَانَ ظَنِّيَ قَبْلَ موتِكَ أنْ أَرَىْ قَبْرَاً يَضُمُّ شَوَامِخَ الأَطْوَادِ

---

(1) ابن دراج، الديوان، ص507- 508.

(2) ابن خاقان، القلائد، ق1، ص107- 108.

فالشاعر يعبِّرُ عن عِظمِ المُصيبة التي حلّت عليه، فعينُه تبكي لكنّها لا تخفّفُ من حزنه، كما أنّه فقد نُور عينِه بفَقْدِ المعتمد، وكان يظُنُّ أنَّه لن يزور قبراً فيه رفاتُ ملكٍ شامخٍ، ولكنَّه زاره بموتِ المعتمد، ثم ينتقل إلى ذكر مآثر المعتمد فيقول:

عَهْدي بملكِ وهوَ طَلْقٌ ضاحكٌ　　مُتَهلِّلُ الصفَحاتِ للقُصَّــــــاد
والمَالُ ذو شَمْلٍ مُذَاد والنَّـــدَى　　يَهمي وشَمْلُ المُلكِ غيرُ مُذَاد
أيَّامَ تَخفِقُ حولَكَ الآيــــاتُ فَو　　قَ كَتَــائبِ الرُّؤساءِ والأَجنَاد
والأَمْرُ أمرُكَ والزَّمانُ مُبشِّــرٌ　　بمَمالكٍ قَدْ أَذْعَنَـتْ وبِـــلاد
والخَيلُ تَمرحُ والفَوارِسُ تَنْحنِي　　بينَ الصَّوارِمِ والقَنا المُنْـــآد

وعندما قُتِلَ المتوكِّلُ على الله بن الأفطس هو وابناه، وذلك عند دخول جيش يوسف بن تاشفين بطليوس، كان لهذه الحادثة أعظم الأثر في نفوس الناس عامة والشعراءِ خاصة، فقد رثى بعضُ الشعراء حالهم التي آلُوا إليها، ومن هؤلاء أبو بكر ابن القبطرنَةِ الذي رثى المتوكِّلَ وابنَه الفضلَ بقوله فيهما[1]: (الطويل)

تَهاوتْ بِيَ الدُّنيا وهَرَّت كِلابُهَــا　　بأُسْدِي، وجرَّتْ بيضَ أفيالِيَ النَّملُ
فقُلتُ لَها: عِيثِي جِعَارُ[2] وجَرِّرِي　　فَلا عُمَرٌ منِّي قريبٌ ولا الفَضْــــلُ

فهو يرى أن هذه الدنيا قد انقلبت حالها بعد رحيل عمر المتوكل وابنه الفضل، حتى أنَّ الكلابَ قَوِيَتْ على الأُسودِ، والنَّملُ يَجُرُّ الفيلَ، وهذا كناية عن انقلاب الموازين واختلال القيم.

وقد كان بنو القبطرنة وزراءَ عند بني الأفطس كما أشرنا سابقاً وظلُّوا مخلصين لهم بعد زوال ملكِهم؛ لذا فقد رثى أبو محمد بن القبطرنة الفضلَ أبا الفضل ابن المتوكل، مستذكراً حالَهُ عندَما قُتِلَ ولم يُدفَن، فيقول[3]: (الطويل)

أبَا فَضلٍ لم أعجَبْ لمَوتِكَ إنَّه　　هو الدَّهرُ لا يُبقِي عليه و لا الدَّهـــــر

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق1، ص136.

[2] مثلٌ، وجَعَارُ الضبعِ لكثرة جعرها عندما تهجم على الغنم، (الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت518هـ/1124م)، مجمع الأمثال، حققه وفصله محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، لبنان، (د.ت)، ج2، ص14).

[3] ابن خاقان، المصدر السابق، ق1، ص145؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص773.

ولكنْ لأسياف مشَيْن غواضبا   إليك، وكنتُ السَّيف حليتهُ النَّصـــــرُ
ويا عجباً للأَرض حيَّاً ملكتها   ومُتَّ ولم يسترك مـن بعضها ستْـرُ
فَلَيتَك مِن عينِي وقلبِي ضنانةٌ   تَؤُوبُ إلى قبرٍ إذا لم يكُــنْ قَبْــرُ
ليرعاكَ منِّي مُشفقٌ ذو حفيظَةٍ   عليْكَ إذا لَمْ يرعكَ الذِّئبُ و النَّسْــرُ

فموتُ أبي الفضلِ لا يثيرُ استغراب الشاعر، ولكن تلك الجيوش التي سارت لمحاربتِه ثمّ قتله وعدمِ دفنه هو ما يثيرُ استغرابه، فقد ملَكَ الأرضَ حيَّاً، وعندما مات لم تسترْهُ.

وقد زار أبو بكر ابن القبطرنة سعداً بن المتوكِّل، وهو في (سجن المُلَثَّمة)، بعدَ قَتْلِ أبيه وأخويْهِ الفَضْلِ والعبَّاسِ، فقال باكياً ما آلَ إليه أمرُ بني الأفطس المتوكِّلِ وابنيه الفضلِ والعبّاس، وراثياً حال سعدٍ، ومعبِّراً عمَّا يلاقيه من أسىً وحُزنٍ شديدين لهولِ المصيبة[1]: (الكامل)

بأَبِيكَ، قُدِّسَ رُوحُـــهُ وضريحُهُ   يا "سعْدُ" ساعِدْنِي، ولَسْتُ بَخِيْلا
واسفَحْ علَيَّ دُمُوعَ عينِكَ ساعةً   وامنُنْ بِهَا حُمْراً تَفِيضُ هُمُولا
إنْ يُصبحُ الفَضْلُ القَتيلَ فإنَّــنِي   أمسيْتُ مِــنْ كَمَدٍ عليه قَتيْــلا
قَدَّمْتُ نَفْسِي لِلمَنَايـا دُونَكُــمُ   بَدلاً فلَـمْ تُرِدِ المَنُونُ بَدِيْــلا

وكذلك رثى بعضُ شعراء البيوتات بعضَ العلماء والفقهاء. فقد رثى ابن دراج القسطلي فقيهاً، ويرجِّحُ محقِّقُ الدِّيوانِ أنَّ المرثيَّ هو "إسماعيل بن محمد بن فورتش السرقسطي"، فقال[2]: (البسيط)

مَا أَحْسَنَ الصَّبرَ فيمَا يُحسِنُ الجَزَعُ   وأَوْجَدَ اليَأْسَ مَا قَدْ أَعــدَمَ الطَّمَــعُ
وللمنَايَا سِهَامٌ غيرُ طائشَـــةٍ   وذُو النُّهَى بِجَمِيـلِ الصَّبْـرِ مُـدَّرِعُ
كَأنَّ للموتِ فِينَا ثَأرَ مُحتَكِـمِ   فَمَـا بِغَيـرِ الكريـمِ الحُرِّ يقتَـنِـعُ
قَد خَبَّرَتْ نَفْـسُ "إسماعيلَ" في يَدِهِ   أنْ لَيْسَ عَن حُرُمَاتِ المَجْـدِ يرتَـدِعُ
فاحتَسِبُوا آلَ إسمَاعِيلَ مَـا احتَسَبَت   شُـمُّ الرُّبَى من غَمَـامِ الغَيْثِ يَنْقَشِـعُ
واحتَسِبُوا آلَ إسمَاعِيلَ مَا احتَسَبَـتْ   خيلُ الوَغَى مِن لِوَاءِ الجَيْـشِ يَنْصَـرِعُ

---

[1] ابن الأبار، الحلة، ج2، ص104.

[2] ابن دراج، الديوان، ص316.

فهو يبدأُ القصيدةَ بحِكمةٍ تشيرُ إلى جمالِ الصّبرِ وفضلِه، وبُغضِ اليأسِ، كما يؤكِّدُ أنَّ المنايَا كالسِّهامِ التي لا تطيش عن أهدافِها، ثُمَّ يذكُرُ وفاة إسماعيل، ويدعو ذويه إلى احتِسابِ ذلك عند الله، ثُمَّ يعدِّدُ فضائلَ المرثيِّ، ويشير إلى أنَّه توفِي في مصر، ودُفِن هناك، فأصبح قبرُهُ مُضطَجَعُ العُلا والمجدِ، فيقول:

مَاذَا إلى مِصرْ مِنْ برٍّ ومِن كَرَمٍ   بَعَثْتُمْ مَعَ وفدِ اللهِ إذ رَجَعُــــــوا
حَجُّوا بِهِ بِهِلالِ الفِطْرِ وانقَلَبُــوا   فاستَودَعُوهُ ثَرى مِصرْ وما رَبَعُوا
تَزُورُ فِي مِصرَ قَبْرَاً قَلَّ زَائِــرُهُ   لَكِنَّهُ لِلعُــلا والمَجْدِ مُضطَجَـــعُ

وقد رثى أبو عامرٍ ابن شهيدٍ القاضي أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان، المتوفى سنه 413هـ/1022م[1]، وقد عبر عن أثرِ مصيبةِ موتِهِ وفقدِهِ على المجتمع الأندلسي، فهو إمامُهم وحجَّتُهُم، ولكنَّه يرى إنّه رحلَ عنهُمُ ومات فسيبقَى ذكرُهُ باقياً في نفوسِهُمُ. فيقول[2]: (الطويل)

ظَنَنَّا الـــذي نَادى مُحِقّاً بِمـــوتِه   لِعُظْمِ الذي أنْحى من الرُّزءِ كَاذبَاً
وخِلنَـــا الصَّباحَ الطَّلقَ لَيْلاً وإنَّما   حَبطْنَـــا خُدَارِيّاً مِن الحُزنِ كَارِبَا
ثَكلْنَا الدُّنَا لَمَّا استَقَلَّ، وإنَّمـــــا   فقَـــدنَاك يَـــا خيرَ البَرِيَّـــةِ ناعِبَا
عَلَيه حفِيفٌ للملائِـــك أقبَلَـــتْ   تُصافِحُ شيخَـــاً ذاكِراً للهِ تائِبَـــا
تخالُ لَفيفَ النَّاسِ حولَ ضريحِه   خَليطَ قَطَاً وافَى الشَّريعَةَ هارِبَـــا

لقد رأى ابنُ شهيد في المرثيِّ شخصاً تائباً لله متعبِّداً، ولتعبُّدِه شيَّعَتْهُ الملائكةُ قبل النّاس، كما أن الناس الذين تجمَّعوا حول ضريحه كأنَّهم خليطٌ من القَطَا، ثم يعبّر عن تأثير موته على الناس عامة وعلى الشاعر نفسه أيضاً، فيقول:

فَمَنْ ذَا لِفَصلِ القَولِ يَسطَعُ نُورُهُ   إذا نَحنُ نَاوَأْنَا الألَــدَّ المُنَـــاوِبَا؟
ومَنْ ذا رَبِيعُ المسلمينَ يَقُوتُهُمُ   إذا النَّاسُ شامُوهَا بُرُوقَـــاً كَواذِبَا؟

---

[1] هو أحمد بن هرثمة بن ذكوان ، يكنّى: أبا العباس، وبيته بيت قضاء في قرطبة، ولد سنة 342هـ/953م، وتوفي سنة 413هـ/1022م (انظر: الحميدي، الجذوة، 204؛ الضبي، البغية، ص186؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص67- 68؛ وتحدث عن بيتهم د. إحسان عباس في مقالة له في كتاب دراسات في الأدب الأندلسي، احسان عباس وآخرون، ص 35- 82).

[2] ابن شهيد، الديوان، ص89-90 ؛ ابن خاقان، المطمح، ص196- 198.

فَيا لَهْفَ قلبي آهِ ذابتْ حُشَاشَتِي مضى شيخُنَا الدَّفّاعُ عنَّا النَّوائبـا
وماتَ الذي غابَ السُّرُورُ لِموتِه فليس وإنْ طَالَ السُّرى منهُ آيِبا

ويستمر في ذكر مآثر المتوفَّى، ثم يعزّي أخاهُ أبا حاتم، ويرى أنَّ العزاء هو به وبوجُودِه بينَ النَّاس، فيقول:

أباحَاتم[1]صَبْرَ الأديب فإنَّني رأيتُ جميلَ الصَّبْرِ أحلَى عواقبا
وما زلْتَ فينا تُرهِبُ الدَّهرَ سطوةً وصعْباً به نُعي الخُطُوبَ المَصاعبا
سأَستَعتِبُ الأيَّامَ فيكَ لعلَّها لِصحَّةِ ذاكَ الجِّسمِ تَطلُبُ طالبَا

ولابن شهيد قصيدة قالها عندما أتاه نعي الوزير الكاتب أبي جعفر اللَّمائيِّ، وهو في علَّته الأخيرة، وهي تنمُّ عن ألمٍ كبيرٍ، ولوعةٍ عظيمةٍ، وقد ذكر فيها ابن شهيد خصال المرثي الحميدة، وذكر الصَّداقة التي كانت تجمع بينه وبين الفقيد، ويكشف فيها ابن شهيد عن آلامه وشعوره الذَّاتي بِدُنوِّ أجلِه قبل موتِ صديقه المرثي، بل ومحاولته قتلَ نفسه في كُلِّ ليلةٍ لشدَّة ما به من الألمِ المتأتِّي من مرضه، فيقول[2]: (البسيط)

أَمِنْ جَنَابِهُمُ النَّفْحُ الجَنُوبي أسرى فَصاكَ بِهِ فِي الغَورِ غَارِيُّ؟
أهدَى اللَّمائيُّ من أزهارِ فِكرتِهِ نَشْراً فَقَالَ الدُّجَى: مَرَّ اللَّمائيُّ
فَقيلَ:مَاتَ، فَقَالَ اللَّيلُ قارَبَ ذا فانْهلَّ من مُقلَتي نوءٌ سِماكيُّ
لا عِشتُ إنْ مُتَّ لي يا واحِدي أبداً وموتُنَا واحِدٌ لا شكَّ مَرئيُّ
إنَّ الكَرِيمَ إذا مَا مَاتَ صاحِبُهُ أودَى بِهِ الوَجدُ والثُّكلُ الطَّبيعيُّ
إنْ مُتُّ قبلَكَ لا تعْجَبْ فَذُو أَملٍ قَدْ حُمَّ من دونِه يَوماً حِمَامِي
أو مُتَّ قبلِي فمَا مَنْعَاكَ لِي عَجَبٌ إنَّ الكَريمَ إلى الأصْحَابِ مَنْعِيُّ
إنِّي إلى اللهِ مِن عُقبَى بُلِيتُ بِهَا جَرَى بِهَا الحُكْمُ والأَمرُ الإلهيُّ

---

[1] هو محمد بن عبدالله بن ذكوان، أخو القاضي أبي العباس المتوفى، توفي سنة 414هـ/ 1023م، وقد أخطأ جامعُ الديوان بأن جعل الرثاء له، مع أنّ الشاعر يرثي أخاه أبا العباس، (ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص738).

[2] ابن شهيد، الديوان، ص172- 173.

ولابن برد الأصغر قصيدة في رثاء الشاعر الأديب أبي عامر بن شهيد، فيقول[1]: (الوافر)

بفيك التُّربُ من نـاعٍ نَعانـي ... نَعـى غَيْـري إلَيَّ وما عدانـي
وكَيْـفَ ولَم يسِلْ طرفي بدمْـعٍ ... علَيْـه، ولَمْ يجُـنَّ لَـهُ جنَانـي
لأيَّة خُصلَـةٍ تَبكيـكَ عينـي ... ومَـا لـيَ بالحساب لَها يَـدان
أَللْهمَـمِ المنُوطَـةِ بالثُّـريَّا ... أم الشِّيَـمِ المُهذَّبَـةِ الحِسَـان؟
أم الكَـرَمِ الـذي ما زالَ يَجـري ... مَـعَ الأنْـواءِ في طَلَقِ الرِّهانِ
أمِ القَلَمِ الذي قَـد كَـانَ يَجنـي ... مِـنَ القِرطَاسِ نَوَّارَ البيَـانِ
أمِ الرأيِ الذي مـا زالَ يُغنـي ... عَـنْ السَّيفِ المُهنَّـدِ والسِّنَانِ
شَهِدْتُ لقَد أُصيبَ بَنُـو شُهَيـدٍ ... بقَاطِعَـةِ السَّوَاعِـدِ والبَنَـانِ
بِهِ دَرَجُوا مِـنَ الدُّنيا فبانُـوا ... وكُـلُّ مَا خَلا الرَّحمَنَ فَانـي

فهو يستهلُّ قصيدته بصيحة فزعٍ وتعجُّبٍ أمام موتِ ابن شهيدٍ، ويعبِّر عن حيرته بأيِّ خِصلَةٍ يذكرُه فيبكيه عليها؛ وذلك لكثرة الخصال الحميدة التي كان يتحلَّى بها ابن شهيد، وهي هنا خصال الكرم والعلم والرأي والعقل والحُكمِ الفصل، ويشير إلى أنَّ بني شهيد أصيبوا بقاطِعَةٍ أنهتْ الأدباءَ والشعراءَ من بيتِهم بموته، ثم ينهي رثاءه معزيّاً نفسه بالقول إنّ كلَّ شيءٍ سيفنَى ما عدا وجه الله تعالى.

فمن النصوص السابقة نلحظ أن معظم قصائد رثاء العامة جاءت مبنيَّةً على تعظيمِ الخطبِ، وتعدادِ خصالِ المرثيِّ المناسبة لمنزلته في الحياة والدِّين، وهي خصال المروءة والتقوى التي يتحلَّى بها الأمراء والفقهاء والقضاة وغيرهم.

الرثاء الخاص:

ويقصد بهذا النوع من الرثاء، أن يرثي الشاعر شخصاً تربطُهُ به علاقةُ قربى أو صلةُ رحمٍ، كرثاء الأبناء والبنات والزوجات، ورثاء الذَّات عندما يحسُّ الشاعر بدُنوِّ أجلِهِ، أو تقلُّبِ أحواله.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص335– 336.

فمن شعر ذوي البيوتات في رثاء الأبناء، قول ابن شهيد في رثاء ابنة له وهي تتضمَّن بعض معاني الصَّبر[1]: (الرمل)

أيُّهــا المُعْتَدُّ في أهــلِ النُّهى   لا تَذُبْ إثْــر فَقيـــد ولَهـــا

وإذا الأُسْـدُ حمــَت أغيالَهــا   لم يضُرَّ الخيْس صرعاتُ المها

وغَــرِيبٌ يا ابــنَ أقمارِ العُلا   أنْ يُراعَ البدرُ من فَقْــدِ السُّها

أما المعتمد بن عباد فقد اشتهر بكثرة مراثيه ولا سيَّما في رثاء أبنائه، فيقول راثياً لابنيه الفتح والراضي[2]: (البسيط)

يا غَيمُ عيني أقوى منكَ تَهتَانَــا   أبكي لِحُزني وما حُمِّلْــتَ أحزانَــا

نارٌ وماءٌ صميمُ القلبِ أصلُهُمَــا   متَى حوى القَلْــبُ نيرانَاً وطُوفَانَا

ضدَّانِ، أَلَّفَ صرْفُ الدَّهرِ بينَهُمَا   لَقَـــد تَلَوَّنَ فِــيَّ الــدَّهرُ ألوانَــا

بكَيْتُ فَتْحاً، فإذْ ما رُمتُ سلْوتَهُ   ثَــوى يزيدُ، فــزادَ القلــبُ نيرانا

لَقَد هوى بِكُما نَجمانِ ما رَمَيــا   إلاَّ مِـــنَ العُلْوِ بالألحاظ كيوانَــا

مُخَفِّفٌ عن فُــؤادي أنَّ ثَكلَكُمَــا   مُثَقِّلٌ لِـــي يَــومَ الحشْــرِ ميزانَا

منِّي السَّلامُ، ومن أُمٍّ مُفَجَّعَــــةٍ   عليكُمَــا أبَــداً، مثنَـــى ووحـــدانَا

أبكِي وتَبكي، ونُبكِي غيرنَا أسَفَاً   لَــدَى التَّذكُّرِ، نِسْــوانَاً وولْــدانَا

فهو يشير إلى أنّه يبكي دموعاً تفوقُ مطر الغيمِ، ويشير إلى أنَّ الفتحَ مات أولاً، وما كاد ينسى فراقَه حتى مات ابنُه يزيدُ، ولكن ما يخفِّفُ على المعتمد أنَّه احتسبهُما عند الله، لعلَّ ميزان حسناته يزيد بهما، كما يُهديهُما السّلامَ منه ومن أمِّهُمَا التي فُجعت بهما، فإنْ بكى عليهما وبكت هي، بكى معهما الناسُ نسواناً وولداناً أسفاً على موتهما، إنَّه بهذا يُخرج الحزنَ من دائرة الأسرة الخاصة إلى دائرة الناس عامة. وله نصٌ آخرٌ أيضاً في رثاء ابنه سعد[3]، يقول[4]: (الطويل)

إذا كانَ قدْ أودَى الزَّمانُ بمثلِهِ   ولَم يَبْقَ في عَوْدٍ لَهُ طَمَعٌ بَعْــدُ

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص170؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص263.

[2] المعتمد، الديوان، ص69- 70؛ وله نص في: ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص70.

[3] لم تشر إليه المصادر الأندلسية، ولعله مات صغيراً.

[4] المعتمد، المصدر السابق، ص 68.

فَلا بُترتْ بتْرٌ، ولا قُنِّيتْ قنـــا ولا زأرتْ أُسْدٌ، ولا صهلَتْ جُرْدُ
ولا زالَ ملذُوعاً على سيِّدٍ حشاً ولا انْفكَّ ملطوماً على مَلكٍ خَـدُّ

فقد جاءت هذه النصوص بعد الموت مباشرة أو بفترة زمنية قريبة، لكن قد يمرُّ الشخصُ بموقف يذكِّرُهُ بفقيدِه ممَّا يجعله يندُبُه ويُحيي الجُرح فيه من جديد، ومن ذلك قول المعتمد، عندما رأى قَمَرِيَّةً تنوح على سكنِها، وأمامَها وكرٌ فيه طائران يردِّدان من النَّغمِ الجميل، فتذكَّر ابنيه المأمونَ والراضيَ وقال حزيناً[1]: (الطويل)

بكَتْ أنْ رأَت إلفَينِ ضَمَّهُمَا وكْـرُ مساءً، وقد أفنَـى علـى إلفِها الدَّهْـرُ
بكَت ولَم تُرِق دَمعاً، وأسبلَتْ عبْرَةً يقصِّرُ عنهَـا القَطـرُ مهما همَى القَطْرُ
ونَاحَتْ وبَاحَتْ، واستَراحَتْ بِسرِّها ومَا نَطَقَت حَرفاً، يبُـوحُ بِهِ سِـــرُّ
فمَا لِيَ لا أبكِي! أمِ القَلبُ صخـرَةٌ وكَم صخرةٍ في الأرضِ يجرِي بها نَهْرُ
بكَتْ واحداً لم يُشجِهَا غيـرُ فقـدِه وأبكِـي لألافٍ، عَديدُهُـمُ كُثْـــرُ
بَنِيَّ، صغيرٌ، أو خليـلٌ موافـــقٌ يمـزِّقُ ذا قَفْرٌ، ويُغـرِقُ ذا بَحْـــرُ
ونَجمَانِ زيْنٌ للزَّمانِ، احتَواهُمَـــا بِقُرطُبَـةَ النَّكـداءِ ، أو رُنْـدَةَ القَبْـرُ
غَدرتُ إذاً إنْ ضَنَّ جَفنِيَ بِقطـرِهِ وإنْ لَؤُمَـتْ نفسِي، فصَاحَبَهَا الصَّبْـرُ
فقُلْ للنُّجُومِ الزُّهرِ تبكِيهِمَا معِـــيَ لِمثلِهِمَا فلتَحـزَنِ الأنجُـــمُ الزُّهـــرُ

ففي النص السابق نلحظ أنّ الشاعر يقارن بين حالِه وحالِ هذه القمريّة، فكلاهُما حزينٌ على فقدِ ابنٍ له، ويشير إلى مكاني موت أبنيه، وهو أنَّ الراضي قتل ودفن في رندة، وإن ذكرت المصادر -كما مر في ترجمته- أنَّه دفِنَ في دانِيَةَ وقَتَلَهُ "قَرُورُ اللِّمتُوني"، وابنُه الفتح الذي قتل أيضاً ودفن في قرطبة[2].

وعندما توفيت إحدى كرائمُ المعتصم بن صمادح، أمرَ بموارانِها، وركبَ فرسه وقال[3]: (البسيط)

لَمَّا غَدَا القلبُ مَفجُوعَاً بِأسودَهَ وفُضَّ كُلُّ ختَامٍ من عزائمـــهِ
رَكِبْتُ ظهرَ جَوادِي كَي أُسلِّيَـــهُ وقُلتُ للسَّيفِ كُنْ لِي مِن تَمَائمِهِ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص68- 69.

[2] ابن الابار، الحلة، ج2، ص62.

[3] ابن الابار، المصدر السابق ج2، ص84.

وقد رثى بعض الشعراء زوجاتهم، ومنهم أبو بكر ابن القبطرنة الذي رثى زوجتَه ابنة الحضرميِّ، التي توفيت بعد زواجه منها بقليل وقبل أن يهنأ بها، فنظم قصيدة يدعو فيها إلى عدم التكبّر والخيلاء في السير على الأرض، ويقول راثياً[1]: (المتقارب)

أَدمعاً جمُوحــاً وصبْراً حرُونـــا   لقَد جمعَ الحُزنُ فيك الفُنُونَا
أَيا مَاشِيــاً فَوقَهــا لاهيــــــا   تَميسُ اختيالا وتنقَدُّ لينَـــا
تُرفِّع رِجْلَك عنهــــــا رُوَيْـداً   ستَجعلُ خَدَّكَ فِيها المصُونَــا
مُصابٌ حكَى في ابنَةِ الحَضرَميِّ   مُصَابَ صُبَيرَةَ أدمَى الجُفُونَا
ولَفَّ الشَّبَـــابَ بأوراقِــــــه   وأودعَهُ التُّرب غَضَّاً مصُونَا
فأنْسَى بِهَا نَضرَةً واقتِبَــــالاً   وعَيْشَاً نَضِيرَةِ والسَّاطِرُونَــا

فنلحظُ في النصوص السابقة أنَّ الشاعرَ كان أكثرَ صدقاً في عاطفته تجاه الفقيد، ولكنْ تزداد عاطفتُه صدقاً، ويصبحُ شعره أكثرَ حزناً وتأثيراً وإبداعاً عندما يكون المرثيُّ هو الشاعر نفسه، وهو نوع من الرثاء الخاص، ويمكن أن نسميه رثاء النفس أو رثاء الذات.

لقد كان للعلَّة التي أصابت ابنَ شهيدٍ في أواخر حياته أثرٌ كبيرٌ في يأسه من الحياة، وإكثاره من الشَّكوى حتى إنّه همَّ بالتخلُّص من حياته، لولا أنَّه آثر الرضا بقضاء الله وقدره، فقال[2]: (الطويل)

تَأمَّلْتُ مَا أفنَيْتُ مِــن طُولِ مُدَّتِــي   فَلَـمْ أَرَهُ إلاَّ كَلَمْحَـــةِ نَاظِـرِ
وَحَصَّلْتُ ما أَدرَكْتُ مِــن طُولِ لذَّتِي   فلَـمْ ألفه إلاَّ كصَفقَةِ خَاسِــرِ
ومَا أنا إلاَّ رَهْنُ ما قَدَّمَــتْ يَـــدِي   إذا غادَرُونِي بينَ أهــلِ المقَابِرِ
سَقَى اللهُ فتيَانَاً كَــأنَّ وُجُوهَهُــــمُ   وُجُوهَ مَصَابِيحِ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ
يقولُونَ:قَد أَوْدَى أبو عامرِ العُـــلا   أَقلُّوا فَقَدْ مَاتَ آبَــاءُ عامِــرِ
هُوَ المَوتُ لَم يُعرَفْ بأَجرَاسِ خَاطِبٍ   بَلِيغٍ ولَم يُعطَفْ بأنْفَاسِ شاعرِ

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق1، ص136-137.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص113؛ انظر: ابن سعيد، المغرب، ج1، ص84.

وله أيضاً في عزمه على الانتحار عندما اشتدَّ به المرضُ، وأقعدهُ عن الحركة وهبطَت معنويَّاتُه الرُّوحيَّة قوله[1]: (الطويل)

أَنُوحُ علَى نَفسِي وأندُبُ نُبلَهــا   إذا أنَا فِي الضَّرَّاءِ أزمعْتُ قتلَها

رَضِيتُ قضاءَ اللهِ في كُــلِّ حالةٍ   عليَّ وأحكاماً تَيقَّنْـتُ عدلَهَــا

ولقد نظم ابن شهيد عدداً من القصائد التي يرثي فيها حاله وهو في علَّتِه، ويتحسَّرُ على ما أفنى من عمره في الملذَّات والشهوات، ومشيراً إلى أنَّه سوف يُحاسبُ على كُلِّ ذلك، ويفكِّر في ما سوف يقوله أحبابُه بعد أن يُواروه الثَّرى، ويتحدّث عن الموت الذي لا يُصرف عنه أحدٌ، ويشير إلى ما في قلبه وهو يعاني سكرات الموت، وبلغت روحه الحنجرة، من هوىً لأحبابه لا ينتهي، ويعبِّرُ عن زهدِه وإيمانِه بالقضاءِ والقدر، ثم ينعَى نفسَه، فيقول[2]: (الطويل)

فَمَنْ مُبلِغُ الفتيَانَ أنَّ أخاهُـــمُ   أخُو فَتكَةٍ شَنْعَاءَ مَا كانَ شَكلُها؟

علَيكُمُ سَلامٌ مِن فتىً عضَّه الرَّدَى   ولم يَنسَ عَيناً أَثبَتَتَ فيه نُبلَهــا

يُبِينُ وكَفُّ المَوتِ يخلَــعُ نَفسَــه   وداخِلَها حُبٌّ يهُـــونُ ثُكلُهَـــا

كما أنه بعد أن أيقن بِدُنوِّ أجلِهِ كتب وصيَّتين بينهما وصيةٌ إلى كُلِّ من يحبُّه ويعزُّهُ، فقد أوصى أن يدفن إلى جانب صديقه أبي الوليد الزجَّالي، وأنْ يُكتب على قبره على صفحة لوحة رخامية نثرٌ وشعرٌ، يعبِّرُ فيه عن تنسُّكٍ وزهدٍ، وتوبةٍ إلى الله وإنابة وطلب مغفرتِهِ، فيقول[3]: (مخلّع البسيط)

يَا صاحِبِي قُمْ فَقَدْ أطَلْنَا   أنَحنُ طُولَ المَــدَى هُجُودُ؟

فَقالَ لِيَ: لن نقومَ منْهَا   مَـا دامَ مِن فَوقِنَا الصَّعيدُ

تَذْكُرُ كَمْ لَيلَــةٍ لَهَونَــا   فِي ظِلِّهــا والزَّمانُ عيــدُ؟

وكَم سُرُورٍ همَى علَينَا   سَحَابَةٌ ثَــرَّةٌ تَجُـــودُ؟

كُلٌّ كأنْ لم يكُنْ تَقضَّى   وشُؤمُهُ حَاضِــرٌ عتيــدُ

حَصَّلَهُ كاتِــبٌ حفِيــظٌ   وضَمَّهُ صادِقٌ شَهيـــدُ

---

(1) ابن شهيد، الديوان، ص145.

(2) ابن شهيد، المصدر السابق، ص98- 99.

(3) ابن شهيد، المصدر السابق، ص98.

يا ويلَنَا إنْ تنكَّبتنَا رحمةُ منْ بطشُهُ شديدْ
يا ربِّ عفواً فأنْتَ مولىً قَصَّر في أمْرِك العبيدُ

ويعدُّ المعتمد بن عباد أسبقُ شعراء البيوتات الحاكمة إلى رثاء نفسه، إذ كانت تتجدّدُ حسرته، وتحدق به غمَّته كلَّما مرّت الأيام، فكان لا يجدُ متنفساً له إلا الشِّعر، يبثُ فيه أحزانه، ويشكو زمانه، ويعقدُ مقارنة بين حاليه: حاله قبل الأَسرِ، وحاله في الأسر والسِّجن، ومن ذلك قوله[1]: (الخفيف)

كنتُ حِلفَ النَّدى وربَّ السَّماح وحبيبَ النُفُوس والأرواح
إذ يَمِينِي للبَذْلِ يومِ العطَايَا ولقبضِ الأرواح يوم الكفاح
وشِمَالِي لِقَبْضِ كُلِّ عنانٍ يُقحمُ الخيلَ في مجال الرِّماح
وأنا اليوم رهنُ أسرٍ وفقرٍ مستباح الحِمى مَهيضُ الجناح

ويلاحظ أنَّ المعتمد بن عباد قد أفاض بالتحسُّرِ على الماضي وبكائه، وتمنّي الأمنيات البعيدة التحقيق، وكان كثيراً ما يلجأ إلى أسلوب المقارنة بين ماضيه السَّارِّ، وحاضره الحزين، وهو يكثر في ذلك من الفخر بنفسه، وتعداد محاسنه التي كان يُمدَحُ بها من أصالةٍ وشجاعةٍ وجرأةٍ وإقدامٍ وجودٍ وكرمٍ وغيرها، وهو في ذلك يلجأ إلى نوعٍ من التأسِّي وتعزية الذّات، متخذاً من ذلك محاولة لتذكير الآخرين بشخصه حتى يظلَّ محطَّ أنظارهم، وللكشف عن أنفتِهِ وعِزّته، التي ظلَّ يتمتَّع بها حتى موته، ومن ذلك قوله[2]: (الطويل)

لك الحمدُ من بعدِ السُيُفِ كبُولُ بساقيَّ منها في السُّجُونِ حُجُولُ
وكنَّا إذا حانت لِنَحْرٍ فريضَةٌ ونادت بأوقات الصلاة طُبُولُ
شهِدنا فكبَّرنا، فظلَّت سيوفُنا تُصلِّي بهاماتِ العدا فتُطيلُ
سُجُودُ على إثرِ الرُّكوعِ مُتابِعٌ هناك بأرواحِ الكُماةِ تسيلُ

ولقد ظلَّ المعتمد بن عباد على هذه الحال من التحسُّر على ما مضى، والنحيبِ على ما فات، ورثاء الذَّات والتعبير عن معاناته، حتى أحسّ بدُنوِّ أجله، وقُربِ نهايته، فنعى نفسَه بأبيات حزينة تعبِّرُ عن مدى ألَمِه ويأسِه، وشعوره بالظلم

---

[1] المعتمد، الديوان، ص94.

[2] المعتمد، المصدر السابق، ص111.

والضياع، والهوان والذُلِّ، ولعلّه أراد أن ينتصفَ بهذه الصّرخة الشعريّة لنفسه من غدر الزمان وتبدُّلِ الأحوال، ووصّى بأن تثبَّت على قبره، وفيها يقول[1]: (البسيط)

قَبْرَ الغَريبِ سقَاكَ الرّائـحُ الغَادي حقّاً ظَفـرْتَ بأشْـلاءِ ابـنِ عبَّادِ
بالطَّاعنِ الضّاربِ الرّامي إذا اقْتَتَلُوا بالخِصْبِ إنْ أجدبُوا بالرِّيِّ للصَّادي
نَعَـمْ هُو الحـقُّ وافَـانـي به قدرٌ من السَّمـاءِ ووافَـانـي لميعَـادي
ولَـمْ أكُـنْ قَبلَ ذاكَ النَّعشِ أعلمُـهُ أنَّ الجبـالَ تَهـادى فَـوقَ أطوَادِ
فَـلا تَـزلْ صلَـوَاتُ اللهِ دائمـةً علَـى دفينِـكَ لا تُحصَى بتعدَادِ

وقد رثى أبو الفضل ابن شرف نفسه، ويرى أنَّه خرج من هذه الدُنيا لا يملكُ شيئاً، فلا يجد إلا البكاء والجزع ليس من الموت بل من قلَّة الباكين عليه، ويعبِّر عن سروره إن عاش في خَلَدِ النَّاس بالرُغم من موته، كما أنَّه يسوؤه أن يكون حيّاً لكن ذكرَه ميّتٌ، فيقول[2]: (الطويل)

لَعمْـرُكَ ما حَصلْتُ على خَطيرٍ من الدُنْيا ولا أدْركْتُ شَيّاَ
وهـا أنَا خارجٌ منها سَليبـاً أُقَلِّبُ نادما كلتَـا يَديَّـا
وأبكِـي ثُمَّ أعلَـمُ أنَّ مبكَـاي لا يُجدي فأمسَحُ مُقلَتَيَّا
ولَـم أجْزَع لِهَولِ الموتِ لَكنْ بكَيـتُ لقلَّةِ الباكي علَيَّـا
وأنَّ الدَّهـرَ لَم يعلَـمْ مكَاني ولا عَرفَت بنُوهُ مُـا لَديَّا
زمانٌ سـوفَ أنشُرُ فيه نَشْراً إذا أنَا بالحِمَامِ طُوِيتُ طَيَّا
أُسَرُّ بأنَّني سأعِـيشُ ميْتَـاً بِهِ، ويَسُوءَني أنْ متُّ حَيَّا

ولا شكَّ أنَّ أبا الفضل جعفر بن شرف يشكو من حالة الاغتراب التي كان يعاني منها في حياته، وذلك لانقلاب الموازين الاجتماعية، وانهيار القيم الأخلاقية، حيث لم يعُدْ العالِمُ يحظَى بمنزلةٍ رفيعةٍ في المجتمع تتناسب وعِلمَهُ، وهو يقيسُ هنا على ما لقيَهُ هو نفسُهُ في مجتمعهِ.

---

[1] المعتمد، الديوان، ص96؛ انظر: ابن خاقان، القلائد، ق1، ص108-109؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص57؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص164.

[2] المقري، النفح، ج3، ص229.

3.3 الهجاء:

لمَّا كان الشاعر ينطلق في المدح من منطلقٍ يذكر فيه مناقب الممدوح ومآثره ومحاسنَ أوصافه وأخلاقه، فإنه في الهجاء يسلبُه هذه الأوصاف.

وقد نظم في هذا الموضوع عدد كبير من الشعراء الأندلسيين، غير أنّ أحداً منهم لم يختص به دون غيره، فنجدُ عند بعضهم قصيدةً أو بعض القصائد في الهجاء، لكنَّها لا تغلب على شعره.

وقد قسَّمَ ابن بسام الهجاء كما ورد عن العرب في أشعارهم إلى قسمين: الأول؛ هجاءُ الأشراف، ويكون توبيخاً وتعييراً ولا يصل إلى سبابٍ مقذعٍ، والثاني؛ السِّبابُ الذي أحدثَهُ جريرٌ وطبقتُهُ[1].

فمن خلال تقسيم ابن بسام السابق نلحظ أنَّ هجاء الأشراف لا يصلُ إلى السباب المقذعِ، والتفحُّشِ بالألفاظ، ولكن يكتفي الشاعر فيه بسلبه بعضَ مكارمِ الأخلاقِ لديه أو مناقبه، ولذلك كان أشرافُ القوم يسعَون عادةً إلى كسبِ ودِّ الشعراء، ليسلَموا من ألسنتهم السَّليطة، بينما يلجأ الشعراء إلى هجاءِ العامَّةِ هجاء مقذعاً، لأنَّه لن يؤثِّر على شهرَتِهم وصيتِهم في أوساط الأشراف وعليَة القوم.

وعلى الرغم من حديث ابن بسام عن الهجاء إلا أنّه أدرك سوء التصريح وذكرِ عيوبِ الآخرين، لذلك فإنّه عمد إلى الابتعادِ عن إيرادِ نصوصٍ في هذا الموضوع، في ثنايا كتابه، حتى لا تَشينُه، وأشار إلى ذلك في حديثه حولَ نصٍ لأبي عامر ابن شهيد هجا فيه رجلاً، فيقول ابن بسام: "وليت شعري ما التَّصريحُ عند أبي عامر، إذا سمّى هذا تعريضاً؟ ولولا أنّ الحديث شجونٌ، والتَّتَابُع فيه جُنُونٌ، والكَلامُ إذا لانَ قيادُه، سَهُلَ اطِّراده...، لما استجَزْتُ أن أُشينَ كتابي بهذا الكلام البارِدِ مَعرِضُهُ البعيد من السَّدَادِ غَرَضُهُ، وقد يطغَى القَلَمُ، وتجمَحُ الكَلِمُ"[2].

فهو يستغرب هذا التصريح عند أبي عامر ابن شهيد، ويتعجَّب من تسمية أبي عامر له بالتَّعريضِ، فلو كان هذا تعريضاً- تلميحاً- فما التصريحُ إذن؟! وجاء هذا النصُّ ضمن نصوص أوردها من رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص544-547.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص307.

ولكن هذا الموضوع، لم يكن له حضورٌ كبيرٌ في الأندلس كالذي كان له في المشرق، بل انشغل شعراؤها في موضوعاتٍ أخرى، ولو وقفنا على النصوص الشعريّةَ الأندلسيَّةَ التي وصلَت إلينا لوجدْنَا أنّ شعر الهجاء قليلٌ، ولعل ذلك يعود إلى أنهم كانوا يبتعدون عن النّظمِ في هذا الموضوع، أو لأنّ مصنِّفي الكتب الأندلسية عمدوا إلى الابتعاد عن إيراد أمثلة شعريّةٍ في هذا الموضوع، وقد صرّح بعضُهم بذلك، على نحو ما فعل ابنُ بسام في نصِّه السابق، إضافة إلى ضياعِ كثيرٍ من هذه الأشعار مع ما ضاع من التراث الأندلسي[1].

ومن شعراء البيوتات من نظم شعراً في الهجاء، ولكن لم يصل إلى مستوىً يجعلُ منه شاعراً هجَّاءً، فقد هجا أبو عامر ابن شهيد الفقهاءَ في معرِضِ مدحِه لهشامِ المعتدِّ، في قصيدته التي يقول في مطلعها[2]: (الكامل)

أَحْلَلتَنِي بِمَحَلّةِ الجَوزاءِ وَرَوَيْتُ عِنْدَكَ مِن دَمِ الأعدَاءِ

ثم ينتقل إلى الهجاء قائلاً:

لا يَرحَمِ الرَّحمنُ مَصرعَ مارِقٍ عبثَتْ بِطَاعتِه يَـدُ الأَهْـواءِ
أَلحِقْ بِهِ إخوَانَه فَحَيَاتُهُـــمُ نَكَدٌ وقد أودَى أخُو السُّفَهَاءِ
سَاعِدْ بِذَاكَ وَدَعْ مَقَالَ مَعاشِـرٍ بَخِلُوا فَنَالُوا خُطَّةَ البُخَــلاءِ
مَن لم يُفِدْكَ سِوَى الزَّمانِ فَخَلِّه لِلشَّمْسِ يرقُبُها مَعَ الحِربَــاءِ
إنَّ الرِّجَالَ إذا تَأخَّـرَ نَفعُهُـــمُ فِي كُلِّ مَعنَىً شُبِّهُوا بِنِسَـاءِ

فهو يتحدّث عن هذا المهجو، بأنّه لا يدرك فائدة الاقترابِ من الحكّام، بل يجب عدم الابتعاد عنهم وجفائهم، كما أن الرجل إذا لم تكن فيه فائدة تُرجى فهو كالنساء، ولعلّه يقصِد المهجوَّ، وهذا النص لم يأتِ فيه سِبَابٌ، بل هجاءٌ بالكلامِ المؤلِمِ، فمثلاً يَصِفُ رجلاً فقيهاً بالنساءِ وهذا الوصف بطبيعة الحال انتقاصٌ من قدره.

ولابن شهيد نص آخر في هجاء أبي جعفر ابن عباس الذي كان وزيراً وكاتباً لزهيرِ العامريِّ، خليفةِ خيرانِ العامريِّ في حُكمِ المريَّة سنة 425هـ/1033م، وقد عرف هذا الكاتب بمهارته في كتابة الرسائل، وغناه الفاحش ونُبله وغروره، وحدث

---

[1] محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي، ص169.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص81– 82.

أنْ اجتمع هذا الوزير الكاتب بابن شهيد وبعض رفاقه، وطلب منهم أن يُجيزوا بيتا من الشعر، فأجازه ابن شهيد كما أجازه رفاقه ولكنّه لم يرض بما جاءوا به على البديهة مما أثار غضبهم، فهجاه بعضهم فأفحش في هجائه، كما هجاه ابن شهيد، فقال[1]: (المتقارب)

أَبُو جَعفَرٍ رَجُـــلٌ كَاتِـــــبٌ مَلِيْـحُ شَبَا الخَطِّ حُلْوُ الخَطَابَه
تَمَلأَّ شَحْمَاً ولَحْمَـــاً ومَـــا يليـــقُ تَمَلُّـــؤُهُ بالكتَـــابَه
وذُو عَرَقٍ لَيسَ مَـــاءَ الحَيَـــاءِ ولكَنَّـــهُ رَشْحُ فَضـــلِ الجَنَابَه
جَرَى المَاءُ فِي سُفْلِه جَرْيَ لِينٍ فَأَحْدَثَ فِي العُلْوِ مِنْـــهُ صَلابَه

فهو يسخر من الوزير، فيهجوه معنويّاً وماديّاً، وكذلك يهجو ابن شهيد كاتباً غيرَ معروفٍ هجاءً معنويًّاً يجعلُ هذا الكاتبَ يعاني من ذهاب عقله، كما يهجوه هجاءً حسِّيًّاً يقفُ فيه على رائحته السيِّئة التي تنبعثُ منه عند مخاطبته الآخرين، فيقول[2]: (البسيط)

وَيْحَ الكتَابَةِ مِن شَيْخٍ هَبَنَّقَةٍ يَلقَى العُيُونَ بِرأسٍ مُخَّهُ رارُ
وَمُنْتِنَ الرِّيحِ إنْ نَاجَيْتَهُ أبَداً كأنَّمَا مَاتَ فِي خَيْشُومِهِ فَارُ

ولكنّ الهجاء السابق لهؤلاء الأشراف في المجتمع لم يُنقِصْ من قدرهم ومكانتهم، وإنّما جاءَ سخريةً وتهكُّماً. وقد جاء هجاءُ أبي مروان عبد الملك الطبني، لرجلٍ يُدعى(الحَذَيْلَمي)، في الانتقاصٌ من قدرِه والطعنِ في شرفِه، وكان هذا الهجاءُ نتيجة اعتداءِ أبي عامرٍ الحَذَيْلَمي على أبي مروان الطبني في مجلسه وضربِهِ ضرْباً موجعاً، فيقول الطُبُنِّي[3]: (المنسرح)

شَكَرْتُ للعَامِرِيِّ مَا صَنَعَا ولَـــمْ أَقُـــل لِلحَـــذَيْلَمِـــي لَعَـــا
لَيثُ عَرِينٍ عَدَا لِعِزَّتِـــــهِ مُفْتَرِسَاً فِـــي وِجَارِهِ ضَبُعَـــــا
وَدَدْتُ لَو كُنْتُ شَاهِدَاً لَهُمَا حتَّى تَرَى العَيْنُ ذُلَّ مَن خَضَعَا
إنْ طَالَ مِنْهُ سُجُودُهُ فَلَقَد طَالَ لِغَيرِ السُّجُودِ مَـــا رَكَعَا

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص95؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص307.

[2] ابن شهيد، المصدر السابق، ص106؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص83.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص543.

فقد جعله يسجدُ بسبب الضَّربِ، ولكنّه إنْ سجد هذه المرَّة فقد ركَع قبل ذلك كثيراً، ولعلّ فيها كنايةً عن كثرةِ ضربه من قبل الآخرين.

والهجاءُ السابق جاء في باب السخرية والتهكُّم، وقد عبّر أبو عبد الله ابن شرف القيروانيِّ بهذا الأسلوب في هجائه لقاضِي المُعزِّ بن باديس، الذي كان يلقب "بفَسوةِ الكَلْبِ"، فيقول[1]: (المنسرح)

إنَّا إلى الله راجعُونَ لَقَـــدْ هانَ علَى الله أهلُ ذا البلَـدِ
وفَسوَةُ الكَلْبِ صَـارَ قَاضِينَا فكيفَ لو كانَ ضَرْطَةَ الأَسدِ

فهذا هجاءٌ يتضمَّن نقداً اجتماعياً وسياسياً، فهو ينتقد تعيين هذا القاضي في منصبٍ ليس أهلاً لإشغاله، وفي هذا الموضوع ينظم ابن شرف نصاً آخر، يهجو فيه بعض ولاةِ الأمر في زمانه، ولا سيَّما أولئك الأعراب الذين دخلوا القيروان، فقد تعاظموا على الرغم من حقارتِهم ودناءتِهم، فيقول[2]: (الطويل)

يقُولُون:سَادَ الأرذَلُونَ بِأرضِنَـا وصارَ لَهُم مَالٌ وخَيلٌ سَـوابِقُ
فَقُلتُ لَهُم: ولَّى الزَّمَانُ ولَم تَـزِلْ تُفرْزِنُ فِي أُخرَى البيُـوتِ البَيَـادقُ

وقد هجا بعضَ أعدائه، وجعلَه كالجِّيفَةِ، لا يقترب إليها الناسُ إلاّ من كانَ مُضطَّراً، وغيرَ باغٍ ولا عادٍ؛ فلا يكون اللُّجُوءَ إليه إلاّ إذا عُدِمَ الآخَرُونَ. فيقول[3]: (الخفيف)

مَا فُلانٌ إلا كَجِيفَـةِ كَلْـبٍ والضَّـرُورَاتُ أَلجأَتْنَا إِلَيْهِ
فَمَنْ اضطُرَّ غيرَ بَاغٍ ولا عا دٍ فَلا إثْمَ فِي اللُّجُوءِ عَلَيهِ

فابن شرف هنا يتأثَّر بالنَّصِ القرآني، الذي حرّم المَيتَةَ (الجيفةَ)، ولم يُجزْ أكلَها إلاَّ إذا اضطَرَّ الشخص، ولم يجدِ بديلاً عنها. وقال أيضاً ساخراً من أحد المنازل التي كانت تُقام فيها مجالس لهوهم، فيقول[4]: (الكامل)

---

(1) ابن شرف، الديوان، ص49-50.

(2) ابن شرف، المصدر السابق، ص79-80؛ انظر: ابن سعيد، رايات المبرزين، ص261؛ (تَفَرْزَنَ: من لعب الشطرنج، البيدق: الدليل في السفر، الماشي راجلاً).

(3) ابن شرف، المصدر السابق، ص107.

(4) ابن شرف، المصدر السابق، ص44؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص257؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ص262؛ المقري، النفح، ج3، ص329.

لَك منزِلٌ كمُلَتْ بشارتُهُ لَنَـــا   للّهوِ لكنْ تحتَ ذاك حَـــــــديثُ
غَنَّى الذُّبابُ وظَلَّ يزمُرُ حولَهُ   فيه البعُوضُ ويرقُصُ البرْغُوثُ

وقد هجا المتوكّل بن الأفطس أولئك الذين ذكرُوهُ بسوءٍ في مجلسِ أخيه يحيى في قصيدة، ضمَّنَها هجاءً لهم، فيقول[1]: (الكامل)

يُسيؤُونَ فِيَّ القَولَ جهْلاً وضلَّةً   وإنِّي لأرجُو أنْ يسُوءهُمُ فِعْلِي
طَغَامٌ لِئَامٌ أو كِرامٌ بِزعْمِــــهِمُ   سواسِيةٌ ما أشبَه الحَولَ بِالقُبْلِ

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّ قلَّة نصوص شعراء البيوتات في الهجاء تشيرُ إلى أنَّ هذا الموضوع لم يشغَلْ اهتمامهم، كما أنّ أشعارهم جاءت في نصوصٍ قصيرةٍ أو مقطعاتٍ، تمتاز بوحدة الموضوع، على خلاف ما ورد من أشعار المشارقة في هذا الموضوع، والتي جاءت في قصائد طويلة[2].

ولعلّ عدمَ إطالتهم في أشعارِ الهجاءِ، يعود إلى الأحداث في الأندلسِ وصخبِها، ممَّا يدفَعُ بالشاعرِ إلى تحقيق الهجاء بأبياتٍ قليلةٍ، يُركِّزُ فيها المعاني[3].

كما نلحظُ أنَّ الشعراء الأندلسيين في نصوصهم السابقة قصدوا إلى الهجاءِ مباشَرةً ولا يدمجونه مع موضوعاتٍ أخرى إلا نادراً كما كان عند المشارقة.

4.3 الغزل:

لقد كان الغزلُ من الموضوعاتِ التي تناولها شعراء البيوتات من الخاصة والعامة على حدٍّ سواء؛ لأنّ الحُبَّ لا يقتصر على فئة دون أخرى، ولكنهم يختلفون في منطلقات غزلهم، فيرى بعضُ الباحثين أنّه نابعٌ من جانب العبث والترف والتسلية ولا سيما يكون ذلك في أشعار ذوي السلطة الذين يكون لديهم الكثيرُ من النِّساءِ والجواري فيتمتَّعُون بهنَّ، ولذلك ينظِمُونَ أشعاراً يُحاكُونَ فيها أشعاراً لشعراءَ آخرين من نفسِ الطبقة؛ أيْ أنَّ أشعارَهم تبتعدُ عن الصدقِ في العاطفةِ نوعاً ما، لكنْ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص648-649؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص303-305.

[2] عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص245.

[3] محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي، ص169.

من جانبٍ آخر هنالك شعراءُ من عامة الناس يمتازون بالبساطة والصدق في العاطفة، فجاءت أشعارُهم تعبيراً عن لَوعة الحُبِّ والعشق، وألَمِ الهجْرِ والفراق[1].

وقد مال الشعراء في الغزل إلى التَّعبيرِ عنه ضمن اتجاهين، اتجاهٌ مالَ إلى اللَّهوِ والمُجُونِ في التعبير عن الحبِّ، فيركِّزون على الوصفِ الماديِّ الحسيِّ، واتجاهٌ آخر مالَ أصحابُه إلى التَّغنِّي بملامح الجمال ووصف مواطِنِهِ في إطارٍ من التعفُّفِ والالتزام[2].

ولعلّه من المفيد الإشارة إلى أنّه كان لطبيعة الأندلس الجميلة والحياة الحضريّة المترفَة الناعمة، وشيوعِ مجالسِ الأنس وما يدور فيها من لهوٍ وشرابٍ ومجونٍ وغناء وطربٍ أثرٌ كبيرٌ في ازدهار هذا الفن في الأندلس[3].

ولهذا مثّلت موضوعاتُ الغزلِ والطبيعةِ والخمرة ثالوثاً عند الشعراء الأندلسيين، وقد امتزجت الأشعار في هذه الموضوعات على نحوٍ يجعل الفصلَ بينها فصلاً دقيقاً أمراً صعباً لشدَّةِ ارتباطها مع بعضها.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد كان للمرأةِ الدورُ الأكبرُ في نظم شعر الغزل، وكان للغزلِ والنسيبِ وذكر الشوق للمرأة أيّاً كانت، زوجةً أو جاريةً أو ساقيةً في إحدى الحانات أو غير ذلك، حضورٌ بارزٌ في هذا اللون من الشعر، ولعله من المفيد الإشارة إلى أن أبا محمد ابن حزم كان قد تحدّث في رسالته "طوق الحمامة في الأُلفَةِ والأُلاف" عن ماهيَّةِ الحبِّ وأنواعِه وكلِّ ما يتعلَّق به، فهو يشيرُ إلى عدمِ تحريمِ الحُبِّ في الإسلام، ويقول[4]: (الطويل)

مَتَى جَاءَ تَحرِيمُ الهَوَى عَن مُحمَّدٍ وهَل مَنْعَهُ فِي مُحكَمِ الذِّكْرِ ثَابِتُ
إِذا لَم أُوَاقِعْ مُحرَّمَاً أَتَّقِي بِهِ مَجِيئِي يومَ البَعثِ والوَجْهُ بَاهِتُ
فَلَسْتُ أُبَالِي فِي الهَوَى قَوْلَ لائِمٍ سَواء لَعَمْرِي جَاهِرَ أو مُخَافِتُ

---

[1] الطويل، يوسف، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت،1991م، ص 53.

[2] عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 170؛ الطويل، المرجع السابق، ص53.

[3] الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي، ط2، دار المعارف، مصر، 1966م، ص121.

[4] ابن حزم، رسائله، ج1، ص80.

كما أنّه في نصٍ آخر يتحدّث عن عدمِ إمكانيّةِ أو جوازِ حُبِّ اثنين في آنٍ واحدٍ، وأعتقدُ أنّه يريدُ الحبَّ الصادقَ، فالإنسانُ بطبعه لا يستطيعُ أنْ يعشَقَ اثنينِ في آنٍ واحدٍ دون أن يطغى حبُّ أحدهما على الآخرِ، ولذلك يقول[1]: (المتدارك)

فكَما العقْلُ واحِدٌ لَيْس يدْري خَالقًا غير واحد رحمانِ
فكَذا القَلبُ واحِدٌ لَيْس يهوى غيرَ فَرْدٍ مُباعِدٍ أو مُدانِ

عبّر أبو عامر ابن شهيد عن الغزل والنسيب في كثير من أشعاره، ومن ذلك أنّه قد أرسل من شدَّةِ شوقه لمحبوبته رسالةً شعريةً يخبرُها فيها عن حالِه، لأنّه لم يقوَ على البقَاءِ على هذه الحالة، فيقول[2]: (المتقارب)

كَتَبْتُ لَها أنَّني عاشِــــقٌ علَى مُهرقِ الكَتْمِ بالنَّاظِرِ
فَرَدَّتْ علَيَّ جَوَابَ الهوَى بِأحْوَرَ في مائه حائـــــرِ
مُنَعَّمَةٌ نَطَقَــتْ بالجُفُــونِ فَدلَّتْ على دقَّــةِ الخَاطِرِ
كَأنَّ فُؤادي إذا أَعرضَــتْ تَعلَّقَ في مَخْلَبَــيْ طَائرِ

ويكون الرسول في الغالب ممَّن عاشَ مثلَ هذا الشوقِ وعالماً بلوعةِ الحُبِّ، كما أنَّه يقوم بدورٍ مهمٍ، فيقول ابنُ شهيد أيضاً[3]: (المنسرح)

منْ لا أُسمِّي ولا أَبُوحُ بِــــهِ أصلَحَ بيني وبيْن منْ أهْوى
أَرْسلْتُ منْ كَابَدَ الهوَى فَدرَى كَيفَ يُداوي مَواضِعَ البلْوى
يَا ربِّ إنَّ الرَّسُولَ أَحسَنَ بِي يَا ربِّ فاحْفَظْني من الأَسْوا

وممَّا يزيدُ اللَّوعَةَ عندَ العَاشقِ عدمُ اهتمامِ المعشوقِ به، فيؤكد ذلك ابن شهيد في قوله[4]: (الرمل)

مَرَّ بِي فِي فَلَكٍ من ربْربِ قَمَرٌ مُبتَسمٌ عَنْ شَنَبِ
فَتَعَرَّضْتُ لِتَسْلِيــمٍ لَـــهُ فَإذا التَيَّاهُ لا يَعبأُ بِي

---

[1] ابن حزم، رسائله، ج1، ص80.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص114.

[3] ابن شهيد، المصدر السابق، ص171.

[4] ابن شهيد، المصدر السابق، ص91- 92.

أمَا المعتضدُ بن عباد، فقد كان متجبّرا في حُكمِه، وكان مُولَعا بالنِساءِ، حتّى أنّه ملَك حوالَي سبعين جاريةَ إلى جانبِ حرتِه ابنَة العامريِّ، لذلك فقد انعكَس ذلك على كثيرِ من أشعارِه، يقول معبِّرا عن شِدّة الشّوقِ والعشق[1]: (السريع)

يا قَاتِــلَ الصبِّ ولا واقِـــــي لا تَرْض، بِالله، بِإنْفَاقِـــي

عينَـــاكَ قَد قَادت إليَّ الرَّدى فَالقَلْبُ مُحتَاجٌ إلـــى راقِ

لَولاكَ والرَّحمنُ، ما كُنتُ من يُحسَبُ فِي جُملَة عُشّاقِ

كما يعبّر المعتضد عن فلسفَةِ الوقتِ بالنسبةِ للعَاشِقِ، فإذا لَقِيَ المَحبُوبةَ قَصُر الوقتُ، وإن غابت عنه فإنَّه يطولُ، فيقول[2]: (الطويل)

يطُولُ علَيَّ الدَّهرُ إنْ لَمْ أُلاقِها ويقْصُرُ إنْ لاقَيْتُها أطولُ الدَّهرِ

كما يمتدُّ هذا الغرام والعشقُ من الفكر والقلب إلى الجسم أي إلى الجانب الحسِّيِّ، فتسيطر على جسمه وحواسه فيقول المعتضد في نصِ آخر[3]: (الكامل)

أنَا فِي الحُبِّ مُغرَمٌ مستَنيلٌ   كُــلُّ نيــلٍ أَنَالُــهُ لِي قَلِيــــلُ

لِي جُثْمانُ منْ يظُنُّ صحِيحاً وفُؤادِي مِن الغَــرَامِ عَلِيــــلُ

.......أَعطَــى بِحقِّــــــي   إنَّ صبْرِي علَى التَّجَنِّي جَمِيلُ

لِي ذِهْنٌ مثْلُ الحُسَامِ صقِيلُ وهُو مِن كَثْرَةِ التَّجنِّـــي قَلِيــلُ

ولم يكن المعتمدُ أقلَّ عشقاً من والده، فقد تغزّل بالجَّوارِي ونسائه، غير أنّه كان يُلِحُّ على الحديث عن تأثير الحبِّ على العاشقِ، وتصوير ذلك، فقد جعل من المحبوبة شمساً تُنيرُ حياتَهُ، وتدورُ هذه الشمسُ في فلكِ قلبه وبروجه، كما أنَّها هي سَبَبُ حبِّه لزوم البيت وعدم الخروج للقتال وهو مناقضٌ لطبعه، فيقول[4]: (الكامل)

يَا غُرَّةَ الشَّمسِ التِي قَلبِي لَهَا أَحَــــدُ البُــرُوجِ

لَولاكَ لم أَكُ مُؤثِــراً فَرْشَ الحريرِ على السُّرُوجِ

---

[1] المعتضد، الديوان، ص109.

[2] المعتضد، المصدر السابق، ص111؛ ابن الأبار، الحلة، ج2، ص49.

[3] المعتضد، المصدر السابق، ص113، والحذف في البيت الثالث كما ورد في الديوان؛ انظر في الديوان أشعاراً أخرى أكتفي بالإشارة إليها، الديوان، ص114، ص116.

[4] المعتمد، الديوان، ص5؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص45.

كما عبر أبو عبد الله ابن شرف القيرواني عن النظرة الأولى التي تكون سبباً في جرِّ القلوبِ إلى حُبٍّ جديدٍ، ويرى أنَّ العاشِقَ والمعشُوقَ كُلٌّ منهُما يجرحُ الآخر بعيونِه، فيكونان قد تخالَصا ولا داعي للهجْرِ، فيقول[1]: (السريع)

ألحَاظُكُمُ تَجْرَحُنَا في الحشَـا ولَحْظُنَا يجرحُكُم في الخُدُود

جُرْحٌ بِجُرحٍ فاجْعَلُوا ذَا بِذَا فَما الذي أوجبَ جُرْحَ الصُدُودِ

ويرى بعض الشعراء أنّ تأثيرَ الحبيبِ لا يكون بالحُسنِ فقط، بل بأفعاله وتصرفاته، فيقول أبو عبد الله ابن شرف[2]: (الكامل)

سُبحَانَ مَن أعطَاكَ حُسناً ثَانياً وبثَالثٍ من حُسْنِ فعْلكَ عَزَّزا

وقد جاء حُسنُ المعشوقِ الحبيبِ على ثلاثة أنماطٍ متداخلة؛ الأول الحُسنُ الطبيعيُّ، والثاني حُسنُ العَذار على وجوه الفتياتِ، والثالث حسنُ الأفعالِ. ويعبِّرُ عن تعجُّبه من الحبيب الذي يمتاز بهذه السمات على الرغم من أنّه استقرّ في أحشائه، وكلُّ هذا على الرغم من كثرة قلق الشاعر، فيقول[3]: (البسيط)

عَجِبْتُ منْهُ وأَحشَائي منَازِلُه كيفَ استَقَرَّ بِها من كَثْرَةِ القَلَقِ

ويلجأُ العاشقُ إلى إخفاءِ ما به من لوعةٍ، ولكن يأتي من يفضَحُ هذا الحُبَّ والهُيَامَ، وهي دُمُوعُ العُيُونِ الحَزِينَةِ على فراقه، فيقول ابن شرف أيضاً[4]: (الكامل)

كَتَمَ الهوَى فَوَشَى بِهِ كِتْمَانُهُ لطلابِه وتَكَلَّمَـت أَجفَانُـهُ

وَهَبَ الكَرَى لسُهَادِه ونَعِيمه لعَذَابِه حتَّى أَسَا إحسَانُـهُ

جَلْدٌ يَحَارُ عَدُوُّهُ فِي واضِحٍ مُتَشَابِهٍ وعَلَى الدُّمُوعِ بَيَانُهُ

وقد كان للحبِّ والهوَى تأثيرٌ على رفيعِ الدولةِ بن صمادح، إذ أدار معظمَ شِعرِهِ على الغزلِ والنسيبِ، وقد أشرنا إلى رأي النقادِ في شعره في أثناءِ ترجمته في الفصل

---

(1) ابن شرف، الديوان، ص51؛ المقري، النفح، ج4، ص116.

(2) ابن شرف، المصدر السابق، ص67؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص285.

(3) ابن شرف، المصدر السابق، ص77.

(4) ابن شرف،المصدر السابق، ص100؛ وانظر أيضاً ص 92.

الأول من هذا البحث، فقد جعل من المحبوب إنساناً يأمُرُ وما على العاشقِ سوى الطاعةِ وذلك أنّ أمره لا يمكنُ رفضُهُ، فيقول[1]: (الطويل)

وأَهيفَ لا يَلْوِي عَلَى عَتَبِ عاتِبٍ ويقضِي علَينَا بِالظُّنُونِ الكَواذِبِ

يحكِّمُ فِينَا أَمـــــرَهُ فَنُطِيعُــــهُ ونَحسَبُ منهُ الحُكمَ ضَربَةَ لازِبِ

كما عبَّر رفيع الدولة في كثير من أشعاره عمّا يعانيه العاشق من أرقٍ وسهرٍ، نتيجة فعلِ المحبوب الذي لا يشعر بما يعانيه هو، يقول[2]: (السريع)

يَا عَابِــــدَ الرَّحمَنِ كَمْ لَيلَةٍ أَرَّقْتَني وجداً ولَم تَشعُـــــرِ

إذ كُنْتَ كَالغُصْنِ ثَنَتْهُ الصَّبَا وَصَحْنُ ذَاك الخَدِّ لَم يَشعُرِ

وهذا المحبوب لا يريد الإنصافَ في الحبِّ مع ذلك العاشق، مهما يكابد هذا العاشق من اللوعة والشوق فلا يكترِث بذلك، ولا يبادله المشاعرَ نفسها، يقول رفيع الدولة[3]: (الكامل)

وَعَلِقْتُهُ حُلْوَ الشَّمَائِلِ مَاجِنَــاً خَنِثَ الكَلامِ مُرَنَّحِ الأعطَافِ

مَا زلتُ أُنصِفُهُ وأُوجِبُ حقَّه لكنَّه يأبَى عَنِ الإنصَـــــافِ

الوصال وليلة أنس:

لقد سعى الكثير من هؤلاء العشاق إلى الوصال مع المحبوب بطرقٍ شتَّى، ليطفئ الواحد منهم اللوعة ونيران الشوق في قلبه، وأحياناً لإغاظةِ الواشين والحسّادِ، ومن ذلك قول ابن بردٍ الأصغر[4]: (الكامل)

قَلْبِي وقَلبُكَ لا مَحَالَةَ واحِــدُ شَهِدَتْ بِذَلِكَ بَينَنَا الألْحَــاظُ

فَتَعَالَ فَلنَغِظِ الحَسُودَ بِوَصْلِنَا إنَّ الحَسُودَ بِمِثْلِ ذاكَ يُغَاظُ

---

(1) ابن خاقان، المطمح، ص223؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص737؛ المقري، النفح، ج7، ص44.

(2) انظر: المصادر السابقة

(3) ابن خاقان، المصدر السابق، ص224؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م2،ص737؛ المقري، المصدر السابق، ج7، ص44.

(4) الحميدي، الجذوة، ص184؛ ابن خاقان، المصدر السابق، ص208.

فهو يشير إلى أنّ الحبَّ صادرٌ من الطرفين العاشقُ والمعشوقُ، وذلك على خلاف حالات الشعراء السابقين الذين كانوا هم أنفُسُهم يعانُون مِن لَوعةِ الحُبِّ في حين أنَّ المعشوقةَ غيرُ مباليةٍ أو لا تدري، فتُقابِلُهُ بالصُّدود.

ويعمدُ أبو الحسن الطُبني إلى استخدام أسلوب السابقين في الإشارة إلى أنّ المعشوقة تقابل وفاءه لها بالغدرِ واللامبالاةِ، ويرى أنَّ إفراطَه في حبِّها هو ذنبُهُ، وأنّه لن يتركَهُ ما دام لم يجزه على هذا العشقِ الصادقِ، فيقول[1]: (الخفيف)

عَجَبَاً أنْ يكُونَ ساكِنُ قلبِي   راتِعاً منهُ في بساتِينِ حُبِّـي

ويُجَازِي علَى الوفَاءِ بِغَدرٍ   حَسبِي اللهُ ثُمَّ حَسْبِي وحسْبِي

جَازِنِي كيفَ لا أتْرُكُ الذّنْبَ   إذا كان فرطُ حُبِّـك ذَنْبِـي

وقد عبر أبو محمد ابن حزم عن معرفته في استظهار الأشياء الباطنة، على الرغم من مذهبه الظاهريِّ، وذلك في حديثه مع شخص آخر يلومه على ولوعه بمن رأى، فيقول[2]: (الطويل)

وذِي عَذَلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنُـهُ   يُطِيـلُ مُـلامِي فِي الهوَى ويقُـولُ

أَمِنْ أَجْلِ وَجهٍ لاحَ لَم تَرَ غَـيْـرَهُ   ولَم تَدْرِ كيفَ الجِسْـمُ أنـتَ عليلُ

فقُلتُ لَهُ:أَسْرَفْتَ في اللَّـومِ فاتَّـئِـدْ   فعِندِي ردٌّ- لَو أَشَـاءُ- طَـويلُ

أَلَمْ تَرَانِـي ظَاهِـرِيٌّ وأنَّـنِي   علَى ما أَرَى حتَّى يَقُومَ دلِيـلُ

وقد جعل أبو الفضل جعفر بن شرف من عيون المحبوبة أسهُماً تطعن قلبَه فلا يستطيع ردَّها، وأشار إلى أنّه يعبِّر عن الهوَى بعيونه دون التلفُّظ بلسانه فتكون لغة العيون أبلغ من لغة الشفاه، فيقول متعجباً من فعل لحاظ المحبوبة[3]: (الطويل)

عَجِبتُ لَهَا كيفَ استَطَاعَت لِحَـاظُهَـا   بِأَنْ طَعَنَتْ قَلبِـي بِغَيْرِ سِنَانِ

فَقَالَت وكَيفَ استَطَعْتَ أنتَ عَلَى هَوَىً   تَفُوهُ بِهِ عينَاكَ دُونَ لِسَـانِ

فَقُلتُ لَهَا سِرِّي وسرُّكِ فِـي الهَـوى   يَلُـوحُ وإنْ لَـم تَنطِقِ الشَفَتَانِ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص548.

[2] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص356.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص880.

ولمّا كان الهوى والشوق يقودان إلى الأرق والمعاناة وسوء الحال فقد عالج أبو محمد ابن القبطرنة ذلك بشُربِ الخمرةِ التي تسلّيه وتُذهِبُ عنه الهموم والأرق، فيقول[1]: (مجزوء الوافر)

إذَا ما الشَّوقُ أرّقَنِــــــــي وباتَ الهمُّ عن كَـــــثَب

فَضَضْتُ الطِّينَةَ الحمــراءَ وباتَ عن صفراءَ كالذَّهب

لقد كشفت النصوص السابقة عن تأثيرِ الحُبِّ على هؤلاء العشّاقِ وكيف كانوا يعانون من لوعةِ الحبِّ، ولكن قد يلجأ بعضهم إلى التَّخفيفِ من هذه اللوعة من خلال الوصال أو إرسال الرسول، وكما ذكرنا في حديثنا عن نصٍ لابن شهيد كيف أرسل رسولاً له معرفةٌ في أمُورِ الحُبِّ، ولكنَّهُ في بعضِ الأحيانِ يميلُ إلى اللقاء بهذه المحبوبة، وقضاء ليلةٍ معها، فيتحدّث الشاعر عن لقائه مع المحبوبة وما يحدث بينهما من عناقٍ ولثمٍ، وأشير هنا إلى أنّنا لا نستطيع تحديد إن كان ما يحدث حقيقة أم خيالاً، ولكن سنعده حقيقة على اعتبار أن الوصف الخيالي يشير فيه الشاعر إلى أنّه خيالٌ أو حُلُمٌ، وقد أفردتُ حديثاً له في هذا الموضوع تحت عنوان طيف الخيال.

ويصف ابن شهيد دبيبهُ إحدى الليالي سارياً إلى امرأة يعشقها، فيقول[2]: (المتقارب)

ولمّا تَملأَّ من سُــكــرِهِ ونَامَ ونَامَتْ عُيُونُ العَسَسِ

دَنَوتُ إليهِ علَى بُعــدِهِ دُنُوَّ رَفِيقٍ دَرَى مَـــا التَمَسَ

أَدبُّ إليهِ دَبِيبَ الكَــرَى وأَسمُو إلَيهِ سُمُــوَّ النَّفَسِ

وبِتُّ بِهِ لَيلَتِي نَاعِمَــاً إلى أنْ تَبَسَّمَ ثَغْــرُ الغَلَسِ

أُقَبِّلُ منهُ بَيَاضَ الطُّلَــى وأَلثُمُ منهُ سَوَادَ اللَّـــعَسِ

فهو يتحدث عن إحدى الغراميَّات والمجريات بينه وبين من يعشقهُنَّ، إنَّه يحكي قصة اقتناصِ عشيقته، متفنّناً في تصوير خطوات تلك المحاولة وظروفها وتسلسلِ أطوارها، ملحّاً على مواقف العبث فيها واللّعب والمداعبة والتَّصابي.

وقد جاءت قصيدةٌ للمعتضد بن عباد على هذا النحو يتحدَّث فيها عن وصاله لمعشوقةٍ نام معها، ولكنّه يشتكي من سرعة مرور الوقت، ويقدِّمُ ذلك في إطارٍ يعتمد

---

[1] الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص485-486.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص120؛ الأصفهاني، المصدر السابق، ق4ج2، ص639.

على الحوار واللغة الموحية والصورِ الجريئة، ممَّا يضفي على هذه القصيدة الغزليّة مسحة مجونيَّة، فيقول[1]: (الطويل)

رعى اللهُ منْ يُصلي فُؤادي بِحُبِّــه سعيراً وعيني منهُ في جنَّة الخُلـــد
فَصـــادفَ قَلبي قَلبها وهْو سالِـمٌ فَأَعدى وذُو الشُّوق المُبرَّحُ قد يُعدي
فَجــادتْ وما كَادت عليَّ بِخدِّهـــا وقد ينبُعُ الماءُ النَّميرُ مِــن الصَّلْــد
فقُلــتُ لَها:هاتـــي ثَنَاياك إنّنـــي أُفضّلُ نُوّار الأقاحــي علـى الــورد
ومِيلي على جسمي بِجسمك فانثَنَتْ تُعيدُ الذي أملْتُ منْها كَمــــا تُبدي
عناقاً ولَثْماً أَرَّثا الشَّـــــوقَ بيننَـا فُرادى ومثنى كالشّرار مِـــن الزَّنْد
فيا ساعــةً ما كان أَقصر وقتهــا لديَّ تَقَضَّتْ غير مذمُومَــــة العهْــد

وقد مزج معزُّ الدولةِ بن صُمادح بين زيارةِ الحبيب والطبيعة، فقدومُه كالبدرِ الذي يُنيرُ ظلام الليلِ، وذهابُ المحبوبةِ أشبهُ بغروبِ الشمسِ الذي يُنبِىءُ عن بداية ظلامِ الليلِ، فيقول[2]: (الوافر)

أتى بِالبدرِ من فوقِ القَضيبِ فَطَارت نَحوهُ طيرُ القُـــــلُوبِ
وأشرقَ ما بأُفقي من ظَلامٍ لنُورٍ منْهُ في أُفقِ الجُيُـــــوبِ
وولّى بعد تَأْيِيسٍ وبِـــــرٍّ كَمِثْلِ الشَّمسِ ولَّتْ للمغــيــب

ولكن أبا الفضل جعفر بن شرف يجعل المحبوب صنماً من الكافور، وقد بات معه في حُلَّتين هما العفّة والكرم، وقد فكَّر ابن شرف في ليلةِ وصله كيف ستكون حاله إذا هجره المحبوب، فأخذ يبكي ويمسح أدمعه بجسم المحبوبة على أنّه الكافورُ، الذي يمنع انسكاب الدموع، فيقول[3]: (الوافر)

صنَمٌ من الكَافُورِ بَاتَ مُــعانِقِي في حُلَّتينِ تعفُّــف وتكـــــــرُّمِ
فَكَّرْتُ لَيلَةَ وَصْلِهِ في صَـــدِّهِ فَجرَتْ بَقَايَا أَدمُعِــي كَالعَنْـــدَمِ

---

(1) المعتضد، الديوان، ص109- 110؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص47-48.

(2) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص200-201.

(3) الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص24، ويشك في نسبته له، ويشير إلى أنّ البعض نسبه لأبيه محمد، وقد وردت في ديوانه ص98؛ ومن أشعاره في زيارة الحبيبة انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص876-877.

فطَفِقْتُ أمسحُ مُقْلَتيَّ بجِسْمِــه   إذْ عادةُ الكَافُورِ إمســـــاكُ الدَّمِ

وقد عبر أبو محمد ابن القبطرنة عن التقائه بمن يهوى، وهي في وسط صديقاتٍ لها، فارتاعت من وجوده، ثم أرسلت له بأنْ يلقاها في اللَّيلِ عند اشتداد الظَّلامُ، لكي لا يراها أحدٌ، وزارها في اللَّيل وتعانَقا وخفَّفا من لوعةِ هذا الحُبِّ والشوق، ويتحدث عن ذلك في إطارٍ قصصي[1]: (مجزوء الرمل)

يا خَليلَــيَّ لِقلــــــبِ   نِيلَ من كُلِّ الجِّهــاتِ

لِيمَ إنْ هَام بلَيــــلَى   وبريَّـــــا والبنَــاتِ

وبأنْ صادَتْهُ أَسمــــا   بَيْــنَ بِيــضٍ خَفِراتِ

بِلِحَاظٍ ساحِـــــراتٍ   وَجُفُـــــونٍ فَاتِراتِ

وبِجِيـــدِ الظَّبْيَةِ ارتَا   عَتْ فَظَلَّت فِي التِفَاتِ

ويستمر الشاعر في سرد أحداث القصة الغزلية المليئة بالمغامرة ولقاء المحبوب في جوّ يسوده الخوف من عيون الوشاة، وقد أشار بيريس إلى أنّ هذه القصيدة فيها نغمٌ إغريقيٌّ، ويرى أنّه لم يكن معروفاً في الأدب العربي في المشرق، باستثناء بعض قصائد عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد[2].

الهجر والفراق:

أما الهجر والفراق، فقد كثُر حديث الشعراء عنهما، وتحدثوا عن لوعة ذلك، وقد يكون الهجرُ أو البعد مكانياً، بالذّهابِ إلى مكانٍ بعيد عن أرض المحبوبة، أو يكون وجدانياً إذ إن كليهما في بلدة واحدة، لكنّهما لا يستطيعان الالتقاء إمّا خوفاً من الوشاة أو لصدودِ الحبيبة عنه، فهذا أبو عامر ابن شهيد يتحدّث عن تلك المحبوبة التي كلّما زادت بُعداً مكانياً زادت في هجرها ونسيانها إيَّاه، لكنّه يَعِدُها بأنّه لن ينسَاها حتى لو عَشِقَ امرأة غيرها، فيقول[3]: (الخفيف)

قُلْ لمَنْ زَادَ إذ تَبَاعَــدَ بُعْــدَا   وتَنَاسَى عَهْــدِي ولَمْ أَنْسَ عَهْدَا

لا يَغُرَّنْكَ مـــا تَرى من وِدَادِي.   فَلَعَلِّـــــي إنْ شِئتُ غَيَّـــرْتُ وُدَّا

---

[1] ابن خاقان، القلائد، ق2، ص431-432.

[2] بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص353.

[3] ابن شهيد، الديوان، ص105.

لا وحقِّ الهوى وحـــقِّ لَياليـــ ـــه ومنْ صاغَ حُسن وجهِك فردا
ما أُطيقُ الذي ادَّعيْتُ ولَوْ مُلِّـ ـكْتُهُ لَم أكُـنْ لِغَيْـــرِك عبْدا

وقد تساءل المعتضدُ بن عباد عن حالِ الفؤاد الذي يقاسي الوجد والشوقَ على الرغم من قرب الحبيب، كيف ستكون حالُه إذا هجره الحبيبُ وابتعد عنه، فيقول(1): (الطويل)

يُقَاسِي فُؤادِي الوجْدَ، والحُبُّ واصِلٌ فَكَيفَ تَراهُ إنْ جَفَاهُ حبِيبُ!

وفي نصٍ آخرٍ يجعل الهوى يفوقُ المُلكَ، إذ إنَّ الحبيبَ إذا هجر خضع له ملِكُ الزَّمانِ، فيقول(2): (الكامل)

للهِ درُّ الحُـــــبِّ ماذا يصنَـــعُ يعنُو لَهُ ملِكُ الزَّمانِ ويخْضَعُ
للحُبِّ سُلطَــــــانٌ عظيمٌ شَأنُهُ مهما يقُلْ قَولا فَقَلبِي يسمــعُ
إنْ يغْرُ بِالهِجْرانِ مَالِكُ مُهجتي أُقبِـلُ إليه بحالَتي أتَضَـــرَّعُ
ماذا انتَفَعْتَ بِحالَتِي عِند الهوى حـالُ الهوى أبداً، أجلُّ وأرفعُ

وقد كان الحبيب في نظر المعتمد بن عباد كثيرَ الهجرِ، حتى كأنّ هجره ليلٌ، ووصالَهُ بدرٌ، دلالة على قصرِ مُدَّة الوَصْلِ مقارنةً مع الهجرِ، فيقول(3): (الكامل)

أكثَرْتَ هجْرَكَ غيرَ أنَّك رُبَّما عطَفَتْكَ أحيانَاً علَيَّ أمُــورُ
فكأنَّما زمَنُ التَهاجُرِ بينَــنَا ليلٌ وساعاتُ الوِصالِ بُدُورُ

وقد جعل المعتمد بن عباد هجرَ الحبيب إحدى المصائبِ الكبرى التي قد تؤدي بِمَنْ تَحِلُّ به، وتعيدهُ إلى الإتلاف والضعف، فهي تحرم العيون من النَّومِ لكثرة الدموع التي تذرِفُها، يقول(4): (المتقارب)

أَيَا نَفْسُ لا تَجْزَعِي واصْـــــبِرِي وإلاّ فَإنَّ الهَوَى مُـــــــتْلِفُ

---

(1) المعتضد، الديوان، ص110.

(2) المعتضد، المصدر السابق، ص111؛ وله نصٌ آخرٌ في الموضوع نفسه ص113- 114 من الديوان.

(3) المعتمد، الديوان، ص13؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص44، وله نص في حرمانه من النوم والرقاد بسبب الهجر، (راجع ديوانه، ص6).

(4) المعتمد، المصدر السابق، ص21.

حبيبٌ جفاك، وقلبٌ عصـــــــاك ولاحٍ لحاك، ولا مُـــــــنْصِفُ
شُجُونٌ منعْن الجُفُون الكَـــــرى وعوَّضها أدمُعاً تَنْـــــزِفُ

وقد تمنى عبيدُ الله بن المعتمد الموتَ على الهجرِ، ولكنَّ الذي يخفِّفُ من لوعتِهِ هو رجاؤهُ بأن يكون اللقاءُ قريباً، فيقول[1]: (الكامل)

قَالُوا: غداً يومُ الرَّحيلِ، فَأمْطَرتْ عينَاي دمْعاً واكِفَ العَبَـــراتِ
لِـــم لا؟ وأنأى عَن أَحبَّة مُهجَتي كرْهاً، فقَلبِي دائمُ الحسَـــراتِ
مِـــنْ كُلِّ بيضاءَ العَوارِضِ طِفلَةٌ مثلَ البُدُورِ تُضيءُ في الظُّلُماتِ
لولا الرَّجَاءُ بأنْ يُعجَّــلَ بينَنَــــا وشْكُ التَّـــلاقِي لاشتَهيتُ مماتِي

وقد جعل ابن برد الأصغر محبوبته كثيرة الجفاء له، وعلى الرغم من ذلك فإنَّها تتظاهر بالوصلِ، فيقول[2]: (مجزوء الخفيف)

يا كَثِيرَ الجَّفَـــاءِ لي ومُضيْعاً وسائلـــي
طَالَ حُبِّـــي ولم تَفُزْ مِنْكَ نَفْسِي بطَائِـــلِ
أنتَ لـــي هاجِــرٌ وإنْ كنتَ فِي ثَوبِ واصِلِ
أنتَ أمْرَرْتَ منهَـــلاً كانَ أحلَى منَاهِلِـــي
سوفَ أبكيكَ لاستِحـا لَة تلكَ الشَّمَــــائل
بِجُفُــونٍ قَرِيحَــــــة ودُمُـــوعٍ هوامِــلِ

ولكنّه يتمنى أنّها تمنحه نظرةً واحدةً، يخفِّفُ فيها من لوعة الحبِّ، لأنّه لا يعلم إنْ كان سيرى المحبوبَ بعدَها أم لا، فيقول في ذلك[3]: (الكامل)

يَا مَنْ حُرِمْتُ لَذَاذَتِي بِمَسِيرِه هَذِي النَّوَى قد صَعَّرَتْ لِيَ خَدَّها
زَوِّدْ جُفُونِي مِن جَمَالِكَ نَظرَةً والله يعلَمُ إنْ رأيْتُكَ بَعــــدَها

---

(1) ابن الابار، الحلة، ج2، ص69.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص509.

(3) ابن خاقان، المطمح، ص208- 209.

أما رفيع الدولة بن صمادح فيعبّر عن معاناته الشديدة، فقلبه يكاد يطير من البين لابتعاد حبيبه عنه، لكنّه إذا اقترب فإنّه يسكنه بين ضلوعه، ويخشى عليه من عيونه قبل عيون الناس، فيقول[1]: (الطويل)

حبيبٌ متَى ينأَى عنِ العينِ شَخصُهُ يكَادُ فُؤادي أنْ يطِيرَ منَ البيْنِ

ويَسكُنُ مَا بَينَ الضُّلوعِ إذا بـــدا كَأنَّ عَلَى قَلبِي تَمائمَ من عَينِي

أمّا أبو عبد الله ابن شرف فيكاد من شدّة هجر المحبوبة أن يصلَ إلى درجة يفقِدُ فيها الأمل، ولكنّه يستَرحِمُها ويطلب منها الظهورَ وأن لا تتَّصِفَ بالجُبنِ، وهي التي شغلت عقلَه وعقولَ الكثيرين، ويبعث إليها بهذا الخطاب، فيقول[2]: (الطويل)

فَيَا قَاطِعاً وَصلْي ويا واصِلاً غَـدِي بِأمْسِي ويَومِي فِـي العـذَابِ المُمتَّعِ

صَرَفْتَ رَجَائِي عَن لَعلَّ وعن عَسَى وأَبْعَدْتَني بِاليأسِ مِــن كُلِّ مطمــعِ

أَعنِّي بأطمَاعِ الوصَالِ على النَّـوى إذا لَم تُقَاتِل يَا جبـــانُ فَشَجِّـــعِ

وَدِيعَةُ مَيْتٍ أنتَ فِيهـــا مُحكَّـــمٌ وإن شِئتَ فَاحفَظْها وإنْ شِئتَ ضَيِّـعِ

أَرَى مُهَجَاتٍ في يدَيْكَ فَمـــا تَـرَى بِمَنْ شِئتَ أَوْقِعْ أو بِمَا شِئتَ وقِّـــعِ

وله في نصٍ آخرٍ يوجِّهُ فيه الخطابَ إلى المعشوقةِ التي كان يلتقيها سابقاً فيطلبُ إليها أن تتذكَّر ذلك، مشيراً إلى أنَّ هَجْرَهَا له أشعلَ ناراً شديدة في أحشائه كتلك النّار التي أشعلها قوم سيدنا إبراهيم له، فيقول[3]: (الكامل)

واذكُر لَيالِيكَ التِي ذَهَبَتْ لَنَا نَهَبَا وعَيْشَا كَـانَ كَالتَّهويْــمِ

وَلَّى وخَلّى جَمْرَةً مشبوبــة تُذكِي عَلَــى الأحشاءِ نارَ سَمُومِ

فإذا رأيتَ لَهِيبَهَا وسَلامَتِــي فاذْكُر بِذلِكَ نَـــارَ إبراهيـــمِ

ويتمنى لو أنّ العذول يطيع الحبيب على ما يعانيه العاشقُ من ألمٍ بسببه، ولكنّ ابن شرف يشير إلى أنّه لا يدري سببَ هذا الصدود واللوم، وعندما يصل إلى مرحلة من اليأس يجد أنّه لا سبيل إلا أن يتحمّل كلٌّ واحدٍ ما وصل إليه، فيقول[4]: (الكامل)

---

[1] ابن خاقان، المطمح، ص224؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص737.

[2] ابن شرف، الديوان، ص71؛ انظر أيضاً ص38، ص88 من الديوان.

[3] ابن شرف، المصدر السابق، ص95، التهويم: تعني النوم الخفيف أو أول النوم.

[4] ابن شرف، المصدر السابق، ص103-104.

قُلْ للعذُولِ لو اطَّلعتَ على الذي عانَيتُهُ أعنَاك مــا يُعنِيـنــي
أَتَصُدُّني أمْ للغَـــرامِ تَـرُدُّني وتَلُومُني فِي الحُبِّ أمْ تُغرِيني
دعني فَلَستُ مُعاقِبـاً بجِنَايتِي إذْ لَيْس دينُك لِي ولا لَك دِينِي

فهو هنا يتنصّل من شدَّةِ اليأسِ من أيِّ خطأ، ويستشهد بقوله تعالى على لسان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:"لكم دينكم ولي دين"[1].

وقد تحدث إسماعيل بن النغرلة عن هجر الحبيب وفراقه، في نظمه باللغة العربية فيقول[2]: (البسيط)

يا غَائباً عن نَاظِــرِي لَـم يَغِبْ عَن خَاطِرِي رِفْقَاً علَى الصَبِّ
فَما لَهُ فِي البُعْــدِ عَـن سَلْوةٍ ومَالَهُ سُولٌ سِوَى القُـــرب
صُوِّرتَ فِـي قَلبِــي فَلَـمْ تَبتَعِدْ عَنْ نَاظِرِ الفِكْـرَةِ بِالحُـــبِّ
ما أَوحَشَتْ طَلعَةُ مَنْ لَم يَــزَلْ يُنْقَلُ مِن طَرْفٍ إلــى قَلْـــبِ

صفات المحبوبة :

لقد تناول الشعراء في تغزلهم بمحبوباتهم عدداً من الصفات المعنوية والسمات الجمالية التي كنَّ يتحلَّين بها، وجاء حديثهم في الغالب حول الوجه والعين أو الألحاظ، والرُّضابِ والفم والقدّ، وقد جمع بعضُ الشعراءِ بين هذه الأوصاف في النص الواحد.

فهذا أبو عامر ابن شهيد يتحدث في نص عن الذُبُولِ في جَفنَي المعشوقة واللثغةِ في كلامها، هذه اللثغةُ التي كانت سبباً في العشق كما يرى، يقول[3]: (الكامل)

مَرَضُ الجُفُونِ ولَثْغَةٌ في المَنطِقِ سَبَبانِ، جَرَّا عِشْقَ مَن لَم يَعشَقِ
مَن لِي بِأَلثَغَ لا يــزالُ حَدِيثُـهُ يُذكِي عَلَى الأكبَادِ جَمرَةَ مُحـرِقِ
يُنبِي فَيَنبُو فِي الكَـلامِ لِسَانُـهُ فكأنّه مِن خَمْرِ عَينِيه سُقِــــي
لا يُنعِشُ الألفاظَ مِن عَثَرَاتِهــا ولَوَ أَنَّها كُتِبَتْ له في مُهـرَقِ

---

[1] سورة الكافرون، آيه6.

[2] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص114.

[3] ابن شهيد، الديوان، ص132.

أما المعتضد بن عباد فقد وصف الغُرَّة والصدغَينِ والقَدِّ والمشيةِ والكَلامِ في نص واحدٍ، وجعلها جميعاً معاً تتكامل في رسم صورةٍ جميلةٍ للمعشوقة، فيقول[1]: (الطويل)

لَها غُرَّةٌ كالبدرِ عِنـد تَمامِـه وصدْغَا عَبيرٍ نمّقَا صفحةَ البَـدرِ
وقدٌّ كمِثلِ الغُصنِ مَالَتْ به الصَّبا يكادُ لفرطِ اللِّينِ يَنقَدُّ في الخصْـرِ
ومَشيٍ كَما جاءت تَهادي غَمامَةٌ ولَفظٌ كما انحلَّ النِّظَامُ من الـدّرّ

وفي نص آخر يصف الغرَّةَ والمُقلَةَ والمبسمَ والرُّضابَ والمنطق، وفِعلَها في نفس العاشقِ، فيقول[2]: (السريع)

يا غُرَّةً تَسخَرُ بالبَـدرِ ومُقلَةً تَنفُثُ بالسِّحْـرِ
ومَبْسَماً نُظِمَ مِن جَوهَرٍ ومَاؤهُ مِن أعطرِ الخَمْرِ
ومنطِقَاً أثبَتَ مِن سِحرِهِ أحرَّ في قلبِي مِنَ الجَمْرِ

ويرى ابن برد الأصغر أنّ الرُّضابَ يروي من يشربَ منه، كما أنَّ قُربَ الحبيبِ أُنسٌ للعَاشِقِ المستَوحِشِ، فيقول في ذلك[3]: (المتقارب)

رُضَابُك رِيٌّ لِمَن قَد عَطَشْ وقُربُكَ أُنسٌ لِمَن قَد وَحِشْ

وقد رسم صورة للعِذارِ الذي يتدلّى على الوجه تشبه الكتابة على الصفحةِ البيضاء، فيقول[4]: (الكامل)

وَجهٌ لِمصبَاحِ السَّمَاءِ مُبَاهِي يُبدِي الشَّبابُ عليه رَشْحَ مياهِ
رَقَمَ العِذَارُ غِلالَتيه بأحـرُفٍ معنَى الهَوَى في طَيِّها مُتنَاهي

وقد يكون لِلِّباسِ كما يرى ابن برد الأصغر دورٌ في إعطاء المعشوق مظهراً جمالياً، فله في وصف معشوق أهيفَ القدِّ ممشوقاً، وقد بدا في ثوبٍ من الحريرِ لازورديِّ اللَّونِ، فيقول[5]: (مجزوء الكامل)

---

(1) المعتضد، الديوان، ص111.

(2) المعتضد، المصدر السابق، ص113.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص517.

(4) ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص510.

(5) ابن خاقان، المطمح، ص208.

لمّا بدا فـــي لازور ديِّ الحرير وقَــدْ بهر
كبَّرتُ من فَرطِ الجما لِ، وقُلتُ: ما هذا بشَــر
فأجابني: لا تُنكِــرنْ ثوب السَّماءِ علَى القَمر

وقد جعل المعتمد من العِذار على الوجه اكتمالاً للحسنِ والجمال، كما أنّه يشير إلى لونه الأخضر، فيقول[1]: (البسيط)

تَمَّ لَهُ الحُسنُ بالعَــذارِ واقتَرن اللَّيـلُ بالنَّهــار
أخضرُ فِي أبيضٍ تَبــدَّى ذَلك آسيٌّ وذا بَهـــارِي
فَقَد حوى مجلِسي تَماماً   إنْ يكُ مِن رِيقهِ عُقَــارِي

وكذلك يمزج الطبيعة مع وصف المعشوقة، فيقول[2]: (الطويل)

سقَى اللهُ صَوبَ القَطْرِ أُمَّ عُبيدَةٍ كَما سَقَتْ قَلبِي علَــى حَــرِّه بَــردا
هِيَ الظَّبْيُ جيداً، والغزالَةُ مُقلَةً   وروضُ الرُّبا عرفَاً، وغُصْنَ النَّقا قَدَّا

ويتغزل أبو عبد الله ابن شرف بالجفون والحاجب والخصر والخدّ، فيقول[3]: (مجزوء الرمل)

بيْن أجفَــانكَ سحْــرُ   وعلَــى غُصنكَ بَــدْرُ
جرَّدتْ عينَاك سيفيــ   ـنِ لذَا أَمْــرُكَ الأمْــرُ
فَعلى خَدِّكَ مِــن نَــزْ فِ دَمِ العُشَّاقِ أَثْــرُ
ومِن الكُثبَــانِ شَطْــرٌ لَك والأغصَــانِ شَطْــرُ
وبِمَاذا أصِفُ الخَصْـ   ـرَ ومَــا إنْ لَكَ خَصْرُ
بكَ شُغْلِــي واشتِغَالِي ومَضَى زَيْــدٌ وعَمْــرو

وكما كان للخدِّ نصيبٌ في أشعار الشعراء الغزليين السابقين، فقد كان له حضورٌ في بعض أشعار أبي الفضل جعفر بن شرف، فيقول واصفا الخدَّ وجماله[4]: (الطويل)

---

[1] المعتمد، الديوان، ص17؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص46.
[2] المعتمد، المصدر السابق، ص7.
[3] ابن شرف، الديوان، ص56- 57.
[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص878؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص230-231.

رأى الحُسنُ ما فِي خدِّهِ مِن بدائِعٍ فأعْجبهُ ما ضمَّ منْه وصرَّفَا

فالحسن والجمال يُستمدُّ من خدِّ هذا المحبوب.

ويصفُ إسماعيل بن النغرلة العِذار الذي يتدلَّى على خدِّ الفتاة التي يعشقها، فيبدو كأنه رسمُ آية قرآنيةٍ يلائم في معناها ما يسعى إليه من لهوٍ ومجونٍ، أيْ أنّه يوظِّف الآية القرآنية توظيفاً يخدم غايته من هذا الغزل، دون مراعاة جلالة قول الله عزَّ وجلَّ، فيقول في نص باللغة العربية[1]: (مجزوء الرمل)

نَقَشَتْ فِي الخَــدِّ سطْراً مِن كِتَابِ اللهِ موْزُون

لَنْ تَنَالُــــوا البِرَّ حتّى تُنفِقُــــوا ممَّا تُحبُّون

طيف الخيال:

لقد كان لوصف طيف خيال المحبوبة نصيبٌ في أشعار كثير من شعراء البيوتات، إذ إنّ هذا العاشق من شدة شوقه يتخيَّل الحبيبة في منامه وخياله، ويتصوّر أنّها وصَلتهُ وزارتهُ وهو نائمٌ، لكنّه عندما يستيقظ يجد ذلك لا يتعدّى الحُلم والخيال.

فهذا أبو عامر ابن شهيد يتحدّث عن زائر له في إحدى الليالي، ويتمنّى لو كان هذا الزائرُ الحبيبَ نفسهُ وليس صديقَهُ، ثمّ يصوِّر كيف ألمّ به طيف حبيبه بعد أن غادر صديقه أبو خالد ويصوّر صفات هذا الحبيب كما وقعت له في خياله، فيقول[2]: (المتقارب)

ألا بِأبِي زَائِري فِــي العَتَــــمْ بِوجهٍ يُجلِّي سَـــــوادَ الظُّلَــمْ

تَكَتَّمَ بِاللَّيْـــــلِ فِـــــي ظِلِّــــهِ وهل يُمكِنُ الصُّبْحُ أنْ يكتَتَــمْ

أتَى يَستَجِيـــــرُ أَلِيفَـــــاً لَــــه كَمَا جَاوَرَ البَانُ رَطبَ العَنَــمْ

فَقُلْــــتُ: مَن الزائِرِي؟ والدُّجَى يَسُدُّ العُيونَ بِثَــــوبٍ أَحَـــــمْ

فَقَــالَ أبُــو جَعفَــــرٍ: لاتَــمّ بِمَا جِئتَ مِن كَــذِبٍ يَنتَظِــــمْ

فَأَيْقَنْــتُ أنّ أبَـــــا خَالِـــــدٍ سرى و خَيَــالَ حَبِيبِــي أَلَـمْ

فَأبْصَرتُ وَجْهَا حَكَـــاهُ الهِلالُ وثَغْراً حَكَى الدُّرَّ لَمّا ابتَسَــــمْ

وإلا فَعَفْــوٌ، يُقِيــــلُ العِثَــارَ فَذُو العَرشِ يَرحَمُ مَن قَد رَحِمْ

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص114.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص152-153.

فقَالَ:بــلْ العفْــوُ يــا سيِّدِي وقَبَّلَني مِــنْ بعِيــدِ وضَــمْ

وقد وصف أبو المغيرة ابن حزم طيفَ المحبوبةِ بعد رحيلها بصنمٍ يلجأون إليه لتذكُّرِها، ويصفُ محاسن جسدِها من طولٍ وثغرٍ وعيونٍ ومشي وخصرٍ وغيرِها، فيقول(1): (الطويل)

تَبيتُ بِذِي الأَرْطى وقَد باتَ طيفُها لَنَــا صنَماً نَحنُو عليه ونَعكِــفُ
هبيكِ سريتِ اللَّيلَ فَرعُكِ أسحَــمٌ وثَغــرُكِ بسَّامٌ، ولَحظُكِ أَوطَــفُ
فأنَّى أَطَقْتِ المشْيَ، قَدُّكِ مائِـــدٌ وردْفُكِ رَجْرَاجٌ، وخَصْرُكِ أهيَفُ

وقد أحسن المعتمدُ حديثاً عن طيفِ خيالِ المحبوبة، ويرى أنّها لولا البُعدُ لزارتْهُ في الحقيقةِ وليس في نومِه، فيقول(2): (الطويل)

أبَاحَ لِطَيفِي طَيفُهَــا الخَدَّ والنَّهدا فَعَضَّ به تُفَاحَةً، واجتَنَى ورْدَا
وألثمــني ثغــراً شممت نسيمه فخيل لي أني شممت بــه نــدّا
ولَو قَدرَتْ زارَتْ علَى حالِ يقْظَةٍ ولَكِنْ حِجَابُ البيْنِ ما بينَنَا مُدَّا

كما أنّه جعل من زيارةِ طيفِها له سبباً في التخفيفِ من أَرَقِه وسُهاده، حتّى أنّه تَخيَّلَ أنَّه عانَقَها ولَثَم ثَغرَها، ممَّا ساعَدَهُ على أنَّه يَشعُرُ بِطَعمِ النَّومِ، فيقول(3): (الكامل)

إنِّي رَأيْتُكِ فِي المَنَامِ ضَجِيعَتِي وكَأنّ سَاعِـــدَكِ الوَثِيرَ وِسَـــادِيَ
وكَأنَّمَا عَانَقْتِني، وشكَــوْتُ ما أَشْكُوهُ من وَجْدِي وطُولِ سُهَــادِي
وكَأنَّنِي قَبَّلْتُ ثَغرَكِ والطُّلَــــى والوَجنَتيــــنِ، ونلتُ منْكِ مُرَادِي
وَهَوَاكِ، لَولا أنَّ طَيفَــكِ زَائِرٌ فِي الغِبِّ لِي، ما ذُقتُ طعمَ رُقَادِي

ولعل في استخدام الشاعر(كأن) إشارة إلى وقوع الأمر في الخيال وليس في الواقع أو الحقيقة.

وقد زار خيالُ الحبيبةِ أبا الفضل جعفر بن شرف عند الصباح، واشتكى لهذا الخيال نحولَه وضعفَه لبُعدِها عنه، فيقول(4): (الوافر)

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص176-177.

(2) المعتمد، الديوان، ص7.

(3) المعتمد، المصدر السابق، ص9.

(4) ابن خاقان، القلائد، ق4، ص801؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق3م2، ص884.

خَيـــالٌ زارني عِنْد الصَّباحِ   وثَغْرُ الشَّرقِ يبســـمُ عن أقَاحِ
وقَد حُشِر الصَّباحُ لـــه ونَادى   فأصغَى النَّجْمُ منْهُ إلـــى الصَّباحِ
وزائِـــرةٍ طَردْتُ لَها منَامي   وقَد عقَـــد الكَـــرى راحاً براحِ
وأدنَـــاها الهَـــوى حتَّى أدَلَّتْ   فَباتَـــــــتْ بيْن ريْحانٍ وراحِ
وأضنَاني الهَوَى فنَعتْ نُحُولي   وهَل يُنعَى النُّحُولُ على الصِّفَاحِ
وقَد أحْلَلْتُ حُبَّـــكِ من فؤادي   محلَّ المـــالِ منْ أيْدي الشِّحَاحِ

كما جعل من زيارةِ الطّيفِ آخرَ أملٍ له بعدَ فراقِ الحبيبةِ، ولعل هذا الطيف يشفيه من مرضه، فيقول[1]: (الرمل)

فِي ضَمانِ الطَّيفِ بُقيا رمقِي   صدقَتْ عيني أمْ لَم تَصدُقِ
زارنِي بلْ عَادنِي مِن مرضِي   إذْ شفَاني زارني فِي قَلَقِ
نَعمتْ عينَاكَ بالطَّيـــفِ وقَد   نَفثَ الفَجْـــرُ بِهِ عن حنَقِ

وقد استحضر أبو جعفر ابن المعتصم بن صمادح (معز الدولة)، طيف الحبيب وخياله أثناء كتابة رسالة لها، فيقول[2]: (الطويل)

كَتَبْتُ وقَلْبي ذُو اشتياقٍ ووحْشَةٍ   ولَو أنَّهُ يَسطِيعُ مرَّ يُسلِّـــمُ
جَعلْتُ سواد العَينِ فيه ســـوادُهُ   وأبيضُه طِرساً وأقبَلْتُ ألثُمُ
فَخُيِّـــلَ لِـــــي أنِّي أقبِّلُ موضِعاً   يُصافِحُهُ ذَاك البنَانُ المُسلِّمُ

ونلحظ من خلال النصوص السابقة أنَ الشعراءَ تغزلوا بالنساء بصرف النظر عن المحبوبة، أو بمعنىً آخر، دون التصريح باسمها، لكنّ بعضَهم صرَّح باسمِ الحبيبة التي يتغزل بها، وقد ظهر ذلك عند المعتمد بن عباد، فقد تغزّل بزوجته "اعتماد الرميكيّة"، وكذلك ببعض جواريه.

فمن تغزل المعتمد بزوجته اعتماد، أنه يرد عليها عندما لامته في أحد الأيام، وعبّر لها عن حبِّه وهيامه بها، فيقول[3]: (الكامل)

بَكَرتْ تَلُوم، وفِي الفُؤادِ بَلابِلُ   سفَهاً، وهلْ يَثنِي الحَلِيم الجَاهِلُ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص874.

[2] المقري، النفح، ج3، ص371.

[3] المعتمد، الديوان، ص23، وله في نفس المعنى نص آخر في ديوانه ص 20.

يـا هـذِه، كُفّي، فإنّي عاشقٌ   من لا يردُّ هـواي عنهـا عاذلُ
حُبُّ اعتماد في الجَّوانح ساكنٌ   لا القَلبُ ضاقَ به ولا هُو راحلُ
يا ظَبيـةً، سَلَبَتْ فُؤادَ مُحمَّد   أولَمْ يُروّعْك الهزبَـرُ الباسلُ؟
مَـن شَكَّ أنّي هَائمٌ بكَ مُغرَمٌ   فَعلَى هَواك لـه علَيَّ دلائـلُ
لـونٌ كَستـهُ صُفرَةٌ، ومَدامعٌ   هَطَلَتْ سحائبُها، وجِسمٌ نَاحلُ

فهو يرى أن اعتماد ظبية سيطرت على قلبِ الهِزبْرِ محمّد، وإذا كانت تشكُّ في حبِّه لها، فهنالك من الأدلَّة ما يثبتُ ذلك، ومنها اصفرارُ لونه ودموعُه الهاطلةُ.

وقد نظم المعتمد قصيدة في حبِّ اعتماد، جعل كلَّ بيتٍ منها يبدأ بحرف من أحرف اسمها، لتبقى خالدة على مرّ الزمان، وشاهدةً على حبِّه لها، فيقول فيها[1]: (المتقارب)

أَغائبةَ الشَّخْـصِ عَنْ نَاظِري   وحاضِـرةً فـي صميمِ الفُؤادِ
عَلَيْـكِ سـلامٌ بِقَدْرِ الشُّجُو   نِ، ودَمْعُ الشُّؤونِ، وقَدْرِ السُّهادِ
تَمَلَّكْـتِ منّي صَعْـبَ المَرَا   مِ، وصادفْـتِ وُدّي سهْلَ القِيادِ
مُرادي لُقيَـاكِ في كُـلِّ حينٍ   فَيَا لَيْتَ أنّـي أُعطِي مُرادي
أَقيمـي عَلَى العَهْدِ مَـا بَيننَا   ولا تَستَحيلـي لِطُـولِ البعادِ
دَسَسْتُ اسْمَكِ الحُلْوَ فِي طَيِّه   وأَلَّفْـتُ فيـهِ حُرُوفَ"اعتمادِ"

ويُذكَرُ أنّ المعتمد اصطبح مع زوجته أمِّ الربيع (اعتماد)، وتأخّر عن الندماء، فأرسل إليه ابنُ عمّار وزيره، يستخبره عن سبب التأخُّرِ، فردَّ عليه المعتمد أنّه قريب من الشمسِ وهي زوجته، كما أنّ هؤلاء الندماء هم أُنسَهُ، إنْ غَابُوا فإنّه يأنَسُ بأمِّ الربيع، فيقول[2]: (الطويل)

خَليلَيَّ قُولا، هَل عَلَيَّ مَلامَةٌ   إذا لَم أغبْ إلاّ لِتَحضُرَني الشَّمسُ
سَلامٌ،سَلامٌ، أنتُمَا الأُنسُ كُلُّهُ   وإنْ غِبتُمَا ،أمُّ الرَّبيعِ هي الأُنْسُ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص8.

[2] المعتمد، المصدر السابق، ص18-19.

فأما الجواري فقد نلن نصيبا من غزل المعتمد، وقد صرّح بأسمائهنّ، ومنهُنَّ جاريته **جوهرة**، التي نظم فيها كثيرا من الأشعار ومن ذلك قوله في صدِّها وهجرِها له[1]: (الرجز)

جوهـــــرُ، قَـدْ عذَّبني منْكِ تَمادي الغَضبِ
فَزفْرتي في صعَـــــد وعبْرتي في صبَبِ
يا كَوكَبَ الحُسنِ الـذي أَزْرى بزُهْرِ الشُّهُبِ
مسْكَنُـــكِ القَلْبُ فَلا تَرضى لَهُ بالوصَبِ

كما كتب لها يسترضيها لعتاب جرى بينهما، فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها، فقال[2]: (السريع)

لَمْ تَصفُ لي بعدُ وإلاّ فَلِمْ لَم أر فـي عُنْوانها جوهره
دَرتْ بأنّي عاشِقٌ لاسمها فَلَمْ تُــردْ للغَيظ أنْ تَذكُرَهُ
قَالَـتْ: إذا أبْصــرَهُ ثانياً قَبَّلَـــهُ، والله لا أَبْصرَهْ

أما جاريته **سحر**، فقال عنها[3]: (الطويل)

عفَا اللهُ عنْ سحرٍ علَـى كُلِّ حالَةٍ ولا حُوسبْتُ عمَّا بها أنَا واجدُ
أَسحْرٌ، ظَلَمْتِ النَّفسَ واخترتِ فُرقَتي فَجمَّعتِ أحزاني وهُـنَّ شَوارِدُ
وكانَت شُجُوني باقتِـرابِــكِ نُزَّحاً فَها هُنَّ، لمّا أنْ نَأَيْتِ، شَواهِدُ

ومنها قوله أيضاً:

فَإنْ تَستَلِذّي بَرْدَ مَائِكِ بَعْدَنَا فَبَعدكِ مَا نَدْري مَتَى المَاءُ بَارِدُ

كما مزَجَ حُبَّ **وداد** مع الخمرة، فيقول[4]: (الخفيف)

اشْربْ الكَأسَ في وِدادِ ودَادِك وتَأنَّسْ بِذِكرِها في انفرادكَ
قَمرٌ غَابَ عَن جُفُونِـكِ مَـرآ هُ، وسُكنَاهُ في سَوَادِ فُؤادِكَ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص3؛ انظر أيضاً ص 19 في الديوان.

[2] المعتمد، المصدر السابق، ص14.

[3] المعتمد، المصدر السابق، ص8؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص45.

[4] المعتمد، المصدر السابق، ص10.

ويشير في نص آخر عن ليلة اختلطت فيها الخمرة مع جسدها، فكأنها الذهب اختلط مع الفضة، فيقول[1]: (الكامل)

لَو زُرتَنا لَرَأيتَ مَا لَمْ تَعهدِ ذَوْبَ اللُّجينِ خَليطَ ذَوبَ العسجدِ

نُطْفٌ يُجملُهَا فَقَاقِعُ مِنْهُ مَا جمُدَتْ لِتَحفَظَ جِسمَ مَا لَم يَجْمُدِ

الغزل بالغلمان:

لقد كان من صفات الأندلسيين حُبُّ الشباب، وشرب الخمرة[2]، وسنشير إلى تعلقهم بشرب الخمرة في موضوع لاحقاً، أمّا حُبُّ الشباب، فقد وصل إلى مستوىً شكّل فيه ظاهرةً شاعت في جميع أنحاء المجتمع الأندلسي على اختلاف طبقاته.

ولقد بدأ هذا اللون من الغزل في مجالس الأمراء والملوك، فقد كان لاقتناءِ عددٍ من الملوكِ والأمراءِ لعددٍ كبيرٍ من الغلمان، إضافة إلى البحث عن وسائلَ أخرى وجديدةٍ للمتعة الجنسية أثَرٌ كبيرٌ في شيوع هذا الفن الشعري في ذلكَ الوسطِ في الأندلس في القرون الثلاثة الأولى من الوجود العربي فيه[3].

أما في عهد ملوك الطوائف فقد دفع الثراءُ الفاحشُ وكثرة مجالس الخمرة التي يكثُرُ فيها هؤلاء الغلمان من السُقاةِ، وكذلك إقدامُ النَخَّاسينَ على افتتاح مَلاهٍ عامةٍ للعوام ودورٍ خاصةٍ لكبار القوم دورٌ في انتشار التعلُّقِ بالغلمان[4].

ولقد عبّر الشعراء عن هُيامهمِ ببعض هؤلاء الغلمان وعشقهم لهم، وقد أشار ابنُ بسامٍ إلى تفنُّنِهم في هذا المجال، بقوله: "أمّا صفاتُ المعذَّرين من الغلمان، فقد جَرَتْ خُيولُ فرسانِ هذا الشان، بهذا الميدان، وتفنَّنُوا في ذلك نثراً ونظماً، وتطاردوا فيه مدحاً وذمّاً"[5]. ثم أورد أشعاراً في هذا الموضوعِ لشعراءَ كُثُرٍ، وجاء بعضها في مدح الغلمان أو في ذمهم.

---

[1] المعتمد، الديوان، ص11.

[2] بوتشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع، الذهنيات، الأولياء)، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993م، ص100.

[3] بوتشيش، المرجع السابق، ص100؛ الطويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص58- 59.

[4] الركابي، في الأدب الأندلسي، ص121.

[5] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص144.

ولقد نظم بعض شعراء البيوتات سواء البيوتات الحاكمة أو العامة أشعارا في الغزل بالغلمان، ومن هؤلاء المعتمدُ بن عباد الذي يقول في غلامٍ رآه يوم العرُوبةِ (الجمعة)، وهو ذلك اليوم الذي وقعت فيه معركة الزلاّقة[1]: (المتقارب)

ولَمَّا اقْتَحمْتَ الوغَى دارِعاً   وقَنَّعْتَ وجهك بالمِغْفَــرِ

حَسِبْنَا مُحيَّاك شَمس الضُّحا   علَيها سحَابٌ منَ العَنْبَر

وفي نصٍ آخر في الموضُوعِ نفسه، يقول[2]: (الكامل)

أَبْصرتُ طَوقَكَ بينَ مُشْتَجرِ القَنَا   فَبَـــدا لطَرفِـــي أنَّـــهُ فَلَكُ

أَولَيس وجهُــك فَوقَــهُ قَمَــراً   يُجْلَــى بنَيّـــرِ نُورِه الحَلَكُ

ولَه في غلامٍ اسمُه **سيف**، حيث يصفُ عينيه وغنَجِه، ويرى أنَّهُمَا أسراه وقَتَلاهُ، فيقول[3]: (البسيط)

سُمِّيتَ سيفاً، وفي عينَيْــكَ سيفَـــانِ   هذا لقَتْلي مَسلُـــولٌ وهــذانِ

أما كَفَـــتْ قَتلَـــةٌ بالسّيــفِ واحدةٌ   حتّى أُتيح من الأجفانِ ثِنتَـــانِ

أَسرْتَـــهُ، وثَنَـــانِـــي غُنْـــجُ مُقلَتِه   أسيرهُ، فكلانَا آسرٌ عـــــانِ

يا سيفُ أمسِكْ بِمعرُوفٍ أسير هوىً   لا يبتَغِي منْكَ تَسريحاً بإحْسَانِ

أما أبو عامر ابن شُهيدٍ فقد تغزّل بغلامٍ يهوديٍّ كان مقيماً عند باب اليهود بقُرطُبةَ، ولم يُشغلْ فكرَ أبي عامرٍ بل أشغل اليهود أيضاً، ممّا جعلَهم يظنُّون أنَّه يوسفَ عليه السلام في جماله، فيقول[4]: (المتقارب)

لَقَد أَطلَعُوا عنْدَ بَابِ اليهُـــــو   دِ بَدراً أبى الحُسنُ أنْ يُكسَفَا

تَراهُ اليَهُـــودُ علَـــى بَابِهَـــا   أَمِيــراً فَتَحسبُـــهُ يُوسُفَـــا

وقد تغزل أبو عبد الله بن شرف بغلام اسمه **عمر**، وشبهه بعمر بن الخطاب أمير المؤمنين في عدلِه اسماً، لكنّه جار وظلمَ ابن شرفٍ بهجره له، ويرى أنّه في

---

[1] المعتمد، الديوان، ص17.

[2] المعتمد، المصدر السابق، ص23.

[3] المعتمد، المصدر السابق، ص27.

[4] ابن شهيد، الديوان، ص127؛ انظر: المقري، النفح، ج1، ص156.

الأصلِ قمر لكنّهم أبدلوا القاف عينا خشية العين، أيْ الحسد. فيقول[1]: (البسيط)

يا أعدلَ النّاسِ اسما كم تَجُورُ علَى فؤاد مُضنَاك بِالهجْرانِ والبيْنِ

أظُنّهُم سرقُوك القَافَ مِنْ قمَرٍ فَأبدلُوها بِعينِ خِيفَةَ العينِ

المرأة العاشقة:

لقد ظهر في الأندلس في القرن الخامس الهجري عددٌ من الشاعرات من ذوي البيوتات، ممَّن عُرِفنَ بالعشقِ والتغزُّلِ بمن أحببْنَ، ومن بين هؤلاء الشاعراتِ أمُّ الكرام بنت المعتصم بن صمادح، التي نظمت شعراً في فتىً اشتهرَ بلقبِ (السمَّار)، أحد عمال القصر عند أبيها ملك المريَّة، فهو أدنى منها مكانةً لكنَّها عشقتْهُ، فنظمت شعراً عبّرت فيه عن لَوعةِ الحُبِّ والشوق، فتقول[2]: (السريع)

يا معْشَرَ النّاسِ ألا فَاعْجبُوا ممَّا جنَتْـهُ لَوعةُ الحُبِّ

لَولاهُ لَم ينزِلْ بِبدْرِ الدُّجى من أُفْقِه العُلْوِيِّ للتُرْبِ

حسبِي بِمنْ أهواهُ لَو أنَّهُ فَارقَنِي تَابَعهُ قَلبِي

كما أنّها لم تكتفِ بوصفِ لوعة الحب فحسب، بل تتمنّى شأنَ باقي الرِّجالِ العاشقين، خلوةً مع الحبيبِ دون أنْ يراهُما أحدٌ، فتقول[3]: (الطويل)

ألا لَيتَ شعرِي هل سبيلٌ لِخلَوةٍ يُنَـزَّهُ عنْهَا سَمْـعُ كلِّ مُراقِبِ

ويا عجباً أشتَاقُ خَلوةَ منْ غَدا ومثْواهُ ما بينَ الحَشَا والتَّرائِبِ

5.3 العتاب:

يعد هذا الموضوع من بين الموضوعات التي كان لها حضورٌ قليل في أشعار شعراء البيوتات. وقد تراوح العتابُ بين عتاب الأصدقاء والأهل، ففي هذا المجال يقول المعتضد بن عباد مخاطباً والدَه القاضي أبا القاسم[4]: (الطويل)

أطَعْتُكَ فِي سِرِّي وجَهْـرِي جاهِـداً فَلَمْ يَكُ لِي إلا المَـلامَ ثَوابُ

---

(1) ابن شرف، الديوان، ص100.

(2) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص202-203.

(3) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص203.

(4) المعتضد، الديوان، ص109؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص31-32.

أعْملتُ جهْدِي فِي رِضاكَ مُشمِّـرا ومن دون أنْ أُفضِي إليه حجـابُ
ولمّا كَبا جدِّي لَديْـــــك ولم يسُغْ لنفْسي علَــى سوءِ المقَامِ شَرابُ
وقَلَّ اصطباري حيــن لا لــي عندكُمْ من العطْـــف إلاّ قَســوةٌ وسبابُ
فَررْتُ بِنفْســي أبْتَغـــي فُرْجةً لها على أنَّ حُلوَ العيْشِ بعدك صـــابُ

فهو يعاتب والدهُ على سوء معاملته له، وجفائه إيّاه، على الرغم من إعماله الجهد في رضاه، غير أنّ سعيهُ باء بفشلٍ عظيمٍ، ممّا اضطرّه إلى الرحيل رغبةً في راحة النفسِ، غير أنّه وجد أنَّه لا سبيلَ للإقامةِ بعيداً عنه، ولم يجد سوى العودة إلى رياض والده، وقد جاءه رسول أبيه، فيقول:

وما هزّني إلاّ رسُولُك أنْ جرتْ إليَّ به صُمُّ الهِضاب رِكَـــابُ
فقَالَ مقَالاً لم أجِـدْ عن مقَاله منَايا وعنْ بعضِ الأمورِ منَابُ
دعَـــاكَ أميرُ المؤمنين مثُوبـــاً فَقُلتُ: أميرُ المؤمنيـــن مُجَابُ
فَجِئتُ أغُذُّ السَّيرَ حتَّى كأنَّمـــا يطير بِسرجي في الفَلاة عُقَابُ
وما كنتُ بعد البينِ إلاّ مُوطِّنَاً بعزْمي علَى أنْ لا يكُونَ إيابُ
ولَكنَّكَ الدُّنيـــا إليَّ حبيبـــةٌ فَما عنْكَ لي إلاَّ إليْـكَ ذِهابُ

فالمعتضد لبّى نداء أبيه الذي حمَّلَه الرسولَ، لأنّه يرى فيه الدنيا ولا غنىً له عنه.

أما في مجال عتاب الأهل، فقد عاتب المتوكلُ بنُ الأفطسِ أخاهُ يحيى، لمّا علِم بسوءِ ما ذُكر به في مجلسِه، فيقول معاتباً له(1): (الطويل)

فَما بالُهُـــــمْ لا أنْعَمَ اللهُ بالَهُم يُنيطُونَ بي ذَمّاً وقَد عَلِمُـوا فَضْلـي
يسيئون فِيَّ القَــولَ جهلاً وضُلّةً وإنّي لأرجُو أنْ يَسُـــوءَهُم فِعْلــي
فَيا أيُّها السَّاقي أخاهُ على النَّوى كُؤوسَ القَلَــى مَهْلاً رُوَيْـدكَ بالعَلِّ
لِنُطفِئَ ناراً أُضرِمَتْ في نُفُوسِنَا فَمِثْلــي لا يُقْلَــى ومِثْلُكَ لا يَقْلـــي
أَلَسْتُ الذي أَصفَاكَ قِدْمَـا ودادَهُ وأَلْقَى إليكَ الأمرَ فـي الكُثْرِ والقُـلِّ
وصَيَّرَكَ الذُّخْرُ الغَبيـطُ لــدهره ومَنْ لِيَ ذُخراً غيرَكَ اليومَ لا مَنْ لِيَ
وقَدْ كُنْتَ تُشكينِي إذا جِئْتُ شاكياً فقُلْ لي لمَن أَشْكُو صَنيعَكَ بي قُلْ لِي

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص648-649؛ ابن الأبار، الحلة، ج2، ص104-105؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص303- 304.

وقد عاتب بعض الشعراء أصدقاءهم، ومن ذلك ما بعثَ به أبو بكر ابن القبطرنة إلى صديقٍ له يكنّى أبا عامرٍ، يعاتبُهُ فيه لعدمِ عيادته إيَّاه عندما زار إشبيلية حيث يقيم هو وأقام فيها ثلاثين يوماً، ويشتدُّ ابن القبطرنة في عتابه قائلاً له إنْ كان قدْ تناسى حُرَّ الوفاء ولم يَرَ في أبي بكرٍ أهلاً للودادِ، فإنّه يحضُّهُ على زيارته رغبة في نيلِ ثوابِ زيارة العليل الذي هو صديقُه أبو بكرٍ، غيرَ أنّه يعودُ معبِّراً عن أسفهِ الشديد، ذلك أنَّ شيمة الزمان انعدام الوفاء والأحبة، فيقول[1]: (المتقارب)

إليكَ وإنْ كُنْتَ قُطْبَ الوفَـا   أبا عَـامرٍ والأريبَ الأديبـا
تَكُونُ بِحِمْصٍ ثَلاثينَ يومـاً   وأُصبِحُ منكَ القَصـيَّ الجَنيبَا
نَسِيتُ وِدادِي وحُرَّ اعتِقَادِي   وجَمعِي بِأُفْقِي علَيْـك القلوبا
وَهبْكَ تَنَاسيْـتَ حُرَّ الوفَـا   ولَمْ تَـرَ لِي فِي وِدادٍ نَصِيبَا
فَهلاَّ رَعيْتَ جَزِيْـلَ الثَّواب   وعُدْتَ العَلِيلَ وزُرتَ الغَرِيبَـا
وتَدرِي الحدِيثَ وماذا عليهِ   عائـدُ ذِي السُقْمِ حتّى يؤوبا
ولكنّها شيمةٌ للزَّمـانِ   أنْ لا صَدِيـقَ وأنْ لا حَبِيبا

وقد عاتب أبو الحسن ابن جُودي صديقاً على بحثِهِ وسعيِهِ وراء هنَاته وعيوبه عند الآخرين، حاضّاً إيَّاه على تجاوز هذه الصفةِ السيئة، وعلى الحقدِ على من يبعث مثل هذا السلوك الشائن غير الحميد، فيقول[2]: (الطويل)

عَساكَ تَغُضُّ الطَّرفَ والنَّقْدَ، إنَّها   هنَاتٌ، وما بُقيا الهنَاتِ علَى النَّقْدِ
تَجاوَزْ لَهَا واحْقدْ عَلَى باعِثٍ لَهَا   فَإنَّ الهوَى والدَّهرَ أَهْلانِ لِلْحِقْـدِ

ويعاتب أبو الحسن ابن الجدِّ شَخصاً، لم تذكُرِ المصادرُ اسمه لتَسرُّعِهِ في الحكم على الآخرين، ويحضُّهُ على الرويَّةِ والمراجعة لما ينقل إليه، فيقول[3]: (الطويل)

فَطُولُكَ فِي إرْعَاءِ سَمْعِكَ سَاعَـةً   لِتَسْمَـعَ مَا شَطَّتْ بِهِ عَنْكَ أزمَـانُ
وَرَاجِعْ ولَو فِي صَفْحَةِ المَاءِ رَاقِماً   وَطَالِعْ فَيَكفِينِي مِن الطِّرسِ عُنوَانُ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص768.

[2] الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص253.

[3] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص340.

وقد مزج رفيع الدولة بن صمادح بين العتابِ الشديدِ الذي يصلُ إلى حدّ الهجاء والفخر بالذات، بعد ذهاب المكانة التي احتلها أهلُه من أمراء المريّة، وذلك فيما ورد عن استئذانه بالدخول على أحد وجوه المرابطين، وكان في مجلس المُرابطِيِّ رجُلٌ فقال: "تلكَ أمَّةٌ قد خَلَت "استحقاراً واستثقالاً للإذنِ لَهُ، فبلغ ذلك رفيع الدولة فكتب إليه معاتبا إيَّاهُ[1]: (الطويل)

خَلَتْ أُمَّتِي لَكنَّ ذَاتِي لَمْ تَخُــــلْ   وفِي الفَرعِ ما يُغنِي إذا ذَهب الأَصْلُ
وما ضَرَّكُم لَو قُلتُمْ قَولَ ماجِــدٍ   يكُـــونُ لَهُ فِيما يجِيءُ بِه الفَضْلُ
وكُــلُّ إنَــاءٍ بِالذي فِيْــهِ راشِحٌ   وهَلْ يمْنَــحُ الزّنْبُورُ ما مَجَّهُ النَّحْلُ
سأصْرِفُ وجْهِي عنْ جانِبِ تَحلُّهُ   ولَو لَم يكُنْ إلا إلَــى وجْهِكَ السُّبُلُ
فَمَــا موضِــعٌ تَحتَــلُّهُ بِمُــرفِّعٍ   ولا يُرضَــى فِيــهِ مَقَالٌ ولا فِعْــلُ
وقَدْ كُنتَ ذا عذْلٍ لَعَلَّكَ تَرْعَــوِي   ولَكنْ بِأربابِ العُلا يَجْمُــــلُ العذْلُ

فمما سبق نلحظ أنَّ موضوع العتاب لم يكن له حضورٌ كبيرٌ في شعرِ ذوي البيوتات، كما أنَّ معظم ما انتهى إلينا من نصوصٍ كان في شكل مقطعات قصيرة.

6.3 مدح الأصدقاء:

لم يكن مدح الشعراء مقتصراً على ذوي السلطة والسياسة، من حكام وأمراء، بل مدحوا آخرين ممن ليس لهم في سلك السياسة نصيب، أو العلماء وربما الأصدقاء وتربطهم بهم علاقات خاصة، ولعل ذلك هو سبب تأجيلنا لهذا الموضوع عن موضوع المدح الذي تناولناه في موضوعات البعد العام.

فقد مدح أبو عامر ابن شهيد أبا محمد ابن حزم الفقيه الكاتب الأديب الشاعر، فيقول فيه[2]: (الطويل)

ودُونَ اعتِزَامِي هَضبَــةٌ كِسرَوِيَّةٌ   مِن الحَزمِ سَلمَانِيَّةٌ فِي المَكَاسِرِ
إذا نحنُ أسنَدنَــا إليهــا تَبَلَّجَــتْ   مَوَارِدُنَــا عَن نَيِّرَاتِ المَصَــادِرِ
وأنتَ ابنُ حزمٍ منعِشٌ مِن عِثَارِهَا   إذا مَــا شَرِفنَــا بِالجُدُودِ العَوَاثِرِ

---

[1] المقري، النفح، ج3، ص370.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص111.

وما جرّ أذيالَ الغنى نحــو بيتِــه كأروع مُعــرورٍ ظُهُور الجرائرِ
إذا ما تَبغّى نَضرةَ العيشِ كرَّهــا لَدى مشرعٍ للمــوتِ لَمحةَ نَاظرِ

فيمدح ابنُ شهيد زهده في الدنيا، وأنّه لا يبغي شيئاً منها لإدراكه أن الموت يضيِّعُ ما يجمع الفرد من الدنيا.

كما مدح أبو عبد الله ابن شرف شخصاً اسمه "علي" من العامة اشتهر بالأدب وعلا شأنُهُ في عهد المعز بن باديس في القيروان، فيقول عنه[1]: (البسيط)

جاورْ عليَّـــاً ولا تحفَلْ بحَــادثَـــةٍ إذا ادَّرعْتَ فَــلا تَسألْ عنِ الأَســلِ
اسمٌ حكَاهُ المُسمَّى فِي الفعَــالِ فقد حَــازَ العلِيَّين مِن قَــولٍ ومِن عملِ
فالماجِــدُ السَّيِّدُ الحُــرُّ الكَريــمُ لَه كالنعتِ والعطفِ والتوكيــدِ والبــدلِ
زانَ العُلا وسَــواهُ شَانَهَــا وكَــذَا للشَّمسِ حَــالانِ فِي الميزانِ والحملِ
وربّمَــا عابَــهُ ما يفخَــرُونَ بِــه يُشنَا مِن الخَصْرِ مَا يهوى مِن الكَفَلِ
سَلْ عنهُ وانطِقْ بِه وانظُر إليهِ تَجِد مِلءَ المَسامعِ والأفــواهِ والمُقَـــلِ

كما مدح أبو القاسم ابن الجدّ شاعراً يدعى أبا عامرٍ، ولعلّه أخوه، يقول[2]: (الطويل)

أبَــا عامِــرٍ أنصِفْ أخَـــاك فإنّهُ وإيّاكَ فِي محضِ الهَوى الماءُ والخَمرُ
أمثلُك يبغِي فِــي سمائك كَوكَبَــاً وفي جوِّكَ الشّمسُ المنيــرةُ والبَــدرُ
وتَلتَمسُ الحصباءَ فِي ثَغَبِ الحصَا ومِن بحرِك الفيَّــاضِ يُستَخــرَجُ الدُّرُّ
عَجِبتُ لِمن يُهدَى مِن الصُّفرِ تومةً وقَد سَالَ فِــي أرجَاءِ معدَنِــه التِّبْــرُ

فهو يطلب من الشاعر أن ينصِفَهُ في القَدرِ، لأنه قرينه كالماء والخمر، كما أنّ أبا عامر كالكوكب في السماء والشمس والقمر، و إنّه ينطق بكلامٍ كالدُّرّ بل أجمل، كما تسيل عنده بحورٌ من التبرِ لفصاحته وبيانه.

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص85؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص222؛ *والممدوح هو علي بن أبي الرجال، اشتهر بالأدب، وقد طرّز ابن رشيق كتابه العمدة باسمه.

[2] الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص361؛ انظر نصاً آخر له: الأصفهاني، المصدر السابق، ص359-360؛ وذكرها ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص319-320.

وقد مدح أبو الفضل جعفر بن شرف أحد أصدقائه عندما زاره في شهر رمضان، فيقول[1]: (الوافر)

قدمتَ لنصف شهرِ الصّومِ بُرءاً لمــا يشكُو لبُعــدِك مــن سُقَــامِ
فلمّـــا أنْ طَلَعتَ لَنَــا هــلالاً حسِبنَا الفطر فِــي نِصفِ الصِّيــامِ
وصِرتَ البــدر لاح فَما عجِبنَا لِنصفِ الشّهرِ مــن بــدرٍ تَمــامِ
فإنْ تمكُثْ فطَــودٌ فِــي ثيــابٍ وإنْ ترحــل فَسهــمٌ فِــي اعتِــزامِ

فيجعل من قدوم صديقه في نصف شهر الصوم شفاءً من كلِّ مرضٍ، وشبه بداية طلوعه بالهلالِ حتى ظنّوا أنّه هلالُ العيد، ثم اكتمل نورُهُ كالبدرِ في تمامه، كما أنه إذا أقام فهو كالطودِ، وإذا رحلَ فهو كالسهم لسرعته، ولذلك لا يُملُّ من طول إقامته.

كما مدح أبو بحر ابن عبد الصمد أبا بكر ابن زيدون الشاعرَ الكبيرَ في قصيدة يقول في مطلعها[2]: (الوافر)

زمـــانٌ يمنَـــعُ الخيـــلَ الطِّرَادا وسيْـــرٌ يحسِبُ النَّخْـــلَ القتَادَا

فيشكو الزمان وانقلاب الموازين، ثم ينتقل إلى مدح ابن زيدون، بقوله:

لَكَ البِشرُ الذي سلّى وســـرّى وأدركَ منتَــهـــى أمــلِي وزادَا
وما أخشى عليـــك نفادَ لَونٍ ومَن يَخشَى على الشّمسِ النَفَادَا
تُنَـــزِّهُك العــزائمُ أنْ تُضاهَى وتَمنَعُــك المكَـــارِمُ أنْ تُســادا
فإنْ خَصَّتْــكَ بالحَمــدِ القَوافي فَــقَـــد عَمَّـــت أياديـكَ العبـــادا
أجَـــادَ نظَـــامَهَا قَلَمــي وحلّى ولَولا وَصْـــفُ مجــدِكَ مَا أجادَا
أبَـــا بكـــرٍ تقولُ لِــيَ القَوافي وَجدتَ البَحـــرَ فاطّـــرِحِ الثِّمَـــادا
لك القَلَمُ الذي إنْ خَـــطَّ سَطراً يودُّ المســـكُ لـــو كَـــانَ المــدادا
سَلَلتَ على المَهارِقِ منهُ حدَّاً فَلَلتَ بِـــه الصَّـــوَارِمَ والصِّعَـــادا
فإنَّ النَّـــاسَ والأيَّـــام عيـــنٌ وَجدتُـــكَ بَيـــنَ جَفنَيْـــهَـــا سوَادَا

فهو يزفُّ البشرى لابن زيدون، فهو لا يخشى عليه الانتهاء إلا إذا نفدت الشمس وانتهت، فعزائمه لا تضاهى ومكارمه تمنع عنه أن يساد، كما أنّ قوافي

---

(1) الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص23-24.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص812-813.

الأشعار التي مدح فيها لا تعادل شيئا مع ما قدّم للعباد من عون وللأمراء من مدح، كما أنّ شعر ابن عبد الصمد اكتسب الجودة لأنّه نُظِم في مدح ابن زيدون، ويشبِّه شعر ابن زيدون بالبحر عند مقارنته مع شعر الآخرين، فهو يمتاز بالقوة والجودة في النظم.

وقد مدح أبو محمد ابن القبطرنة بلاغة أبي نصر الفتح بن خاقان[1] التي لا تجارى، حيث يقول مخاطباً إياه في رسالة شعرية يقول[2]: (الطويل)

لِتعلَم أنّــي عــن جوابِكَ عَاجِزٌ ومُعتَــذِرٌ فيه، فَقُــل أنا عــاذر
وكَيفَ أُجَارِي سابِقاً لَم يقُم لَهُ هُبُوبُ الصَّبا، والعاصِفَاتُ الخَواطِر
إذا قيلَ:من هذَا؟ يقُولُون: كَاتب وإنْ قِيلَ: من هذا؟ يقولُ: شَاعِــر
وإنْ أَخَذَ التَّحقيــقُ فِيــهِ بِحقِّهِ فَقِيــلَ: ومَن هذا؟ يقولُون: ساحر

فابن القبطرنة يصور عجزه عن مجاراة ابن خاقان السابقُ في النظم والنثر، فهو كاتب وشاعر وساحر، لا يُجارى في أسلوبه وبلاغته، وبلغ في الإبداع درجة عالية، ولذلك يشار إليه بالبنان ويُسألُ عنه المجالس.

7.3 الخمرة:

لقد شاعت ظاهرة شرب الخمرة في الأندلس في مختلف طبقات المجتمع، وقد كان شيوعها ناتج عن انتشار ظاهرة التحلل من القيم الدينية والاجتماعية في بعض جوانب المجتمع الأندلسي، فتحدث الشعراء عن لذائذ الخمرة من شربٍ ولهو ومجونٍ، وبالغوا إلى حدٍ كاد أن يصل إلى حد الأدب المكشوف[3].

كما كان للديارات النصرانية دور كبير في إشاعة أسباب اللهو والترف والمجون، إذ إنها أصبحت مقصداً لكثير من أعلام الأدب والسياسة، الذين يذهبون إليها بغية الشراب واللهو بعيداً عن قيود المجتمع في فترة منع الحكام فيها الخمرة،

---

(1) أبو نصر الفتح بن خاقان، مؤلف كتاب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، وكتاب مطمح النفس ومسرح التأنس، توفي 529هـ/1134م.(الباحث).

(2) ابن خاقان، القلائد، ق2، ص430؛ الأصفهاني، ق4ج2، ص314.

(3) هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص274.

واتخذوا أقصى العقوبات في حق شاربيها قد تصل إلى القتل، غير أن ذلك لم يحل دون ترددهم إلى الديارات لما فيها من خمور معتقة، ولمشاهدة ملامح جمال غلمان النصارى وفتياتهم وراهباتهم[1].

كما كان للمزاج الحاد العنيف الذي اتسمت به الشخصية الأندلسية أثرٌ كبيرٌ في إقبال كثير من الأندلسيين على الخمر، على أن هذا المزاج كان وليد حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ إن حياة المحارب الدائم تقوم على الحدّة والعنف والإقبال على فنون المتاع، لذلك ظهر عندهم شعر الخمرة ممزوجاً مع حديثهم عن الطبيعة الأندلسية[2].

لقد أتاحت هذه العوامل الثلاثة الفرصة أمام عدد كبير من الشعراء لوصف الخمرة والتعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم في ظل مجالس اللهو والترف والمجون، وما يتصل بها من وصف بعض مظاهر الحياة الدينية والدنيوية والاجتماعية في الأديرة النصرانية والحانات الملحقة بها.

وقد كان للخمرة حضورٌ واضحٌ في أشعارِ كثيرٍ من شعراءِ البيوتاتِ الأندلسيةِ في القرن الخامس الهجري، حيث وقفوا عند أوصاف الخمرة وسماتها وألوانها وآثارها في عقول شاربيها ومجالسها وسقاتها وما كان يجري فيها من لهو ومجون.

وقد مزج بعض الشعراء بين وصف الخمرة ومظاهر الطبيعة المختلفة، فهذا المعتضدُ بن عباد يتحدث عن شربه الخمرة المعتقة بصحبة عدد من الندامى، وهو شرب استمر حتى اقتراب الصباح، ويصف هذه الخمرة بأنها معتقّةً صفراء لامعة كالذهب، وأن رغوتها ضخمة، وجسمها يبدو في الكأس كجسم فتاة رقيق، يقول[3]: (الطويل)

---

[1] القيسي، فايز، دراسات في الأدب الأندلسي، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين- الإمارات العربية المتحدة، 2002م، ص81- 85.

[2] ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ط3، دار المعارف، مصر، ص293.

[3] المعتضد، الديوان، ص116؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص31؛ ابن الابار، الحلة، ج 2، ص49؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص157؛ المقّري، النفح، ج4، ص243؛ وورد البيتان عند ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص518 منسوبين لابن برد الأصغر.

شربنا وجفْنُ الليل يغسِلُ كحلهُ   بماء صباحِ والنسيمُ رقيقُ
معتَّقةً كالتِّبْــــــر أمّا بخارُها   فضخمٌ وأمّا جسمها فرقيقُ

ويدعو المعتضد في مقطوعة أخرى إلى شرب الخمرة وسط الرياض والمتنزهات وقت الصباح، ويذكر أن لشرب الخمرة في الظروف الباردة التي تتسم بها البيئة الأندلسية أثرا كبيراً في بعث الدفء النفسي والجسدي لشاربيها، فيقول[1]: (مجزوء الكامل)

اشرب على وجهِ الصَّباحِ   وانظر إلـى نَورِ الأقاح
واعلَـــــمْ بأنّك جاهِلٌ   ما لَمْ تَقُـلْ بالاصطِباح
فالدَّهْـــرُ شَيءٌ بـــاردٌ   ما لَـم تسخِّنْهُ بِـرَاح

أما المعتمد بن عباد فجعل حديثه عن "الكرمة" التي كانوا يتخذون منها الخمرة، من خلال تخيُّل حوار بينه وبينها، فقد مرَّ بكرمةٍ فجذبت رداءه، فخاطبها متسائلاً هل عزمت على إذائه؟ غير أنها ردّت عليه بأنها عاتبة عليه لأنه مرّ بها دون أن يسلِّم، وقد كان لها فضل عليه إذ رويت عظامه من رحيقها، فيقول[2]: (الوافر)

مررتُ بكرمةٍ جذبت ردائي   فقلتُ لها:عزمت على إذائي؟
فقالت:لِمَ مررتَ ولم تسلّمْ   وقد رويتْ عظامُك من دمائي

وأكثر شعراء البيوتات من وصف مجالس اللهو والشرب، وما كان يجري فيها من لهوٍ، وما كان يستخدم فيها من آلات وأدوات، ومن هؤلاء أبو عبد الله بن شرف، الذي يقول في مجلس لهو وشرب[3]: (الكامل)

ولقد نعمتُ بليلةٍ جَمُدَ الحَيَـــا   بالأرض فيها والسمـــاءُ تـــذوبُ
جَمَعَ العشاءين المصلّي وانزوى   فيها الرقيبُ كأنَّه مرقـــــوبُ
والكـــأسُ كاسِيَةُ القَميصِ كأنها   لوناً وقدراً معصمٌ مخضـــوبُ

---

(1) المعتضد، الديوان، ص115؛ انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص30؛ المقري، النفح، ج4، ص243.

(2) المعتمد، الديوان، ص2؛ ابن سعيد، رايات المبرّزين، ص48- 49.

(3) ابن شرف، الديوان، ص37-38؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص116-117.

هي وردةٌ في خدِّهـــا وبكأسها تحتِ القناني عسجدٌ مصبــوبُ
مشروبةٌ، للُبِّ شــاربــةٌ ومــا شيءٌ سواها شاربٌ مشــروبُ
منِّي إليــه ومن يديــه إلى يدي كالشمس تطلُعُ بيننا وتغيــبُ

لقد أقيم هذا المجلس في ليلة ماطرة مظلمة، جمع المُصلِّي المتَّقي لشدّة بردها بين صلاتي المغرب والعشاء، ولقد حضر الشاعر هذا المجلس مع بعض أصدقائه، فيتوقف عن وصف ساقٍ جميل، ويشبهه بالفتاة الجميلة الناعمة، ويصف خمرة تشبه في حمرتها خدود الساقي، وكذلك لون الذهب الأصفر المشع، ويشير إلى تأثيرها في عقلِ شاربِها حيث تَذهَبُ به، ويرسم صورة جميلة للكأس أثناء تنقُّلِها بين يَدَي الشَّاعِرِ والسَّاقي، كصورة الشمس في حالتي الغروب والشروق.

وله من قصيدة خمرية أخرى يخاطب فيها نديماً، ويحضُّه على أن لا تخلو كأسه من الرَّاح إذا أظلم الليل، وأن يجاهر بشربها لأنه لا أحد يستحق أن تتخفّى منه فوق البسيطة، ولِيَنْسَى هو ونديمُه النومَ، وكلُّ ذلك لعلّه يخفِّفُ من همومه في هذه الحياة، فيقول[1]: (الوافر)

خليلَ النَّفْسِ لا تُخْلِ الزُّجَاجَــا إذا بحرُ الدّجى في الجوّ ماجا
وجاهر في المدامة من يرائــي فما فوق البسيطة من يداجى
أمِط عنَّا الكرى والليلُ ســاجٍ ودعنا نُلبِس الظلمــاء ساجا
وهات على اهتمام الروح راحاً تعيــد همــوم أنفسنا افتراجاً
إذا مرّيخُهــا زاد احمــــرارا صببنــا المشتري فيها مزاجا

فالشاعر في البيت الثاني يغمز بأولئك الناس الذين يراؤون الآخرين.

ونشير هنا إلى أنّ هذه المجالس غالباً ما كانت تعقد في الليل، فالنصوص السابقة فيها إشارة إلى ذلك، وكذلك قول المعتمد في وصفه ليلة أنسٍ، فيتحدث عن البدر، والنجوم والكواكب فيقول[2]: (الكامل)

ولقد شَرِبْتُ الرَّاحَ يسطَعُ نُورُها والليــلُ قد مدَّ الظلامَ رداءَ
ملِكاً تناهَــى بهجةً وبهــــاءَ حتى تبدّى البدرُ في جوزائه

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص45؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص117.

[2] المعتمد، الديوان، ص28.

وتناهضت زُهرُ النُّجُومِ يحفُّه لألاؤهـا فاستكمـل اللألاء

وترى الكواكب كالمواكبِ حولَه رفعت ثريّاهـا عليـه لواء

ويصف رفيع الدولة بن صمادح مجلساً دارت فيه الخمرة، وقد فعلت في عقول شاربيها فعلها، في ظلِّ طبيعةٍ جميلةٍ من أشجارٍ وطيورٍ مغرِّدةٍ، وقد بدت هذه الخمرة بصفاء لونها كأنها معصورة من خد ساقيها المخمِّرِ، وهو في هذا الوصف يشير إلى الأمكنة التي كان الأندلسيون يفضلون إقامة مجالسهم فيها، فيقول[1]: (البسيط)

أبـا العـلاء كؤوس الـرَّاح مترَعـةٌ وللنَّدامى سرور في تعاطيهـا

وللـغصـون تثـنٍّ فوقهـا طربـاً وللحمـائم سجعٌ في أعاليهـا

فاشرب على النهر من صهباءَ صافيةٍ كأنما عصرت من خدِّ ساقيهـا

ومزج أبو الحسن علي بن عبد العزيز الطبني بين الخمرة والغزل، حيث مجالس اللهو مع الأحباب، وشرب الراح، التي يكاد صفاء لونها المشعُّ ينهي الليل ويبزغ الفجر، ويسعى بها ساقٍ منعمٌ متمايلٌ، فيقول[2]: (البسيط)

كم بالهوادج يوم البين من رشـأ يهفو عليه وشاحٌ جائـلٌ قلـقُ

نادَمْتُـهُ وشبابُ الليـلِ مُـقتبلٌ والنَّجمُ كـفٌّ يحيّينا بها الأفـقُ

في فتيةٍ كنُجُومِ السَّعدِ أوجُهُهُـم في أوجُهِ الحادثات الجَوْن تَأتَلِـقُ

نَلهُو برقرَاقَة صَفرَاءَ صافيـة يكادُ ينجَابُ من أضوائهـا الغَسَـقُ

ماءُ النَّعِيمِ عليه النَّورُ والـوَرَقُ يسعى بها مُرهَفٌ كالغُصنِ نعَّمَـهُ

ويستسقي أبو الحسن الطبني خمرةً من الساقي، ويرجو أن تكون قادرة على تملّك عقله إذا ما شربها، ويدعو لهذا الساقي بالسعادة والسرور إذا ما قدّمها له بالجام أو بالقطيع، وهي من أكبر أواني الخمرة التي كان الأندلسيون يفضلونها فيقول[3]: (السريع)

لا تسقني إلاّ بكـأس إذا شربتُها تملك عقلـي جميـعْ

---

[1] ابن الابار، الحلة، ج2، ص94-95.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص547-548.

[3] ابن سعيد، المغرب، ج1، ص93.

وزادك الله ســـروراً إذا سقيتني بالجام أو بالقطيـــعْ
لا تُرفع الخمرُ إلـــى مدَّةٍ أولى وأحلى من زمان الرَّبيع

وقد أرسل أبو محمد بن القبطرنة بقصيدة يدعو فيها إلى حضور صاحبيه مجلس خمرة، وأن يستغلاّ شربها اليوم قبل الغد، لأنه لا يعرف ما سيحدث غداً، فيقول[1]: (الكامل)

يا صاحِبَيَّ تَنَبَّها لمُدامـــةٍ صفراءَ تُجلَـــى فَـــوقَ كفٍّ أحمـــرِ
واستَقْبِلا بَرْدَ النَّسيمِ وطِيبِه تحتَ الدُّجَى فوقَ الكَثِيبِ الأعْفَـــرِ
واستَعمِلاها سكرَةً قَرويَّـــةً قَبْلَ الصَّبَاحِ وقبلَ صَوتِ العُصْفُـــرِ
فاليومَ بينَ محدِّثٍ ومخبِّـــرٍ وغداً ترى أُحدُوثَةَ المُستَخْبِـــــرِ

فهو يشير إلى عادة الأندلسيين في إقامة مجالس الشراب ليلاً قبل طلوع الفجر، وقبل أن تغرِّد العصافير مستبشرةً بطلوع الفجر.

وقد عبَّر أبو بكر بن القبطرنة عن دور الخمرة في نسيان الهموم، والتخفيف من المصائب، وذلك في حديثه عن فقدانه لأحد أصحابه الذي فجع به، ولكن الخمرة خففت من مصيبته، فيقول[2]: (الطويل)

أبا حسنٍ إنّي فُجعْت بصاحِـــبٍ أنيسٍ ينسّي الهَمَّ عند احتلالِـــــه
غدَت بنتُ بسطامِ بنِ قيسٍ بدنِّها وأَمْسَت كجسمِ الشَّنْفَرى بعد خالِه

فالشاعر جعل كنية بنت بسطام بن قيس للخمرة؛ لأنه كان يسمى أبا الصهباء[3].

وأكثر الشعراء من وصف السقاة من الغلمان والفتيات الذين كانوا يقومون بتقديم الخمور للشاربين، والتغزُّل بهم والحديث عمَّا يتصفون به من الرهافة والغنج والتمايل، كما يصفون منظر الخمرة في أيديهم، فأبو عامر ابن شهيد يصف ساقية صغيرة، حيث يقول عنها[4]: (مخلّع البسيط)

أُفَدِّي أُسِيمَاءَ من نَدِيـــمٍ مُلازِمٍ للكُؤوسِ راتِـــبْ

---

(1) ابن خاقان، القلائد، ق2، ص430.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص769.

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص770.

(4) ابن شهيد، الديوان، ص94؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص304.

وهي لَعمري من العجائبْ قد عجبُوا في السُّهادِ منها

قالوا:تَجافَى الرُّقادُ عنها فقلتُ:لا ترقُدُ الكَواكِبْ

لقد أشار إلى اسمها وهو"أُسيماء"، وتمتاز بأنها قادرةٌ على السهاد والسهر مع الندماء، حتى إنهم يتعجبون منها، ويعلل أبو عامر عدم نومها بأنها كوكبٌ، والكواكب لا تنام.

ويكشف المعتضد بن عباد عن إعجابه بساقية وتعلُّقِهِ بها، على الرُّغمِ ممَّا تُظهر من صدود، ويطلب إليها أن تسهر على سقايته وتقيم إلى جانبه وأن تدعوه إلى الاصطباح، إنَّه يمزِجُ الغزلَ بالخَمرَة، فيقول[1]: (الوافر)

أتعلمُ أنَّ قلبِي غيرُ صاحِ وأنّي من سُلُوِّكَ في انتِزَاحِ

وكنتُ الدَّهرَ اصطَادُ المَعَالِي فقد أصبَحْتُ من صيدِ المِلاحِ

تَسقِينِي البَخِيلَةُ كأسَ صَدٍّ وتمزِجُهَا لتعليلِ بِرَاح

ولو شاءَت حياتِي الدَّهرَ سقَتْ حَرُورَ القَلبِ من شَبَمٍ قَرَاحِ

وكانت تصنَعُ الحُسنَى جميلاً ولكنْ ليس تلقَى غيرَ لاحِ

فسقِّينِي، فَدَيْتُكِ، مِنْ عُقَارٍ ونادِينِي: هَلُمَّ إلى اصطِبَاح

ويتحدث المعتمد بن عباد عن مجلس أنسٍ في جوٍّ ماطرٍ، وقد كانت تقوم على خدمته ساقية جميلة، فلما لمعَ البرقُ ارتاعت منه، فقال في وصفها[2]: (السريع)

رِيعَت من البَرقِ، وفِي كَفِّهَا بَرْقٌ من القَهوَةِ لَمَّاعُ

يا لَيْتَ شِعرِي، وهِيَ شَمْسُ الضُّحَا كيفَ مِنَ الأَنْوَارِ ترتَاعُ

لقد جمع في حديثه عن الساقية بين جمال الطبيعة وهي الفتاة وجمال الخمرة، وهو يعجب من ارتياع هذه الساقية الجميلة المشرقة من لمعان البرق، لأنها كنُور الشمس وكيف لهذا النور أن يرتاع من لمعان البرق!

وقد ذكر ذخرُ الدولة بن المعتمد نصاً شعرياً قاله أبوه عندما كان في دار المزينية، يصف فيه ساقياً جميلاً رشيق الحركات، ويبين أنه ذو براعة عجيبة في

---

[1] المعتضد، الديوان، ص111.

[2] المعتمد، الديوان، ص21؛ ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص44؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص6؛ المقري، النفح، ج4، ص262.

تقديم الخمرة الصفراء اللون البرّاقة الذائبة في جامد الماء ليزيد في نشوة الشراب، إذ يقول المعتمد[1]: (البسيط)

لله ساقٍ مُهفهفٌ غَنِجٌ قد قام يسقي فجاءَ بالعجبِ
أهدى لنَا من لَطيفِ حكمتهِ في جامدِ الماءِ ذائبَ الذَّهبِ

ويذكر أبو عامر ابن شهيد أنَّ الساقياتِ من الفتياتِ كُنَّ يقلِّدْنَ الغلمان، فيلبسْن ملابس الرجال، ويقصصن شعورهن على طريقتهم، وفي ذلك لون من ألوان إغراء جماعة الندامى، يقول[2]: (الرمل)

ورَبيبٍ قَامَ فينَا ساقياً كالرَّشَا أُرضعَ بين الرَّبْرَبِ
ظَبيَةٌ دون الصَّبَايا قُصِّصَتْ فأتت غَيداءَ في شكلِ صبي
فُتِّحَ الوردُ على صفحتِهَا وحماهُ صُدغُها بالعَقْرَبِ
فمشتْ نَحوِي و قد مُلِّكْتُها مشْيَةَ العُصفُورِ نَحوَ الثَّعلَبِ

وقد عبَّر أبو بحر ابن عبد الصمد عن ليلة قضاها في مجلس لهو مع الندامى، وقد أحاطت بهم الساقيات، ويصف اللهو والمجون، وجاء ذلك في مقدمة خمريَّة جعلها مقدمة لقصيدة مدحية فيقول[3]: (الخفيف)

أَدلَجُوا بالشُّمُوسِ في الأغْصَانِ ومشَوا بالحُدُوجِ في الكُثبانِ
رُبَّ ليلٍ قطعتُهُ في رياضٍ ونُدامى وقَهوَةٍ ومثَانِي
ووُجُوهٍ مثلِ البُدُورِ تَلالا وقُدُود كأنَّها قُضْبُ بَانِ
فَوقَ أطواقِها سنَا صفَحَاتٍ مُعجمَاتِ السُّطُورِ بالخَيْلانِ
وعيونٍ من نرجسٍ وخُدُود من شَقيقٍ على طُلا سَوسَانِ
فاجتَنَينَا زَهْرَ الخُدُود غَضيضاً وقَبَضْنَا أرواحَ تلكَ الدِّنَانِ
لم تَزلْ تَسجُدُ الأباريقُ للشُّرْبِ سُجُودَ الرُّهبَانِ للصُلْبَانِ
نتعَاطَى الكُؤوسَ واللَّيلُ خفَّاقُ الحوافِي ممزقُ الطَيلَسَانِ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص3؛ المقّري، النفح، ج4، ص278؛ وهنالك نص آخر بنفس المعنى في ديوان المعتمد، ص7.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص92-93.

[3] ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص811.

فهو يشبه أباريق الشراب، وهي تحنى لتملأ كؤوس الخمرة، كرهبان النصارى عند سجودهم لصليبهم، كما أن الندامى يبقون في مجلسهم حتى قرب طلوع الفجر، عندما يتبدّدُ ظلامُ الليلِ.

وقد عدّ أبو الحسن الطبني الساقي سبباً في نسيان الهموم لدى عاشقيه، ويتغزّل بوجهه وفمه، ويطلب أن يرحمَ قلبه ببعض الخمر، فيقول[(1)]: (المجتث)

يا سالياً عاشقيــهْ وعاشقاً كلَّ تيه

ومن مُدامي ونُقلِي بِوجنَتَيه وفيــه

هلاّ جزَيتَ فُــؤادي ببعضِ مالكَ فيه

ولم يقتصر شعراء البيوتات على وصف مجالس الخمرة التي كانت تعقد وسط الرياض والمنتزهات، في أحضان الطبيعة الأندلسية الجميلة، بل تجاوزوا ذلك إلى وصف مجالس الخمرة التي كانت تقام في الحانات الملحقة بالأديرة، ومن هؤلاء ابن شهيد الذي قضى ليلة في أيام شبابه في حانة دير مع مجموعة من أصدقائه من طلاب اللهو والمجون، حيث اجتمع في الحانة الندمان، وأخذوا يصبون الخمرة متخذين من زِقاقها متكأً لهم، لأنهم لا يريدون أن يتركوا فيها بقية، وكان غلمان الدير يدورون عليهم بكؤوسها، ويرعاهم القِسِّيسِ بعينه، وقد أخذتهم سِنَةٌ من النَّومِ، ولمَّا دقَّ ناقوس الكنيسة في الصباح أيقظَهم، يقول[(2)]: (الكامل)

ولَرُبَّ حانٍ قد أدرتُ بديـــرِهِ خمرَ الصِّبَا مُزِجت بصفوِ خمورِهِ

في فتيةٍ جعَلُوا الزِّقاقَ تِكاءَهم متصاغرِينَ تخشُّعاً لكبيـــــرِه

يُهدِي إلينَا الرَّاحَ كُلُّ مُعصفَـرٍ كالخُشْفِ خفَّرهُ التمَاحُ خَفِيــرِهِ

والـــى عليَّ بطرفــه وبكفّــه فأمال من رأسي لعـــب كبيـره

والقسُّ ممّا شاء طول مقامنـــا يدعو يعوّذ حولنــــا بزبـوره

وترنَّم الناقوس عند صلاتهـم ففتحت من عيني لرجـع هديره

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص548؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص93.

(2) ابن شهيد، الديوان، ص115-116؛ انظر: ابن خاقان، المطمح، ص194-195؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص260؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص81؛ المقري، النفح، ج1، ص525-526.

يتنـاول الظرفــاء فيه وشربهم   لسلافه والأكــل من خنـــزيـــره

8.3 الشكوى:

لقد تركت الظروف السياسية والاجتماعية المضطربة التي شهدتها الأندلس في القرن الخامس الهجري أثراً كبيراً في نفوس الناس، فبالرغم من الطبيعة الجميلة وتوفُّر أسبابِ اللَّهوِ والمجون التي ترتاح إليها النفوس، فإنّ كثيراً من شعراء البيوتات كانوا قد اشتكوا من اختلاف الأحوال، وكثرة الحروب والفتنِ، وما كان من معاناة بعضهم من ضنك المعيشة، أو الزَّجِّ بهم في السجون، وما إلى ذلك من وقوعه تحت طائلة النكبات الخاصة، ولم يقتصر ذلك على فئةٍ معينة من شعراء البيوتات، فقد ظهرت الشكوى عند شعراء البيوتات الحاكمة والعامة.

ومن هؤلاء الشعراء أبو عامر ابن شهيد الذي تعرَّض أيام العلويين إلى الإهانة والاعتقال، وقد أُدخل في السجن، فشكا من سوءِ هذا المنقلَبِ، ورأى أنه لم يقترف شيئاً يستحقُّ التهمة والسجن، سوى أنّه شاعرٌ ولا يجيد غيرهُ، فهل هذه تهمة في رأيه؟ فيقول[1]: (الطويل)

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَـــوَانِ مُجِيدُ   يَجُودُ ويَشكُـو حُزنَهُ فَيُجِيدُ
نَعَى ضَرَّهُ عِنْـدَ الإمـامِ فَيَا لهُ   عَدُوٌّ لأَبْنَـاءِ الكِرَامِ حَسُودُ
ومَا فِيَّ إلاّ الشعْـرُ أَثْبَتَهُ الهَوَى   فَسَارَ بِهِ فِي العَالَمَينِ فَرِيدُ
فَإنْ طَالَ ذِكرِي بِالمُجُونِ فَإنَّنِي   شَقِيٌّ بِمَنظُومِ الكَلامِ سَعِيدُ

ثم ينتقِل لوصف حالَتِه النفسيَّة في السجن وما يلاقيه من ذِلَّةٍ ومهانة وما يعانيه من شجوٍ واشتياقٍ، فيقول:

فِرَاقٌ وسِجْــنٌ واشتِيَــاقٌ وذِلَّةٌ   وجَبَّــارُ حُفَّــاظ علــيَّ عَتِيدُ
فَمَن مُبلِغُ الفِتيَــانِ أنِّــي بعدَهُم   مُقِيــمٌ بِــدارِ الظَّالِمِينَ طَرِيدُ
مُقيمٌ بِــدَارٍ سَاكِنُــوهَا من الأذَى   قِيَامٌ عَلَى جَمْــرِ الحِمَامِ قُعُودُ
ويُسمَعُ لِلجِنَّانِ فِي جَنَبَــاتِهَــــا   بَسِيطٌ كتَرجِيعِ الصَّدَى ونَشِيدُ
ومَا اهتَزَّ بَابُ السِّجنِ إلا تَفَطَّرَت   قُلُوبٌ لنَا خَوفَ الرَّدَى وكُبُودُ

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص99- 102؛ ابن خاقان، المطمح، ص198-200.

فهو يعاني من الفراقِ والبُعدِ والذُلِّ في سجن هؤلاء الظالمين العلويين، وهذا السجن مقام لا يبعث إلا الشؤم والخوف من الموت، وهو في ذلك يشكو انقلاب الحال، وظُلم العلويين الذي أذاقه سوء العذاب. ثم يرى أن خير سبيل له هو أن يرضى بهذا الحال، لضعف قوته أمامهم، فيقول:

ألا إنَّهـا الأيَّـامُ تلعبُ بالفَتَى　نُحُوسٌ تَهـادَى تَارةً وسُعُودُ
وما كُنـتُ ذا أيدٍ فَيُذعِنُ ذُو قُـوى　من الدَّهرِ مُبدٍ صرفَهُ ومُعيدُ
ورَاضَتْ صِعابِي سطْـوَةٌ علَـوِيَّةٌ　لَها بارِقٌ نَحوَ النَّدَى ورُعُودُ
تَقُولُ التـي مِـن بيتِهَـا مَركَبِي　أَقُرِبُـكَ دانٍ أم نَوَاكَ بعِيدُ
فَقُلـتُ لَها أَمْرِي إلى مَن سمَتْ بهِ　إلى المَجْدِ آباءٌ لَـهُ وجُدُودُ

واشتكى بعض شعراء البيوتات من انقلاب الحال والابتلاء بالفقر والفاقة وشدَّة الاحتياج بعد حلاوة الغنى، وطعم العيش الرغيد، ومن هؤلاء الشعراء المعتمد بن عباد وهو في سجنه في أغمات، إذ بكى حاله وحال أهله وما آلت إليه الأمور، وذلك في أول عيد لهم هنالك، عندما دخلت عليه بناتُهُ بلِباسٍ خشنٍ بعد الحرير، وحافياتِ الأقدام، بعد أن كُنّ يطأن في طين من الكافور والمسك وماء الورد في سابق عهده وحكمه، فيقول باكياً ومخاطباً نفسه على سبيل التجريد، كاشفاً عمَّا يعتري قلبه من الحزن الدفين، والحسرة الشديدة لما أصابهُ وأصاب أهله وذويه برغم ما يظهرُهُ من تماسكٍ[1]: **(البسيط)**

فِيمَا مَضَى كُنتَ بِالأعْيادِ مَسرُوراً　فَسَاءَكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتَك فـي الأطمـارِ جائِعَةً　يغزِلْنَ للنَّاسِ ما يملِكْنَ قِطميرا
بَرَزْنَ نَحوَكَ للتَّسلِيمِ خاشِعَـةً　أبصارُهُـنَّ حسيـراتٍ مكاسيرا
يطَأْنَ في الطِّيـنِ والأقـدامُ حافِيَةً　كأنَّها لم تطَـأْ مسْكاً و كافُورا
لا خَدَّ إلا و يَشكُو الجَدْبَ ظَـاهِرُهُ　وليسَ إلاَّ مَعَ الأنْفَاسِ مَمطُـورا
أَفْطَرتَ فِي العيْدِ لا عَادَت إساءَتُهُ　فَكَانَ فِطْـرُكَ لِلأكبَـادِ تفطيـرا
قَد كَانَ دَهرُكَ إنْ تـأمُرهُ ممتَثِـلاً　فـردَّكَ الدَّهـرُ منهيَّاً ومأمُـورَا

---

[1] المعتمد، الديوان، ص100-101.

منْ باتَ بعدك فِـي مُلْكٍ يُسرُّ بِــهِ   فإنَّما باتَ بالأحْــــلامِ مغـرُورا

لقد حرّك مظهر بنات المعتمد المزري في نفسه الأسى والحزن والألم، فتحوّلت فرحة العيد إلى حزنٍ، وكأنّ التهاني قد انقلبت تعازي يتلقّاها، وذكّره الموقف بما تقوم به بناته من غزلٍ للصوف بأجرٍ يستَعِنَّ به في قضاء مطالب حياتهنَّ المتواضعة الآن، وقد أصاب المعتمد ألمٌ شديدٌ عندما أبصر بناته حافيات الأقدام حاسراتٍ كسيراتٍ يطأنَ بأقدامِهِنَّ في الطين بعد تلك الحادثة التي أشرنا إليها فيما تقدَّم لقد أصبح العيدُ مناسبة للحزن بدلاً من السرور والسعادة، فبكى جميعُ أفرادِ أسرتِه وسالت دموعهم ممزوجةً بالتفجُّعِ، وقد كان الدَّهرُ فيما مضى يتلقّى الأمرَ من المعتمد فيطيعه، ثمّ انقلب عليه فأصبح هو المأمورُ والمنهيُّ، ويختمُ المعتمدُ شكواه بتحذيرِ غيره من الاغترار بالمُلكِ والسرور به، فما حدث له فيه عظةٌ وعبرةٌ لغيره.

وفي ذات يوم عندما كان المعتمد مقيداً في سجنه، رآه ابنُه أبو هاشم، فبكى على حال أبيه، وكان المعتمد يحبه كثيراً لصغَرِه، فقال عند بكائه[1]: (السريع)

قَيدِي أما تَعلَمُنِي مُسلِمــا   أَبيتَ أنْ تُشفِقَ أوْ تَرحَمــا

دَمي شَرَابٌ لَكَ واللَّحمُ قَد   أَكَلْتَــهُ لا تَهشِــمِ الأعظُما

يُبَصِّرُني فيكَ أبو هَاشِــمٍ   فَيَنْثَنِــي القَلــبُ وقد هُشِّما

ارحَم طُفَيْلاً طَائشاً لُبُّــهُ   لَم يَخْشَ أنْ يَأتِيكَ مُستَرحِما

وارْحَــم أُخيَّاتٍ لَــه مثلَهُ   جَرَّعْتَهُنَّ السُّــمَّ والعلقَمَا

مِنهُنَّ مَن يَفهَمُ شَيئاً فَقَد   خِفنَا عَلَيه لِلبُكَــاءِ العَمَــى

والغَيرُ لا يَفهَمُ شيئاً فَمَا   يَفتَــحُ إلا لِرضَـــاعٍ فَمَــا

وقد اشتكى ابن برد الأصغر من انقلاب الزمان وتغيُّرِ الأحوال؛ نتيجة معاناته وأهله من ضنك المعيشة وكسادِ سوق الأدب، بعد أنْ وقعَ فريسةَ العطلةِ التي أصابت الكتَّاب المبدعين في فترة من القرن الخامس الهجري[2]، فيقول[3]: (الوافر)

---

[1] المعتمد، الديوان، ص112.

[2] انظر حول موضوع العطلة، القيسي، د. فايز، دراسات في الأدب الأندلسي، دراسته بعنوان (ظاهرة العطلة عند أصحاب الأقلام في الأندلس في القرن الخامس الهجري)، ص 19-69.

[3] ابن بسام،الذخيرة، ق1م1، ص488-489.

قَرعْنَا بالكتَـــابةِ بابَ حظٍّ	لندخُلَهُ فزاد لَنَـــا انغلاقَـــا
فلَم تَبلُغْ بلاغَتُنَـــــا مُنَاها	ولا مدَّ المــــدادُ لنَا ارتفاقَا
ولا راحتْ تُقَرطِسُ بالأمَاني	قَراطِيسٌ أَجدْنَـاهــا مَساقَا
وقَلَّمت المطَالبُ من حُدَاها	لنَـــا أقلامنَـــا ساقَـــاً فَساقا
فَلا هطَلَتْ علَى الآدابِ مُزنٌ	ولا بَرِحَــتْ أهلَتُهَـا مَحاقَا
وعُوِّضْنَا بِما نَدريهِ جَهْــلاً	لَعَلَّ السُّوقَ مُدركَــةٌ نَفَاقَــا

واشتكى عزُّ الدولة بن المعتصم بن صمادح جورَ الزَّمَانِ الذي حلَّ به بعد سقوط دولة بني صمادح وموت أبيه، وتَرْكِه المريَّةَ كَمَا أوصاه أبوه، وركوبه البحر، ومن ذلك قوله[1]: (الطويل)

لَكَ الحَمْدُ بَعدَ المُلكِ أُصبِــحُ خامِلاً	بأرضِ اغتِــرابٍ لا أُمرٌ ولا أُحْلِــي
وقَد أَصدأَتْ فيها الهَــوادةُ مُنصُلِي	كَمَا نَسِيَتْ رَكضَ الجِيادِ بِها رِجْلِي
ولا مَسمَعِي يُصغِي لنَغْمَــةِ شَاعرٍ	وكَفِّــي لا تَمتَــدُّ يومــاً إلى بَــذْلِ
طَرِيــداً شَرِيــداً لا أُؤمِــلُ رجْعَةً	إلى موْطِــنٍ بُوعِدْتُ عَنهُ ولا أهْــلِ
وقَد كنتُ متبُوعــاً فَأَمْسَيتُ تَابِعاً	لَدى مَعشَرٍ لَيْسوا بِجِنْسِي ولا شَكْلِي
وقَد كنتُ غِرّاً بالزَّمـــانِ وصرفِــهِ	فقَــدْ بـــانَ قَــدْرُ العِزِّ عِندِيَ والذُّلِّ
عَزَاءٌ فَكَم لَيثٌ يُصَـــادُ بِغِيــلِــهِ	ويُصبِحُ مِــنْ بَعدِ النَّشاطِ لَفِي حَبْلِ

فهو يحمد الله الذي لايحمد على مكروه سواه، ثمّ يشكو الله عزّ وجلّ ما أصبح فيه من خمولِ الذكر، بعد صولجان الملك، كما يشكو غربته التي بات لا يملك فيها من أمره شيئاً، كما أنه لا يضرُّ ولا ينفع، وقد علا سيفَه الصدأُ لطول بقائه في غمده بلا عمل، ونسي كيف تمتطى صهوات الخيول، ورجله نسيت كيف تهمز جواده لتستحثه على السرعة والكرِّ والفرِّ والإقبال والإدبار، وكانت أذناه قد تعودت على سماع مدائح الشعراء التي كانت تطربه، فمدَّ إليهم يده بالعطايا والهبات، إنه لم يعد يصغي إلى شعرِ الآن لأنه أصبح غير قادر على البذل والعطاء، طريداً شريداً لا أمل له في العودة إلى الوطن، وقد تبدّلت أحواله فأصبح تابعاً، بعد أن كان متبوعاً يقصده

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص201؛ المقري، ج3، ص367-368.

الناس، ومما يزيد من حزنه أنّه كان يعيش في سعادة وسرور أنسياه تقلبات الزمن فها هو الآن يقع تحت ضنك المعيشة ونكبات الدهر.

ويشتكي عزُّ الدولة أيضاً في نص آخر اجتماع كلِّ أبواب الهمِّ والنكد والكمد عليه، حتى لم يبق أحدٌ من الناس يخشى أن يحلَّ عليه شيء من ذلك؛ لأنها قد انصبت على الشاعر وحده، فيقول[1]: (البسيط)

إنْ يَسلَمِ النّاسُ من هَـمٍّ ومن كَمَـدٍ   فإنّني قَد جَمَعْتُ الهَـمَّ والكَمَـدا

لَم أُبقِ منْهُ لِغَيري مَا يُحَـاذِرُهُ   فَلَيس يقْصِدُ دُونِي فِي الورَى أحَدا

كما اشتكت بثينه بنت المعتمد من انقلاب الحال، وذلك في تلك الرسالة التي وردت عنها وأرسلتها لأبيها تستشيره في زواجها من ابن التاجر الإشبيلي الذي اشتراها فتقول[2]: (الكامل)

لا تُنكـرُوا أنِّي سُبِيـتُ وأنّنِي   بِنْتٌ لملِـكٍ مِـنْ بَنِي عبّـادِ

ملِـكٌ عَظِيـمٌ قَد تَولّى عصْرُهُ   وكَـذَا الزّمَانُ يؤولُ لِلإفْسَـادِ

لَمّا أَرَادَ اللهُ فُرقَـةَ شَملِنَـا   وأَذَاقَنَـا طَعنَ الأسى عَـن زادِ

قَامَ النِّفَاقُ عَلى أبي فِـي مُلكِه   فَدنَا الفِـرَاقُ ولَم يكُـنْ بمُرادِ

فَخَرَجْتُ هَارِبَةً فَحَـازَني امرؤٌ   لَم يأتِ فِي إعْجَالِـهِ بِسَـدادِ

إذْ بَاعَنِـي بَيْعَ العَبِيدِ فَضمَّـنِي   مَـن صانَنِي إلاّ مِـنَ الأنْكَـادِ

فهي تشكو من تحوّل الحال من العزِّ إلى الذلِّ، ومن ابنة ملكٍ مصونة إلى أمَةٍ تباع وتشترى، ولعل في ذلك تعبيراً عن الحزن الشديد الذي تعاني منه نتيجة فقدانها حرِّيتها، وتفرُّقِ شملِ أهلها.

واشتكى الشعراء زمانهم الذي كان مليئاً بالاضطرابات، فهذا أبو عبد الله بن شرف يشتكي من غدرِ الزّمان، ومن مصائب الدّهر التي لا تحلُّ إلا به، فيقول[3]: (الكامل)

وَمَا لِي يُعَاقِبُنِي الزّمَانُ ولَيْسَ لِي ذَنْبٌ كَأنِّي عَمْـرو المَضْرُوبُ

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص202.

[2] المقري، النفح، ج4، ص284.

[3] ابن شرف، الديوان، ص42؛ انظر أيضاً ص54 من الديوان.

ما كـــان أولانِي بِحُكـــمِ المُبتَـــدا   فِي النّحْوِ لَو أنَّ الزّمان أديبُ

إنه يوظف ثقافته في وصف مأساته، فيقول:إنّ الزمان يسخطُ عليه وكأنّه عمروٌ المُشارُ إليه في شواهد النُحاةِ (ضرب زيدٌ عمْرا)، ولو أنّ هذا الزمان قدّر مكانَتَهُ لجعَلَهُ فِي مَكَان الصّدارة أو الابتداء.

كما أنه اشتكى صدود الزمن عنه، ضمن قصيدة مدح، فيقول[1]: (الكامل)

سلْ عَن رِضايَ عَن الزّمانِ فإنّه   كَرِضى الفَرَزْدَقِ عَن بَني يربُوعِ

لله حَـــالٌ قَد تَنَقَّـــلَ عهْـــدُهَـــا   كَخلافِ نَقْلِ الدَّهرِ حَـــالَ صَرِيعِ

دَارت دَرارِيُّ الخُطُوبِ قَواصِداً   حتّى نَـــظَـــرْنَ إليَّ مِن تَربِيـــعِ

فهو غير راضٍ عن الزمان، ويشبّه بُغضه وعدمَ رضاه بعدم رضا الفرزدق عن بني يربوع الذين ينتسب إليهم جرير، وذلك أنّ هذا الزمان ينتقل للأسوأ على عكس انقلاب الحال بالنسبة لصريع الغواني(مسلم بن الوليد) الذي علا شأنُه عندما تولّى بريد جُرجَان لبني سهل، كما أنّ الخطوبَ والمصائبَ تدور حوله وتنظر إليه من تربيع، أي نظرة سخريةٍ، وكأنه يشير إلى(رسالة التربيع والتدوير) للجاحظ التي كتبها في السخرية من أحمد بن عبد الوهاب والتهكم عليه.

كما يصوّر ابن شرف حالَه في هذه الحياة كحالِ نبي الله يعقوب، فهو دعا الله ولكن زادت عليه الدّنيا ضيقاً، فلم يكن أمامُه إلاّ الصبرُ والبكاءُ. فيقول[2]: (المجتث)

شَكَوتُ حُزنِي وبَثِّي   إلَى القَرِيبِ المُجِيب

فكَـــان عُقبَايَ عُقبَى   نَبِيِّـــهِ يَعقُـــوب

وقد اشتكى شرفُ الدولة يحيى بن المعتمد من انقلاب المعايير الأخلاقية والموازين الاجتماعية التي أصبحت تُعلي من شأن الجهلاء، وتخفض من شأن النبيه ولم تعد الآداب والمعارف تحظى باهتمام الناس، وجاء ذلك في معرض حديثه عن ترشيح القاضي أبي محمد ابن أبي عُرجون شخصاً جاهلاً لتولّي أمرَ الحسبة، ويكتب

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص70.

[2] ابن شرف، المصدر السابق، ص40.

له شرفُ الدولةِ بن المعتمدِ صاحبُ المعارف، حيث يرى أنّ هذا الأمر ما هو إلاّ خسفٌ يُسام به وتأبى همّته إلاّ الحفاظ على نسبه. فيقول شرف الدولة[1]:(الكامل)

عجباً لدهْرٍ كُلُّ ما فيه عجَــــبْ ... فدْمٌ سما، ونَبيهُ قـــومٍ قد رسبْ

لا تَنفَعُ الآدابُ فيهِ وإنْ غـــدتْ ... تُعْزى إلى ذي همّةٍ عالي النَّسَبْ

أوَ ليْسَ مِن نَكَدِ الزّمانِ بأنْ أُرَى ... أُدْعَى لأكتُبَ صاغـراً للمُحتَسِبْ

خَسْفٌ أُسَامُ بِــهِ، وتأبــى هِمَّــةٌ ... لَخْمِيَّةٌ إلا الصِّيـانَــةَ للحسَــبْ

ويشتكي المعتصم بن صمادح تغيُّر ظروفِ الناس، وغياب قيم الصداقة والمودَّة، ممّا دفعه إلى الزهد في مصادقة الناس، يقول مخاطباً ابن عمار لَمّا بلغَهُ عنهُ ما أوجب ذلك من سوء الاغتياب[2]: (الطويل)

وزَهَّدني في النّاسِ معرفَتي بهِمُ ... وطُولُ اختِياري صاحِباً بعدَ صاحِبْ

فَلَــم تُرِني الأيّــامُ خِلاً تَسرُّني ... مباديه إلاّ ساءني فــي العــواقــبْ

ولا قُلتُ أرجُوهُ لِــدفْعِ مُلِمَّــةٍ ... منَ الدّهرِ، إلاّ كانَ إحدى المَصائبْ

ويلحظ الباحث أن الحديث عن الشكوى قد غلب عليه طابع الحزن واليأس، وذلك إما لعدم توفر العدل المنشود أو انقلاب الموازين.

9.3 الغربة والحنين:

لقد اضطر كثير من شعراء البيوتات إلى مفارقة مدنهم وبلدانهم ووطنهم قهراً وقسراً، وترك ملاعب الشباب، وملتقى الأهل والأحباب ومجتمع الأصحاب، فأكثروا من الحديث عن غربتهم، والبكاء على أوطانهم، والإفصاح عن حنينهم الجارف إليها.

ومن هؤلاء الشعراء أبو عمر ابن دراج القسطلي الذي أكثر من الحديث عن غربته عن وطنه واضطراره إلى الجلاء عن مدينته قسطلة والتنقل في البلدان، رغبةً في توفير لقمة العيش لأطفاله، الذين يعيشون في ضنك المعيشة بعد انقلاب

---

[1] ابن الابار، الحلة، ج2، ص76-77.

[2] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص197.

أحوالهم، فيصبح محكوماً بعد أن كان حاكماً، ومرؤوساً بعد أن كان رئيساً، ومن القصور إلى التشرُّد والفلاء، فيقول[1]: (الكامل)

فِي سِتَّةٍ ضَعُفُوا وَضُعِّفَ عدُّهُمْ   حمْلاً لمبْهُورِ الفُؤاد مُبلَّـــــــد
شَدَّ الجَلاءُ رِحالَهُمْ فَتَحمَّلَـــتْ   أفلاذَ قَلبٍ بِالهُمُــــــوم مُبــدَّد
وَحَدَتْ بِهِم صَعقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدَتْ   أَوطَانَهُــمْ فِــي الأرضِ كُلَّ مُشَــرَّد
لا ذَاتَ خِدْرِهِمُ يُرامُ لوَجْهِهَـــا   كِنٌّ ولا ذُو مهدِهِمْ بِمُمَهَّـــــــد
عاذُوا بِلَمْعِ الآلِ فِي مَدِّ الضُّحى   مِنْ بعدِ ظِلٍّ فِي القُصُـــورِ مُمَــدَّدُ

فهو يشكو غربته التي لا تنتهي، فهو دائم الترحال بأسرته من مكانٍ إلى مكان، بلا مأوى ولا وطن، وفي نصٍ آخرٍ يصور غربته عندما تتكرُه الأرضُ وتضيقُ عليه فيصبحُ فيها غريباً بلا مأوى ولا صديق، ثم أصبح يألف التغرُّبَ الدائم في حين أنّ الاستقرار أصبح صعبَ المنَال، لا يكادُ يراهُ حتى في منامه، فيقول[2]: (الوافر)

تَغَرَّبَ فِي البِلادِ فَأَفْرِدتْـــــهُ   فقيدَ العزِّ مَجْحُودَ الــذِّمَــــامِ
تَجافَى الأرضُ عَنْهُ وهُو مَعِي   وتَجْفُوهُ المنَاهِلُ وهُو ظَامِــي
فَهل حوْلٌ يَحُولُ بِلا رَحِيــــلٍ   ولَو شَيَئاً نَراهُ فِي المــنَـــامِ

وقد كان لرحيل أبي عبد الله ابن شرف القيرواني عن القيروان بعد دخول الأعراب عليها تأثيرٌ كبيرٌ في شعره، فبرز لديه شعور بالغربة والحنين، فبعد أنْ كان ينعمُ بالحظوةِ والمكانة عندَ المُعِزِّ بن باديس أمير القيروان، أصبحَ الآن متنقلاً بين بلاطاتِ ملوكِ الطوائفِ لعلّه يجد من يمنحه منزلة وحظوة كتلك التي كانت له من قبل، ويعبّر بمرارةٍ عن غربته الشديدة، وهو في أثناء ذلك يبكي وطنه الذي خلا من ساكنيه، وعادت دياره قبوراً لما لحق بها من تدمير، كما يبكي حال أهله الذين أصبحوا أذلاء في وطنهم، غير أنّه يتمنّى العودة إلى وطنه فيقول[3]: (الخفيف)

آهِ لِلقَيْــــرَوَانِ أَنَّـــــةَ شَجْـــوٍ   عَن فُؤادٍ بِجَاحِــمِ الحُزنِ يَصْلَى
حِينَ عَادَتْ بِهِ الدِّيَـــارُ قُبُـــوراً   بَل أَقُولُ: الدِّيَـــارُ مِنْهُنَّ أَخْلَـــى

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص74.

[2] ابن دراج، المصدر السابق، ص230-231.

[3] ابن شرف، الديوان، ص89-92؛ انظر أيضاً ص61-63 من الديوان.

فتَــرى أشــرفَ البَريَّــةِ نَفْســـا ناكِســا رأســهُ يُلاطِـــفُ نَذْلاَ
لَيْتَ شِعرِي هل عودةٌ لِي فِي الغَيْـ ـب إلى ما أَطَالَ شَجْوِي أمْ لا؟

فيتمنّى ابن شرف القيرواني لو يكون طائراً فيرحلُ إلى وطنِه القيروان، ويرى حاله التي آلَ إليها بعد الهوان والذُلّ لأهلها لعلّ في ذلك ما يخفف عنه ممّا يعانيه من شوقٍ وحنينٍ، فيقول[1]: (الكامل)

يا قَيْروانُ وددْتُ لَو أنِّي طَـــائرٌ فأَراكِ رُؤيــةَ باحِــثٍ مُتَأمِّـــلِ
آهاً وأيَّــةُ آهةٍ تَشفــي جَــوَى قَلْـــبٍ بنِيرانِ الصَّبابَةِ مُصطَلِي
يَا أَرْبُعِي فِي القُطْبِ مِنْها كَيفَ لِي بِمَعَادِ يومٍ فيكَ لِي ومن أَيْنَ لِي؟
يَا لَو شَهِدْتَ إذَا رأَيتُكَ فِي الكَرى كَيفَ ارتِجاعُ صِبــايَ بعدَ تَكَهُّلِ
وإذَا تَجَـــدَّدَ لِـــي أخٌ ومُنَــادِمٌ جَــدَّدْتُ ذِكــرَ إخَــاءِ خِــلٍّ أَوَّلِ
لَــو كُنتُ أَعلَمُ أَنَّ آخِــرَ عَهْدِهُمْ يَــومَ الرَّحِيــلِ فَعَلْتُ ما لَم أفْعَلِ

ويُلِحُّ ابنُ شرفِ القيرواني على تذكُّرِ القيروان، على الرغم من البحر الذي يفصِلُ بينَه وبينَها، فيقول[2]: (الطويل)

تَذَكَّرتُهَا واليَــمُّ بيني وبينَهـــا وموصُــولَةٌ فِيحٌ مهجُورةٌ غُفْـــلُ
ومنْ دُونِها حرْبٌ عوَانٌ وفَــارِضٌ ولُودٌ لَهـــا من نَفْسِها أبَداً بَعْــلُ
يُقرُّ امرُؤُ القَيْسِ بنُ حُجْرٍ لِفضْلِها ويُظْهِرُ عنْهَــا العجْزَ علقَمةُ الفَحْلُ
فَلَو وَصَلَتْ عُمْرى اللَّيَالِي لِوَقْتِــهِ لَقَالَتْ لَهُ الأَشعارُ مَا قالَت النَّمْـــلُ

فيشير إلى أنّ فضلَ القيروان أقرَّ به امرؤُ القيس بن حجر، وكذلك لَو أدركَ علقَمَةُ الفحل زَمَانَ القَيروان هذا، لَمَا استَطَاعَ أنْ ينظمِ شعراً بسببِ الإحباطِ ممَّا آلت إليه حالُها.

ويعدُّ المعتمد بن عباد من أشهر شعراء البيوتات في مجال الحنين والغربة، بلْ إنّه وصف نفسه بالغريب عندما حلَّ سجيناً في أغمات، فيقول[3]: (الطويل)

غَرِيــبٌ بِأَرضِ المَغرِبَيــنِ أَسِيْـــرُ سَيَبْكِــي عَلَيــهِ مِنْبَـــرٌ وَسَرِيرُ

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص86–87.

[2] ابن شرف، المصدر السابق، ص93؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4م1، ص140.

[3] المعتمد، الديوان، ص98.

أذَلَّ بَنِــي مــاءِ السّمَــاءِ زمانُهــم   وذُلُّ بنـــي مــاءِ السَّمـــاءِ كَبيرُ
فَيا لَيْتَ شِعــرِي هل أَبيتَنَّ لَيلَـــةً   أمـــامي وخَلْفــي روضــةٌ وغَديرُ
بمُنْبِتَةِ الزَّيتُــونِ مُورِثَـــةِ العُـــلا   تُغَنِّـــي قِيـــانٌ أو تَـــرِنَّ طُيُـــورُ
بِزَاهِرِهَا السَّامي الذي جَادَهُ الحَيَــا   تُشِيــرُ الثُّرَيَّــا نَحْوَنَـــا ونُشيـــرُ
ويَلْحَظُنَا الزَّاهِــي وسَعْدُ سُعُـــودِهِ   غَيُورَينِ والصَّــبُّ المُحبُّ غَيُـــورُ
قَضَى اللهُ فِي حِمْصَ الحِمَامَ وبُعثِرَت   هُنَالِكَ مِنَّـــا للنُّشُـــورِ قُبُـــورُ

فالمعتمد يندب حظَّه وينوح على نفسه، ويتذكّر ماضيه ويذكُرُ حاضره، يتذكّر قصوره في إشبيلية، وفيها يقول ابن بسام: "والثريّا وسعدُ السعودِ والزّاهي الذي ذكره في هذا الشعر، أسماء قبابٍ ومصانع سلطانية كان تأنَّقَ في بُنيانِها من قصور إشبيلية"[1]، وحين يذكرها يزداد حنينه إليها، ويتمنّى أن يعود لسكانها الاستمتاع بمباهجها، ولكن هيهات هيهات، فقد مضت تلك الليالي الحافلة بالترفِ واللهو ومجالس الأُنس والطرب، ولا عودة لها.

كما جعل المعتمد من انقلاب حال السلاطين قبلَهُ عزاءً له، ولكن عليه أن يوطِّن نفسه على الكُرهِ و أن يرجو من الله العودة إلى الأندلس، فيقول[2]: (البسيط)

اقنَعْ بِحَظِّكَ فِــي دُنيَـــاكَ مَا كَانَا   وَعَزِّ نفسكَ إنْ فَارَقْتَ أوطَانَـــا
فِي اللهِ مِن كُلِّ مَفْقُودٍ مضَى عِوَضٌ   فَأَشْعِرِ القَلْبَ سُلوَاناً وإيمانَـــا
أَكُلَّمَا سَنَحَتْ ذِكــرَى طَرِبْتَ لَهـــا   مَجَّـــتْ دُمُوعَكَ فِي خَدَّيْكَ طُوفَانَا
أمَا سَمِعْتَ بِسُلطَـــانٍ شَبِيهِـــكَ قَد   بَزَّتْــــهُ سُودُ خُطُوبِ الدَّهرِ سُلطَانَا
وَطِّنْ عَلَى الكُرهِ وارقُبْ إثرَهُ فَرَجاً   واستَغفِـــرِ اللهَ تَنعَـــمْ مِنهُ غُفرَانَا

ويظهر لنا أنّ كثيراً من شعراء البيوتات الذين ابتُلُوا بمفارقة الأوطان قهراً وقسراً، وترك ملاعب الصِّبا ومرابع الشباب، وملتقى الأهل والأحباب، ومجتمع الرفاق والأصحاب، كانوا قد أكثروا من البكاء على الأوطان، والتشوُّقِ إليها، والإفصاح عن الحنين الجارف إليها.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م1، ص76.

[2] المعتمد، الديوان، ص114-115؛ المقري، النفح، ج4، ص116.

10.3 المراسلات الشعرية الذاتية:

شاع شعر المراسلات بين الشعراء في الأندلس، ويعدُّه بعض الباحثين نوعاً من التَّرفِ الأدبي، أوحت به البيئة الأندلسية، وكثر فيها كثرةً بالغة، وتشكل هذه المراسلات قيمة أدبية وحضارية، إضافة إلى إقامة علاقات إنسانية[1].

وقد نظم الشعراء من ذوي البيوتات شعراً تراسلوا فيه، وكانت الموضوعات التي تراسلوا فيها مشابهة لتلك الموضوعات التي نظم فيها شعراء الأندلس قاطبة، فجاءت مراسلاتهم في التهنئة والصداقة والاستدعاء والمرض إضافة إلى الاعتذار، كما جاءت بعضها في الجانب السلبي، فوردت لهم مراسلات في الهجاء والذمِّ. وكان الشعراء على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية من العامة والخاصة يتبادلون هذه الرسائل دون مراعاة الفوارق الاجتماعية بينهم.

ففي التهنئة أرسل الشعراء قصائد يهنئون فيها الآخرين بمناسبات سارة عندهم، ومن هؤلاء ابن دراج القسطلي الذي أرسل إلى المنصور منذر بن يحيى قصيدة عندما برأ من علةٍ أصابته، فيقول[2]: (الطويل)

كـــذا تتجلَّـــى الشمـــسُ بعـــدَ كُسُوفِها وتبْرُزُ أغماد الوَغَى من سيوفِهـــا

ونعلَـــــــمُ أنَّ اللَه أبقَـــى لأرضِـــــــه رعايـــةَ راعيها وعطْفَ عُطُوفِها

ورَحمتُـــــهُ أبقَـــتْ حيَـــاةَ رَحيمِهــــا ورأفَتُـــهُ جَـــادت بنَفْـــسِ رؤوفِها

ويـــا عَجَـــبَ الأيَّـــامِ أخفَـــرنَ ذِمَّـــةً لِمَلْكٍ متَـــى تستَوفه العهـــدَ يُوفِيهَا

وكيـــفَ أخافَتْـــنَـــا اللَّيَـــالي على الَّذي يقِي عَـــدْوَ عاديِها وخَوْفَ مُخِيفِها

فمـــــا يُنكرُ الأوصـــابَ مَتْـــنُ مهنَّـــد مُعَـــوَّد قَـــرْعِ الباترات عَروفُها

ولا بَطْـــنُ كفٍّ مـــا تَغِـــبُّ كواكبـــاً تَنُـــوءُ بِمُنْهَلِّ الغُيُـــوث وكُوفِهـــا

وإنْ نالَ يا "منصورُ" مِن جِسمِكَ الضَّنَى فأمضَـــى اليمانِيَّـــاتُ حدُّ نَحِيفِهـــا

فهوى أنّ شفاء المنصور رحمة من الله للناس والرعية في أميرهم، ويتعجَّب من الأيام وهذا المرض كيف استطاع الوصول إلى الأمير وأخافَ الرعيةَ عليه، ولكن هذا المرض والتعب لم يؤثر في شخصية المنصور، ثم ينتقل إلى مدحه والثناء عليه.

---

[1] محمود، نافع، اتجاهات الشعر الأندلسي، ص180-183.

[2] ابن دراج، الديوان، ص207-208.

كما يهنئ ابنُ دراج القسطلي يحيى المظفر بن المنصور، بأحد الأعياد وهو غائب في غزوة، فيقول[1]: (الطويل)

ليَهن لَكَ العيدُ الذي بكَ يَهنِينَا سلامــاً و إسلامــاً وأمناً وتأمينا
ولا أُعدِمَت أسماؤكُم وسماؤكم نجــومَ السُّعُودِ والطُّيورِ الميامينا
بِمَــنْ يَمُنَــت أيامُنَــا وتلألأت بنُــورِ المُنى والمكرُماتِ لياليـنــا
دعانــا وسقّانا سجالَ يمينِــه فسقياً لساقينــا ورِعياً لراعينــا

وقد هنَّأه بمناسبة تزويج إحدى بنات أسرته لقرابة له اسمه "حكم"، وجعل من هذا الزواج وصلاً للنسبِ وقد اكتمل فيه نوران، فيقول[2]: (الكامل)

فتهــنَّ يــا "يَحيَــى" تراثَ مآثــر أحرزْتَ منهــا حظَّــك الموفورا
مــن كلّ مُلــكِ نمــوك فأنجبــوا بدراً لفجـــرهم المنيــرُ منيرا
واستودعــوك شمائلاً ومحاسنــاً كَرُمَت فكُنتَ بِحَظِّهِــن جديرا
فوصلت ما وصلوا من النسبِ الذي بذُراك عوّذ أن يُرى مهجورا
فحكمت فــي "حكــمِ" بِشَملٍ جامعٍ نورَيــنِ زادَهُمَا التألُّفُ نورا

فهو يجعل الأصل الذي ينحدر منه يحيى أصلاً كريماً، وقد قام المظفر يحيى بهذا الزواج بوصل هذا النسب، وإحكامِ الشمائلِ والمآثرِ.

وقد هنَّأ بعض الشعراء بالمولود الجديد، فهذا عبيد الله بن المعتمد بن عباد يهنئ زوجته عند ولادتها لابنه المعلّى، وخلاصها من يد المنون، وقد قرّت بالمولود عيونُهُم، فيقول[3]: (الطويل)

أُهنِّيــك بل نفسي أُهنّي ، فإنَّني بلَغتُ الذي كان اقتراحي على الدهرِ
خلاصُــكِ مِــن يدِ المنونِ وغُرّةٌ بدَت "للمُعلَّى" مثـــلُ دائــرةِ البــدرِ
كأنــّي بــه عمّا قريــبٌ مُملَّكاً زِمَــامَ المَعَالي نافــذَ النَّهي والأمــرِ
يقــود إلى الهيجــا كلَّ غضنفرٍ ويضرب مَن ناواه بالبيضِ والسُّمْــرِ
فقرَّت به عيني وعينُكِ في العُلا ولا زالَ اسمي في المحلِّ من الغَفْــرِ

---

(1) ابن دراج، الديوان ، ص239.

(2) ابن دراج، المصدر السابق، ص265.

(3) ابن الابار، الحلة، ج2، ص69.

وقد هنَّأ رفيعُ الدولة بن صمادح أبا نصر ابن خاقان لقدومه من سفر، بقوله[1]: (الطويل)

قَدِمتَ أبا نصرٍ على حالِ وحشةٍ فجاءت بك الآمالُ واتَّصلَ الأُنسُ
وقرَّت بِك العَينانِ واتّصل المُنى وفَازَت على يأسٍ ببُغيتِهـا النَّفسُ
فَأهلاً وسَهـلاً بِالـوِزارَةِ كُلِّها ومَن رأيُـهُ فِي كُلِّ مُظلِمَةٍ شَمسُ

أما الصداقة فقد كان لها نصيب من المراسلات الشعرية، فقد كتب أبو مروان عبد الملك الطبني رسالة لأبي الوليد ابن زيدون، يعبر فيها عن المودَّة التي تجمع بينهما على الرغم من العتاب والجفاء، ويستذكراً أيام الصبا التي جمعت بينهما، فيقول[2]: (البسيط)

أبا الوليـدِ وما شطَّت بنـا الدارُ و قلَّ منا ومنـك اليـوم زوّارُ
وبيننا كـلّ ما تدريه مـن ذِمَمٍ وللصِّبـا ورق خضرٌ و أنـوار
وكلُّ عُتبٍ وأعتابٍ له جرى فله بـدائعُ حلـوة عندي وآثـار
فاذكُرْ أخـاك بخيرٍ كلَّمـا لعِبت بـه الليـالي فإنَّ الدهـرَ دوَّار

وأرسل أبو عامر ابن شهيد إلى أبي محمد ابن حزم، عندما اقتربت منيته واشتد عليه المرض رسالة يودِّعُهُ فيها، ويطلب إليه الدعاء له، فيقول[3]: (الطويل)

مَنْ مُبلِغٌ عنِّي ابنَ حزمٍ وقد كان لي يداً في ملمَّاتي وعند مضايقي
عليـكَ سلامُ اللهِ إنِّـي مفـارقٌ وحسبُك زاداً من حبيبٍ مفارقِ
فلا تنسَ تأبينـي إذا مـا فقدتَنـي وتِذكَارُ أيـامي وفضلُ خلائقي

كما راسل أبو بكر ابنُ القبطرنة الكاتبَ العالمَ أبا الحسين ابن سراج، ويعبر له ويبلِّغُه السلام والتحية، فيقول[4]: (الكامل)

يـا سيِّـدِي وأبي هدىً وجلالـةً ورسولُ ودّي إن طلبتُ رسولا

---

[1] ابن خاقان، المطمح، 224-225؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص738؛ المقري، النفح، ج7، ص45.

[2] ابن خاقان، المصدر السابق، ص269.

[3] ابن شهيد، الديوان، ص134.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص767-768؛ المقري، المصدر السابق، ج1، ص156.

عــرِّجْ بقـــرطبــةَ إذا بلَــغْتَهــا ... "بــأبـــي الحسين"وناده تمويلا

وإذا سعــدْتَ بنظــرةٍ من وجهِــهِ ... اهــدِ الســلامَ لكفِّــهِ تقبيــلا

واذكرْ لــه شوقي وشكري مجملا ... ولو استطعتُ شرحتُه تفصيــلا

بتحيَّـــةٍ تُهــــدَى إليــه كأنَّمـــا ... جرَّت على زهْرِ الرِّياضِ ذُيُــولا

كما أرسل إلى ابن رشيق القيرواني برسالةٍ شعريةٍ يعاتبُه فيها على عدم دعوته إلى مجالسنه هو وإخوتُه في بلنسية، فيقول[1]: (البسيط)

بنـــي رشيقٍ أما لـــي عندكُمُ سعَةٌ ... تفِي منزِلي ولِقاكُم كان مقتَرحي

أمـــا يشقُّ عليكُمُ شُــرْبُ صافِيَتي ... فـــي مجلِســي وأنا منه بمُطَّرَحِ

أرعـــى الخُزامى، وأنتُمُ في بلنسيةَ ... ما بين مُغتَبِــقٍ منهــا ومصطبحِ

هلاَّ استحيتـــم وقلتـــم إنَّ ذا كــدَرٌ ... وإنَّ هذا لتنغيــصٌ علـــى الفَرَحِ

فتُحضِــرُونِي ولو ملقَـــى نعالِكُــمُ ... وتُصبِّحُونِي ولو من فضلةِ القَدَحِ

أما أبو عبد الله ابن شرف القيرواني فقد ردّ على مكاتبات رفيقه ابن رشيق القيرواني، بعد مغادرته للقيروان، ويعبِّر فيها عن حنينه لماضيهما في القيروان، والتنافسِ بينهما، فيقول[2]: (الطويل)

عِتاباً عسى أنَّ الزمانَ له عُتبى ... وشكوَى فكَمْ شكوَى ألانَتْ لهُ القلبا

عَدِمنَاك مِن بُعْدٍ وإنْ زِدتَنَا قُرْباً ... على أنَّ فيمـــا بينَنـــا سَبْسَباً شهبا

إذا لم يكـــن إلاَّ من الدَّمعِ راحةٌ ... فلا زالَ دمعُ العيـــنِ مُنهمِلاً سكْبَـــا

ولأبي محمد ابن حزم قصيدةٌ في صَدٍّ وبُعدِ صديقٍ له، يقول في مطلعها[3]: (البسيط)

لم أشكُ صدَّاً ولم أذعَرْ بهَجْرَانِ ... ولا شعرْتُ مدَى دهرِي بسِلْوَانِ

ثم يتحدَّث عن هذا الصديقِ ومنزلتِهِ عنده، فيقول:

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص771.

[2] ابن شرف، الديوان، ص41، انظر نصاً آخر في ص43 من الديوان.

[3] الطرابلسي، محمد الهادي، شعر ابن حزم، ص173-176.

ووجْهُــهُ نَصْب عيني مــا يفارِقُني وطيفُهُ مؤنسي في نصفه الثانــــي
ومهجتِـــي عنـــــدهُ و القلبُ مسكنُهُ هذا وجدُك عينُ الحاضرِ الدَّانــــي
وشخصُــهُ ماثِــلٌ في ناظِــرِي أبداً و في ضميرِي إذا ما نمْن أجفَاني
أدعُــوهُ دَعْــوَةَ مُرتَــاحِ لِــرُؤيَتِــهِ حَسْبَ ارتياحِي لهُ إذ كان يلقَــاني
يا عُــذْرَ دهرِي من ماضِــي إساءَتهِ ومن تســاوِي وليِّي فيــه و الشانِي
كــلاهُمــا حاســدٌ لــــي من أخوته على غَلاَ الدهرِ موصُولاً برضْــوَانِ
لو كانتِ الأرضُ لي حاشاه ما غنيَت روحِـــــي وإنِّي بهِ عن غيرِهِ غانِي
واسلَمْ ودُمْ لــي فــي عزٍّ وفي دَعَةٍ ما لاحَ فــي اللُّجَّةِ الخضْراءِ نجمانِ

وقد تراسل بعضُ الشعراءِ مع أهلِ بيتِه ولا سيما في الاعتذار، فقد يعتَذِرُ من أبيه، كما أرسَلَ الراضي يزيد بن المعتمد معتذراً لأبيه، عندما أرسَلَه على جيشٍ لورقَة فتمارض، ممَّا جعلَهُ يُرسلُ أخاه المعتَدَّ، لكنَّ الجيش خسر، فغضب المعتمدُ على الراضي، فبعث له قصيدةَ مدحٍ واعتذارٍ[1]، واستمرت الحالة هكذا إلى أن رقَّ قلبُ المعتمدِ على ابنه فأرسل له شعراً فيه حنانُ الأب، ومال فيه أيضاً إلى الهَزْلِ والسخرية والتأنيب، فيقول في بعض أبياتها[2]: (الكامل)

المُلكُ فـــي طــيِّ الدفاتــرِ فتخَلَّ عن قَودِ العساكِــــــرِ
طُــفْ بالسَّــريــرِ مسلِّمـــاً و ارجَـــع لتوديعِ المنابِــرِ
وازحــفْ إلى جيــش المعا رف تقهــرِ الحبــرَ المُغامر
و اطْــعَــنْ بأطْــرَافِ اليرَا عِ نُصِــرتَ في ثغرِ المحابرِ
هذي المكـــــارمُ قد حوُيْــ ـــتَ، فكُنْ لِمَنْ حاناك شاكِرْ
فَحَجَبْتُ وجهَ رِضَــايَ عَنْــ ــكَ وكنتَ قد تلقــاهُ سافِــرْ
أوَ لســتَ تذكُــرُ وقتَ لُــو رَقَةٍ، وقلبُـــكَ ثَــمَّ طائــــرِ

فراجع الراضي والده قائلاً في بعض أبيات من قصيدة له[3]: (الكامل)

---

(1) المقري، النفح، ج4، ص252–253.

(2) المعتمد، الديوان، ص46–47؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص74–75؛ المقري، المصدر السابق، ج4، ص253–254.

(3) المقري، المصدر السابق، ج4، ص254–255.

مولايَ قــد أصبحتُ كافرْ   بجميعِ ما تحوي الدفاتـــرْ
و فَللــتُ سكّيــن الدُّوا   ة ، وظلَّتْ للأقلامِ كاســـر
وعلِمْـــتُ أن المُلْـك ما   بيــن الأسنَّةِ والبواتِـــر

فالمعتمد يلوم ابنه ويعاتبه، وابنه يعتذر له ويستعطفه كما يعارضه في الشعر.

وفي الاعتذار والاستعطاف يُذكَرُ أن المعتمد وهو في طريقه من مكناسة إلى أغمات عتب على ابنه عبيدِ الله الرشيد عتباً أفرط فيه، فأرسل إليه ابنُه الرشيدُ يستعطفه قائلاً[1]: (الخفيف)

يا حليفَ النَّدى وربِّ السَّمَاح   وحبيبَ النفـــوسِ والأرواحِ
من تمامِ النُّعمى عليَّ التماحي   لمحـــةً من جبينك الوضَّـــاحِ
قــد غَنينَــا ببشـــره وسنـــاهُ   عن ضياءِ الصَّباحِ والمصباح
ذاك حظِّي من الزَّمانِ فإنْ جا   دَ بــــه لي بلغْتُ كلَّ اقتراحي

فأجابه المعتمد باكياً شاكياً من سوء حاله، وهو في الأَسْرِ إذ لم يعُدْ له مجدُهُ السابق، فيقول:

كنتُ حِلفَ النَّدى وربَّ السَّماح   و حبيـــبَ النفوسِ والأرواحِ
وأنــا اليــومُ رهنُ أسرٍ و فقرٍ   مُستَباحُ الحمى مهيضُ الجناح
لا أُجيبُ الصريخَ إن حضر النَّا   س، ولا المُعتَفِينَ يومَ السماح
عاد بِشري الذي عهِدْتُ عبوساً   شغلَتْني الأشجانُ عن أفراحِي
فالتمــاحي إلــى العيــونِ كريهٌ   ولقد كــان تُرفَــةَ اللمَّـــاح

أما بثينةُ بنتُ المعتمدِ فعندما حلَّت الفاقرةُ ببني عبادٍ سُبِيَت واشتراها تاجرٌ من إشبيلية، لكنَّها أخبرته عن حالها، وعندما أراد أن يزوِّجَها لابنه أرسلَت إلى أبيها شعراً تشكو فيه من سوء العاقبة، وتستشيرُهُ قائلة[2]: (الكامل)

فَخرَجْــتُ هاربــةً فحــازَني امرُؤٌ   لم يأتِ في إعجــالِــه بسدَادِ
إذ باعَني بَيْــــعَ العبيدِ فضمَّنِــي   مَنْ صانَني إلا من الأنكَــادِ
وأرادَنِــــــي لنِكَاحِ نجلٍ طـــاهرٍ   حَسَنِ الخلائقِ من بني الأنجادِ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص93-94؛ ابن الابار، الحلة، ج2، ص69-70.

[2] المقري، النفح، ج4، ص284.

ومضى إليكَ يسومُ رأيك في الرِّضى ولأنْتَ تنظُرُ في طريقِ رشادي
فعسـاكَ يـا أبتـي تُعرِّفُنِـي بـه إن كـان ممَّن يُرتَجـى لوِدادِ
وعسـى رُمَيِّكِيَّـةُ الملوكِ بفضلِها تدعـو لَنَـا باليُمْنِ و الإسعادِ

وقد أرسل المعتمدُ إلى زوجتِه أمِّ الربيع_اعتمادِ_ معتذراً عن عدم زيارتِه لها في مرضِها، فيقول[1]: (الطويل)

مَرِضْتُم فأَمْسَكْتُ الزيارةَ عامداً وما عن قِلَىً أمسَكْتُها لا ولا هَجْرِ
ولكنَّني أشفَقتُ منْ أنْ أزُورَكُمُ وأُبصِرُ آثارَ الخُسوفِ على البَدْرِ

ولكن من أصعب الأشياء على الملوك والأمراء الذين سخت أيديهم من قبل على الشعراء، أن يصبِحُوا غيرَ قادرين على ذلك لانقلابِ الحال وشُحِّ ذات اليد.

وممَّا يدلُّ على ذلك ما يُذكر من أنَّ الأديبَ الحُصريَّ الأعمى جاء الأندلس وتنقَّل بين ملوك الطوائف، ولمَّا ضاقت به البلاد قَصدَ المعتمدَ ومدحَهُ بشعرٍ، فأرسل له المعتمدُ مكافأةً بلغت ثلاثين مثقالاً لم يستطع غيرها، وأرسل معها شعراً يعتذر فيه عن نزرِها، لكنَّ الحُصَري لم يردّ على الشعر، فأرسل له المعتمدُ شعراً يسألُهُ عن سبب التأخُّر ويؤكد الاعتذار، فيقول[2]: (الرمل)

قُلْ لِمَنْ قد جَمَعَ العِلْـــمَ ومَن أحصَى صوابَه
كان فـي الصُّرَّةِ شعرٌ فَتَنظَّـرنَـا جوابَــه
قَـد أثَـبْـنَـاك فهَـلاَّ جَلَـبَ الشعــرُ ثوابَه

ولمَّا سقطت دولةُ بني صمادح في المريَّةِ أرسل أبو بكر ابن اللَّبانَةِ شعراً لعزِّ الدولة ابن صمادح مواسياً، فدعت دواعي النَّدى به، لكنَّه لم يستطِع فأرسل إليه[3]: (البسيط)

المجدُ يخجَلُ من نقدَيْكَ في زمنٍ ثناهُ عن واجبِ البرِّ الذي عَلِما
فدونَك النَّــزْرُ من مُصْفِ مودَّتِهِ حتى يُوفِّيكَ أيَّـامَ المُنَى سَلَما

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص43.

(2) المعتمد، الديوان، ص91؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص66-67.

(3) ابن خاقان، المطمح، ص406.

وفي آخرِ أيام دولة بني صمادح أرسلَ المعتصمُ ابنَه عزَّ الدولةِ رسولاً إلى يوسف بن تاشفين، لكنه اعتقله وقيَّده، فكتب إلى أبيه طالباً النجدة، فيقول[1]: (مجزوء الوافر)

أَبعْدَ السَّنَا والمَعالِي خُمُولُ وبعدَ رُكُوبِ المذاكِي كبُولُ

فيشتكي مما حلّ به من سِجْنٍ وأسرٍ وكيف ذلّت حالته، ولم تعُدْ تُحتَرَم الرُّسُلُ، فراجعه أبوه قائلاً:

عزيزٌ عليَّ ونَوحِي ذليْــلٌ على ما أُقَاسي، ودمعِي يسيل

لقطّعَت البيــضُ أغمادَها وشُقَّت بُنُــودٌ وناحَت طبُولُ

لَئنْ كنتُ يعقوبَ في حزنه ويوسُفَ أنــتَ، فصبرٌ جميلُ

يكشف له عمَّا يعاني من أسىً وحزنٍ، وما يكابد من ذلٍّ وهوانٍ نتيجة ما حلَّ بابنه، ويحضُّه على الصَّبرِ متَّخذاً من قصةِ النبيِّ يعقوبَ وابنَه يوسُفَ عليهما السَّلامُ قدوةً له ولابنِه في الصَّبْرِ والسلوان.

وكان بعضُ الشعراءِ قد تبادلُوا الرسائلَ في مجالِ التَّرحيبِ والاستئذانِ بالرَّحيل، فيُذكَرُ أنَّ الوزيرَ أبا الأصبع ابن الأرقم[2] قد باتَ على مقرُبَةٍ من إشبيلية، وأرسل للمعتمدِ يُعلِمُه بأنَّه وافدٌ عليه في صبيحة الغد، فقال[3]: (البسيط)

يا مالِكاً عظَّمَتْهُ العُربُ والعَجَمُ وواحِداً وهو في أثوابه أُمَــــمُ

إنّا وردنَاكَ والأقطارُ مظلمَــةٌ والبدرُ يُرجَى إذا ما التَخَّتِ الظُّلَمُ

فردَّ عليه المعتمدُ قائلاً: (البسيط)

أهلاً بكُمُ صحبَتكُمُ نحوِي الدِّيَمُ إنْ كان لم يتجنَّحْ لي بكُمُ حُــلُمُ

حُثُّوا المَطِيَّ و لو ليلاً بمُجهِلَةٍ فلن تضلُّوا ومن بِشرِي لكم عِلْمُ

---

[1] ابن الابار، الحلة، ج2، ص88-89.

[2] هو عبد العزيز بن محمد بن الأرقم النميري، الوادي آشي، سكن المرية، أقام عند إقبال الدولة ابن مجاهد العامري في دانية، ثم انتق عند المعتصم بن صمادح، وتوجه رسولا إلى المعتمد، توفي في إمارة المعتمد، قال عنه ابن بسام:" أحدُ كتّابِ الجزيرة المَهَرَةِ، والنقّدة الشعرة، ..." (ابن بسام، الذخيرة، ق3م1، ص36).

[3] المعتمد، الديوان، ص59؛ ابن بسام، المصدر السابق، ق2م1، ص46.

سأكتُمُ اللَّيــلَ ما ألقَاهُ من بُعدِ وأسألُ الصبح عنكُمُ حين يبتَسِمُ

فالمعتمد يرحِّبُ بالوزيرِ الضيفِ، ويعبِّرُ له عن شوقه وتطلّعه لقدومه.

أما في الاستئذان فقد كان الشاعر ابنُ عمار نازلاً في حضرة المعتصم، وعندما أراد الرحيلَ أرسل للمعتصم يستأذنه في الرحيل، قائلاً[1]: (مجزوء الكامل)

يا واضحاً فَضَحَ السحــا ب ، يجودُ في معنى السماحِ

ومطابقاً يأتي وجـــــو د، الجدِّ من طُرُقِ المـــزَاح

أسرفتُ في برِّ الضيـــا ف، فجُدْ قليــلاً في السَّــراح

فوقَّع المعتصمُ عليه قائلاً:

يا فاضــلاً فـــي شكره أصلِ المساءَ مع الصباحِ

هلاّ رفِقْـــــتَ بمهجَتِي عِنْـدَ التكلُّمِ في السُّراح

إنّ السمَــاحَ ببعدكُـــم واللهِ ليسَ من السمـــاح

وعندما أقلع المتوكِّلُ بن الأفطس عن الشُّربِ وتورَّع ومال إلى التديُّنِ، فمالت له القلوب، وفي أحد الأيام أرسل له أبو يوسف المغنِّي يستدعيه لمجلسِ خمرةٍ، لكنَّ المتوكِّلَ ردَّ عليه بشعرٍ يطلب فيه الرحيل بأسرع وقت، فيقول[2]: (المتقارب)

بعثـــتُ إليكَ جناحاً فطِـرْهُ على خفيَةٍ من عيونِ البشرِ

علــى ذُلَلٍ من نتاجِ البُرُوقِ وفــي ظُلَلٍ من نسيجِ الشَّجَر

فحسبِــي ممَّن نأى من دُنَا فمن غابَ كان فِدا من حضر

وكان الاستدعاء من الموضوعات التي تتمُّ بالمراسلات، ويكون الاستدعاء لأغراض مختلفة، منها القيام بالزيارة أو الدعوة للمشاركة في مجلس لهوٍ.

فقد أرسلَ المتوكِّلُ بن الأفطس يستدعي أبا طالب النحلي أحدَ وزرائه وندمائه لحضور مجلسِ لهوٍ ووصف حالهم كالعقد من غير وسطى، فيقول[3]:(مخلع البسيط)

انهَضْ أبا طالبٍ إلينـــا واسقُطْ سُقُوطَ النَّدى علينا

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص197-198؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص192.

[2] الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص306.

[3] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص652؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص364-365 وذكر المنادى باسم (أبي غانم)؛ الأصفهاني، المصدر السابق، ق4ج2، ص307.

فنَحْنُ عِقدٌ بغيرِ وُسطَى ما لم تكُـنْ حاضراً لدينـا!

وكذلك استدعى رفيعُ الدولة بنُ صمادح أبا يحيى بن مطروح أحد أصدقائه لحضور مجلس أُنسٍ فقال له[1]: (المديد)

يا أَخِي بل سيِّدي بل سنَدِي في مهمَّاتِ الزَّمَانِ الأنكَدِ
لُـح بأفقٍ غابَ عنـه بدرُهُ في اختفاءٍ من عيونِ الحُسَّدِ
وتعجَّـلْ فحبيبِـي حاضـرٌ وفمِي يشتاقُ كأسي في يدي

واستدعى أبو بكر ابن القبطرنة صديقاً له للمشاركة في مجلسٍ بقوله[2]: (المتقارب)

دعاكَ خليلٌ واليومَ طَـلٌّ وعارِضُ خَدِّ الثَّرى قد بقل
لِقدريْـنِ فاحا وشمَّامةٍ و إبريقِ راحٍ ونِعْـمَ المحَل
فلَـو شاءَ زادَ، ولكنَّـه يُلام الصديقُ إذا ما احتفل

وكان بعض الشعراء يبعثون برسائل مختلفة يشكون فيها ما ألمَّ بهم من علل أو نكبات خاصة، أو يبثُّون فيها شكواهم ممَّا يعانونه من تشتُّتٍ في البلدان، وتغيُّرٍ في الأحوال، وابتعادٍ عن الأصدقاء، ومن هؤلاء ابنُ شهيد الذي بعث برسالة إلى أحدِ أصدقائه يدعوه فيها أن يقرأ السَّلام على أصحابه وأن يخُصَّ أحدهم وهو عَمْرو بأزكى نُورٍ، فيقول مستذكراً الصداقة القويَّة التي جمعت بينهما والأحوال التي فرَّقتهما[3]: (البسيط)

اقرا السلام على الأصحاب أجمعُهُم وخُصّ عمراً بأزكى نُـورِ تسليـمِ
مـا كان حبُّـك إلا صوبَ غاديـةٍ طيباً وحاشـا لحبّي فيك من لوم
إنْ شاء صرفُ الرَّدى تقديمَ اطوعِنَا فقـد رضيـتَ حماك الله تقديمي
وإنْ أحبّ الثـرى جسمـاً ليأكلَه اسمـح بجسمي له يفديك تعظيمي
عشنـا أليفَيـن في برِّ الهوى زمناً حتـى رقـيَ بنوانَـا طائرُ الشُّوم
فشتّتت نُـوَبُ الأيـامِ أُلفَتُنـا قسراً ولم يغنِهـا ظنّـي وتنجيمي

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص200؛ المقري، النفح، ج3، ص369.

[2] ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص368؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص417.

[3] ابن شهيد، الديوان، ص149؛ انظر أيضاً ص107 من الديوان.

وقد خاطب أبو بكر ابن القبطرنة بعض إخوته وأصدقائه وندمائه ويشكو من علَّة أصابته، ويعتذر من عدم قدرته على الاجتماع بهم، فيقول[1]: (الطويل)

كِباري وساداتي إليكم تحيَّةً تُفتِّح سوساناً وتُجني لنا رياحينا

ومعذرةً منِّي إليكم بعلَّـــةٍ برتني ولا لدنَّاً من الخطِّ مسنونا

كأنِّي فيما اشتكي ابنُ محلَّمٍ سقاماً ولكن لست أشكو الثمانينا

وكان بعض الشعراء يتبادلون رسائل الهجاء والذّم، ومن ذلك ما جرى بين أبي محمد ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة من تراسل، عبَّر عن الهِنَاتِ والسباب الذي حدث بينهما، فقد أرسل أبو المغيرة لابن عمِّه نثراً يهجوه فيه وينقد كتاباً له، فراجعه أبو محمد بنثرٍ يترفَّع فيه عن سِبابه ثم اتبعه بشعرٍ يقول فيه[2]: (المتقارب)

تَبَغَّ سوايَ امرءاً يبتغي سِبَابَكَ، إنَّ هَوَاكَ السِّبَابُ

فإنِّي أبيتُ طِلابَ السَّفَاه وصُنْـتُ مَحَلِّيَ عمَّا يُعاب

وقُلْ ما بدا لكَ من بعد ذا وأكْثِرْ فإنَّ سكوتِي جوابُ

فلمَّا وصلت الرسالةُ إلى أبي المغيرة، أرسل له بقوله: " قرأتُ هذه الرقعةَ العاقَّةَ، فحين استوعبْتُها أنشدتْني:

نَحْنَحَ زيدٌ وسَعَل لمَّا رأى وَقْعَ الأسلْ"

وأشار أنَّه أراد تقطيعها ولكنَّه رجع عن ذلك، لكي يُرسِلَ لأبي محمد على ظهر الرقعة شعراً، فيقطِّعُ أبو محمد الورقةَ فكتب له أبو المغيرة: (المتقارب)

نعقتَ ولم تدرِ كيفَ الجوابُ وأخطأتَ حتَّى أتَـاكَ الصَّـوَابُ

وأجريْـتَ وحدكَ في حَلْبَةٍ نَأَتْ عنـك فيها الجيَادُ العـرَابُ

وبِتَّ مِـنَ الجَهْلِ مستَنْبِحاً لغَيْـرِ قِـرَىً فأَتَتْـكَ الذِّئَـابُ

لَعَمْـرُكَ ما لي طِبَاعٌ تُذَمُّ ولا شِيْمَـةٌ يومَ مَجْـدٍ تُعَـابُ

و يقول في نصٍ آخر على الرقعة نفسها[3]: (الطويل)

وغَاصِبُ حَـقٍّ أوبقَتْـهُ المقَـادِرُ يُذَكِّرُنِي حامِيمَ والرُّمْحُ شاجِرُ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص768.

[2] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص164.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص166.

وحسْبُــكَ أنَّ الأرض عِنْدك خاتَــمٌ   وأنَّك في سطْحِ السَّلامةِ عاثرُ
إذا كُنتَ في ظهرِ من العدْلِ مُنْجِداً   فإنَّكَ في بطنٍ من الجوْرِ غائرُ
فإنِّي للاحِــلْفِ الــذي مــرَّ حافِــظٌ   وللنَّــزْعَةِ الأُولَى لحاميم ذَاكِرُ
هنيئَــاً لِكُــلِّ مَــا لَديْــه فإنَّهـــا   عطيَّــةُ من تَبْلَى لديهِ السَّرائرُ

فمن خلال النصوص السابقة، نلحظ أنَّ الشعراءَ من ذوي البيوتات قد عبّروا عن قضايا خاصةٍ بهم في مراسلاتٍ مختلفة، وجاء معظمها سهلَ التعبيرِ واضح المعاني، وينُمُّ عن عاطفةٍ صادقة لدى الشاعر.

الفصل الرابع

الملامح الفنيّة لشعر البيوتات

امتازت أشعار البيوتات في الأندلس بعدد من الميزات الفنية التي اتسم بها الشعر الأندلسي عامة، وذلك لأن أغلب أشعار هؤلاء الشعراء كانت من الشعر العربي التقليدي، وليس من الموشحات، مع أن هنالك بعض شعراء البيوتات الذين اشتهروا بهذا الفن، مثل أبي عبد الله بن أبي الفضل جعفر بن شرف، وقسمونة بنت النغرلة، وغيرهما.

ومن أهم القضايا التي سأتناولها في هذا المجال: بناء النص الشعري والأسلوب والصور الفنية والمحسنات البديعية مثل الجناس وكذلك استخدام أسلوب النداء، وأخيراً توظيف الموروث الثقافي الديني و الأدبي.

1.4 بناء النص الشعري:

تفاوتت النصوص الشعريّة التي نظمها أفراد البيوتات الشعريّة في الأندلس في القرن الخامس الهجري من حيث الحجم، وهي تنقسم إلى قسمين هما:القصائد الطوال والمقطعات الشعريّة، فعلى الرغم من أن هناك عدداً كبيراً من شعراء البيوتات كانوا من كبار الشعراء الأندلسيين فإنّ ما انتهى إلينا من قصائد طوال يعدُّ قليلاً قياساً إلى ما وصلنا من مقطعات شعرية، كما سنرى، وقد نهج شعراء المطوّلات نهج القصائد الشعريّة العربيّة المشرقيّة التقليديّة، إذ كانوا يفتتحون قصائدهم بمقدمات متنوعة المعاني، ومن ذلك أننا نجد أن بعضهم كانوا قد افتتحوا قصائدهم بمقدمات طلليّة تكشف عن نزعة بدويَّة وتعلُّق شديد بالتقاليد الفنيّة المشرقيّة، أو بيئات الشعر العربي المشرقي القديم، ومن هؤلاء الشعراء ابن دراج القسطلي، وابن شُهيد الأندلسي.

وكما ذكرنا فإن من مظاهر بناء القصائد الطوال افتتاحها بالمقدمات، ومنها المقدمات الطللية أو الغزلية، ولعل هذين النوعين هما الأكثر شيوعاً وشهرة بين الشعراء، ويكاد اهتمام النقاد السابقين قد اقتصر عليهما في دراستهم للشعر الجاهلي الذي يمثل النموذج الأمثل لبناء القصيدة العربية التقليدية، ويعلل هذا الاهتمام يوسف بكار بأنه عائد إلى أمرين: " أولهما نقص في استقراء القدماء لذلك الشعر القديم،

والآخر، وهو ما يحتمل الترجيح، كثرة المقدمات الغزلية والطللية كثرة استحقت الاهتمام بها"[1].

ومن شعر البيوتات الأندلسية الذي بُدِئ بالمقدمات الطللية قصيدة أبي عامر ابن شهيد الرائية التي قالها في مدح يحيى المعتلي حيث يقول فيها[2]: (الطويل)

شجَتْـــهُ معـــانٍ مـــن سُليمى وأدؤُرٌ .....

وأخـــرى اعتقَلْنـــا دونَهُـــنّ ودونَهـــا قصـــورٌ وحجّـــابٌ ووالٍ ومعشـــرُ

يزيّنُهـــا مـــاءُ النعيـــمِ وحفّهـــــا مـــن العيشِ فينانُ الآراكـــةِ أخضرُ

إذا رامهـــــا ذو حاجةٍ صدّ وجهَـــــهُ ظَبَـــا البـــاتـــراتِ والوشيـــجِ المكسّرُ

ومن قبّةٍ لا يُدركُ الصّـــــرفُ رأسَها تـــزلُ بهـــا ريـــح الصّبَـــا فتحـــدّرُ

إذا زاحمَـــت منها المخـــــارمُ صوَّبَت هويـــّاً علـــى بُعد المـــدى وهي تجأرُ

فابن شهيد هنا يوظّف المقدمة الطللية المشرقية، فيذكر تلك الحبيبة التي فارقته وسبّبت له الشجوَ والحزنَ، ويذكر شجر الآراكة الذي عُرِفَ في البيئة الصحراوية المشرقية، وهذا يؤكد تأثره بالمشرق تأثراً فنياً.

ولكن لا تشتمل القصيدة على المقدمة فحسب؛ بل هنالك أغراض أخرى تتضمنها القصيدة ومنها الموضوع الرئيس والخاتمة، ويعدُّ انتقال الشاعر بين الأغراض في القصيدة الواحدة من أهم الدلائل التي تؤكد مهارة الشاعر وإبداعه الشعري، وهو ما أسماه النقاد "حسن التخلُّص" ، ويقصد به:"أن ينتقل الشاعر بين موضوعات القصيدة الواحدة وأغراضها دون أن يُخِلَّ ذلك بتلاحم الأغراض ووحدة القصيدة بحيث لا يشعر المتلقي –القارئ أو السامع– أنه ينتقل من غرض لآخر لشدة ارتباطهما معا"[3].

وقد استخدم الشعراء قديماً بعض الألفاظ التي تدلل على خروجهم من موضوع

---

[1] بكّار، يوسف حسين، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، 1982م، ص212.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص107–108، وعجز البيت الأول لم يرد في الديوان ولا المصادر القديمة.

[3] بكار، المرجع السابق، ص211–223.

لآخر، مثل" دع ذا " و "عدِّ عن ذا"، أو ابتـــداء الغرض الجديد بـــ"إنّ" المشدّدة. وقد انتقل ابن شهيد من المقدمة إلى مدح ابن حمود بطريقة لا تربط بين الغرضين وتلحم بينهما، وإنما بدأ المدح "بواو ربّ "، وهذا التخلص يجعل القصيدة مفككة في بنائها، حتى أن المتلقي يستطيع أن يفصل بين الغرضين، فيقول في القصيدة نفسها :

ودويّةٌ من فتنةٍ مدلهمَّةٍ دريس الصَّوى معروفها منتكِّرُ

ويستمر في المدح وذكر محاسن الممدوح ومناقبه، ثمّ ينتقل إلى الخاتمة التي جاءت في بيت واحد أنهى به المدح، فيقول:

وسرنا نجوزُ النهجَ حتى بدا لنا بغرّةِ يحيى ساطعُ اللّونِ أزهرُ

وخاتمة القصيدة لم تحظَ عند النقاد القدماء جميعاً بنفس الأهمية التي نالتها المقدمة ومطلع القصيدة، ولكن منهم من اهتم بها وأطلق عليها اسم "المقطع" ، ونظروا إليها من زاويةٍ اهتموا بها بالسامع أو المخاطب باعتبارها هي آخر ما يبقى في ذهنه من القصيدة، لذلك يتوجَّب على الشاعر أن يتخيّر لها الألفاظ المناسبة والتي هي أحسن مما اندرج في حشو القصيدة. كما اشترطوا فيها أن تتناسب مع الغرض الرئيس للقصيدة، فإن كان مدحاً أو تهنئةً كانت سارة، وإذا كان رثاءً أو عزاءً كانت حزينة، وهنالك من فضّل اشتمالها على حكمة أو مثل سائر وهنالك من عاب ذلك[1].

وفي قصيدة يرثي فيها ابنُ شُهيد قرطبةَ، ويصف حالها بعد الفتنة البربرية مطلع القرن الخامس الهجري، حيث غدت أطلالاً وآثاراً دارسةً، فيقول[2]: (الكامل)

مـــا في الطلولِ مـــن الأحبة مُخبِـــرُ فمَـــنْ الـــذي عن حالِهـــا نستخبرُ؟

لا تسألَنْ سوى الفـــراقِ فإنَّـــــــه ينبيــــــك عنهُـــمْ أنجَدُوا أم أغوَرُوا

فابن شهيد يفتتح مرثيّته بمقدمة مناسبة للمعاني التي أدار عليها قصيدته وهو خراب قرطبة وزوال معالم حضارتها وفناء أهلها، حتّى عاد لا يجد أحداً يسأله عمّا حدث لهذه المدينة العريقة، وعلى الرغم من أن حديثَ ابنِ شهيدٍ حديثٌ واقعيٌّ فإنّه يستلهم كثيراً من دلالات حديثه عن أطلال قرطبة من حديث الشعراء المشارقة.

---

[1] بكار، بناء القصيدة، ص229-231.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص109-111.

وبعد المقدمة ينتقل إلى الرثاء ببيت من الشعر يُدرك من خلاله المتلقي أنه انتقل إلى غرضٍ جديد، لكن دون الإخلال بالمعنى العام للقصيدة وارتباط عناصرها، فيبدأ الرثاء بقوله:

فلمثل قرطبةَ يقِلُّ بكاءُ من يبكي بعيـــنٍ دمعُها متفجّرُ

ويستمر في الرثاء وذكر الآثار الدارسة والمدمّرة، ويغلب على الأبيات عاطفة الحزن والبكاء وهي تتناسب مع الموضوع الرئيس، حتى إذا وصل إلى آخر بيت جعله حزيناً متناسباً مع ما مضى، ويخلُص بها إلى أنه لم يفقد الجماد فقط بل فقد الإنسان وعلمَ العلماءِ والأدباءِ، فيقول:

كَبِدي على علمائِها حلمائِها أدبائِهـــا ظرفائِهـــا تتفطّرُ

ويفتتح أبو عبد الله ابن شرف لاميّةً له قالها في مدح علي بن أبي الرجال، بمقدمة طللية، يقول فيها[1]: (البسيط)

رسْمُ الشجيِّ البُكا في الرَّسمِ والطَلَلِ والدّمـــعُ حيلـــةُ أهـــلِ الفقدِ للحيلِ

أفنى دموعي وجسمي طولُ هجركُمُ حتى جَرَتْ دمعَتي طلاً علـــى طللِ

فهو يقف على آثار ديار المحبوبة وأطلالها ورسومها، ويبكيها بكاءَ مرّاً، إذ ليس باستطاعته أن يفعل شيئاً غير ذلك، ولقد أفنى هجرُ المحبوبة دموعَه وأضناه حتى كلَّ جسمُه، وغدت دموعُه مطراً يتساقط على أطلالها. ثم انتقل إلى المدح بأسلوب الحضِّ الذي ينطوي على نصيحة تشكِّل له بداية للمدح، فيقول:

جـــاور علياً ولا تحفَـــلْ بحادثـــةٍ إذا ادّرَعَت فلا تسألْ عن الأسلِ

اسمٌ حكاه المسمَّى في الفِعَالِ فقد حازَ العَلِيَّينِ من قولٍ ومن عملِ

ويستمر في المدح إلى آخر بيت حيث يختتم القصيدة بذكر محاسن الممدوح فيقول:

لا قاصـــــداً أُمَّـــه إلا وأبدَلَـــــهُ يُسراً من العُسْرِ أو أمناً من الوجَلِ

كما افتتح بعضهم قصائده بمقدماتٍ غزليَّة، كما فعل ابنُ شُهيد في قصيدة له في وصف الطبيعة حيث بدأها بمقدمة غزليّة تتضمّن نسيباً وتشبيباً، فيقول[2]: (الطويل)

خَلِيْلَيَّ ما انفَـــكَّ الأَسى منذُ بينِهِم حَبِيبـــــيَ حتى حلَّ بالقلـــبِ فاختَطَّـــا

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص84؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص261.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص121-122.

أُريــدُ دُنُــوًّا مــن خليلي وقد نأى   وأهــوى اقتراباً من مزارٍ وقد شطّــا
وإنّي لتعرُونــــي الهُمُــومُ لذِكرِكُــمُ   هُدُوًّا فــلا أسطيـــعُ قبضاً ولا بسْطــا
وإنّ هبــوطَ الــواديَيــنِ إلى النَّقا   بحيثُ التقى الجمعانِ واستقبلَ السَّقطا
لِمَسْــرَحِ سِرْبٍ ما تَقَــرَّى نعاجُهُ   بَريــراً ولا تقــرُو جــآذِرُهُ خَمْطا

فالشاعر يبدأ المقدمة بلفظة "خليليّ "، وهي لفظة أكثرَ المشارقةُ من استخدامها في شكواهم من الفراق والهجر والتعبير عن حيرتهم واضطراب بالِهمِ المفرطِ بتأريج الشوق والصبابة، وهي المعاني ذاتها التي يردّدها ابن شهيد، حتى لقد جاءت معاتبةً أندلسيّة المنشأ مشرقيّة النمط، بدويّة السمات[1].

وقد تخلّص الشاعر من المقدمة إلى الوصف "بواو ربَّ "، وقد حافظ من خلالها على التحام أجزاء القصيدة، فيقول:

ومُرْتَجِزٍ أَلْقَى بذي الأثْلِ كَلْكَلاً   وحطّ بِجرعاءِ الأبارِقِ ما حطَّا

ويستمر في الوصف لذلك العارضِ الماطرِ الذي طرأ في الليل واختلط بالريح ثمّ روّى الأرض والتراب، كما رسم صورةً لليل وهو مسيطرٌ على الأجواء باعتباره عنصراً من الطبيعة، وينهي القصيدة بصورةٍ غايةٍ في الدقةِ والإبداعِ الفني، فيقول:

مُطِلاً على الآفاقِ والبدرُ تاجُهُ   وقد علّق الجَوزاءَ في أذنه قُرطَا

وقد سبق ابن دراج القسطلي بأن نظم قصائد كثيرة بدأها بمقدمات غزلية، ومن ذلك قصيدة له في مدح مظفر ومبارك العامريَّين، وذلك عندما ثارا على مجاهدٍ العامريِّ، وتولّيَا أمرَ بلنسية، حيث يقول في المقدمة[2]: (الطويل)

أنُــورُكِ أم أوقــدتِ بالليــلِ نــارَكِ   لبـــاغٍ قِــراكِ أو لبــاغٍ جِــوارَكِ؟

---

[1] الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي(موضوعاته وفنونه)، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1983م، ص345.

[2] ابن دراج، الديوان، ص101–102، وله قصيدة أخرى نشير إليها ولا نذكرها لتقدم زمنها، وهي في مدح المظفر عبد الملك بن المنصور، ونظم مقدمتها على لسان جارية، وجاءت في تسعة أبيات، استمد الأوصاف من الطبيعة ومطلعها:

من سبي سيبك مما أنبتت نعمُك   من درّ بحرك مما عمّه كرمك

(الديوان، ص467).

وريَّاكِ أمْ عرْفُ المجامرِ أشعلَتْ   بعُودِ الكباءِ و الأَلُوَّةِ نارك؟
ومَبسمُكِ الوضَّاحُ أم ضوءُ بارقٍ   حداه دعائي أن يجود ديارك؟
وخَلخَالُك استنضَيْتِ أم قمرٌ بدا؟   وشمسٌ بدت أم أَلَحْتِ سِوارك؟
وطُرَّةُ صبحٍ أم جبينُكِ سافِرٌ   أعَرْتِ الصباحَ نوره أم أعارك؟
وأنتِ أَجَرْتِ الليلَ إذ هَزَمَ الضُحى   كتائبَهُ والصبحُ لمّا استجارك
فللصُّبحِ فيما بينَ قِرطَيكِ مطلَعٌ   وقد سكَنَ الليلُ البهيمُ خِمارك

فابن دراج يبدأ قصيدته بمقدمة غزليَّة بلغت حوالي ثمانية عشرَ بيتاً، وقد مزج فيها بين الغزل بالمحبوبة والحديث عن لوازمها وعناصر الطبيعة، وكثّف فيها توظيف الأساليب الإنشائيّة من الاستفهام والنداء والتعجب، ممَّا يعمّق المعاني التي أدار عليها المقدمة ويوسِّعُ أبعادها ودلالاتها، كما أنه أكثر من استخدام مستلزمات المرأة وخاصة المَبسمُ والخلخالُ والسوار والجبينُ السافر وغيرها[1].

كما افتتح أبو الحسن علي بن عبد العزيز الطبني قصيدة له في المجون بمقدمة غزلية قصيرة لا تتجاوز بيتين يقول فيهما[2]: (البسيط)

كَمْ بالهَوادجِ يَومَ البيْنِ من رشأ؟   يهفُو علَيْهِ وِشَاحٌ جائلٌ قَلِقُ
وكَمْ بِرامةَ من رِيمٍ يفارِقُنا   لَهْفَانَ يثنِيْهِ عن توديعنا الفرَقُ

إنها مقدمة غزلية تكشف عن نزعة بدويّة مشرقيّة، فتردُ فيها معاني الشوق والمعاناة، ويُحِيلُ إلى أمكنةٍ بدويَّةٍ مشرقية "كرامة" ولوازم وأدوات حضارية عرفها المجتمع العربي البدويّ المشرقيّ مثل الهودج والوشاح.

وتخلّص من المقدمة إلى وصف مجلس اللهو والمجون، عندما التقى بالندماء والتفّ حولهم السقاة من مِلاح الغلمان، وكان انتقاله "بواو ربّ "، فيقول:

ونرجسٍ كفِرَنْدِ السَيْفِ ساهَرَني   مُعَلَّلاً بنَسيمٍ عَرْفُهُ عبِقُ

---

[1] بهنام، هدى شوكت، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي (دراسة موضوعية فنية)، ط1، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000م، ص26.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص547-548.

فتخلُّصُه السابق لم يؤثر على المعنى ولا عناصر القصيدة، ثمَّ جعل خاتمة القصيدة ببيتين يصف فيهما الخمرة التي يسعى بها الساقي المرهف المتمايل الخصر، وقد أُدارها بينهم فقادتهم إلى اللهو، فيقول:

نلهُـو بـرقـراقَـة صافيـــة يكادُ ينجابُ من أضوائها الغَسَقُ

يسعى بها مُرهفٌ كالغُصْن نعَّمَهُ ماءُ النعيـمِ عليه النُّورُ والورقُ

فجاءت الخاتمة متناسقة مع الموضوع وزاخرة بالصور الفنيَّة الجميلة.

ومن المقدمات الغزليَّة التي تتردد فيها المعاني المشرقيّة، ما افتتح به أبو المغيرة ابن حزم إحدى مدائحه حيث يقول في وصف طيف المحبوبة[1]: (الطويل)

تبيتُ بــذي الأرطــى وقد بات طيفُها لنــَا صنماً نحنُــو عليــه ونعكفُ

هبيــكِ سريتِ الليــلَ فرعُك أسحــمُ وثغــرُك بسّــامٌ، ولحظُك أوطـــفُ

فأنّى أطقــتِ المشــي، وقــدُكِ مائدٌ وردْفُكِ رجْراجٌ وخِصْـــرُكِ أهيــفُ

سقى ربْعَكِ المألوفَ، حيــث تصدّعت لـــي الكبدُ الحــــرَّى ربيعٌ وصيــفٌ

فكــم لــي فيه مــن جنَــابٍ وطئتُه كريمــاً فلا آســـي ولا أتأسَّـــفُ

ولله سلمــى يــوم أهــدى سلامَهــا بــذي سلمٍ نحوي البنــانُ المطرّفُ

ويستمر الشاعر في هذه المقدمة حتى بلغت ثلاثة عشر بيتاً، يتغزّلُ فيها بمحاسن المحبوبة ذات الاسم المشرقي "سلمى" الذي ورد في آخر بيت منها، ويفصّل في صفاتها الجسديَّة، ثم يدعو لربعها بالسُّقيا على طريقة المشارقة. وبذكر صفات المحبوبة يتخلّص من المقدمة الغزلية ويسير على نهج القدماء في ذكر المحبوبة وصفاتها، ووصفها بالظبية، فقال:

ومــا ظبيـــةٌ تعــرُو أراكَهــا وتعطو وقد وافى بريرٌ وعلّفُ

ثم بعد هذا الوصف للمحبوبة ينتقل إلى المدح وهو الغرض الرئيس، وقد بدأه بواو ربَّ وبذكر المعارك والفرسان ووصف الجيوش، فيقول:

وركبٍ سرَوا والليلُ مرخٍ عليهم ستوراً من الظلماءِ لا تتكشّفُ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص176-177.

وقد يمزج بعض الشعراء بين الغزل والحديث عن الخمرة، في مقدمات قصيرة جداً، ومن ذلك ما افتتح به المعتضد بن عباد قصيدةً مدح بها صهره مجاهد العامري، فيقول[1]: (الكامل)

أَتُــرى اللقــاءُ كمــا نحبُ يوفّقُ فنظلُّ نصبــحُ بالســرورِ ونغبقُ
حتامٌ تُمْطِلُني الليالــي قُــرْبَ من قلبــي لـــه متشــوّفٌ متشــوّقٌ

فقد تناسبت المقدمة مع موضوع القصيدة وهو المدح، كما أنّه انتقل من المقدمة الغزلية إلى المدح بصورة استعار فيها بعض معاني الغزل وألفاظه، ذلك أنَّ الذي يشتاق قلبُه لرؤيته هو هذا الملك، فيقول:

ملكٌ أغــرُّ أغـــارُ أن يحظَى به لســواي ألحــاظٌ ولحظِــي ململِق

فهو يغار عليه من أعين الناظرين، ثم يستمر في الوصف والمدح حتى آخر بيتٍ وفيه يتوِّج هذا المدح ويجعل الممدوح يفوق غيره من الملوك، فيقول:

حسبُ الرئاسةِ أن غدت مزدانةً بسناه فهو التاج وهي المِفرق

أما أبو بحر ابن عبد الصمد، فقد بدأ قصيدة مدحيّة بمقدمة خمرية مستوحاة من البيئة الأندلسية، يتداخل فيها الوصف والغزل والخمرة، فتحدث فيها عن مجلسِ لهوٍ ومجون، فيقول[2]: (الخفيف)

أدلَجُــوا بالشمــوسِ في الأغصــانِ ومشَوا بالحدوجِ فــي الكثبانِ
رُبَّ ليــلٍ قطعــتُــــه في ريــاضٍ وندامى وقهوةٍ ومثــانـــــــيِ
ووجــوهٍ مثـــلُ البــدورِ تَــــلالا وقدوحٍ كأنّها قضْـــــبُ بـــــانِ
فــوقَ أطواقِهــا سنــا صفحـــاتِ معجماتِ السطــورِ بالخيــلان
وعيـــونٍ من نرجــسٍ وخـــدودِ من شقيقٍ على طُلا سوســانِ
فاجتنينــا زَهْرَ الخــدودِ غضيضــاً وقبَضْنَا أرواحَ تلك الدِّنـــــانِ
لم تزل تسجُــدُ الأباريــقُ للشُّـــرْ بِ سجودَ الرهبانِ للصلبـــانِ
نتعاطـــــى الكؤوسَ والليـــلُ خفّا قُ الحوافي ممزَّقُ الطيلســانِ

---

[1] المعتضد، الديوان، ص112.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص811.

وتقع هذه المقدمة في أربعةَ عشر بيتاً، وقد مزج فيها بين الحديث عن الخمرة ووصف السقاة وأواني الشراب وعناصر الطبيعة الجميلة، ولا شكَّ أن هذا النوع من المقدمات مستمد من البيئة الأندلسية. ولم يرد من المدح فيها سوى بيتين لا ندري هل هما بدايته أم من ضمنه؟ ولذلك لا نستطيع أن نحكم على تخلّصه من المقدمة إلى المدح .

ومن خلال النصوص والقصائد السابقة نلحظ أن هؤلاء الشعراء اهتموا بالمقدمات اهتماماً كبيراً وجاء كثير منها تقليداً للمشارقة، لكن انتقالهم من غرض إلى آخر في القصيدة الواحدة فلم يكن بالأدوات المشرقية نفسها بل أكثر شعراء البيوتات من استخدام "واو ربّ "، كما أن الحُكمَ على مدى اهتمامهم بالارتباط والتلاحم بين أجزاء القصيدة يتضمن نوعاً من التعميم، وذلك لأن معظم هذه النصوص وردت متناثرة في المصادر الأندلسية، وعلى شكل مقتطفات، ولم ترد قصائد متكاملة.

أما المقطعات فقد غلبت على معظم أشعار شعراء البيوتات، وتمتاز بوحدتها الموضوعية، فهي تعالج موضوعاً واحداً، على خلاف القصائد الطويلة التقليدية، التي تعالج أكثر من موضوع، ومنها قول المعتمد بن عباد يرثي ابنيه المأمون والراضي، عندما رأى قمريَّة تبكي على فراخها، فقال[1]: (الطويل)

بَكَتْ أنْ رأَتْ إلفَيــنِ ضمَّهُما وكــــرُ   مساءً، وقد أخنَى علــى إلفِها الدهــــرُ

بكَتْ، لم تُرِقْ دمعاً، وأسبلَـــتْ عبرةً   يُقصِّرُ عنها القطرُ مهمــا همى القطــرُ

وناحَت وبــــاحَتْ، واستراحَتْ بسرِّها   وما نطَقَــتْ حرفــاً، يبـــــوحُ به سرّ

فما لـــــي لا أبكــي، أم القلبُ صخرةٌ   و كم صخرةٌ في الأرضِ يجري بها نهرُ

بكت واحــداً لــم يُشجِهــــا غيُر فقده   وأبكـــــي لألاّف، عديــدُهـــمُ كُثْـــرُ

بَنِـــيٌّ، صغيــرٌ، أو خليـــلٌ موافــقٌ   يمــزّقُ ذا قفــرٌ، و يُغـــرِقُ ذا بحــرُ

ونجمَــانِ، زَيْنٌ للزمـــانِ، احتواهمــا   بقرطبـــةَ النكـــداءُ، أو رنــــدةَ، القبرُ

غَــدرْتُ إذاً إن ضَــنَّ جَفني بقطــرِه   وإن لُؤمــت نفســي، فصاحبَها الصَّبْرُ

---

[1] المعتمد، الديوان، ص68-69؛ المقري، النفح، ج4، ص250-251.

فقُــلْ للنُجـــوم الزُهر تبكيهما معي لمثلِهمـــــا فلتحـــزنِ الأنجُـــم الزُهْرُ

فالنص السابق جاء في موضوع واحد وهو رثاء ابنيه، واتسم بصدق العاطفة، ولم يتناول موضوعا آخر سوى الرثاء.

وجاءت بعض المقطعات الشعرية في الهجاءُ والسخريةُ، ومن ذلك قول أبي عبد الله ابن شرف ساخراً من منزل لأحد الندماء، يقول[1]: (الكامل)

لــك منزلٌ كمُلَت ستارتُه لنـــا للّهــوِ لكن تحــتَ ذاك حديــثُ

غنّى الذُبَابُ فظَلَّ يزمُرُ حولَه فيه البعوضُ ويرقصُ البرغوثُ!

إن طبيعة السخرية لا تحتاج إلى الابتداء بمقدمات، وهي دونها أكثر تأثيراً، فعندما تولّد لديه شعور وإحساس بالسخرية، نظم هذين البيتين. ويغلب على شعر الهجاء أن يرد في شكل مقطوعات ولعل ذلك يعود إلى أنه إذا ورد في قصيدة متعددة الأغراض فإنه يفقد قيمته، إضافة على سيطرت المقدمة التي تنال المكان الأوفر في القصيدة، وبالتالي يقلُ تأثيرها على المهجوِّ. كما أن الهجاء يسبب الحيرة للشاعر في تحديد المقدمة المناسبة له .

ولأبي بكر ابن القبطرنة نصٌ يعاتب فيه صديقاً له يكنّى أبا عامر، فيقول[2]: (البسيط)

إليــكَ وإنْ كنــتَ قُطْــبَ الوفَـــا أبـــا عامــرِ والأريــب الأديبــا

تكــونُ بِحمْصَ ثلاثيــنَ يومـــــاً وأُصبــح منــك القصيَّ الجنيبا

ويستمر بذلك العتاب في ستة أبيات، فجاء النص مقتصراً على تناول موضوعٍ واحدٍ.

ويظهر أن هنالك عدة عوامل أدَّت إلى ميل الشعراء الأندلسيين من ذوي البيوتات إلى نظم المقطعات الشعرية دون القصائد، منها سيطرة موضوعات الاستجابة السريعة أو ما تؤثر على عواطفهم وتستدعي ردَّة فعلٍ مباشرةٍ على شعرهم ومن ذلك الإجازات الشعرية، والدعوات وغيرها، فالشاعر عندما يتعرَّض

---

(1) ابن شرف، الديوان، ص44؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص262؛ المقري، النفح، ج3، ص 329.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص768.

لكثير من المواقف التي تؤثر على عواطفه وأحاسيسه، فإنَّه لا يستطيع الوقوف طويلاً عندها، وإنَّما يعبِّر عن ردّة فعله السريعة ببعض الأبيات التي تمتاز بوحدة موضوعها، إضافة إلى تكثيف المعاني، فهو يذكر معاني كثيرة في أبياتٍ قليلةٍ.

لقد أكثر شعراء البيوتات من استخدام المقطعات في أغراضٍ مختلفة؛ كالرسائل الشعرية وغيرها، ومن ذلك ما جرى بين الوزير ابن عمار والمعتصم بن صمادح عندما استأذنه الوزير بالرحيل قائلاً[1]:(مجزوء الكامل)

يا واضحاً فَضَح السحا بُ يجودُ في معنى السماحِ
ومطابقاً يأتي وجو ه الجِدِّ مِن طُرُقِ المزاح
أسرفتَ في برِّ الضيا ف فجُدْ قليلا في السراح

فوقّع له المعتصم قائلاً:

يا فاضلا في شكره أصلِ المساء مع الصباحِ
هلاَّ رفقْت بمُهجتي عند التكلم في السراح
إن السماح ببعدِكم واللهِ ليس من السماح

وقد أرسل أبو عامر ابن شهيد إلى أبي محمد ابن حزم عندما اقتربت منيَّتُهُ واشتدَّ عليه المرض يودِّعُه، ويطلب منه الدعاء له، فيقول[2]: (الطويل)

من مبلغٌ عنّي ابنَ حزمٍ وقد كان لي يداً في مُلمَّاتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إنـي مفارق وحسبُك زاداً من حبيبٍ مفارقِ
فلا تنسَ تأبيني إذا ما فقدتَني وتذكارَ أيامي وفضلَ خلائقي

وكذلك في موضوع الإجازات الشعرية، فمن أمثلتها ما حدث مع المعتمد في ذات يوم، عندما رأى إحدى حظاياه تسير، وعليها غلالةٌ ناعمةٌ، لا يكاد يُفرَقُ بينها وبين جسمها، وذوائبُها حالكةٌ في سوادها، فسكب عليها ماء وردٍ كان بين يديه، فامتزج الكلُّ ليناً واسترسالاً، فأدركته أريحيَّة الطرب، فقال[3]: (الكامل)

وعُلِّقتُ جائلةَ الوشاحِ غريرةً تختالُ بين أسنَّةٍ وبواترُ

---

[1] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص197-198؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص192.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص134.

[3] المعتمد، الديوان، ص14.

فتعذَّر عليه المقال، فأرسل بالبيت إلى أبي الوليد النحليّ مع أحد الخدم، وطلب منه أن لا يفارقه حتى يفرُغَ، فقال النحليُّ لأول وقوع الرقعة بين يديه:

راقَتْ محاسنُها ورقَّ أديمُها فتكادُ تبصرُ باطناً من ظاهرِ
وتمايلَتْ كالغصنِ في دعصِ النقا والتفَّ في ورَقِ الشبابِ الناضرِ
يندى بماءِ الوردِ مُسبلُ شعرِها كالطّلِّ يسقُطُ من جناحِ الطائرِ
تَزهَى برونَقِها وعزِّ جمالِها زَهوَ المؤيَّدِ بالثناءِ العاطرِ
ملكٌ تضاءلتِ الملوكُ لقدرِه وعنا له صرفُ الزمانِ الجائرِ
وإذا لَمَحْتَ جبينَه ويمينَهُ أبْصَرتَ بدراً فوقَ بحرٍ زاخرِ

فاستحسنها المعتمد، وتعجَّب من حسنِ تصويرِه، وكأنَّه كان معهم.

وقد أوردنا في الفصلين الثاني والثالث عدداً من الأمثلة، ويمكن أن نلحظ فيها أن الشعراء قصدوا إلى المعاني التي يريدونها بأبيات قليلة، دون مقدمات استفتاحية، إضافة إلى أنها جاءت قصيرة موجزة تهدف إلى إيصال معنى أو فكرة أو إتمام معنى ما، أي الوحدة الموضوعية، وفي بعض الموضوعات ولا سيما المراسلات والإجازات مال شعراء البيوتات إلى إبراز مهارتهم الشعرية من خلال الالتزام بما يرد عند السابق في الوزن والقافية وأحياناً -كما في الرسائل- يكون الردُّ بنفسِ العدد من الأبيات الشعرية. وعلاوة على ذلك فقد راعُوا الدقة في استخدام الألفاظ القادرة على حمل المعاني التي يريدونها، ومدى ملاءمتها لطبيعة المخاطب وخاصة إن كانت في المراسلات، فرسائل الشعراء للأمراء تختلف في ألفاظها وتخيرها عن مراسلة الشعراء بعضهم بعضاً.

2.4 الأسلوب:

يمثل الأسلوب الوسيلة التي يقدِّمُ بها الشاعر الفكرةَ التي يريد أن يضمِّنَها النص، وكلَّما كان الشاعرُ منوِّعاً في أساليبه كان أكثرَ إبداعاً في نظم القصيدة. ويبرز مهارته الشعرية بشكل أوضح، كما أن طبيعة الموضوع تفرض على الشاعر أسلوباً معيناً في التعبير، ولكن من خلال دراستنا لأشعار شعراء البيوتات السابقة،

نلحظ أن من أكثر الأساليب التي مال الشعراء لاستخدامها؛ الحوار والصُورُ الفنيَّةُ كما أكثر بعضهم استخدام كثير من ألوان المحسنات البديعية والأساليب الإنشائية.

1.2.4 الحوار:

يمنح عنصر الحوار النصَّ الشعريَّ أو الأدبيَّ صفة الحيوية إضافة إلى التشويق لدى المتلقي، وذلك من خلال التفاعل بين المتحاورِين، وكان شعراء المشرق يميلون إلى هذا النوع من الأساليب، وإن لم يجد من يحاوره جرَّد من نفسه شخصيةً أخرى يحاورها، ومن أساليب الحوار استخدام الفعل "قال" وما يدور في فلكه ومعناه، أي ما يدلّ على قول وردٍّ عليه.

فمما ورد من حوار مُتخيَّلٌ قولُ أبي عامر ابن شهيد في السِّجنِ أيام العلويين محاوراً المحبوبة، فيقول[1]: (الطويل)

وراضَتْ صِعـابِي سطْـوةٌ علويّــةٌ   لهـا بارقٌ نحـو النَّدى ورُعُـودُ
تقـولُ التـي من بيتِها خفَّ مركَبِـي   أَقُرْبُـكَ دانٍ أم نَـواكَ بعيـدُ؟
فقلتُ لهـا: أمري إلى مَنْ سَمَتْ بـه   إلـى المجـدِ آبـاءٌ لـهُ وجُدُودُ

فيورد ما ذكرَتْهُ المحبوبةُ على لسانها، ويردُّ عليها مستخدماً الفعلين (تقول، فقلت) وهما من قرائن الحوار، كما أنه استخدم هذا الأسلوب للتعبير عن معاناته في السجن واستعطاف السجَّانِ لإطلاقِ سراحِه.

وقد استخدم أبو حفص ابن برد الأكبر هذا الأسلوب في التعبير عمَّا جرى بينه وبين طيف فتاةٍ ألمّ به، فيقول[2]: (البسيط)

فهل شَعَرْتَ ببـدرٍ طافَ بي غَلَسـاً   رَخْصَ البَنَانِ كَحِيلِ العَيْنِ مَخْضُـوبِ
حيّا تحيـةَ ذي أنس بنـا وجـلا   قنـاع وجه طويل الصون محبوب
فقلت:أهـلاً ورَحبَـاً، مَنْ هداك لنا   ليـلاً؟ فـردَّ بتأهيـلٍ وترحيـبِ
وقال: ماذا ترى؟ قلتُ: الغزالـةَ في   ثـوبِ احمـرارٍ من الظلماءِ غريبِ
قال:اتئِدْ! قلـتُ:قـد أبصرتُهـا قُبُلاً   فقـالَ: حِـلاًّ، فقلتُ: الحِـلُّ مطلوبي

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص101-102.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص129-130.

قال:تَحــرَّ، فــلا تَشْطَطْ بنــا سرفاً　　فقــلتُ: ليس سوى التَّقصيرِ مرغُوبي

ثمَّ اعلَمــي أنَّني من حبِّكُـم دنِــفٌ　　قالــتْ: علمــتُ فلا تخضعْ لمحبــوبِ

قلتُ: الوصالُ، فقالت:مُه بلى وعسى　　و فــي عسى فُرجــةٌ تُرجى لمكرُوبِ

لقد أطال الشاعر هنا في الحوار وأكثر من الفعلين (قال، قلت)، وهذه الإطالة منحت النصَّ نوعاً من الحيويَّة والحركة.

أما المعتمد بن عباد، فقد أجرى حواراً مع شجرة كرمة "عنب"، حيث شخَّصَ هذه الشجرةَ وجعل منها إنساناً يحاوره، فقال[1]: (الوافر)

مررْتُ بِكَرمــةٍ جذَبَت رِدائــي　　فقلتُ لهــا: عَزمْــتِ على إذائــي

فقالــت: لِــمَ مررْتَ ولَــمْ تُسلِّم　　وقــد روَيْــتُ عظامَــكَ من دمائي

لقد جاء هذا الحوار في العتاب ولم يُطِل فيه الشاعر وأراد من وراء ذلك التفكُّهَ والتظرُّفَ.

ويتحدث أبو الفضل جعفر بن شرف عن جمال فتاة وحسنها، حتى أن شدَّة جمالِها الذي فاق باقي النساء استنطق الحسنَ فتحدث قائلاً[2]: (الطويل)

رأى الحُسْنُ مــا في خدِّهِ من بدائع　　فأعجَبَــه مــا ضمَّ منه وطَرَّفا

وقَــال: لقَــد ألَّفتُ فيــه نَــوادِراً　　فقلت له: لا بــلْ غريباً مصنَّفا

لكن أبا بكر ابن القبطرنة يُجري حِواراً مع المحبوبة مستغلاً إيَّاه لتقديم حكمة، فيشير إلى تعجُّب المحبوبة من ذلك الشيب الذي غزا شعره، ويعلِّلُ ذلك فيقول[3]: (الطويل)

ومُنكِــرَةٍ شيبي لعرفَــانِ مولِدي　　تَوَجَّعُ، والأجفانُ ذاتُ غروبِ

فقلتُ: يَسوقُ الشيبَ من قبلِ وقتِه　　زوالُ نعيــمٍ أو فِــراقُ حبيبِ

لقد جعل زوالَ النعيمِ وانقلابَ الحالِ، إضافةً إلى فِراقِ الحبيبِ وهجرِهِ سبباً في ظهورِ الشيبِ في رأس المرء عموماً وفي رأسه خاصة.

---

(1) المعتمد، الديوان، ص2؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص48-49.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق3م2، ص878؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص230-231.

(3) ابن خاقان، القلائد، ق2، ص432؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص415.

ممَّا سبق نلحظ أن عنصر الحوارِ يمنح النص الشعريَّ إطاراً قَصصيّاً، كما يمنَحه حيويَّةً وحركَةً، فهو يعكس قصة حوارية بين شخصيتين إحداهما حقيقية والأخرى متخيَّلة.

2.2.4 الصورة الفنية:

أكثر شعراء البيوتات من رسم الصور الفنيَّة لكثيرٍ من المشاهد التي عبّروا عنها، وجاءت صُورهم في معظم الموضوعات التي تناولوها، لكنَّها كثُرَت في الغزل والوصف وفي الشعر الحربي. فمن الصور التي عبر عنها الشعراء صورة "الليل"، قال عنه ابن دراج القسطلي[1]: (الطويل)

وليلٍ كريعانِ الشبابِ قَذَفْتَــهُ بِهَولِ السُّرى حتى أَشيبَتْ ذوائبُه
وَصلْتَ به يوماً أغرَّ صحبْتَهُ غُلامــاً إلى أنْ طَرَّ باللّيلِ شاربُه

فقد صوَّر هذا الليل بالشابِّ الذي يكون في ريعان شبابه، ولكن لهولِ المصيبةِ عليه شابت ذوائبُهُ وهذا الليلُ هو الظلامُ الذي ساد طويلاً، فزالَ وحلّ مكانه نورٌ أبيض كالشيب، فهنا شبّه الليلَ بشَعْرٍ شديدِ السواد لشاب، والصبحُ الذي يطلع عليه بالشيب، والذي يخبِّرُ بانتهاء عهد التسلط والظلم، وهذه الصورة جاءت في موضع مدحٍ، فكأن هذا الشيب(الصبح) يوصلُ الليلَ بنهارٍ مُبَشّراً بحياة أفضل.

ورسم أبو عامر ابن شهيد صورةً للنجومِ والصباح وهما مشهدان طبيعيَّان، فقال[2]: (الخفيف)

وكــأنَّ النجــومَ فــي الليــلِ جيــشٌ دَخَلُــوا للكُمُــونِ في جَوفِ غابِ
وكــأنَّ الصبــــاحَ قانــصُ طيــرٍ قبضَــتْ كفُّــهُ برِجْــلِ غرابِ

فصوّر النجومَ في كثرتها وتناثرها كالجيش الذي دخل أفراده جوف غابة للكمون فيه، وصور الصبح بقانصِ طيرٍ أمسك برجل غرابٍ، وهذا كنايةٌ عن الليل، فبداية الصبح أشار إليها باليد ونهاية الليل بالرجل، كما أن صفة السواد مشتَرَكَةٌ بين الليل والغراب، واستخدم هنا أداة التشبيه "كأن"، وذكر المشبّهَ والمشبّهَ به.

---

[1] ابن دراج، الديوان، ص23؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص187.

[2] ابن شهيد، الديوان، ص85؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص81.

وفي قصيدةٍ أخرى يمدَح فيها يحيى المعتلي عند انتصاره على السودان بإشبيلية، يرسم ابن شهيد صورة ساخرةً لرؤوس قتلى الزنج وقد حُمِلَت على أسنَّةِ الرماح، وكأنَها غربانٌ سُودٌ تنعِقُ بالشؤم على بانِ الرمل، فيقول[1]: (البسيط)

مــن كلّ أســودَ لم يدلِف على ثبجٍ   وبــانَ جدّك يجلُــو صفحــهُ يققــا

كأن هامتَــهُ،والــرمــح يحملهــا،   غرابُ بيــنٍ علــى بانِ النقا نعقـا

ويرسمُ ابنَ بردِ الأصغرَ صورةً جميلةً يستمدها من عناصر الطبيعة في ليلة مظلمة، فيصوّرُ عارضاً ممطراً، حيث أقبَلَ في ظلام الليل ترافقه الريحُ والرعدُ والبرقُ، حتى أصبحَ الجوُّ كميدانِ معركةِ حاميةِ الوطيس، فيقول[2]: (الرمل)

وعــارضٌ أقبــل في جُنح الدُّجــى   يتهــادى كتهــــادي ذِي الوَجَــى

أتلفَــتْ ريــحُ الصّبــا لؤلُـــــؤَه   فانحنَــى يــوقِــدُ عنــــه السَّرَجا

وكـــأنَّ الــرعــدَ حادي مصعبٍ   كلّـمــا صـــالَ عليــــه وسجــا

وكــأنَّ البــرقَ كــــأسٌ سُكِبَــت   في لَهـــاةِ المُـــزنِ حتــى لَهَجَا

وكــأنَّ الجــوَّ ميــــدانُ وغــىً   رُفِعَـــت فيــه المذاكــي رهجــا

إنَّه يصـوِّرُ العارضَ الماطر المتهاديَ والمتمايلَ في مشيه، والرعدَ أمامَه كالحادي الذي يسيرُ قبل الإبل ويسمّى "مصعباً"، ويجعل البرقَ كأساً لامعةً أُلقيت في وَسَطِ المُزن السوداء فلمع وسطها، وجعل الجوَّ العام أشبهَ بساحةِ معركَةٍ تتلاطم فيها الجيوش. ورسم أيضاً صورةَ لليلِ عندما انتهى وطلع الفجر، فيقول[3]: (المديد)

وكــأنَّ الليـــلَ حيــن لــوَّى   ذاهبـــاً، والصبــحَ قد لاحا

كِلّـــــةٌ ســــوداءُ أحرَقَهــا   عامـــدٌ أســــرَجَ مصباحا

فقد جعل الصبح مسيطراً على الليل، حتى أنه لَيَزولُ عند رؤيته، فشبّه الليلَ بالقماشِ الأسودِ الذي تُشعَلُ به المصابيح، وشبّه الصباحَ بالنَّارِ التي تشتَعِل في تلك القماشة ليزولَ سوادُها وظلام الليلِ.

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص131؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص84.

[2] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص517-518؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص91.

[3] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص519 ؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص91.

وقد رسم المتعصم بن صمادح صورةَ حركيَّةَ للأعلامِ التي تُزيِّنُ بها احتفالات مملكته عندما تلعب بها الرياح، فيقول[1]: (البسيط)

انظُــرْ إلــى الأعلامِ خفّاقةً قد عبثَت فيها أكفُّ الشمالْ

كأنَّهــــا وهي لنــا زينَةٌ أفئدةُ الأعداءِ يومَ القتــالْ

فهو يشبِّه حركةَ الأعلامِ الخفّاقة بحركة قلوب الأعداء المرتعشة خوفاً يوم اللقاء، وقد بنى هذه الصورة على المفارقة فهي للمعتصم ورعيَّته زينة يفرحون بها، لكنّها في صورة أخرى كقلوب الأعداء في ساحة القتال، إنَّها مبعث فألٍ وشؤمٍ في آنٍ واحدٍ.

ويمزج المعتضد بن عباد في إحدى صوره بين الطبيعة والغزل، فيقول[2]: (المنسرح)

كأنَّمــا ياسمينُنُــا الغَــــضُّ كواكبُ في السماءِ تبيَضُّ

والطُــرُقُ الحُمرُ في جوانبِه كَخَدٍّ عذراءَ نالَه عــضُّ

فشبَّه الياسمين بالكواكب في السماء، إشارة للونِها الأبيض، وكذلك جعل الطرق الحمراء التي تفصل الحدائق والأزهار كأنها عضّة عاشقٍ في خدّ فتاة عذراء ناعمة.

فمن النصوص السابقة نلحظ أن الصورة عند هؤلاء الشعراء جاءت مستمدة من واقع حياتهم، فالبيئة الغنيَّة بالطبيعة الجميلة، وحياة اللهو وجمال النساء وحياة القتال والصراع التي عاشها الأندلسيون شكَّلت مصادر مهمة للصورة الشعرية، كما أن هذه الصورة امتازت بالبعد عن المبالغة إذ إنَّه يمكن استيعاب مفردات هذه الصور دون عناء .

3.2.4 المحسنات البديعية:

تقوم المحسنات البديعية بدور كبير في النص الأدبي ولاسيما الشعري؛ من خلال منحه موسيقى خاصة وتؤثر على السامع فيطربُ له، وذلك إما بترديد بعض الألفاظ التي تتشابه في وقعها الجرْسي، إضافةً إلى توظيف الطباق الذي يقوم على

---

(1) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص196.

(2) المعتضد، الديوان، ص112؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1م2، ص229؛ الضبي، البغية، ص395؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص157.

ذِكر المتناقضات أو الشيء وضده، كما أنّها تفسح المجال للقارئ بأن يطلق خياله وذلك عندما تردُ الألوانُ التي تمثل جزءاً من تلك الصور الشعرية التي ينظمها الشعراء.

فقد وظَّف أبو عبد الله ابن شرف الجناس في بعض أشعاره في الحكمة والزهد، ومن ذلك ما جاء في قوله[1]: (السريع)

إنْ تَرمِكَ الغُربَــةُ فــــي معشرٍ   قد جُبِلَ الطَّبْــعُ على بُغضِهــم

فدارِهـــم ما دُمْتَ في دارِهـــم   وأرضِهِم ما دُمْتَ في أرضِهــم

فقد جانس في البيت الثاني بين الفعلين "دارِهم" ولفظة "دارِهم" جناساً تاماً، فالأولى فعل أمر بمعنى المداراة والمسايرة، والثانية اسم بمعنى السكن والمنزل، وفي الشطر الثاني جانس أيضاً بين الفعل"أرضِهم" ولفظة "أرضِهم" جناساً تاماً، فالأولى بمعنى كسبُ الرضى والودِّ، والثانية اسم بمعنى بلادهم، فكِلا اللفظتين متشابهتين في الحروف وعددها ونوعها وترتيبها، ولكن أعطت كلّ واحدةٍ معنىً مختلفاً. وفي نصٍ آخَرَ يوظِّفُ أيضاً الجناس التام وفي الموضوع نفسه، فيقول[2]: (مجزوء الرجز)

يا خائفاً مــن معشرٍ   لا يُصْطَلَى بنَــارِهِمْ

فما بَقَيْـــتَ جارَهُم   ففي هواهُم جارِهِمْ

وأرضِهم في أرضِهم   ودارِهــم في دارِهِمْ

فقد جانس بين "جارَهم" من الجيرة، و"جارِهم" من مجاراتهم والسير إلى جنبهم وكسب، ودّهم، وكذلك بين "أرضِهم" الفعل و"أرضِهم" الاسم، وبين"دارِهم" الفعل و"دارِهم" الاسم.

ومما يلفت النظر في استخدام ابنِ شرف الجناسَ أنه حقق نوعاً من الملائمة بين متطلبات المعنى وجماليات التعبير، إلى جانب أنه قد زاد في إيقاع النص الموسيقي، فتكرار اللفظة مرتين بنفس النغمة أكسب التعبيرَ قدرةً على التأثير في نفسية المتلقي، واستمالته إلى مضمون الحكمة التي تمثِّل خلاصةَ تجربته.

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص99؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص117.

[2] ابن شرف، المصدر السابق، ص98؛ الأصفهاني، المصدر السابق، ق4ج2، ص118.

كما أن هذا التوظيف البلاغي قد أكسب المعنى دلالاتٍ وإيحاءاتٍ كثيرة تعبِّر عن موقف الشاعر فهو يرفض الضعفَ والذلَّ، كما أنه شديدٌ قوي في الدنيا، ويحرِصُ على الدنيا من أجل الآخرة، وأنَّه لا يرى خيراً في حياةٍ قوامُها المدحُ الكاذبُ ومِنحُ امرئٍ كُذِبَ عليه. فيقول[1]: (الطويل)

سأُبقي على الدنيا بصولةِ مِحربِ   وإلاّ على الأُخرى بوصلةِ مِحرابِ

ولا خَيْرَ في عَيْشٍ يكونُ قِوامُـــه   بمِنحةِ مكـــذوبٍ ومِدحـــةِ كذّابِ

ففي هذا النص وظّف أيضاً ابنُ شرفٍ الجناسَ غيرَ التام، وذلك بين "المِحرَب" الرجل الشديد، و"المحراب" مكان الصلاة، وحقق بذلك خاصية ردِّ الأعجازِ على الصدورِ، وكذلك بين "مِنْحة" وهي العطاء، و"مِدْحة" المدح والثناء، فكِلا اللفظتين اختلفتا في أحد الأحرف، وأعطت كلّ واحدةٍ منها معنىً مختلفاً.

كما استخدم شعراء البيوتات الألوان الزاهية المختلفة وخاصة في شعرِ الخمرةِ وشعرِ الطبيعةِ، ولعلَّ سببُ ذلك بروزُ هذا العنصر فيهما بشكل لافتٍ للنظر، إضافة إلى أن التمتع بها يكون في جانب اللون، ففي الخمرة ولونها يقول أبو محمد بن القبطرنة[2]: (مجزوء الوافر)

إذا مـــا الشـــوقُ أرّقَني   وباتَ الهـــمُّ مـــن كَثَـــبِ

فَضَضْتُ الطينةَ الحمرا   ءَ عـــن صفـــراءَ كالذهبِ

فيذكر الشاعر لونين الأحمر ويشير به إلى جِرارِ الخمرة، واللونَ الأصفر ويشير إلى الخمرة، وشبهها بلونها الأصفر بالذهب، دلالة على لمعانها وبريقها.

ولأحمد بن برد الأصغر نصوص في وصف الطبيعة ومظاهرها، فله في النرجس"البهار"، قائلاً[3]: (الطويل)

تأمّلْ فقد شقَّ البَهارُ كمائماً   وأبرزَ عن نُوَّارِهِ الخضلِ النَّدي

مداهنَ تبرٍ في أناملَ فضةٍ   على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجدْ

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص39؛ الأصفهاني، الخريدة، ق4ج2، ص118.

[2] ابن خاقان، القلائد، ق2، ص433؛ الأصفهاني، المصدر السابق، ق4ج2، ص415-416.

[3] ابن خاقان، المطمح، ص207-208.

ففي هذا النص لم يصرِّح باللون مباشرة، وإنَّما ذكر دلائلَ تشيرُ إليه، فيذكر لون البَهارِ بأنَّ أوراقَ الزهرةِ وبتلاتِها صفراءُ كالتبْرِ، أما قاعدتُها فهي بيضاءُ كالفضةِ، وتنمو على أغصانٍ خضراءَ كالزبرجدِ، فهو يومئ للّونِ إيماءً ولم يصرِّح. وكذلك يتحدث عن لون ثوبٍ على فتىً أهيفَ القدِّ، فقال عنه[1]: (مجزوء الكامل)

لمّا بــدا فـــي لازورِ ديِّ الحــريــرِ وقد بَهَــرَ

وهذا الثوب لونه لازوريٌّ، وهو لونٌ مستوحىً من الطبيعة وقد وُصِفَت به طيورٌ.

4.2.4 أسلوب النداء:

من الأساليب الإنشائية التي أكثر الشعراء من ذوي البيوتات من استخدامها في أشعارهم المتعددة أسلوب النداء، واستخدام هذا الأسلوب يوحي بوجود طرفٍ ثانٍ يخاطبه الشاعر ويكشِفُ عن قدرة الشعراء في توظيف حرف النداء في بناء الخطاب الشعري.

ومن النصوص التي استَخدَمَ فيها الشعراءُ أسلوب النداء، ما تبادله المعتصم ابن صمادح والوزير ابن عمار الذي رغب باستئذان المعتصم بعد أن أقام عنده طويلاً وأراد الرحيل، فخاطبه في رسالة شعرية مستأذناً[2]: (مجزوء الكامل)

يا واضحاً فَضَحَ السحـــابِ ، يجودُ في معنى السماحِ
ومطابقاً يأتي وجــــــوهَ، الجدِّ من طُرُقِ المــــزاحِ
أسرفتُ في برِّ الضيــــافِ، فجُدْ قليــلاً في السَّــراحِ

فوقَّع المعتصمُ عليه قائلاً:

يا فاضــلاً فــــي شكرِه أصلِ المساءَ مع الصباحِ
هلاّ رفِقْـــــتَ بمهجتي عنْــدَ التكلُّمِ في السُّراحِ
إنّ السمَــاحَ ببعدِكُــــم واللهِ ليسَ من السمـــاحِ

فكلا الشاعرين بدأ شعره بأداة النداء "يا" في مخاطبة الآخر دون التصريح باسمه، وإنما اكتفى بصفته، وقد استخدما حرف النداء "يا" على الرغم من أنَّ كلاً منهما

---

[1] ابن خاقان، المطمح، ص208.

[2] ابن سعيد، المغرب، ج2، ص197-198؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص192.

يخاطب قريباً منه، ولكنهما استعملا حرف النداء للبعيد، وذلك للتعبير عن جلالة قدر المخاطب وعِظم شأنه، فكأن بُعْد درجته في العظمة هو بعدٌ في المسافة، ولذلك اختار كلٌ منهما في ندائه الحرف الموضوع للبعيد ليشير إلى هذا الشأن الرفيع.

ومثلما استخدم المعتصم بن صمادح وابن عمار حرف نداء البعيد لنداء القريب، فقد استخدم الأخوة الثلاثةُ بنو القبطرنة أسلوب النداء نفسه في حوارهم الذي جرى في روضة البديع للمتوكل بن الأفطس، فقد بدأ أبو محمد بقوله[1]: (الخفيف)

يا شقيقي وافى الصباحُ بوجهِ ستَرَ الليلَ نورُهُ وبهاؤهُ

فاستيقظ أخوه أبو بكر وكأنَّه هو المقصود، مع أن أبا محمدٍ جعل المنادى مجهولاً، وردَّ أبو بكر قائلاً:

يا أخي قمْ ترَ النسيم عليلاً باكرَ الروضِ والمُدامَ شمولا

فرد أخوهما الثالث أبو الحسن ، ونادى عليهما قائلاً:

يا صاحِبَيَّ ذرا لومي ومعتبتي قمْ نصطبح خمرةً من خيرِ ما ذخروا

وكذلك خاطبَ رفيعُ الدولة بن المعتصم بن صمادح أبا يحيى بن مطروح، وكان نديمَه، مستدعياً إيَّاه يوماً، وبدأ خطابه بحرف النداء "يا"، قائلاً[2]: (المديد)

يا أخي بل سيدي بل سندي في مهمَّات الزمـــان الأنكـــد

لقد استخدم رفيع الدولة أداة النداء " يا"، ومنح مخاطبَهُ صفةَ الأخوّةِ والسيادة والسند وفي ذلك إزالة للفروق الاجتماعية بين الأمير والنديمِ المخاطب.

وكذلك خاطب أبو بكر بن القبطرنة المتوكلَ بن الأفطسِ، قائلاً[3]: (الكامل)

يا أيها الملك الذي آباؤه شمّ الأنوف من الطراز الأول

ويستخدم أبو الفضل ابن شرف النداءَ في إطار السخرية والتهكم على شخص خاطبه قائلاً[4]: (مجزوء البسيط)

يا من حكى البيدقَ في شكلِـــه أصبـــحَ يحكِيــكَ وتحكيْهِ

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق2م2، ص773؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص367-368.

(2) ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص200؛ المقري، النفح، ج3، ص369.

(3) ابن بسام، المصدر السابق، ق2م2، ص769؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص96.

(4) المقري، المصدر السابق، ج3، ص371.

أسفَلُهُ أوســـعُ مِن أجزائِـه   ورأسُــه أصغَــرُ مــا فِيــه

فالشاعر يستخدم أداةً من أدوات الحضارة في ذلك الوقت وهي البيدق، للسخرية من المخاطب، ويستخدم حرف نداء البعيد "يا" على الرغم من قرب المخاطب لاعتقاده أن المخاطب بغيضُ الهيئة مثيرٌ والسخرية، فبُعدَ درجته وهيئته بعدٌ في المسافة.

3.4 توظيف الموروث الثقافي:

لقد أسهمت ذاكرة شعراء البيوتات الأندلسية ومقروءاتهم الدينية من القرآن والموروث الثقافي، والمصادر الأدبية من الأشعار والأمثال والحكايات وغيرها من المصادر التي كونت ثقافتهم في تشكيل نصوصهم الشعرية[1]، ويلتقي هذا التوظيف في بعض جوانبه مع ظاهرة التناص في صورته الحديثة[2].

ويعد الموروث الديني من أكثر العناصر الثقافية التي ظهرت في أشعار شعراء البيوتات، وتمثّل ذلك في إيراد آيات بنصها الحرفي، وأحياناً بالإيماء إلى معانيها، كما وظف بعض الشعراء في نصوصهم بعض القصص والأخبار التي وردت في القرآن. ولا بد من الإشارة إلى أن توظيف الموروث لا يظهر أو يقتصر على الشعر الديني فحسب، بل إنه ظهر في موضوعات أخرى فإلى جانب الزهد والتصوف وذكر مشاهد من الآخرة والحساب وحياة البرزخ، وهي ضمن الأشعار الدينية، وظِّفت في موضوعات الوصف والهجاء والاعتذار.

لقد ظهر تأثير النص القرآني ظهوراً بارزاً في شعر بعض الشعراء، فأبو عبد الله ابن شرف وظَّف الموروثَ في شعره، فله نصوص عديدة منها قوله[3]: (الكامل)

ولَّى وخلَّى جمرةً مشبوبةً   تُذكِي على الأحشاءِ نار سمومَ

فإذا رأيتَ لهيبَها وسلامتي   فاذكُـر بذلك نـارَ إبـراهيـمَ

هذان البيتان في استذكار أيام الحب، فيقول إنَّ المحبوب عندما رحل عنه ترك جمرةً

---

(1) بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص33.

(2) الزعبي، أحمد، التناص نظرياً وتطبيقاً، ط2، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، 2000م، ص29–67.

(3) ابن شرف، الديوان، ص95.

حبِّه مشتعلةً في أحشائه، حتى إن رأيت لهيبها وشدة اشتعالها تظنُّ أنها النار التي أُشعلت لإبراهيم عليه السلام، ولو علمت بسلامته منها لظننتَه إبراهيم نفسه.

ففي النص السابق يصوِّر الشاعر نار الحبِّ وعظمها في قلبه لكنه ما يزال حيّاً، واتخذ من قصة إبراهيم –عليه السلام– مثلاً يحاكي قصتَه، لكن شتّان بين النارين فالأولى نارُ الأذى والإساءة لنبي الله، والثانيةُ نار الحبِّ والشوق. وفي نص آخر لأبي عبد الله ابن شرف يقول فيه[1]: (الكامل)

أتصُدُّني أم للغـــرامِ تردُّني وتلومَني في الحُـبِّ أم تغريني

دعْني فلستُ معاقباً بجنايتي إذ ليسَ دينُك لي ولا لـــك ديني

نلحظ في الشطر الثاني من البيت الثاني إشارةً صريحةً لقوله تعالى على لسان رسوله الكريم للكافرين:" لكم دينكم ولي دين"[2]، فلم يوردها بنفس اللفظ بل حوّر في ذلك وأعاد الصياغة، وحوّل الخطاب الذي تضمنته الآية من قوله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، مخاطباً الكفار لكم دينكم الذي أصررتم على اتباعه ولي ديني الذي لا أبتغي غيره، إلى خطابٍ موجَّه إلى لائميه في الهوى، مؤكداً لهم إصراره على مواصلة حبِّه على الرغم من لومهم، فله اعتقاده ولهم اعتقادهم .

وفي نص آخر في الهجاء ، أورد آية قرآنية بالمعنى واللفظ في شعره، دون أن يسيء للآية أو يضعف الشعرَ بأن يحمّلَه أكثر مما يحتمل، فيقول[3]: (الخفيف)

ما فـــلانٌ إلا كجيفـــةِ كلـــبٍ و الضروراتُ ألجأتنـــــا إليه

فمن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عا دٍ فلا إثمَ في اللجـــوءِ إليـــه

فهو جعل المهجوَّ كالجيفة لا يأكلُ منها الإنسانُ إلا في حالة الاضطرار وعدم وجود بديل، دون أن يكون ذلك بغياً واعتداءً على شرع الله وحكمه، ولذلك فإن الله لا يعاقبه ولا يسجِّلُ عليه إثماً، وهذا المعنى مقتبس من قوله تعالى لفظاً ومعنىً:" فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه"[4].

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص104.

[2] سورة الكافرون، آية6.

[3] ابن شرف، المصدر السابق، ص107.

[4] سورة البقرة، آية 173.

وقد أرسل المعتصم بن صمادح ابنَه عزَّ الدولة رسولاً إلى يوسف بن تاشفين، فسجَنَه ابنُ تاشفين، فأرسل لأبيه شاكياً الذلَّ والسجن، فردّ عليه أبوه[1]: (متقارب)

عزيزٌ عليّ و نوحِي ذليــلُ   على ما أُقاسي و دمعي يسيلُ

لقطّعَت البيضُ أغمادَهـــا   وشُقّتْ بنــودُ و ناحَت طُبُولُ

لئن كنتَ يعقوبَ في حزنه   ويوسفُ أنتَ، فصبــرٌ جميلُ

فالمعتصم يحضُّ ابنه على الصَّبر وينخذُ من قصة نبي الله يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام أسوةً في تحمل هذه المصيبة، فيشبه نفسه بيعقوب، وابنَه عزَّ الدولة يشبه يوسف، وذلك في فقد الأب لابنه، مع اختلافهما، ويذكُرُ قولَ يعقوبَ عليه السلام عندما جاءه أبناؤه بقميصِ يوسف وعليه دم، فادَّعوا أنه دم يوسف وقد أكله الذئب، فقال يعقوب لهم:" فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون"[2].

أما إسماعيل بن النغرلة فقد أقسم أن ينظم القرآن شعراً، ونظم بيتين من الشعر في الغزل، جعل الثاني مِنهما آيةً من القرآن، فقال[3]: (مجزوء الرمل)

نَقَشَتْ في الخـدِّ سَطْراً   مِن كِتَـــابِ الله مَوزُون

لن تنالُـــوا البِرَّ حتى   تُنفِقُــوا ممّـا تُحِبُّـــون

فهو هنا يصف الرسم على خدّ الفتاة وكأنه آية من آيات القرآن الكريم، كُتِبت وزُخرِفت على خدِّ هذه الفتاة الناعمِ، وهذه الآية يذكرها لفظاً ومعنىً كما وردت في القرآن، وهي قوله تعالى:"لن تنالوا البِّرَّ حتى تنفقوا مما تحبون"[4]، وكأن هذه الفتاة جعلت وصلها لا يكون إلا بعد أن يدفعَ طالبُها مهراً لها مما يحبُّ من ماله.

كما وظَّف بعض الشعراء القصص القرآني باعتباره فناً أدبياً امتاز به القرآن متخذين منها حجةً قويةً لدعم الأفكارِ والآراءِ التي يسعون إليها[5].

---

(1) ابن الابار، الحلة، ج2، ص89.

(2) سورة يوسف، آية 18.

(3) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص114.

(4) سورة آل عمران، آية92.

(5) الربيعي، أحمد حاجم، القصص القرآني في الشعر الأندلسي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001م، ص5.

ومن أمثلة ذلك ما أوصى به ابن شهيد الأندلسي من أبيات تكتب على شاهد قبره، ويتحدث فيها عن حياة البرزخ، وعمّا سيجد أمامه من الجزاء أو العقاب نتيجة الأعمال التي عملها في حياته، وسجلها عليه الملِكَانِ،فيقول في بعضها[1]: (مخلّع البسيط)

يا صاحِبِي قُمْ فقدْ أَطَلْنا   أنحنُ طولَ المدى هجودُ؟
فقال لي:لن نقوم منها   ما دام مِن فوقِنا الصَّعيدُ
تذكَّرْ كم ليلةٍ لهونَا   في ظلِّها والزمانُ رغيدُ
حصَّلَهُ كاتبٌ حفيظٌ   وضمَّه صادقٌ شهيدُ
يا ويلنا إنْ تَنكَّبتْنَا   رحمةٌ من بطشِهِ شديدُ
يا ربِّ عفواً فأنتَ مولىَ   قَصَّر في أمرِك العبيدُ

فيظهر في هذه الأبيات الزهد من الحياة التي أيقن بعد طول المرض أنه لا قيمة لها، ويجب علينا أن لا نضيِّع أعمارنا في اللهو ومُتَعُ الدنيا ما دام أنَّنَا سنحاسب عليها عند مليكٍ شديدِ البطشِ، ولا نجاة منه إن لم يغفرْ له، وما ذكره عن الملَكَينِ ورد في القرآن في قوله تعالى: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"[2].

ويوظِّف أبو الحسين بن الجد القصص القرآني أثناء مدحه ليوسف بن تاشفين، بعد انتصاره في معركة الزلاقة، إذ ضمَّن قصيدته نقداً لحكام عصره، الذين سعوا وراء ملذات حياتهم وشهواتهم وتركوا أمور الحكم والسياسة، حتى أنهم أصبحوا– كما يصفهم – كالعجلِ وهو الذي اتخذه بنو إسرائيل إلهاً، فالواحد منهم معبود في مجلسه وله خوار لكنه مليء بالجبن والخوف، حتى أنَّهم لا يواجهون الإسبان المعتدين، فيقول[3]: (البسيط)

في كلِّ يومٍ غريبٍ فيه معتَبَرُ   نلقاهُ أو يتلقَّانا بهِ خبرُ
أرى الملوكَ أصابَتْهُم بأندلسٍ   دوائرُ السَّوءِ لا تبقي ولا تذرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدُّجى قَدَرٌ   هوى بأنجُمِهِم خَسْفاً وما شعرُوا

---

[1] ابن شهيد، الديوان، ص98-99.

[2] سورة ق، آية 18.

[3] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص242.

و كيــف يشعُــرُ من في كفِّه قدحٌ يحــدُو به مُلهِياهُ النَــايُ والوتَرُ
صمَّت مسامعــه من غيــر نَغمَتِه ممَّا تمــرُّ بــه الآياتُ والسُّــورُ
تلقاه كالعجـــل معبــوداً بمجلسه لــه خُــوارٌ ولكن حشوُهُ خَــوَرُ

وفي مجال الاعتذار استطاع أبو محمد ابن حزم أن يوظِّفَ القَصص القرآني المتعلِّقُ بخطابِ الأنبياءِ ربَّ العزَّةِ ليُرِيَهُم قدرتَه على الخلق، وذلك للاطمئنان، ومن ذلك قوله[1]. (الوافر)

يقولُ أخي :شجاكَ رحيلُ جسمٍ وروحُكَ ما له عنَّا رحيلُ
فقلــتُ له:المعــايــنُ مطمئنٌّ لذا طَلَبَ المعاينَةَ الخليلُ

فقد جاء هذا في رده على بعض إخوته الذين حضُّوه على عدم الرحيل، بحجَّةِ أنَّ روحَه لن تفارقهم، لكنَّه يؤكد أنَّه أراد الرحيلَ للمعاينة والتجربة من أجل التعرُّفِ على مدى صدق الأخوة والوفاء، ويكاد يحاكي قوله تعالى عن النبي إبراهيم -عليه السلام- الذي طلب رؤية كيف يحيي اللهُ الموتى:"وإذ قال إبراهيم ربِّي أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي،..."[2].

وله نص آخر في المعنى نفسه يوظف فيه ما ورد عن موسى -عليه السلام- من طلبه رؤية الله وهو مؤمن به ولكن ليزداد إيماناً، كما في قوله تعالى:"ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربُّه قال أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل جعله دكَّاً وخرَّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين"[3]، يقول ابن حزم[4]: (الوافر)

لئن أصبحتُ مرتحلاً بشخصي فرُوحي عندكُمُ أبداً مُقيــمُ
ولكــنْ للعيَــانِ لطيــفُ معنىً له سألَ المعاينــةَ الكليــمُ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق1م1، ص174؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص356-357 برواية مختلفة.

[2] سورة البقرة، آية210.

[3] سورة الأعراف، آية143.

[4] ابن بسام، المصدر السابق، ق1م1، ص174.

كما عمد بعض الشعراء إلى توظيف الأدب والمعارف المختلفة، وهو أمرٌ يدلُ على سعة ثقافة شعراء البيوتات واطلاعهم على الشعر العربي المشرقي ومقدرتهم على استيعابه وتمثُّله واستنباط كثير من معانيه وتوظيفها في نسيجهم الشعري، فضلاً عن معارضة بعضهم لنماذجه المشهورة، وممَّا يدل على مقدرتهم على مجاراة الشعر العربي المشرقي والنسج على منواله، ما يذكر من أنه غُنِّيَ بين يدي المعتمد بيتان لابن المعتز هما[1]: (المتقارب)

وخمارةٍ من بناتِ المجوسِ   ترى الزّقّ فـــي بيتِها شائلاً
وزنّا لها ذهبــاً جامِـــداً   فكالَت لنا ذهَبَـــاً سائِـــلاً

فأجازهما بديهاً، بقوله:

وقُلنا خذي جوهَراً ثابتــاً   فقالــت: خُذُوا عَرضاً زائِلاً

وهذا يؤكد مدى استيعاب المعتمد لما قصده ابن المعتز وقدرته على مجاراته.

وممَّا يتصل بذلك وصفُ أبي المغيرة ابن حزم للقمر في مرحلة الهلال، فيشبهه بالصولجان الذي تُضرب به الكرة في لعبة تشبه لعبة البولو في العصر الحديث، وهذا يعكس ثقافة ذلك المجتمع ولا سيما الرياضة، فيقول[2]: (المنسرح)

لمَّـــــا رأيتُ الهلالَ منطوياً   في غُرَّةِ الفجــرِ قارنَ الزُّهرةْ
شبَّهتُـــهُ والعَيـــانُ يشهــدُ لي   بصولجـــانٍ أوفى بضربِ كرةْ

وقد كان أخذ هذا المعنى من قول ابن المعتز[3]: (المنسرح)

انظُــرْ إلى حُسْنِ الهِـــلالِ بَدَا   يَهتِـــكُ من أنـــوارِهِ الحندسا
كمِنْجَــلٍ قد صِيـــغَ من فضةٍ   يحصِدُ من زهرِ الدُّجَى نرجسا

ومما يتصل بذلك أيضاً معارضةُ بعضِ شعراءِ البيوتاتِ بعضَ قصائد الشعراء المشارقة، فقد عارض ابن دراج القسطلي رائية أبي نواس التي مطلعها[4]: (الطويل)

---

[1] ابن ظافر، البدائع، ص158؛ ابن المعتز، الديوان، ق1ج2، ص201.

[2] ابن خاقان، المطمح، ص207.

[3] بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص203.

[4] أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت199هـ/814م)، الديوان، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، منشورات الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب العالمي،=

أجارةَ بيتنا أبوكِ غيورُ وميسورُ ما يُرجى لديكِ عسيرُ

برائية له في مدح المنصور بن أبي عامر يقول في مطلعها[1]: (الطويل)

دعِي عزماتِ المستضامِ تسيرُ فتُنجِدُ في عرضِ الفَلا وتغورُ

وعارض رائية المتنبي في ابن العميد التي مطلعها[2]: (الكامل)

بادَ هواكَ صبَرتَ أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجرِ دمعُك أو جرى

برائية يمدح فيها المنصور منذر بن يحيى عندما قدم على سرقسطة سنة 408هـ/ 1017م، فيقول في مطلعها[3]: (الكامل)

بُشراكَ من طولِ الترحُّلِ والسُّرى صبحٌ بِروحِ السَّفر لاح فأسفرا

وعارض هائيةً لصاعدِ البغدادي بهائية له مطلعها[4]: (الطويل)

أضاءَ لها فجرُ النُّهى فنهاها عن الدَّنفِ المضنَى بحرٍّ هواها

كذلك فقد أشار ابن دراج إلى أسماء عدد من الشعراء وما نسج حولهم من أخبار أو خُلِع عليهم من صفات، ومن ذلك قوله[5]: (البسيط)

إنَ امرأ القيس في بعضِ لَمُتَّهَمٌ وفي يديــه لِواءُ الشِّعــر إن ركِبَا

والشعرُ قد أسر الأعشى وقيَّدَه خُبْراً وقد قيل "والأعشى إذا شَرِبَا"

وكذلك وظَّف بعض الشعراء العلوم اللسانية من نحوٍ وصرفٍ وعروض وغيرها، وذلك على نحو يخدم الأغراض التي يتناولونها، ومن ذلك قول أبي عبد

=بيروت، 1987م، ص527.

(1) ابن دراج، الديوان، ص297.

(2) المتنبي، أبو الطيب، أحمد بن الحسين (ت354هـ/965م)، الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا، وآخرون، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج2، ص160.

(3) ابن دراج، المصدر السابق، ص124.

(4) ابن دراج، المصدر السابق، ص10.

(5) ابن دراج، المصدر السابق، ص366.

الله محمد بن شرف في مدح المعتصم بن صمادح أمير المريَّة، فوظَّف بعض مصطلحات علم العروض، فيقول[1]: (الطويل)

ومعرفةُ الأيامِ تُجدي تجاربـاً ومن فَهِمَ الأشطارَ فكَّ الدوائرا

ولولا طِلابُ الدَّهرِ غايةُ علمِها لما بسطُوا منها بسيطاً ووافرا

وقد وظف ابن دراج القسطلي بعض الأفكار النحوية، بقوله[2]: (الطويل)

فقد تُخفَضُ الأسماءُ وهي سواكنٌ ويعملُ في الفعلِ الصحيحِ ضميرُ

كما حشد بعض شعراء البيوتات أسماء القبائل العربية والأعلام والأماكن سواء المشرقية أو الأندلسية، ووظَّفوها توظيفاً يخدم المعاني والأغراض التي يسعون إليها، ومن هؤلاء الشعراء ابن دراج الذي حشد طائفة من الأعلام في إحدى مدائحه، وقد أظهر براعته في توظيف هذه الأعلام والتلاعب بها، والاشتقاق منها، والمجانسة بينها، يقول[3]: (الكامل)

كـلاَّ وقـد آنستُ من "هـود" هُدىً ولقيتُ "يعرُبَ" في القُيُولِ و"حميرا"

وأصبـت من "سبـأ" مـورَّثَ ملكه يسبي الملوكَ ولا يدبُّ لها الضرَّا

فكأنَّمـا تابَعْـتُ "تبَّـعَ" رافعـاً أعلامَـهُ ملكـاً يُديـنُ له الورى

و"الحارثُ الجفنيُّ" ممنـوع الحمـى بالخيـلِ و الآسـاد مبذول القِرى

وحططتُ رَحلي بيـنَ نارَي "حاتـمٍ" أيَّـام يقـري موسـراً أو معسِرا

ولقِيـتُ "زيدَ الخيـلِ" تحت عجاجةٍ يكسـو غلائلهـا الجيادَ الضُّمَّرا

و عقـدْتُ فـي "يمـنٍ" مواثقَ ذمَّةٍ مشـدودةِ الأسبـاب موثقةِ العُرى

و أتيـت "بَحـدَلَ" وهو يرفعُ منبَراً للدِّيـنِ والدُّنيـا ويخفـضُ منبرا

وقد وظَّف بعض شعراء البيوتات الأمثال العربية المشهورة، وهي تمثل موروثاً أدبيّاً مهماً يزخَرُ به تراثنا، وقد وظِّفت بما يتناسب والموضوع العام الذي

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص66.

[2] ابن دراج، الديوان، ص303.

[3] ابن دراج، المصدر السابق، ص129.

يتحدَّثون عنه ومن هؤلاء أبو عبد الله ابن شرف في حديثه عن اختلاف الموازين في ذلك الزمان، فالإنسان لا يحصل على مبتغاه إلا بعد ذهاب وقته، فيقول[1]: (البسيط)

وما بلوغُ الأماني في مواعدِها　　إلا كأشعبَ يرجُو وعدَ عُرقُوبِ

وقد تخالَفَ مكتوبُ القضاءِ به　　فكيفَ لي بقضاءِ غيرِ مكتوبِ

فالزمان في نظر الشاعر يسير على عكس ما يتمنَّى المرءُ، فتراه يسير وراء وعدِ كاذبٍ لا صحة فيه، مثل" مواعيد عرقوب"[2]، ولعلَّه من يأسه يرى أن ما هو مكتوبٌ في القضاء والقدر للإنسان يخالفه الواقع، فما بالك إذا كان ما ترجوه غير مكتوب، وهي نظرة تشاؤمية وناقدة لذلك العصر المليء بالاضطرابات وانهيار القيم.

وقد كان لمعرفة الشعراء بالنجوم والأجرام السماوية أثرٌ واضحٌ في أشعارهم، وخاصة في موضوع وصف الطبيعة، كما كانوا يشيرون في نصوصهم إلى مواقع النجوم وأسمائها والأبراج السماوية المختلفة، وهذا نابعٌ كما ذكرنا من معرفتهم بعلوم الفلك، يقول المعتمد في وصْفِ مظهرِ ليليٍّ عندما رأى المشتري والمريخَ كأنهما يتعانقان كالأحبة، ولمعان المشتري واحمرار المريخ يجعلان الرائي في حيرة هل هما ماء صافٍ أم درٌّ منثور؟ فيقول[3]: (الكامل)

وجاءَتْك ليلاً في ثيابِ نهارِ　　من نُورِها وغِــلالَةِ البُــلاَّرِ

كالمشتــري قد لفَّ مرِّيخَهُ　　إذ لَفَّـــه في الماءِ جذوةُ نـــارِ

يتحيَّرُ الرَّاؤونَ فِي نَعْتَيْهِمَا　　أصفاءُ ماءٍ أم صفاءُ دَراري؟

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّ سعة ثقافة شعراء البيوتات وتوظيفهم لعناصر هذه الثقافة قد أسهم في ارتقاء فنِّهم وإثراء معانيهم وأفكارهم.

---

[1] ابن شرف، الديوان، ص39.

[2] مثل يضرب في عدم الوفاء بالوعد ، إذ إنَّ عرقوباً شخص وعد أخاً له ثمر نخلة فلما اطلعت أرجأه إلى أن يبلح، ثم أن يزهى، ثم أن يرطب، ثم أن يصير تمراً، فلما صار تمراً جدَّه ليلاً، ولم يترك لأخيه شيئاً من التمر.(الميداني،مجمع الأمثال،ج2،ص310).

[3] المعتمد، الديوان، ص18.

الخاتمة:

لقد حاولت هذه الدراسة أن تسعى بصورة جديدة إلى دراسة البيوتات الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري دراسة تاريخية أدبية، وتحليل شعرها من خلال المضمون والبناء الفني، وانتهت الدراسة إلى عدد من النتائج التي يمكن إجمالها في ما يلي:

أولاً: أنّ البيوتات الشعرية الأندلسية الحاكمة والعامة كانت قد نهضت بدور كبير في تطور الحركة الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ورفدِها بمختلف أسباب التطور والنماء الازدهار، وذلك من ناحيتين: أوّلهما أنّ شعراء البيوتات الحاكمة من ملوك وأمراء الذين كانوا بطبيعتهم محبِّين للشعر قرَّبوا أهله وأكرموهم وأغدقوا عليهم الصلات والعطايا، وبوّأوهم المنازل الرفيعة في بلاطاتهم، ممّا فجر ينابيع القول الشعري ومسالكه المختلفة، وفتَّق مواهب الشعراء المتصلين بهم، فتجلّى ذلك في قصائد بديعةٍ خلّدت مآثر الملوك والأمراء على طول الأيام. وثانيهما أنّ شعراء البيوتات على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية، كانوا قد أسهموا بمواهبهم الشعرية إسهاماً فعّالاً في رفد الحركة الشعرية الأندلسية في القرن الخامس الهجري بنتاج عدد من فحول الشعراء الذين انتجتهم، من أمثال ابن دراج القسطلي، وابن شهيد، وأبي عبد الله ابن شرف القيرواني، وغيرهم. وقد تميز هذا النتاج الشعري بغزارته وتنوّع موضوعاته وجودته الفنية.

ثانياً: أن البيوتات الشعرية كانت متفاوتة فيما بينها في درجة إبداعها الشعري ومقدرتها الفنية، فالشعر لم يشِعْ في بني الأفطس شيوعه في بني صمادح حكام المريّة التي أنجبت من بيتهم الشاعرة أم الكرام بنت المعتصم، ولم يبلغ الشعر عند هؤلاء مبلغه في بني عباد، الذين زرع عميدُهم القاضي محمد بن إسماعيل جذوره في أرضهم الطيبة، فأخرجت شطأها في عهد المعتضد، ثم استغلظ فاستوى يانعاً مثمراً في عهد أمير الشعراء المعتمد وأبنائه الذين كانوا كلّهم شعراء.

كما أن شعراء البيت الواحد كانوا يتفاوتون فيما بينهم في مقدرتهم الشعرية، فقد كان على سبيل المثال رفيع الدولة بن المعتصم بن صمادح أشعر أهل بيته، وكان المتوكل بن الأفطس أديب ملوك عصره. كما أن شعر البيوتات لم يقتصر

على الرجال دون النساء فقد برز عدد من الشواعر بين أفراد البيوتات الشعرية، كان من أشهرهن أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح، وقسمونة بنت إسماعيل بن النغرلة، وبثينة بنت المعتمد بن عباد، فضلاً عن أن انتشار الشعر بين أفراد الأسرة الواحدة لم يقتصر على البيوتات العربية والإسلامية، بل تجاوز ذلك ليشمل البيوتات اليهودية التي اشتهر من بينها بنو النغرلة في غرناطة.

ثالثاً: أنّ غالبية موضوعات الشعر كانت القاسم المشترك بين الشعراء من أبناء البيوتات على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية الخاصة والعامة، فقد نظم الملوك والأمراء الشعراء في الأغراض التي قال فيها الشعراء من بيوتات العامة، من غزل ووصف وفخر وهجاء واستعطاف ومراسلات شعرية وغيرها، غير أنّ الشعراء الملوك والأمراء لم ينشدوا الشعر مادحين أو متكسبين، ومن أجل ذلك قلَّ شعر المديح عندهم، في حين كان من أكثر الموضوعات التي نظم فيها الشعراء الآخرون، وكانت أشعار التغزّل واللهو والمجون والخمرة وغيرها ممّا يتصل بالتظرُّف والتفكُّه من الموضوعات الأكثر شيوعاً عند الشعراء من البيوتات الحاكمة، وذلك لطبيعة حياتهم واختلاف ظروفهم القائمة على الترف ورغد العيش، كما كان الفخر بالشجاعة والفروسية والبلاء في الحرب والكرم والجود غرضاً شائعاً بين الشعراء الملوك والأمراء وخاصة بني عباد وبني صمادح، بينما كان أبناء البيوتات العامة يفتخرون بشعرهم ومهارتهم الفنية وأخلاقهم الرفيعة.

رابعاً: أن أغلب ما انتهى إلينا من نصوص أشعار البيوتات كان على شكل مقطعات شعرية، وأن أقلّه جاء على شكل قصائد طوال، وقد التزموا فيها بالبناء التقليدي للقصيدة ، من حيث الابتداء بمقدمات مختلفة طللية أو خمرية أو غزلية أو وصفية، أو بمقدمات تقوم على ثنائية المضمون غزلية– وصفية أو خمرية– غزلية، وغيرها، وقد افتتحوا بعض قصائدهم الطوال بمقدمات تحمل ملامح البيئة الأندلسية.

وقد استوعب شعراء البيوتات الأندلسية كما استوعب غيرهم من شعراء الأندلس المعاني الشعرية المشرقية، وأضافوا إليها مما أملته عليهم طبيعتهم وظروف بيئتهم ومجتمعهم، كما نجحوا في المواءمة بين متطلبات المعنى وجماليات التعبير في أشعارهم.

كما نجح شعراء البيوتات في توظيف مقروءاتهم الثقافية المتنوعة الجوانب في تشكيل نسيجهم الشعري وإثراء معانيه والارتقاء بأسلوبه.

المراجع

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ/1259م)، 1955م، **التكملة لكتاب الصلة**، نشره وصححه ووقف على طبعه عزّت العطّار الحسيني، مطبعة السعادة، مصر.

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ/1259م)، 1985م، **الحُلَّةَ السَّيراء**، تحقيق حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة.

الأصفهاني، العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد(597هـ/1200م)، (د.ت)، **خريدة القصر وجريدة العصر(قسم الأندلس)**، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة-القاهرة.

بالنثيا، آنخل جنثالث، 1955م، **تاريخ الفكر الأندلسي**، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت542هـ/1147م)، 1979م، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (4ق،8م).

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك(ت578هـ/1182م)، **كتاب الصلة**، 1989م، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

بكّار، يوسف حسين، 1982م، **بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث**، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

بهجت، منجد مصطفى، 1986م، **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين**، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

بهنام، هدى شوكت، 2000م، **مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي (دراسة موضوعية فنية)**، ط1، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

بوتشيش، إبراهيم القادري، 1993م، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع، الذهنيات، الأولياء)**، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر.

بيريس، هنري، 1988م، **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف (ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية)**، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط1، دار المعارف، القاهرة.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت429هـ/1037م)، 1960م، **لطائف المعارف**، تحقيق الأبياري والصيرفي، القاهرة.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت429هـ/1037م)، 1983م، **يتيمة الدهر**، تحقيق مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد (ت456هـ/1063م)، 1980م، رسالة في الردّ على ابن النغريلة، **رسائل ابن حزم(ج3)**، تحقيق إحسان عباس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد (ت456هـ/1063م)، 1980م، رسالة "طوق الحمامة في الألفة والألاّف"، **رسائل ابن حزم (ج1)**، تحقيق إحسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي(ت626هـ/1228م)، 1979م، **معجمُ البلدانِ**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي(ت626هـ/1228م)، 1993م، **معجم الأدباء" إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"**، تحقيق د.إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الحُميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر(ت488هـ/1095م)، 1983م، **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان(ت529هـ/1134م)، 1983م، **مطمح الأنفس ومسرح التأنُّس في مُلَحِ أهلِ الأندلُسِ**، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكه، ط1، دار عمَّار ومؤسسة الرسالة، بيروت.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان(ت529هـ/1134م)، 1989م، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء-الأردن.

ابن الخطيب، لسان الدين، أبو عبد الله محمد بن سعيد(ت 776هـ/1374م)، 1956 م، **كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق وتعليق إ.ليفي برفنسال، ط2، دار المكشوف، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، أبو عبد الله محمد بن سعيد(ت 776هـ/1374م)، 1973 -1977م، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق عبد الله محمد عنان، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت681هـ/1282م)، 1977م، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن الحسن(ت 633هـ/1235م)، 1997م، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، وآخرين، راجعه طه حسين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

ابن دراج القسطلي، أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي(ت421هـ/1030م)، 1961م، **الديوان**، حققه وعلق عليه وقدم له محمود علي مكي، ط1، منشورات المكتب الإسلامي، بدمشق.

الدقّاق، عمر، (د.ت)، **ملامح الشعر الأندلسي**، دار الشرق العربي، بيروت.

ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت 456هـ/1063م)، 1988م، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، حقّقه وفصّله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت.

الربيعي، أحمد حاجم، 2001م، **القصص القرآني في الشعر الأندلسي**، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

رحيم، مقداد، 1986م، **النوريَّات في الشعر الأندلسي**، ط1، دار عالم الكتب، بيروت.

الركابي، جودت، 1966م، **في الأدب الأندلسي**، ط2، دار المعارف، مصر.

الركابي، جودة، 1970م، **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، ط2، مكتبة أطلس، دمشق.

الزركلي، خير الدين، 1989م، **كتاب الأعلام قاموس ترجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمشرقيِّين**، ط8، دار العلم للملايين، بيروت.

الزعبي، أحمد، 2000م، **التناص نظرياً وتطبيقاً**، ط2، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان- الأردن.

ابن زيدون، أبو بكر أحمد بن عبد الله (ت 463هـ/1070م)، 1957م، **ديوانه ورسائله**، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، مكتبة نهضة مصر- بالفجالة.

ابن زيري، الأمير عبد الله، 1955، **مذكراته-المسمى "التبيان"**، نشر وتحقيق إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى(ت610هـ/1213م)، (د.ت)، **المُغرب في حلى المَغرب**، حققه وعلَّق عليه شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى(ت610هـ/1213م)، 1987م، **رايات المبرِّزين وغايات المميَّزين**، حقَّقه وعلق عليه محمد رضوان الداية، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ/1505م)، 1979م، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر.

ابن شرف القيرواني، أبو عبد الله محمد بن شرف (ت 460هـ/1067م)، (د.ت)، **الديوان**، تحقيق حسن ذكرى حسن، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

الشكعة، مصطفى، 1983م، **الأدب الأندلسي(موضوعاته وفنونه)**، ط5، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن شهيد الأندلسي، أبو عامر أحمد بن عبد الملك (ت 426هـ/1034م)، 1980م، **رسالة التوابع والزوابع**، صححها وحقق ما فيها وشرحها بطرس البستاني، دار صادر، بيروت.

ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن عبد الملك (ت 426هـ/1034م)، (د.ت)، **الديوان**، جمعه وحقّقه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت 599هـ/1202م)، 1967م، **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، دار الكتاب العربي.

ضيف، شوقي، (د.ت)، **ابن زيدون**، ط11، دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي، (د.ت)، **عصر الدول والإمارات (الأندلس)**، ط3، دار المعارف، مصر.

الطرابلسي، محمد الهادي، سنة 1972، "شعر ابن حزم"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع9، ص151-176.

ابن ظافر، علي الأزدي، 1970م، **بدائع البدائة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو-المصرية، القاهرة.

عباس، إحسان، 1996م، **تاريخ الأدب الأندلسي"عصر سيادة قرطبة"**، ط8، دار الثقافة، بيروت.

عباس، إحسان، 2001م، **تاريخ الأدب الأندلسي"عصر الطوائف والمرابطين"**، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع،عمان.

عبد الحميد، محمد بحر، "الأدب العبري في الأندلس"، سنة 1975-1978م، **حوليات كلية الآداب** بجامعة عين شمس، م15، ص121-137.

عتيق، عبد العزيز، 1976م، **الأدب العربي في الأندلس**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

ابن عذارى المراكشي، 1983، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب(ج1-ج3)**، تحقيق ومراجعة ج. س.كولان و إ.ليفي بروفنسال، (ج4)، تحقيق إحسان عباس، ط3، دار الثقافة، بيروت.

عليان، مصطفى عبد الرحيم، 1984م، **تيارات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري**، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فروخ، عمر، 1984م، **تاريخ الأدب العربي**، ط2، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن قتيبة، عبد الله محمد بن مسلم(ت 276هـ/ 889م)، 1977م، **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط3، دار التراث العربي، القاهرة.

قطامش، عبد المجيد، 1988م، **الأمثال العربية(دراسة تاريخية تحليلية)**، ط1، دار الفكر، دمشق.

القيسي، فايز عبد النبي فلاح، 1989م، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، ط1، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان.

القيسي، فايز، 2002م، **دراسات في الأدب الأندلسي**، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين-الإمارات العربية المتحدة.

الكتبي، محمد بن شاكر(ت 764هـ/1362م)، (د.ت)، **فواتُ الوفيَّات والذَّيلِ عليها**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي (ق 6هـ/12م)، (د.ت)، **إحكام صنعة الكلام**، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت.

الكيلاني، حلمي، 1998م، **ابن شرف القيرواني (حياته وأدبه)**، مؤسسة البلسم للنشر والتوزيع، عمان.

المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت 354هـ/965م)، (د.ت)، **الديوان**، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا، وآخرون، دار المعرفة، بيروت.

المجالي، جهاد شاهر، سنة 1999م، بيوتات الشعر عند العرب"دراسة في أسباب الاتصال الشعري"، **مؤتة للبحوث والدراسات**، م4، ع1، ص203-222.

محمود، نافع، 1990م، **اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري**، ط1، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.

المراكشي، عبد الواحد، 1994م، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عذب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع.

ابن المعتز، أبو العباس عبد الله (ت296هـ/908م)، 1978م، **الديوان**، دراسة وتحقيق يونس أحمد السامرائي، صنعة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية.

المعتضد، أبو عمرو عباد بن محمد(ت 461هـ/1068م)، سنة 1976م، الديوان، تحقيق محمد مجيد السعيد، **مجلة المورد العراقية**، م5، ع2، ص105-118.

المعتمد، أبو القاسم محمد بن عباد(ت 488هـ/1095م)، 1997م، **الديوان**، جمعه وحققه حامد عبد الحميد وأحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

المقّري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ/1631م)، 1988م، **نفح الطيب من غُصنِ الأندلس الرطيبِ**، حقّقهُ إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

منصور، حمدي، 2003م، **الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين**، ط1، دار الجوهرة، عمان.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري(ت711هـ/1311م)، (د.ت)، **معجم لسان العرب المحيط**، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت518هـ/1124م)، (د.ت)، **مجمع الأمثال**، حققه وفصله محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، لبنان.

أبو نواس، الحسن بن هانئ(ت199هـ/814م)، 1987م، **الديوان**، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، منشورات الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب العالمي، بيروت.

نوفل، سيد، 1978م، **شعر الطبيعة في الأدب العربي**، ط2، دار المعارف، القاهرة.

هيكل، أحمد، (د.ت)، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، ط13، دار المعارف، القاهرة.

والي، فاضل فتحي محمد، 1416هـ، **الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي**، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل.

اليوسي، الحسن، 1981م، **زَهرِ الأكم في الأمثال والحِكم**، حقّقه محمد حجي ومحمد الأخضر، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء.